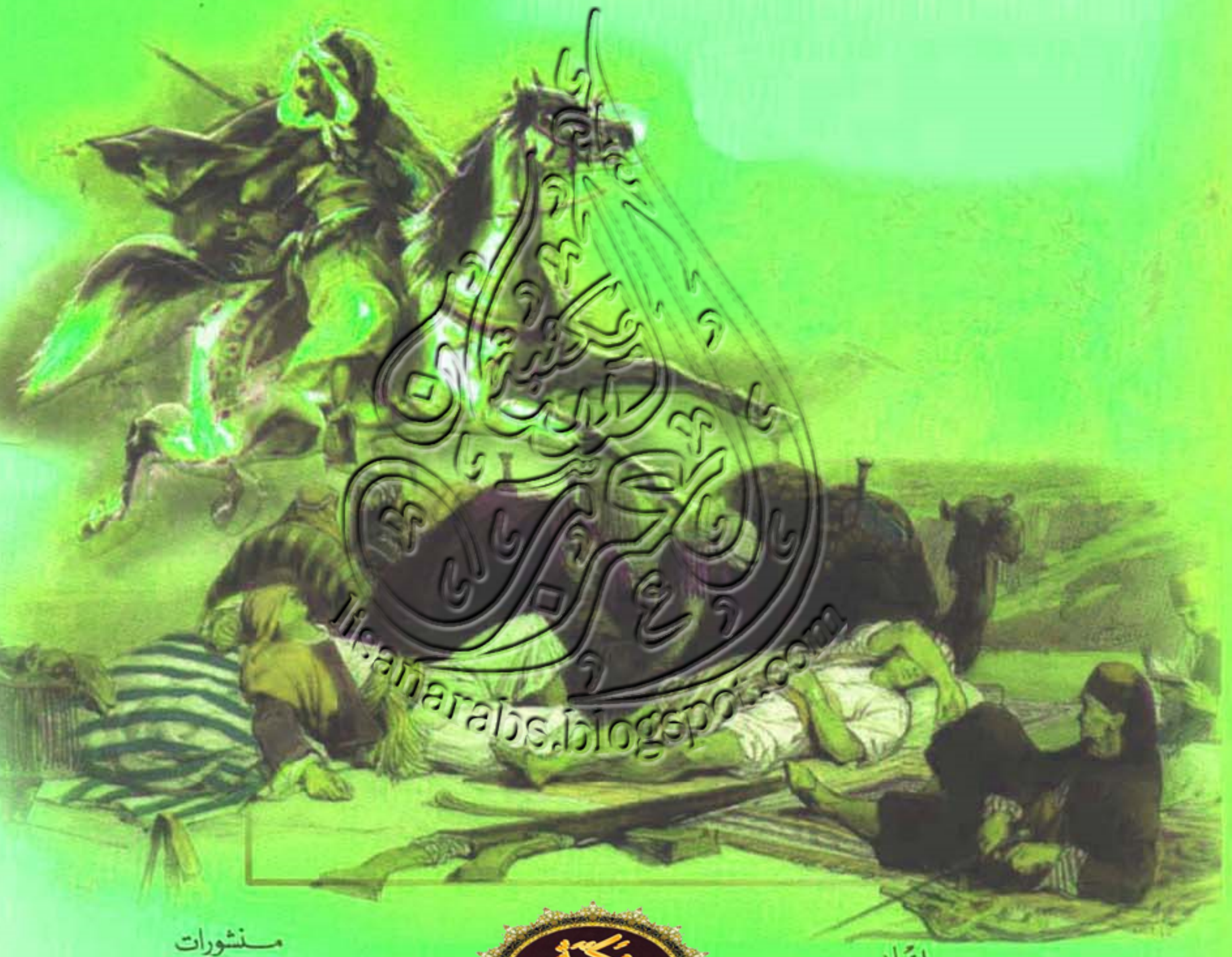
قصص العرب

موسوعة تراثية جامعة لقصص ونوادر وطرائف العرب في العصرين الجاهلي والإسلامي



إعداد
إبراهيم شمس الدين

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P.: 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3423-X
90000>
9782745134233

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

عنوان هذا الكتاب «قصص العرب» يوحي بأنه لا يرتكز إلى موضوع واحد وفكرة محددة، إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة أنه كتاب مشتّت الأفكار والموضوعات، فاقِد الصِّلات والحلقات، لا يهدف إلى غاية معينة.

فالقصة والأثر الأدبي هي أقدر الأساليب الأدبية على تنمية الفضائل الإنسانية في النفوس، وتمثيل الأخلاق وتصوير العادات والتقاليد، ورسم خلجات النفوس، كما أنها إذا شَرُف غرضها، ونَبُل مقصدها، وكَرُمت غايتها، تهذِّب الطِّباع، وترقِّق القلوب، وتدفع الناس إلى الاقتداء بالمُثُل العليا، من الإيمان والواجب والحق والتضحية والكرم والشرف والإيثار.

بالإضافة إلى ذلك فإننا إذا أردنا أن نكوِّن فكرة ما عن أي مجتمع من حيث عاداته وتقاليده وقيمه الإنسانية والاجتماعية والثقافية وحتى الاقتصادية منها، فلا بد من الاطِّلاع على آدابه وفنونه وثقافته الشعبية وأمثاله وشعره وبالأخص على قصصه.

لقد حصرنا مادة هذا الكتاب في المأثور التراثي العربي بهدف إلقاء نظرة على الخلفية الثقافية والمفهومية لمختلف جوانبِ المجتمع العربي القديم وفي سبيل هذه الغاية حرصنا على أخذ مادة الكتاب من كتب التراث المعتَبَرة والمصادر الموثوقة.

وهذا لا يعني أن كل قول أو قصة أو طُرفة مذكورة إنما هي موثوقة من حيث حدوثها وحصولها، ولكن قيمتها تنبع من كونها مأخوذة من صُلب التراث وليس من حواشيه أو إضافاته فكثير مما تطالعنا به كتب التراث موضوع أو مُختَلَق أو منسوب نسبة غير حقيقية، غير أن هذا الأمر لا ينفي عنه قيمته الثقافية

والاجتماعية من حيث دلالته على مفاهيم عامة سائدة أو مقبولة في المناخ الثقافي العام.

فنحن عندما نقرأ مثلًا قولًا منسوبًا لعليّ بن أبي طالب في المرأة وهو؛ «المرأة شرٌّ كلها، وشرّ ما فيها أنه لا بد منها» قد نشكّك في صحة نسبة هذا القول، استنادًا إلى ما نعرفه عن عليّ من علوّ همة ومن انسجام كامل مع أعماق المفاهيم الإسلامية. غير أن هذا التشكيك لا ينفي عن هذا القول بحدّ ذاته قيمته الدلالية، لأنه قول أُخذ به من قِبَل الكثيرين ورُوِيَ بأشكال متفاوتة متقاربة المعنى منسوبة إلى غير قائل، وبالتالي فإنه عبّر عن مفهوم مقبول ومعمول به في المناخ الثقافي السائد عبر مراحل تاريخية طويلة، ومن هنا فإن القيمة التوثيقية للقول تتراجع لتتقدم عليها القيمة الدلالية الثقافية التاريخية.

وذات يوم شكّك الدكتور طه حسين بصحة نسبة الشعر الجاهلي وقال بأن الرواة اختلقوا أكثره ووضعوه وضعًا على لسان شعراء جاهليين بعضهم نشك بصحة وجوده كشاعر، ولو سلّمنا جدلًا بهذا الرأي فإننا لا نستطيع أن ننفي عما رُوِيَ من الشعر منسوبًا إلى الجاهليين قيمته من حيث دلالته على روح وثقافة ولغة الجاهلية. فإذا كان حمّاد الراوية من المقدرة والتمكّن والمعرفة بحيث وضع شعرًا لا نستطيع تمييزه عن الشعر الجاهلي الحقيقي، فإن ذلك معناه أن ما وضعه حمّاد يصح الأخذ به من حيث تعبيره عن روح الشعر الجاهلي.

وبعد فقد اعتمدنا في مادة هذا الكتاب على مصادر أساسية في التراث العربي، مثل: الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والمستطرف للأبشيهي، وذمّ الهوى، وأخبار النساء، وأخبار الأذكياء، وأخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، ويتيمة الدهر للثعالبي، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، وأدب الدنيا والدين للماوردي، وأسواق العرب لسعيد الأفغاني، والأصنام لابن الكلبي، وأمالي أبي علي القالي، والبداية والنهاية لابن كثير، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للألوسي، وتاريخ الطبري، وخزانة الأدب للبغدادي، وكتاب البخلاء، والبيان والتبيين، وكتاب الحيوان للجاحظ، والسيرة النبوية لابن هشام، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، والفرج بعد الشدة للتنوخي، والكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري، ومجمع الأمثال للميداني، ونفح الطيب للمقري

التلمساني، والوزراء والكتّاب للجهشياري، وغير ذلك من كتب التراث ودواوين الشعر وكتب الأمثال والنوادر والطرائف.

وقد رتبنا مادة هذا الكتاب في أبواب مختلفة، يحتوي كل باب على موضوع أساسي، وهذه الأبواب هي:

الباب الأول: قصص محاسن الأخلاق (التوكل والرضا والقناعة والعدل والإحسان ومحاسن الأخلاق والعفو والحلم والصفح وكظم الغيظ الاعتذار وقبول المعذرة والوفاء بالوعد وحفظ العهد والصدق والصادقين وشكوى الزمان وانقلابه والصبر على المكاره والتأسّي في الشدّة والتسلّي عن نوائب الدهر والفرج بعد الشدة).

الباب الثاني: قصص مساوىء الأخلاق (الظُّلم والظَّلَمَة، والأشرار والفجار، والغدر والخيانة، والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد والرياء والرشوة والكذب والحرص والطمع وطول الأمل).

الباب الثالث: قصص الكرم والكرماء، والبخل والبخلاء، والغنى والأغنياء، والفقر والفقراء، والطعام وآدابه، والضيافة وآداب المضيف، والطفيليين.

الباب الرابع: قصص العقلاء والأذكياء، والحمقى والمغفلين.

الباب الخامس: قصص الملوك والخلفاء والوزراء، والحجاب والولاة والقضاة والقصاص والعبيد والإماء والخدم.

الباب السادس: قصص الفصحاء والبلغاء والخطب والخطباء والوصايا الحسنة والموعظة المستحسنة والشعر والشعراء وسرقاتهم والكتابة والكتاب.

الباب السابع: قصص الحيل والخداع واليقظة والتبصر في الأمور.

الباب الثامن: قصص المغنين والمغنيات.

الباب التاسع: قصص نساء العرب.

الباب العاشر: قصص العرب في الجاهلية وأوابدهم والكهانة والقيافة، والزجر، والعرافة، والفأل، والطيرة والفراسة، والأساطير.

الباب الحادي عشر: قصص الجن والشياطين.

الباب الثاني عشر: قصص شجعان العرب وفرسانهم.

الباب الثالث عشر: قصص الفخر والمفاخرة.

الباب الرابع عشر: قصص عشاق العرب.

الباب الخامس عشر: قصص الأمثال العربية.

الباب السادس عشر: الأجوبة المسكتة.

ونلفت القارىء الكريم إلى أن هناك بعض القصص تتكرر في أكثر من باب، كأن يكون للقصة أكثر من مدلول ومغزّى، فقد تكون القصة تُحكى عن أحد شجعان العرب، وتكون في الوقت نفسه قصة مثل مأثور، أو تكون قصة أحد الكرماء والأسخياء، وتكون في الوقت نفسه قصة أحد الملوك أو الوزراء، أو تكون قصة من أساطير العرب، وتكون في الوقت نفسه قصة من قصص أذكياء العرب أو نساء العرب.

وأخيرًا نرجو أن يكون عملنا هذا خالصًا لوجهه تعالى، ولله الكمال وحده، وهو وليُّ التوفيق.

إبراهيم شمس الدين

الباب الأول

قصص محاسن الأخلاق

التوكّل

الرّضا والقناعة

العدل والإحسان

محاسن الأخلاق

العفو والحلم والصّفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة

الوفاء بالوعد وحفظ العهد

الصدق والصادقون

شكوى الزمان وانقلابه

الصبر على المكاره

التأسّي في الشدّة والتسلّي عن نوائب الدهر

الفرج بعد الشدّة

في التوكّل على الله تعالى

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفُرقان: الآية ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفَال: الآية ٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق: الآية ٣]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «يدخل الجنّة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير». رواه مسلم. قيل: معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصًا وتعود بطانًا»، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود مَن دعاني أجبته، ومَن استغاثني أغثته، ومَن استنصرني نصرته، ومَن توكَّل عليَّ كفيته، فأنا كافي المتوكلين وناصر المستنصرين، وغياث المستغيثين، ومجيب الداعين.

الرشيد وعبد راقص

حُكِيَ أنه كان في زمن هارون الرشيد قد حصل للناس غلاء سعر، وضيق حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتدادًا عظيمًا، فأمر الخليفة هارون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء، وأمر بكسر آلات الطرب، ففي بعض الأيام رؤي عبد يصفق ويرقص ويغني، فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس، فقال: إن سيدي عنده خزانة بر، وأنا متوكل عليه أن يطعمني منها، فلهذا أنا إذًا لا أبالي فأنا أرقص وأفرح، فعند ذلك قال الخليفة: إذا كان هذا قد

(١) المستطرف ص ٧٤.

توكل على مخلوق مثله، فالتوكل على الله أولى، فسلم للناس أحوالهم، وأمرهم بالتوكّل على الله تعالى.

حاتم الأصم وابنته

حُكِيَ أن حاتمًا الأصم كان رجلًا كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم، فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده، فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربّه في هذا العام حاجًا، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئًا ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء، فإنه مناول للرزق، وليس برزاق، فذكرتهم ذلك، فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت.

فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافرًا، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكت ما تكلمنا. فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء، وقالت: إلٰهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم، ولا تخجلني معهم، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيدًا، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فاجتاز ببيت الرجل الصالح حاتم الأصم، فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: مَن أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلٰهي وسيّدي سبحانك البارحة بتنا جياعًا، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا، ثم إنها أخذت كوزًا جديدًا وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم.

فقال الأمير: لقد سمعت به، فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئًا، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعًا،

فقال الأمير: ونحن أيضًا قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: مَن أحبني، فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم انصرفوا، فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق، فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالًا جزيلًا واستردها منهم.

فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديدًا، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن تفرحي، فإن الله قد وسع علينا، فقالت: يا أم. والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعًا، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين، اللهمّ انظر إلى أبينا، ودبره بأحسن التدبير، هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم، فإنه لما خرج محرمًا ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طبيبًا، فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح، فدل على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب، فنام تلك الليلة مفكرًا في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجّه ورجع تلقته أولاده، فعانق الصبية الصغيرة وبكى، ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فإنه مَن توكل على الله فهو حسبه.

من كلام الحكماء

من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة، ومن أعلم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع، ومن علم أن مولاه خير له من العبادة، فقصده كفاه همه وجمع شمله، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت عند النبيّ ﷺ يومًا فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفعك بشيء لم ينفعوك إلا

بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن تضرك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الصحف وجفت الأقلام».

الرشيد والأموي

رُفِعَ إلى الرشيد أن بدمشق رجلًا من بني أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند، يخشى على المملكة منه، وكان الرشيد يومئذٍ بالكوفة، قال منارة خادم الرشيد: فاستدعاني الرشيد وقال: اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام وائتني بفلان الأموي، وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك. فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه وما يتكلم به، واذكر لي حاله ومآله، وقد أجلتك لذهابك ستًا، ولمجيئك ستًا، ولإقامتك يومًا، أفهمت؟ قلت: نعم. قال: فسر على بركة الله.

فخرجت أطوي المنازل ليلًا ونهارًا لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق، فلما فتح الباب دخلت قاصدًا نحو دار ألأموي، فإذا هي دار عظيمة هائلة، ونعمة طائلة، وخدم وحشم، وهيبة ظاهرة، وحشمة وافرة، ومصاطب متسعة، وغلمان فيها جلوس، فهجمت على الدار بغير إذن، فبهتوا وسألوا عني، فقيل لهم: إن هذا رسول أمير المؤمنين، فلما صرت في وسط الدار رأيت أقوامًا محتشمين، فظننت أن المطلوب فيهم، فسألت عنه، فقيل لي: هو في الحمام، فأكرموني، وأجلسوني، وأمروا بمن معي ومن صحبني إلى مكان آخر، وأنا أتفقد الدار، وأتأمل الأحوال، حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان، فسلم عليَّ وسألني عن أمير المؤمنين، فأخبرته وأنه بعافية، فحمد الله تعالى، ثم أُحضرت له أطباق الفاكهة فقال: تقدم يا منارة كُل معنا، فتأملت تأملًا كثيرًا إذ لم يمكنني، فقلت: ما آكل، فلم يعاودني، ورأيت ما لم أره إلا في دار الخلافة، ثم قدم الطعام، فوالله ما رأيت أحسن ترتيبًا، ولا أعظر رائحة، ولا أكثر آنية منه، فقال: تقدم يا منارة، فكُلْ. قلت: ليس لي به حاجة، فلم يعاودني ونظرت إلى أصحابي فلم أجد أحدًا منهم عندي، فحرت لكثرة حفدته، وعدم من عندي.

فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر، ثم قام فصلّى الظهر، فأتم الركوع والسجود، وأكثر من الركوع بعدها، فلما فرغ استقبلني وقال: ما أقدمك يا منارة؟

فناولته كتاب أمير المؤمنين، فقبله ووضعه على رأسه، ثم فضَّه وقرأه، فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله، فضاقت الدار بهم على سعتها، فطار عقلي، وما شككت أنه يريد القبض عليّ، فقال: الطلاق يلزمه الحج والعتق والصدقة، وسائر إيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى ينكشف أمره، ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلني وقدم رجليه وقال: هات يا منارة قيودك، فدعوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع في المحمل وركبت معه في المحمل، وسرنا.

فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدأ يحدثني بانبساط ويقول: هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا، وهذا البستان لي وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا، وهذه المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا، فقلت: يا هذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك، وأنت ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه، وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيدًا فريدًا، وأنت تحدثني حديثًا غير مفيد ولا نافع لك ولا سألتك عنه، وكان شغلك بنفسك أولى بك، فقال: إنا لله وإنّا إليه راجعون، لقد أخطأت فراستي فيك يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة إلا لوفور عقلك، فإذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء، أما خروجي على ما ذكرت فإني على ثقة من ربي الذي بيده ناصيتي[1] وناصية أمير المؤمنين، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى، فإن كان قد قضي علي بأمر فلا حيلة لي بدفعه ولا قدرة لي على منعه، وإن لم يكن قد قدر علي بشيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر مَن على وجه الأرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى، وما لي ذنب فأخاف، وإنما هذا واشٍ وشى عند أمير المؤمنين ببهتان[2]، وأمير المؤمنين كامل العقل، فإذا اطلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي، وعليّ عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جوابًا. ثم أعرض عني وأقبل على التلاوة.

وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر، وإذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا، فلما دخلت على الرشيد

(١) الناصية: مقدم الرأس.
(٢) البهتان: الكذب والافتراء.

قبّلت الأرض، فقال: هات يا منارة أخبرني من يوم خروجك عني إلى يوم قدومك عليَّ، فابتدأت أحدثه بأموري كلها مفصلة والغضب يظهر في وجهه، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه، وخواصه وضيق الدار بهم، وتفقدي لأصحابي، فلم أجد منهم أحدًا اسودَّ وجهه، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الإيمان المغلظة تهلل وجهه، فلما قلت إنه قدم رجليه أسفر وجهه واستبشر، فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وبساتينه وما قلت له، وما قال لي هذا رجل محسود على نعمته، ومكذوب عليه، وقد أزعجناه وأرعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله.

اخرج إليه، وانزع قيوده، وفكه وأدخله عليَّ مكرمًا، ففعلت، فلما دخل قبّل الأرض، فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه، واعتذر إليه، فتكلم بكلام صحيح، فقال له أمير المؤمنين: سل حوائجك، فقال: سرعة رجوعي إلى بلدي وجمع شملي بأهلي وولدي قال: هذا كائن، فسل غيره؟ قال: عدل أمير المؤمنين في عماله ما أحوجني إلى سؤال. قال: فخلع عليه أمير المؤمنين، ثم قال: يا منارة اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذي أخذته منه، قم في حفظ الله وودائعه ورعايته ولا تقطع أخبارك هنا وحوائجك، فانظر حسن توكله على خالقه، فإنه مَن توكل عليه كفاه ومَن دعاه لباه، ومَن سأله أعطاه ما تمناه.

كلمات من التوراة

رُوِيَ أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة في التوراة فكتبها وهي: يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقيًا، وسلطاني لا ينفد أبدًا، يا ابن آدم لا تخشى من ضيق الرزق ما دامت خزائني ملآنة، وخزائني لا تنفد أبدًا، يا ابن آدم لا تأنس بغيري، وأنا لك، فإن طلبتني وجدتني، وإن أنست بغيرك فتك وفاتك الخير كله، يا ابن آدم خلقتك لعبادتي، فلا تلعب، وقسمت رزقك فلا تتعب، وفي أكثر منه فلا تطمع، ومن أقل منه فلا تجزع، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك، وكنت عندي محمودًا، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البر ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندي مذمومًا، يا ابن آدم خلقت السمٰوات السبع والأرضين السبع، ولم أعي بخلقهم أيعينني رغيف أسوقه لك من

غير تعب، يا ابن آدم أنا لك محب، فبحقي عليك كن لي محبًا، يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد كما لا أطالبك بعمل غد، فإني لم أنس مَن عصاني، فكيف مَن أطاعني وأنا على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط.

قال الشاعر:

وما ثـمَّ إلّا الله فـي كـلِّ حـالـةٍ فلا تتكل يومًا على غير لطفهِ
فكم حالةٍ تأتي ويكرهُها الفتى وخيرته فيها على رغم أنفه

في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

قال في المستطرف[1]: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: الآية ٩٧]. أن المراد بها القناعة. وقال ﷺ: «القناعة مال لا ينفذ». وقيل: يا رسول الله ما القناعة؟ قال: «لا بأس مما في أيدي الناس وإيّاكم والطمع فإنه الفقر الحاضر». وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه من القناعة بالجانب الأوفر، وأنه كان يشتهي الشيء فيدافعه سنة، قال الكندي[2]:

العبد حرٌ ما قنعْ والحرّ عبدٌ ما طمعْ

قال بشر بن الحرث: خرج فتى في طلب الرزق، فبينما هو يمشي فأعيا، فآوى إلى خراب يستريح فيه، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط، فتأملها فإذا هي:

إني رأيتك قاعدًا مستقبلي فعلمتُ أنك للهموم قرينُ
هوِّن عليك وكن بربِّك واثقًا فأخو التوكّل شأنه التهوينُ
طرح الأذى عن نفسه في رزقه لمّا تيقّن أنّهُ مضمونُ

قال: فرجع الفتى إلى بيته، ولزم التوكل وقال: اللهمَّ أدبنا أنت.

---

(١) المستطرف ص ٧٦.

(٢) الكندي: هو يعقوب بن إسحٰق بن الصباح، أبو يوسف فيلسوف العرب والإسلام في عصره نشأ في البصرة وانتقل إلى بغداد، فاشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك وألّف وترجم كتبًا عديدة له مؤلفات كثيرة في الفنون التي اشتهر بها «ولم يكن في الإسلام غيره احتذى في تواليفه حذو أرسطاطاليس» توفي حوالي سنة ٢٦٠ هـ.

قال الجاحظ: إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم في مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة وفي ذلك بطلان المصالح، وذهاب المعايش، فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيرًا أو خلفًا قال: ويلك يا حجام[١] والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك، فجعل الله تعالى الاختلاف سببًا للائتلاف، فسبحانه من مدبر قادر حكيم، ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف كلبه معه في بيته لباسه شملة من وبر أو شعر، ودواؤه بعر الإبل وطيبه القطران وبعر الظباء، وحلي زوجته الودع، وثماره المقل، وصيده اليربوع وهو في مفازة[٢] لا يسمع فيها إلا صوت بومة، وعواء ذئب وهو قانع بذلك مفتخر به.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: يا بني إذا طلبت الغنى، فاطلبه في القناعة، فإنها مال لا ينفذ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك لم تيأس من شيء إلا أغناك الله عنه.

وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة، فجاءه حماد بن أبي حنيفة رضي الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه وقال: هي من مال رجل ما أقدم عليه أحد في زهده وورعه وطيب كسبه، فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئًا لقبلتها تعظيمًا للميت، وإكرامًا للحي، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة.

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية، واشربوا من الماء القراح، واخرجوا من الدنيا بسلام.

وأنشد المبرد:

إنْ ضنّ زيدٌ بما في بطن راحتهِ … فالأرضُ واسعة والرزق مبسوطُ[٣]
إنَّ الذي قدَّر الأشيا بحكمتِهِ … لم ينسني قاعدًا والرحلُ محطوطُ

(١) حجام: الذي يقوم بمنهة الحجامة وهي إخراج بعض الدم من الجسد.
(٢) مفازة: الأرض التي تكثر فيها الهلكة (الوعرة).
(٣) ضن: شحّ وبخل.

قال عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئًا من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا وهو رأس المحبة، قيل له: متى يكون العبد راضيًا عن ربّه؟ قال: إذا سرّته المصيبة كما تسرّه النعمة، وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدي، فسكر يومًا ففاتته الصلاة جاءته جارية له بجمرة، فوضعتها على رجله، فانتبه مذعورًا فقالت له: إذا لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة. فقام فصلى الصلوات، وتصدق بما يملكه وذهب يبيع البقل، فدخل عليه فضيل وابن عيينة، فإذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شيء، فقالا له: إنه لم يدع أحد شيئًا إلا عوّضه الله منه بديلًا، فما عوّضك عمّا تركت له؟ قال: الرّضا بما أنا فيه.

وقال الثوري: ما وضع أحد يده في قصعة غيره إلا ذلّ له، وقال الفضيل: مَن رضي بما قسم الله له بارك الله له فيه، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الشمس في الشتاء جلالي، ونور القمر سراجي، وبقل البرية فاكهتي، وشعر الغنم لباسي، أبيت حيث يدركني الليل ليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرب، أنا الذي كببت الدنيا على وجهها.

بيت مفرد:

إنَّ القناعة من يحللْ بساحتها ... لم يلقَ في ظلِّها همًّا يُؤرِّقهُ(١)

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: انظروا إلى الطير تغدو وتروح ليس معها شيء من أرزاقها، لا تحرث، ولا تحصد، والله يرزقها، فإن زعمتم أنكم أكبر بطونًا من الطير، فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها.

عروة بن أذينة وهشام بن عبد الملك

وقيل: وفد عروة بن أُذينة على هشام بن عبد الملك، فشكا إليه خلته، فقال له القائل:

لقد علمْتَ وما الإسرافَ من خلقي ... أنَّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعييني تطلّبه ... ولو قعدت أتاني ليس يعييني

(١) يؤرقه: يقلقه ويمنع عنه الراحة والنوم.

وقد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق فقال: يا أمير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت، وخرج، فركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعًا، فلما كان من الليل نام هشام على فراشه، فذكر عروة، فقال في نفسه رجل قريش قال حكمة ووفد علي، فجبهته ورددته خائبًا، فلما أصبح وجه إليه بألفي دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة، وأعطاه المال، فقال: أبلغ أمير المؤمنين مني السلام وقل له: كيف رأيت قولي سعيت، فأكديت، فرجعت، فأتاني رزقي في منزلي.

عبد الله بن عامر والثقفي

ولما ولي عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له أنصاري وثقفي، فلما سارا تخلف الأنصاري وقال: الذي أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطيني، فوفد الثقفي وقال: أحوز الحظين، فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له: ما فعل زميلك الأنصاري؟ قال: رجع إلى أهله، فأمر للثقفي بأربعة آلاف دينار، فخرج الثقفي وهو يقول:

فوالله ما حرْصُ الحريص بنافع ... فيغنني ولا زهد القنوع بضائر
خرجنا جميعًا من مساقط روسنًا ... على ثقةٍ منا بجود ابن عامر
فلما أنخنا الناجعات ببابه ... تخلف عني اليثربيّ ابن جابر
وقال ستكفيني عطية قادرٍ ... على ما يشاء اليوم للخلق قاهر
فإن الذي أعطى العراق ابن عامر ... لرَبِّي الذي أرجو لسدِّ مفاقري
فقلت خلا لي وجهه ولعله ... سيجعل لي حظَّ الفتى المتزاور
فلما رآني سال عنه صبابةً ... إليه كما حنت ظؤار الأباعر(١)
فأبْتُ وقد أيقنت أن ليس نافعًا ... ولا ضائرًا شيءٌ خلاف المقادر

قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه: أتدري لِمَ رزقت الأحمق؟ قال: لا يا رب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال.

ولبعض العرب:

ولا تجزع إذا أعسرت يومًا ... فقد أيسرت في الزمن الطويلِ

---

(١) ظؤار الأباعر: المرضعات من البهائم.

ولا تظننّ بربّك ظنّ سوءٍ ... فإنّ الله أولى بالجميلِ
وإنّ العسر يتبعه يسارٌ ... وقول الله أصدق كلّ قيلِ
فلو أن العقول تسوق رزقًا ... لكان المال عند ذوي العقولِ

وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام: انظر إلى الأرض فنظر إليها، فانفجرت، فرأى دودة على صخرة، ومعها الطعام، فقال له: أتراني لم أغفل عنها، وأغفل عنك، وأنت نبيّ وابن نبيّ.

عليّ بن أبي طالب وسارق اللجام

دخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفًا على باب المسجد: أمسك عليَّ بغلتي، فأخذ الرجل لجامها، ومضى وترك البغلة، فخرج علي وفي يده درهمان ليكافىء بها الرجل على إمساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى، ودفع لغلامه درهمين يشتري بهما لجامًا، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين فقال علي رضي الله عنه: إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد على ما قدر له.

وقال سليم بن المهاجر الجيلي:

كسوت جميل الصبر وجهي فصانه ... به الله عن غشيان كلِّ بخيل[1]
فما عشت لم آت البخيل ولم أقم ... على بابه يومًا مقام ذليل
وإنَّ قليلًا يستر الوجه أن يرى ... إلى الناس مبذولًا لغير قليلِ

أشعار في القناعة والرضا

وقال عمر بن أبي عمر اليوناني:

غلا السعر في بغداد من بعد رخصة ... وأنّي في الحالين بالله واثقُ
فلست أخاف الضيق والله واسعٌ ... غناه ولا الحرمان، والله رازق

وقال القهستاني:

غنيٌّ بلا دنيا عن الخلق كلّهم ... وأنّ الغنى الأعلى عن الشيء لا به

(١) غشيان: قصد.

وقال منصور الفقيه:

الموت أسهل عندي بين القنا والأسنة[1]
والخيل تجري سراعًا مقطَّعات الأعنّة[2]
من أن يكون لنذلٍ عليَّ فضلٌ ومنّه

وأنشد أعرابي:

أيا مالك لا تسأل الناس والتمسْ بكفّيك فضل الله فالله أوسع
ولو تسأل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملّوا ويمنعوا

وقال رجل لرسول الله ﷺ أوصني قال: عليك باليأس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وقيل: إذا وجدت الشيء في السوق، فلا تطلبه من صديقك، وقيل لأعرابية: من أين معاشكم؟ قالت: لو لم نعش إلا من حيث نعلم لم نعش. وقال أعرابي: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرك معها من فوقك.

وقال المعري:

إذا كنت تبغي العيش فابغ توسّطًا فعند التناهي يقصر المتطاولُ
توقّى البدور النقص وهي أهلّةٌ ويدركها النقصان وهي كواملُ

وقال آخر:

اقنع بأيسر رزق أنت نائله واحذر ولا تتعرض للإرادات
فما صفا البحر إلّا وهو مُنتَقِصٌ ولا تعكّر إلا في الزيادات

وقال أعرابي: استظهر على الدهر بخفة الظهر. قال هشام بن إبراهيم البصري:

وكم ملك جانبته عن كراهةٍ لإغلاق بابٍ أو لتشديد حاجبِ
ولي في غنى نفسي مرادٌ ومذهبٌ إذا انصرفت عنّي وجوه المذاهب

وقيل: ينبغي أن يكون المرء في دنياه كالمدعو إلى الوليمة إن أتته صحفة تناولها، وإن لم تأته لم يرصدها ولم يطلبها، وقال شقيق بن إبراهيم البلخيّ: قال

(١) القنا والأسنة: السيوف والرماح.
(٢) الأعنة: جمع عنان وهو ما تلجم به الدابة.

لي إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: أخبرني عما أنت عليه قلت: إن رزقت أكلت، وإن منعت صبرت. قال: هكذا تعمل كلاب بلخ؟ فقلت: كيف تعمل أنت؟ قال: إن رزقت آثرت، وإن منعت شكرت، وقال بعضهم:

هي القناعة فالزمها تعِشْ ملكًا   لو لم يكن منك إلا راحة البدنِ
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها   هل راح منها بغير القطن والكفن

وقال آخر:

وإنَّ القناعة كنز الغنى   فصرت بأذيالها ممتسكْ
فلا ذا يراني على بابه   ولا ذا يراني له منهمكْ
فصرت غنيًّا بلا درهمٍ   أمرّ على الناس شبه الملكْ

جاء فتح الموصلي إلى أهله بعد العتمة، فلم يجد عندهم شيئًا للعشاء ووجدهم بغير سراج، فجلس ليلته يبكي من الفرح ويقول: بأي يد كانت مني تركت مثل على هذه الحالة.

في العدل والإحسان والإنصاف

قال في المستطرف[1]: اعلم أرشدك الله أن الله تعالى أمر بالعدل، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الإحسان وهو فوق العدل فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النّحل: الآية ٩٠]. فلو وسع الخلائق والعدل ما قرن الله به الإحسان. والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي والمُحقّ من المُبطِل. واعلم أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه، وأفضل ازمنة ثوابًا أيام العدل.

من أقوال رسول الله ﷺ

وروينا من طريق أبي نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لعمل الإمام العادل في رعيته يومًا واحدًا أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عامًا». ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة». وروينا في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء».

عدل عمر بن الخطاب

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لكعب الأحبار: أخبرني عن جنّة عدن، قال يا أمير المؤمنين: لا يسكنها إلا نبيّ أو صديق أو شهيد أو إمام عادل،

---

(١) المستطرف: ص ١١٣ ـ ١١٥.

فقال عمر: والله ما أنا نبيّ، وقد صدقت رسول الله ﷺ وأما الإمام العادل، فإني أرجو أن لا أجور، وأما الشهادة فأنّى لي بها. قال الحسن: فجعله الله صديقًا شهيدًا حكمًا عدلًا.

عدل الإسكندر

سأل الإسكندر حكماء أهل بابل: أيما أبلغ عندكم، الشجاعة أو العدل؟ قالوا: إذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة. ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان. وقيل: إذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته.

عدل عمر بن عبد العزيز

كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته ويسأله مالًا يرمها به، فكتب إليه عمر قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابي، فحصن مدينتك بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمتها والسلام. ويقال: إن الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف، فلم يزل يتناقص حتى صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف، فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ارتفع في السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف، وفي الثانية إلى ستين ألف ألف، وقيل: أكثر. وقال: إن عشت لأبلغنه إلى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فما في تلك السنة.

ومن كلام كسرى لا ملك إلا بالجند، ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولا بلاد إلا بالرعايا، ولا رعايا إلا بالعدل.

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور، فكتب المنصور لعامله استوف لأمير المؤمنين حقّه، وفرق ما بقي بين الغرماء، فلم يلتفت إلى كتابه، وضرب للمنصور بسهم من المال، كما ضرب لأحد الغرماء، ثم كتب للمنصور: إني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء، فكتب إليه المنصر: ملئت الأرض بك عدلًا.

أحمد بن طولون والعود المكسور

وكان أحمد بن طولون والي مصر متحليًا بالعدل مع تجبره وسفكه للدماء، وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم.

حُكِيَ أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطبح يومًا، فلقيها بعض صالحي مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره، فدخل العباس إليه وأخبره بذلك، فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح، فلما أحضر إليه قال: أنت الذي كسرت العود، قال: نعم. قال: فأفعلمت لمن هو؟ قال: نعم هو لابنك العباس، قال: أفما أكرمته لي، قال: أكرمه لك بمعصية الله عزّ وجلّ، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: الآية ٧١]. ورسول الله ﷺ يقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك، ثم قال: كل مُنكر رأيته فغيره وأنا من ورائك.

عبد الملك بن مروان واليهودي

وقف يهودي لعبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمني فانصفني منه وأذقني حلاوة العدل، فأعرض عنه، فوقف له ثانيًا، فلم يلتفت إليه، فوقف له مرة ثالثة، وقال: يا أمير المؤمنين إنا نجد في التوراة المنزلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه: إن الإمام لا يكون شريكًا في ظلم أحد حتى يرفع إليه فإذا رفع إليه ذلك ولم يزله، فقد شاركه في الظلم والجور. فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث في الحال إلى مَن ظلمه، فعزله وأخذ لليهودي حقه منه.

أنصفني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى

رُوِيَ أن رجلًا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له، فأتى إلى المنصور، فقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين أأذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلًا؟ فقال: بل اضرب المثل. فقال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظنًا منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلًا وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان، وقد نزلت بي نازلة، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى، فإن أنصفتني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى في الموسم، فإني متوجه إلي بيته وحرمه. فقال المنصور: بل ننصفك، وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه.

عدل الإسكندر

كان الإسكندر يقول: يا عباد الله إنما إلهكم الله الذي في السماء الذي نصر نوحًا بعد حين، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عند الكرب، والله لا يبلغني أن الله تعالى أحب شيئًا إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي، ولا أبغض شيئًا إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي، وقد أنبئت أن الله تعالى يحب العدل في عباده ويبغض الجور من بعضهم على بعض، فويل للظالم من سيفي وسوطي، ومَن ظهر منه العدل من عمالي، فليتكىء في مجلسي كيف شاء، وليتمنَّ عليّ ما شاء فلن تخطئه أمنيته، والله تعالى المجازي كلًا بعمله. ويقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان.

المأمون ووالي الكوفة

قيل: تظلّم أهل الكوفة من واليهم، فشكوه إلى المأمون، فقال: ما علمت في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين ما أحد أولى بالعدل والإنصاف منك، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلدًا بلدًا حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذي لحقنا ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا، وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين، فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم.

وددت لو أني رأيت يوم عدل ثم متّ

قدم المنصور البصرة قبل الخلافة، فنزل بواصل بن عطاء وقال: بلغني أبيات عن سليم بن يزيد العدوي في العدل، فقم بنا إليه، فأشرف عليهم من غرفة، فقال لواصل مَن هذا الذي معك؟ قال: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، فقال: رحب على رحب، وقرب على قرب، فقال: إنه يحب أن يسمع أبيات في العدل، فقال: سمعًا وطاعة، وأنشد يقول:

حتى متى لا نرى عدلًا نُسرّ به ... ولا نرى لوُلاة الحق أعوانا
مستمسكين بحقٍ قائمين به ... إذا تلوَّن أهل الجور ألوانا
يا للرجال لداءٍ لا دواءَ له ... وقائدٍ ذي عمًى يقتاد عميانا

فقال المنصور: وددت لو أني رأيت يوم عدل ثم مت.

عمر بن عبد العزيز وردّ المظالم

قيل: لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم، فابتدأ بأهل بيته، فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه، فقال لها: إن رسول الله ﷺ سلك طريقًا، فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ فلما قضي الأمر إلى معاوية جره يمينًا وشمالًا، وأيم الله لئن مدّ في عمري لأردنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ وأصحابه. فقالت له: يا ابن أخي إني أخاف عليك منهم يومًا عصيبًا، فقال كل يوم أخافه دون يوم القيامة، فلا أمننيه الله.

أقوال في العدل والإحسان

وقال وهب بن منبه: إذا همّ الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع والضروع[1] وكل شيء، وإذا همّ بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك.

قال الوليد بن هشام: إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن ملكًا من الملوك خرج يسير في مملكته متنكرًا، فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات، فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها، فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس، فقال له الملك: ما بال حلبها نقص أرعت في غير مرعاها بالأمس؟ فقال: لا ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خيرها فهمّ بأخذها، فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو همَّ بالظلم ذهبت البركة. فتاب الملك وعاهد ربّه في نفسه أن لا يأخذها ولا يحسد أحدًا من الرعية، فلما كان من الغد حلبت عادتها، ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وأن كل قصبة منها تعصر قدحًا، فعزم الملك على أخذها منها، ثم أتاها وسألها عن ذلك، فقالت: نعم، ثم إنها عصرت قصبة، فلم يخرج منها نصف قدح، فقال لها: أين الذي كان يقال؟ فقالت: هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني، فارتفعت البركة منها، فتاب الملك وأخلص لله النيّة وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبدًا، ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح.

---

(١) الضروع: جمع ضرع وهو الثدي في الماشية الحلوب.

النخلة العادلة

حكى أبو بكر الطرطوشي رحمه الله في كتابه «سراج الملوك» قال: حدَّثني بعض الشيوخ ممن كان يروي الأخبار بمصر قال: كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك، فغصبها السلطان، فلم تحمل شيئًا من ذلك العام، ولا تمرة واحدة، وقال لي شيخ من أشياخ الصعيد: أعرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهي تحمل عشرة أرادب وستين ويبة وكان صاحبها يبيعها في سني الغلاء كل ويبة بدينار.

السمك العادل

وحكى أيضًا رحمه الله تعالى قال: شهدت في الأسكندرية والصيد مطلق للرعية والسمك يطفو على الماء لكثرته، وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحر، ثم حجزه الوالي ومنع الناس من صيده، فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا، وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

الناس حسب ملوكهم يسألون

روى أصحاب التواريخ في كتبهم قالوا: كان الناس إذا أصبحوا في زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وما أشبه ذلك، وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الأشجار، ولما ولي سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح كان الناس يتحدثون ويتساءلون في الأطعمة الرفيعة ويتغالون في المناكح والسراري ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك، ولما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم وردك كل ليلة وكم يحفظ فلان وكم يختم وكم يصوم من الشهر وما أشبه ذلك، فينبغي للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضي الله عنهم ويقتدي بهم في الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبيّ مرسل أو ملك مقرب، وقد قيل: إن مثله كمثل الرياح التي يرسلها الله تعالى بشرًا بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحًا للثمرات وروحًا للعباد.

في محاسن الأخلاق

أخلاق رسول الله ﷺ

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القَلَم: الآية ٤]. فخص الله تعالى نبيّه ﷺ من كريم الطّباع ومحاسن الأخلاق، من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤته غيره، ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾. قالت عائشة رضي الله عنها: كان خُلُقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه، وكان الحسن رضي الله عنه إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: «أكرم ولد آدم على الله عزّ وجلّ أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله، أتى بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى»، وكان يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»، ولا يأكل متكئًا ولا على خوان، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل القثاء بالرطب ويقول: «برد هذا يطفىء حر هذا»، وكان أحب الطعام إليه اللحم، ويقول: «هذا يزيد في السمع، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل»، وكان يحب الدباء، ويقول: «يا عائشة إذا طبختم قدرًا، فأكثروا فيه من الدباء، فإنها تشد قلب الحزين»، وكان يقول: «إذا طبختم الدباء فأكثروا من مرقها»، وكان يكتحل بالإثمد[2] ولا يفارقه في سفره قارورة الدهن والكحل والمرآة والمشط والإبرة يخيط ثوبه بيده، وكان يضحك من غير قهقهة ويرى اللعب المباح ولا ينكره، وكان يسابق أهله.

---

(١) المستطرف: ص ١٢٦ ـ ١٢٩.

(٢) الإثمد: الكحل.

قالت عائشة رضي الله عنها: سابقته، فسبقته، فلما كثر لحمي سابقته فسبقني فضرب بكتفي وقال: هذه بتلك، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم في مأكل ولا مشرب ولا ملبس وهو أُمِّيّ لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجهل والصحارى يتيمًا لا أب له ولا أم، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، وكان أفصح الناس منطقًا وأحلاهم كلامًا، وكان يقول: «أنا أفصح العرب»، وقال أنس رضي الله عنه: والذي بعثه بالحق نبيًا ما قال لي في شيء قط كرهه لم فعلته ولا في شيء لم أفعله لم لا فعلته ولا لامني أحد من أهله إلا قال: دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر، وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى: لا مانع من أن النبيّ ﷺ إذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التي هي أعلى مرتبة من العبودية فالنبيّ ﷺ أعطاه الله تعالى مرتبة الملك مع كونه عبدًا له متواضعًا، فحاز المرتبتين مرتبة العبودية ومرتبة الملكية، ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويركب الحمار بلا إكاف ويردف خلفه، ويأكل الخشن من الطعام وما شبع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى من دعاء لباه، ومَن صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذي يرفعها، يعود المريض ويتبع الجنائز ويجالس الفقراء، أعظم الناس من الله مخافة وأتعبهم لله عزّ وجلّ بدنًا، وأجدهم في أمر الله لا تأخذه في الله لومة لائم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أما والله ما كانت تغلق من دونه الأبواب ولا كان دونه حجاب ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادمًا له، ولا ضرب بيده شيئًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون إثمًا أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه، وقال إبراهيم بن عباس: لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجحت، وهي قوله عليه الصلاة والسلام: «إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم». وفي رواية أخرى: «فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن».

وعنه ﷺ: «حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه»، والزمام بيد الملك، والملك يجره إلى الخير والخير يجره إلى الجنّة، وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه، والزمام بيد الشيطان، والشيطان يجره إلى الشر، والشر يجره إلى النار. وقال بعض السلف: الحسن الخلق ذو قرابة عند

الأجانب والسيء الخلق أجنبي عند أهله، وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليَّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق، لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه، والعابد إذا ساء خُلقه مقتوه.

قيل: أبى الله لسيء الخلق التوبة لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل في ذنب آخر لسوء خلقه. وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: «ما بال فلان، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون»، حتى لا يفضح أحدًا، وعنه ﷺ: «ما شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»، وعنه أيضًا ﷺ قال: «ثلاث مَن كن فيه كن له، مَن صدق لسانه زكا عمله، ومَن حسنت نيّته زيد في رزقه، ومَن حسن بره لأهل بيته زيد له في عمره»، ثم قال: «وحسن الخلق وكف الأذى يزيدان في الرزق». وقيل: «سوء الخلق يعدي لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله».

كتب الحسن بن علي إلى أخيه الحسين رضي الله عنهم في إعطائه الشعراء، فكتب إليه الحسين أنت أعلم مني بأن خير المال ما وقي به العرض، فانظر إلى شرف أدبه، وحسن خلقه كيف ابتدأ كتابه فأنت أعلم مني، وكان بينه وبين أخيه كلام، فقيل له: ادخل على أخيك، فهو أكبر منك، فقال: إني سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: «أيما اثنين جرى بينهما كلام، فطلب أحدهما رِضا الآخر كان سابقه إلى الجنّة» وأنا أكره أن أسبق أخي الأكبر إلى الجنّة، فبلغ ذلك الحسن، فجاءه عاجلًا رضي الله عنهما، وأُنشد في المعنى:

وإنّي لألقى المرءَ أعلم أنّهُ عدوّ وفي أحشائه الضغن كامنُ
فأمنحه بِشرًا فيرجع قلبه سليمًا وقد ماتت لديه الضغائن(١)

لا تبع بيع خائف

سرق بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل، فأنفذ إلى الجوهريين بصفتها، فقالوا: باعها فلان من مدة، ثم إن ذلك الرجل الذي سرقها قبض عليه وأحضر بين يدي جعفر، فلما رأى ما ظهر عليه قال له: أراك قد تغير لونك ألست يوم كذا طلبت مني هذه الجوهرة فوهبتها لك، وأقسم بالله لقد

---

(١) الضغائن: الأحقاد.

أنسيت هذا، ثم أمر للجوهري بثمنها، وقال للرجل: خذها الآن حلالًا طيِّبًا وبعها بالثمن الذي يطيب خاطرك به، لا تبع بيع خائف.

تحت هذه العمامة كرم ومجد

دخل محمد بن عباد على المأمون، فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تتبسم، فقال لها المأمون: ممّ تضحكين؟ فقال ابن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين تتعجب من قبحي وإكرامك إيّاي، فقال: لا تعجبي فإن تحت هذه العماية كرمًا ومجدًا. قال الشاعر:

وهل ينفع الفتيانَ حسنَ وجوههم إذا كانت الأعراضُ غير حسان
فلا تجعل الحسنَ الدليلَ على الفتى فما كلّ مصقول الحديد يماني[١]

أخلاق بهرام الملك

حُكِيَ أن بهرام الملك خرج يومًا للصيد فانفرد عن أصحابه، فرأى صيدًا، فتبعه طامعًا في لحاقه حتى بعد عن عسكره، فنظر إلى راعٍ تحت شجرة، فنزل عن فرسه ليبول، وقال للراعي: احفظ على فرسي حتى أبول، فعمد الراعي إلى العنان وكان ملبسًا ذهبًا كثيرًا، فاستغفل بهرام وأخرج سكينًا، فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذي عليه، فرفع بهرام نظره إليه، فرآه فغضّ[٢] بصره وأطرف برأسه إلى الأرض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته، ثم قام بهرام، فوضع يده على عينيه، وقال للراعي قدم إليّ فرسي، فإنه قد دخل في عيني من ما في الريح، فلا أقدر على فتحهما، فقدمه إليه، فركب وسار إلى أن وصل إلى عسكره، فقال لصاحب مراكبه أن أطراف اللجام قد وهبتها، فلا تتهمن بها أحدًا.

أخلاق أنو شروان

ذُكِرَ أن أنو شروان وضع الموائد للناس في يوم نوروز وجلس، ودخل وجوه أهل مملكته في الإيوان، فلما فرغوا من الطعام جاؤوا بالشراب وأحضرت الفواكه والمشموم[٣] في آنية الذهب والفضة، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه وأنو شروان يراه، فلما فقده

---

(١) اليماني: السيف.
(٢) غض بصره: خفضه وأطرق به إلى الأرض.
(٣) المشموم: المسك.

الشرابي صاح بصوت عالٍ لا يخرجن أحد حتى يفتش، فقال كسرى: ولـمَ؟ فأخبره بالقضية، فقال: قد أخذه مَن لا يرده ورآه مَن لا ينم عليه، فلا تفتش أحدًا فأخذ الرجل الجام ومضى فكسره، وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه وجدد له كسوة جميلة، فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية، فدعاه كسرى، وقال له: هذا من ذاك، فقبلّ الأرض، وقال: نعم أصلحك الله.

أخلاق الرجل وأخلاق خدمه

وقال عبد الله بن طاهر كنا عند المأمون يومًا، فنادى بالخادم يا غلام، فلم يجبه أحد، ثم نادى ثانيًا، وصاح يا غلام، فدخل غلام تركي وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام إلى كم يا غلام، فنكس المأمون رأسه طويلًا، فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليَّ فقال: يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا.

أخلاق الوليد بن عتبة بن أبي سفيان

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة واليًا، وكأن وجهه ورقة من ورق المصحف، والله ما ترك فينا فقيرًا إلا أغناه، ولا مديونًا إلا أدى عنه دينه، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء، ويكلمنا بكلام أحلى من الجني ولقد شهدت منه مشهدًا لو كان من معاوية لذكرته، تغدينا يومًا عنده، فأقبل الفراش بصحفة، فعثر في وسادة، فوقعت الصحفة من يده، فوالله ما ردها إلا ذقن الوليد، وانكب جميع ما فيها في حجره فبقي الغلام متمثلًا واقفًا ما معه من روحه إلا ما يقيم رجليه، فقام الوليد فدخل، فغيّر ثيابه، وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته، فأقبل على الفراش وقال: يا بائس ما أرانا إلا روعناك. اذهب، فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى.

أحمد بن أبي داود والمعتصم

مرض أحمد بن أبي داود، فعاده المعتصم، وقال: نذرت إن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار، فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، فاجعلها في

أهل الحرمين، فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة، فقال: نويت أن أتصدق بها على من هٰهنا، وأطلق لأهل الحرمين مثلها، فقال أحمد: متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين، فإنك كما قال النميري(١) لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه:

إن المكارم والمعروف أوديةً أحلّك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصمًا فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ

أخلاق قيس بن عاصم

قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ فقال: من قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادمة له بسفود عليه شواء حار، فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له، فقتله لوقته، فدهشت الجارية، فقال: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى.

مَن خدعنا في الله انخدعنا له

كان ابن عمر رضي الله عنه إذا رأى أحدًا من عبيده يحسن صلاته يعتقه، فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له، فكان يعتقهم، فقيل له في ذلك، فقال: من خدعنا في الله انخدعنا له.

أخلاق أبي عثمان الزاهد

رُوِيَ أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة، فألقي عليه من فوق سطح طست رماد، فتغير أصحابه، وبسطوا ألسنتهم في الملقي للرماد، فقال أبو عثمان: لا تقولوا شيئًا، فإن مَن استحق أن يصب عليه النار، فصولح بالرماد لم يجز له أن يغضب.

فرح مرتان

قيل لإبراهيم بن أدهم تغمده الله تعالى برحمته: هل فرحت في الدنيا قط؟ فقال: نعم مرتين إحداهما أني كنت قاعدًا ذات يوم، فجاء إنسان فبال عليَّ، والثانية كنت جالسًا فجاء إنسان فصفعني.

---

(١) النميري: هو الهيثم بن الربيع بن زرارة من بني نمير بن عامر أبو حية شاعر مجيد، فصيح راجز من أصل البصرة ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وقيل في وصفه: كان أهوج جبانًا بخيلًا كذابًا، مات حوالي سنة ١٨٣ هـ.

أخلاق علي بن أبي طالب

رُوِيَ أن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه دعا غلامًا له، فلم يجبه، فدعاه ثانيًا وثالثًا فرآه مضطجعًا، فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم. قال: فما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك، فتكاسلت، فقال: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

إذا دُعي حضر وإذا زجر انزجر

حُكِيَ أن أبا عثمان الحيري دعاه إنسان إلى ضيافة، فلما وافى باب الدار قال له الرجل: يا أستاذ ليس لي وجه في دخولك، فانصرف رحمك الله، فانصرف أبو عثمان، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه، وقال: يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر له، وقال: احضر الساعة، فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال في الأولى، ثم فعل به ذلك أربع مرات، وأبو عثمان ينصرف ويحضر، ثم قال: يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك، ثم جعل يعتذر له ويمدحه، فقال أبو عثمان: لا تمدحني على خلق تجده في الكلاب، فإن الكلب إذا دُعي حضر وإذا زجر انزجر. وقال الحرث بن قصي: يعجبني من القراء كل فصيح مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس فلا كثر الله في المسلمين مثله.

أخلاق المأمون

من محاسن الأخلاق: ما حُكي عن القاضي يحيىٰ بن أكثم قال: كنت نائمًا ذات ليلة عند المأمون، فعطش، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه، وأنا نائم، فينغص عليَّ نومي، فرأيته وقد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلاثمائة خطوة، فأخذ منها كوزًا، فشرب، ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه، فخطا خطوات خائف لئلا ينبهني حتى صار إلى فراشه، ثم رأيته آخر الليل قام يبول، وكان يقوم في أول الليل وآخره، فقعد طويلًا يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام، فلما تحركت وثب قائمًا وصاح يا غلام، وتأهب للصلاة. ثم جاءني، فقال لي: كيف أصبحت يا أبا محمد، وكيف كان مبيتك؟ قلت: خير مبيت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، قال: لقد استيقظت للصلاة، فكرهت أن أصيح بالغلام،

فأزعجك، فقلت: يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم، فهنّاك الله تعالى بهذه النعمة، وأتمّها عليك، فأمر لي بألف دينار، فأخذتها وانصرفت. قال: وبت عنده ذات ليلة، فانتبه وقد عرض له السعال، فجعلت أرمقه، وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه، فسعل وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته، فأنتبه، قال يحيىٰ: وكنت معه يومًا في بستان ندور فيه، فجعلنا نمر بالريحان، فيأخذ من الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان: أصلح هذا الحوض، ولا تغرس في هذا الحوض شيئًا من البقول، قال يحيىٰ: ومشينا في البستان من أوله إلى آخره، وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أتحول أنا في الظل، ويكون هو في الشمس، فأمتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان، فلما رجعنا قال: يا يحيىٰ والله لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي، فقلت: والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسي لفعلت، فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقي، وقال: بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا، فإنه لا خير في صحبة مَن لا ينصف.

من كلام رسول الله ﷺ

قال رجل: يا رسول الله، أوصني بشيء ينفعني الله به، قال: «أكثر ذكر الموت فإنه يسليك عن الدنيا. وعليك بالشكر فإنَّ الشكر يزيد النعمة. وأكثر من الدعاء فإنك لا تدري متى يُستجاب لك».

قال: «أيها الناس إنما بغيُكم على أنفسكم. وإياك والبغي فإن الله قد قضى أنه من بُغي عليه لينصرنَّه الله. وإياك والمكر، فإن الله قد قضى أن لا يحيق المكرُ السيءُ إلَّا بأهله».

وقيل: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟» فقال: «اجتناب المحارم، ولا يزال فوك رطبًا من ذكر الله».

وقيل له: أيّ الأصحاب أفضل؟ قال: «الذي إذا ذكرت أعانك، وإذا نسيت ذكرك». وقيل: أي الناس شر؟ قال: «العلماء إذا فسدوا».

وقال ﷺ: «دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء».

البغضاء هي الحالقة ـ حالقة الدين، لا حالقة الشعر.

إن الله كره لكم العبث في الصلاة، والرفث في الصيام، والضحك عند المقابر.

وقال: «إذا أذَّنت فترسَّل، وإذا أقمت فاجزم». «من ذبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقًا عليه أن يحرِّم لحمه على النار».

وفي الحديث الشريف:

قال النبيّ ﷺ فيما أدَّب به أمته وحظَّها على مكارم الأخلاق: «أوصاني بالإخلاص في السرّ والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وأن أعفو عن ظلمي، وأعطي من حرمي، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرًا، ونطقي ذكرًا، ونظري عبْرًا».

أوصيكم: إن أسوأ الناس مَن أكل وحده، ومنع رِفْدَه، وجلد عبده.

حِفْظُ اللسان

قال الإمام جعفر الصادق (ع):

يموتُ الفتى من عَثْرةٍ، بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجلِ
فعثرته من فيه ترمي برأسه ... وعثرته بالرجل تَبْرا على مهل

وقال الشاعر:

الحلم زَيْنٌ والسكوت سلامةٌ ... فإذا نطقت فلا تكن مكثارا
ما إن ندمت على سكوتي مرَّة ... إلَّا ندمتُ على الكلام مرارا

واجتمع قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي فقال أحدهما للآخر: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصر. وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت عيوبه كلها. قال: وما هي؟ قال: حفظ اللسان.

في الشفاعة

قال عليّ بن أبي طالب (ع): الشفيع جناح الطالب.

وقال المأمون لإبراهيم بن المهدي لما عفا عنه: إن أعظم يدًا عندك بين عفوي عنك أني لم أجرِّعك امتنان الشافعين.

قال المبرد: أتاني رجل يستشفع في حاجة، فأنشدني لنفسه:

إني قصدتك لا أدلي بمعرفةٍ ... ولا بقربي ولكن قد فَشَتْ نِعَمُكْ
فبتُّ حيرانَ مكروبًا يؤرّقني ... ذُلُّ الغريب ويُغشيني الكرى كَرَمُكْ
ولو همَمْتَ بغير العُرف ما علَقَتْ ... به يداك ولا انقادت له شيَمُكْ
ما زلتُ أُنكَبُ حتى زُلزِلَت قدمي ... فاحْتَلْ لتثبيتها لا زُلْزِلَتْ قَدَمُكْ

قال: فشفعت له وقمت بأمره حتى بلغت له ما أحَبَّ.

وخرج العطاء في أيام المنصور، وأقام الشقراني - من وَلَد شقران مولى رسول الله ﷺ - ببابه أيامًا لا يصل عطاؤه. فخرج جعفر بن محمد (ع) من عند المنصور فقام الشقراني إليه، فذكر حاجته، فرحَّب به، ثم دخل ثانيًا إلى المنصور، وخرج عطاء الشعراني في كمه فصبَّه في كمه ثم قال:

يا شقراني، إن الحَسَنَ من كلٌ أحدٍ حسنٌ، وإنه منك أحسن لمكانك منّا.

وإن القبيح من كلٌ أحد قبيح، وهو منك أقبح لمكانك منا. فاستحسن الناس ما قاله. وذلك لأن الشقراني كان صاحب شراب.

قالوا: فانظر كيف أحسن السعي في استنجاز طلبته، وكيف رحَّب به وأكرمه مع معرفته بحاله. وكيف وعظه ونهاه عن المنكر على وجه التعريض.

قال المبرد لعبد الله بن يحيىٰ بن خاقان: أنا أشفع إليك أصلحك الله في أمر فلان، فقال له: قد سمعت، وأطعت وسأفعل في أمره كذا، فما كان من نقص فعليّ، وما كان من زيادة فله، قال المبرد: أنت أطال الله عمرك كما قال زهير بن أبي سلمى:

وجار سار معتمدًا إلينا ... أجاءته المخافة والرجاء
ضمّنا ماله فغدا سليمًا ... علينا نَقْصُهُ وله النماء

وقال دعبل الخزاعي:

وإن امرءًا إليَّ بشافع ... إليه ويرجو الشكر مني لأحمقُ
شفيعك يا شكر الحوائج إنه ... يصونك عن مكروهها وهو يخلقُ

وقال آخر:

وإذا امرؤٌ أسدى إليك صنيعة   من جاهه فكأنها من ماله

وقال آخر:

مضى زمن والناس يستشفعون بي   فهل لي إلى ليلة الغداة شفيعُ[١]

في الزهد

ذكر أبو المقدام هشام بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز رحمه الله في مرضه الذي مات فيه، فجعلت أحدُّ النظر إليه. فقال لي: يا أبي كعب، ما لك تحدّ النظر إليّ؟ قلت: لما نحل من جسمك، وتغيّر من لونك. قال: فكيف لو رأيتني بعد ثلاثة أيام في قبري؟ ثم قال:

أعِد عليّ حديثًا كنت حدثتنيه لابن عباس. فقلت: سمعت ابن عباس يقول: إن رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل شيء شرفًا، وإن أشرف المجالس مجلسٌ أستقبل به القبلة. مَن أحب أن يكون أعزَّ الناس فليتَّقِ الله، ومَن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله. ومَن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق مما في يده».

ثم قال: «ألا أنبئكم بشرار الناس؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «مَن نزل وحده ومنع رفده، وجلد عبده».

ثم قال: «ألا أنبئكم بشرٍّ من ذلك؟» وقالوا: بلى يا رسول الله. قال: «مَن لا يرجى خيره، ولا يؤمنُ شره».

ثم قال: «ألا أنبئكم بشر من ذلك؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «مَن يبغض الناس ويبغضونه»[٢].

في الزيارة

قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «وجبت محبتي للمتحابّين فيَّ، والمتباذلين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، ليوم أظلهم بظلي يوم لا ظلَّ إلَّا ظليّ».

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨/٢٠٥.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

مَن عاد مريضًا أو زار أخًا نادى منادٍ: طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلًا.

وقيل: المحبة شجرة أصلها الزيارة.

قال الشاعر:

زر مَن تحبُّ وإن شطَّتْ به الدارُ وحال من دونه حجبٌ وأستارُ
لا يمنعنك بُعدٌ من زيارته إن المحبُّ لمن يهواه زوَّارُ

يقال: الإكثار من الزيارة مملٌ، والإقلال منها مُخلٌ.

وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إذا تقاطعنا ونحن ببلدةٍ فما فضلُ قرب الدار بنا على البعد

وكتب المأمون إلى جاريته يستدعيها للزيارة:

نحن في أفضل السرور ولكنْ ليس إلَّا بكم يتمُّ السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودِّي أنكم غبتمو ونحن الحضورُ
فأجِدوا السير بل إن قدرتم أن تطيروا مع الرياح فطيروا

ولتكن الزيارة غبًّا لقول رسول الله ﷺ: «زر غبًّا تزدَدْ حبًّا».

وقال الشاعر في هذا المعنى:

عليك بإغباب الزيارة إنها إذا كثرت صارت إلى الهجر مسلكا
ألم تر أن الغيث يُسأَمُ دائمًا ويُسألُ بالأيدي إذا هو أمسكا

قال المفضل الضبيّ:

كان معاذ بن صرم الخزاعي، وكانت أمه من علكّ، وكان فارس خزاعة، وكان يكثر زيارة أخواله. قال: فاستعار منهم فرسًا وأتى قومه. فقال له رجل يقال له جحيش بن سودة، وكان له عدوًا: أتسابقني على أن من سبق صاحبه أخذ فرسه؟ قال: نعم، واتفقا. ولما كان السبق اقتتلا فقتل معاذ بن صرم جحيشًا فقتله.

وأقام في أخواله زمنًا. ثم خرج مع بني أخواله في جماعة من فتيانهم يتصيدون، فحمل معاذ على عير فلحقه ابن خال له يقال له الغضبان، فقال: خلِّ عن العير. قال: لا ولا نعمة عين[(١)] ـ فقال الغضبان:

إما والله لو كان فيك خير لما تركت قومك ـ فقال معاذ: «زر غبًّا تزدَدْ حبًا» فأرسلها مثلًا. ثم أتى قومه فأراد أهل المقتول قتله. فقال لهم قومه: لا تقتلوا فارسكم وإن ظلم، فقبلوا منه الديَّة.

ومن هذا المثل قال الشاعر:

إذا شئت أن تُقْلى فَزُرْ متواترًا ... وإن شئت أن تزداد حُبًا فزُرْ غبًّا[(٢)]

في الإخوان

قيل: خير ما اكتسب المرء الإخوان، فإنهم معونة على حوادث الزمان، ونوائب الحدثان، وعون في السرَّاء والضرَّاء.

ومن كلام الإمام علي (ع):

عليك بإخوان الصفا فإنهم ... عمادٌ إذا استنجدتهم وظُهورُ
وإن قليلًا ألفُ خِلٍّ وصاحب ... وإنَّ عددًا واحدًا لكثيرُ

قال لبيد بن ربيعة:

ما عاقب المرءَ اللبيب كنفسهِ ... والمرءُ يصلحه الجليس الصالحُ

قيل لابن السماك: أي الإخوان أحبُّ إليك؟ قال:

الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملَّك على القرب، ولا ينساك على البعد. إن دنوت داناك، وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعنت به عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودلاة قوله. . .

وأنشدوا في هذا:

إنَّ أخاك الصديق من يسعى معكْ ... ومن يضرُّ نفسه لينفعكْ
ومن إذا ريب الزمان صَدَعَكْ ... شتتَ فيك شمله وجمعكْ

---

(١) يقال: أفعله نعمة عين: أي أفعله إكرامًا لعينك.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ١٨٧.

قال أبو تمام:

مَن لي بإنسانٍ إذا أغضبتهُ ... وجهلتُ كان الحلمَ ردُّ جوابه
وإذا صَبَوْتُ إلى المدام شربت ... من أخلاقه وسكرت من آدابهِ
وتراه يصغي للحديث بطرفه ... وبقلبه ولعلَّهُ أدرى بهِ

قيل لخالد بن صفوان: أي الإخوان أحبُّ إليك. قال: الذي يسدُّ خلتي، ويغفر زلتي، ويقيل عثرتي.

قال الشاعر:

إذا كنت في كلِّ الأمور معاتبًا ... صديقَك لن تلقى الذي لا تعاتبهْ
وإن أنت لم تشرب مرارًا على القذى ... ظمئت وأيُّ الناس تصفو مشارد

قال النبيّ ﷺ:

«الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وقال ﷺ: «إن روحَيْ المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم، وما رأى أحدها صاحبه» وفي ذلك قال أحدهم:

هويتكم بالسمع قبل لقائكم ... وسمع الفتى يهوى لعمري كطرفِهِ
وخُبِّرتُ عنكم كلَّ جودٍ ورفعةٍ ... فلما التقينا كنتم فوق وصفه

قال بعض الحكماء:

إذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذره جهدك.

ويقول المثل: القلوب شواهد. قال في ذلك عبد الله بن طاهر:

خليلي للبغضاء حالٌ مبينةٌ ... وللحبِّ آثارٌ تُرى ومعارفُ
فما تنكر العينان فالقلب منكرٌ ... وما تعرف العينان فالقلب عارف

وقال بعضهم:

وكنت إذا الصديقُ أراد غيظي ... وشرَّقني على ظمأ بريقي
غفرت ذنوبه وكظمت غيضي ... مخافة أن أعيش بلا صديقِ

في الهدية

قال إيليا أبو ماضي في هدية العيد:

أيَّ شيءٍ في العيد أهدي إليك ... يا ملاكي وكلُّ شيءٍ لديك
أسوارًا أم دملجًا من نَضارٍ ... لا أحبُّ القيود في معصميكِ
أم خمورًا وليس في الأرض خمرٌ ... كالتي تسكبين من لحظيْكِ
أم ورودًا والورد أجمله عندي ... الذي نشقتُ من خدَّيكِ
أم عقيقًا كمهجتي يتلظّى ... والعقيق الثمين في شفتيكِ
ليس عنديَ شيءٌ أعزُّ من الروح ... وروحي مرهونةٌ في يديك[١]

أهدى الصابئي[٢] إلى عضد الدولة إسطرلابًا[٣] في يوم المهرجان وكتب إليه يقول:

أهدى إليك بنو الأملاك واحتفلوا ... في مهرجان جديد أنت تبليه
لكنَّ عبدك إبراهيم حين رأى ... سموَّ قدرك عن شيءٍ يدانيه
لم يرض بالأرض يهديها إليك وقد ... أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه[٤]

وقالوا في الهدية:

هدايا الناس بعضهم لبعضٍ ... تولِّدُ في قلوبهم الوصالا
وتزرع في القلوب هوًى وودًّا ... وتكسوك المهابة والجلالا

وقال بعضهم:

لو كان يهدى على قدري وقدركم ... لكنتُ أهدي لك الدنيا وما فيها

حُكِيَ أن الخيزران زوجة المهدي العباسي، وأم ابنيه الهادي وهارون الرشيد، وكانت ملكة حازمة، متفقهة، يمانية الأصل، وأخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي.

---

(١) ديوان إيليا أبو ماضي.
(٢) هو إبراهيم بن هلال، أبو إسحق الصابىء: أشهر كتاب عصره. تقلد ديوان الرسائل أيام بني بويه. توفي سنة ٩٩٤ م.
(٣) الإسطرلاب: آلة قديمة لقياس مواقع النجوم وتحديد ساعات الليل والنهار.
(٤) المستطرف: ٢/٤٦.

عزم المهدي على شراء دواء، فأنفذت إليه جام بلور فيه شراب اختارته له مع وصيفة بارعة الجمال وكتبت إليه تقول:

إذا خرج الإمامُ من الدواءِ ... وأعقب بالسلامة والشفاء
وأصلح حاله من بعد شرب ... بهذا الجام من هذا الطلاء
فينعم للتي قد أنقذته ... إليه بزورةٍ بعد العشاء

فسُرَّ بذلك وأعجبته الجارية، وزار الخيزران وأقام عندها يومين.

كتمان السر

جاء في الحديث الشريف: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود» وقال علي عليه السلام: سِرُّكَ أسيرك، فإذا تكلمت به صرت أسيره. واعلم أن أمناء الأسرار، أقلّ وجودًا من أمناء الأموال. وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن إحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيِّعها كلامٌ سابق. وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال؛ فإن الرجل يستقلّ بالجمل الثقيل فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السر. وإن الرجل يكون سره في قلبه، فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملًا ثقيلًا[(١)].

قال عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها. فليحفظ كل إنسان مفتاح سره.

ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزانِها كان أوثق لها. أما الأسرار فإنها كلما كثرت خزانها كان أضيع لها. وكم من أظهار سرٍّ أراق دم صاحبه، ومنعه من بلوغ مآربه[(١)].

وأسرَّ رجل لآخر حديثًا. ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جَهِلْت. ثم قال له: أحفِظت؟ قال: بل نسيت. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحدُ المُخبر، وأحلف للمستخبر.

---

(١) المستطرف: ١/٢٩٦.

ومن أحسن ما قيل في كتمان السر:

ولها سرائر في الضمير طويتها   نسي الضمير بأنها في طيّه

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوي فقال:

أني كتمت حديث ليلى لم أبح   يومًا بظاهره ولا بخفيِّهِ
وحفظت عهد ودادها متمسكًا   في حُبِّها برشاده أو غَيِّهِ
ولها سرائرُ في الضمير طويتها   نسي الضمير بأنها في طيِّهِ(١)

وقيل: كتمان الأسرار يدلُّ على جواهِرِ الرجال. وكما أنهُ لا خير في آنية لا تُمسك ما فيها، فكذلك لا خيرَ في إنسانٍ لا يمسكُ سرَّهُ. قال الشاعر:

ومستودعي سرًّا كتمتُ مكانهُ   عن الحسِّ خوفًا أن ينُمَّ به الحسُّ
وخفتُ عليه من هدى النفس شهوةً   فأودعتُهُ من حيثُ لا يبلغ الحسُّ

وقال قيس بن الخطيم:

أجود بمكنون التِّلاد وإنني   بسري عمَّنْ سالني لَضَنينُ
وإن ضَيَّعَ الأقوام سريَّ فإنني   كتومٌ لأسرار العشير أمينُ

وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذي أودعني سرَّه   لا ترجُ أن تسمع مني
لم أجره قطُّ على فكرتي   كأنه لم يجر في أذني

قال الأحنف بن قيس: يضيق صدرُ الرجل بسرِّه. فإذا حدث به أحدًا قال: اكتمهُ علي. قال الشاعر:

إذا المرءُ أفشى سرَّهُ بلسانه   ولام عليه غيرهُ فهو أحمقُ
إذا ضاق صدر المرء عن سرِّ نفسِهِ   فصدر الذي يستودعُ السرّ أضْيَقُ

وقال آخر:

إذا ما ضاقَ صَدْرُكَ عن حديثٍ   وأفشتهُ الرجالُ فمن تلومُ
وإن عاتبتُ مَن أفشي حديثي   وسرّي عنده فأنا الملوم

---

(١) المستطرف: ١/٢٩٦.

قيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرّقهُ تحت شغاف قلبي ثم أجمعهُ وأنساه، كأني لم أسمعهُ. وقال بعضهم:

إذا ما غفرتُ الذنوب يومًا لصاحبٍ فلستُ معيدًا ما حُييت لهُ ذكرا
ولستُ إذا إذا ما صاحبٌ خان عهدُهُ وعندي لهُ سرٌّ مذيعًا له سرّا

ولله درُّ المتنبي حيث قال:

وللسرِّ مني موضعٌ لا يناله نديمٌ ولا يفضي إليه شرابُ(١)

قال المنصور: المَلك يحتمل كلَّ شيء من أصحابه إلَّا ثلاثة: إفشاء السِّر، والتعرض للحرم، والقدح في الملك. وكان يقول: سرُّك من دمِك فانظر من تُملِّكه. وكان يقول: سرُّك لا تطلع عليه غيرك. وإنَّ من أنفذ البصائر كتمان السرِّ حتى يبرم المبروم.

قيل لأبي مسلم الخرساني: بأي شيء أدركت هذا الأمر؟ (أي نجاح الدعوة العباسية) قال: ارتديتُ بالكتمان، واتَّزرتُ بالحزم، وحالفتُ الصبر، وساعدت المقادير، فأدركت طلبتي، وحزتُ بغيتي. وأنشد في ذلك:

أدركتُ بالحزم والكتمان ما عجزَتْ عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلتُ أسعى عليهم في ديارهمُ والقوم في ملكهم بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهمو بالسيف فانتبهوا من نومةٍ لم ينمها قبلهم أحدُ
ومَن رعى غنمًا في أرض مسبعةٍ ونام عنها تولى رعيها الأسد

وأنشد اليزيدي:

النجم أقرب من سرٍ إذا اشتملتْ مني على السرِّ أحشاءٌ وأضلاعُ

قال أبو نواس:

لا تفشِ أسرارك للناسِ ودامر أحزانك بالكاسِ
فإنَّ إبليس على ما به أرأفُ بالناس من الناسِ

(١) المستطرف: ١/ ٢٩٨.

وقال المبرد: أحسن ما سمعت في حفظ اللسان ما رُوي عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع):

لعمرك إن وشاة الرجال ... لا يتركون أديمًا صحيحا
فلا تبدِ سرَّك إلَّا إليك ... فإن لكلِّ نصيحٍ نصيحا

وقال آخر:

لا يكتُمُ السرَّ إلا كلُّ ذي خطرٍ ... والسرُّ عند كرام الناس مكتومُ
والسرُّ عندي في بيتٍ له غلقٌ ... قد ضاع مفتاحه والباب مردومُ[١]

قيل في الكلام: اجتمع أربعة حكماء من الروم والفرس والهند والصين. فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت، ولا أندم على ما لم أقل وقال الآخر: إذا تكلمتُ بالكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم ملكتها ولم تملكني وقال الآخر: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرَّته، وإن لم ترجع لم تنفعه.

وقال الرابع: أنا على ردِّ ما لم أقل أقدر منيِّ على ردِّ ما قلت[٢].

مؤدب الأمير

قال عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك ولدي إصلاحك لنفسك، فإن عينيه معقودتان بعينيك؛ فالحسن عنده ما استحسنت والقبح عنده ما استقبحت. علِّمه كتاب الله ولا تُكرِهه عليه فيملّه ولا تتركه عنه فيهجره ـ ثم زوّده من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أشرفه. ولا تُخرِجه من علم إلى غيره حتى يُحكِمه؛ فإن ازدحام الكلام بالسمع فضله للفهم. وعلّمه سِيَر الحكماء وأخلاق الأنبياء.

دخل الرشيد يومًا على الكسائي وهو لا يراه، وكان الكسائي معلمًا لولديه الأمين والمأمون، فقام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها، فنهض الأميران بعجلة ووضعا النعل بين رجلي الكسائي. بعد وقت جلس الرشيد مجلسه وقال: يا كسائي أيّ الناس أكرم خدمًا؟.

قال الكسائي: أمير المؤمنين أعزه الله.

---

(١) المحاسن والأضداد: ٥٣ ـ ٥٦.
(٢) شرح نهج البلاغة.

قال الرشيد: بل الكسائي؛ يخدمه الأمين والمأمون. وحدثهم بما رأى[1].

قال أبو محمد اليزيدي: كنت أؤدب المأمون، وحين بعثت إليه أحد الغلمان أطلبه في شيء تباطأ. فبعثت إليه غلامًا آخر فلم يحضر. فقلت في نفسي: يتشاغل عني بالبطالة! وأقسمت أن أقومه بالأدب. فلما حضر ضربته تسع درر فبكى. بينما هو كذلك حضر الوزير جعفر البرمكي فاستأذن على المأمون. وقبل أن يدخل عليه أخذ منديلًا ومسح عينيه، وجمع ثيابه وقام إلى مجلسه وقعد عليه متربعًا ثم قال: ليدخل جعفر.

قال أبو محمد: قمت أنا من المجلس فلربما يشكوني للوزير فألقى منه ما أكره. فلما خرج جعفر قلت للمأمون:

والله لقد خفت أن تشكوني لجعفر، ولو فعلت لتنكّر لي.

قال المأمون: إنا لله يا معلمي. أتراني يا أبا محمد أطلع الرشيد في هذا؟ فكيف أطلع جعفرًا على أني أحتاج إلى أدب؟! خذ في أمرك؛ فلقد خطر في بالك ما لا تراه أبدًا، ولو عدت في كل مرة.

ضرب «أبو مريم» الأمين فخدش ذراعه فلما رآه هارون الرشيد سأله فردّ عليه الأمين: ضربني أبو مريم.

بعث الخليفة لأبي مريم ودعاه إلى مجلسه وأمر له بالوضوء فتوضأ، وبالغداء فتغدى، وبعد ذلك سأله الخليفة: ما بال محمد يشكوك؟ فرد أبو مريم: والله يا أمير المؤمنين لقد غلبني خبثًا وعدم طاعة. فردّ الرشيد وقد فزع: اقتله... فلأن يموت خير من أن يفسد[2].

في القناعة والرضا

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: الآية ٩٧] أن المراد بها القناعة. وقال رسول الله ﷺ: «القناعة مال لا ينفد».

---

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٦١. (٢) معادن الجوهر ٢/١٤٧.

وقيل: يا رسول الله ما القناعة؟ قال: «الإياس مما في أيدي الناس. وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر».

قال الكندي:

العبد حرٌ ما قَنِعْ والحرُّ عبدٌ ما طَمِعْ

وقال بشر بن الحارث:

خرج فتى في طلب الرزق، فبينما هو يمشي فأعيا، فأوى إلى خراب يستريح فيه. فبينما هو يدير بصره وقعت عينه على أسطر مكتوبة على حائط، فتأملها فإذا هي:

إني رأيتك قاعدًا مستقبلي فعلمت أنك للهموم قرينُ
هوِّنْ عليك وكن بربك واثقًا فأخُو التوكل شأنهُ التهوينُ
طرحَ الأذى عن نفسه في رزقه لما تيقن أنه مضمونُ

فرجع الفتى إلى بيته ولزم التوكل، وقال: اللهم أدبنا أنت.

قال الجاحظ: إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفّق بينهم في مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم السياسة والتجارة والفلاحة. وفي ذلك بطلان المصالح وذهاب المعايش. فكل صنف من الناس مزيَّنٌ لهم ما هم فيه.

فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيرًا أو خُلْفًا قال: ويلك يا حجّام! والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك! فيجعل الله تعالى الاختلاف سبيلًا للائتلاف فسبحانه من مدبر قادر حكيم.

ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعة خيش معمَّد(١) بعظام الجيف، كلبه معه في بيته ولباسه شملة من وَبَر أو شعر، ودواؤه بعر الإبل، وطيبه القطران، وحلي زوجته الوَدَع، وثماره المُقْل(٢). وهو في مفازة لا يسمع فيها إلّا صوت بومة، وعواء ذئب، وهو قانع بذلك مفتخر به.

(١) معمَّد: مدعَّم ومسنَّد بعظام الحيوانات النافقة.
(٢) المُقل: ثمر الدَّوم، وهو يشبه النخل.

وقيل: وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك، فشكا إليه خلّته[١]. فقال له: ألست القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خُلُقي ... أنَّ الذي هو رِزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيُعْييني تطلُّبه ... ولو قعدت أتاني ليس يُعنيني

وقد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق؟ فقال: يا أمير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت وخرج فركب ناقته وكرَّ راجعًا إلى الحجاز. فلما كان الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال في نفسه: رجل من قريش وقال حكمة ووفد علي فجبهتهُ ورددته خائبًا فلما أصبح وجَّهَ إليه بألفي دينار. فقرع الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال. فقال: أبلغ أمير المؤمنين عني السلام، وقل له كيف رأيت قولي: سعيت فأكديت[٢] فرجعت، فأتاني رزقي إلى منزلي.

لما ولي عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان أنصاري وثقفي، فلما سارا تخلف الأنصاري وقال: الذي أعطى عبد الله بن عامر العراق قادر على أن يعطيني. فوفد الثقفي وقال أحوزُ الحظين. فلما دخل على عبد اللهبن عامر، قال له: ما فعل زميلك الأنصاري؟ قال: رجع إلى أهله. فأمر للثقفي بأربعة آلاف دينار وبعث إلى الأنصاري بثمانية آلاف. فخرج الثقفي وهو يقول:

فوالله ما حِرْصُ الحريص بنافعٍ ... فيغني ولا زهدُ القنوع بضائر
خرجنا جميعًا من مساقط رؤوسنا ... على ثقة منا بجود ابن عامرِ
فلما أنخنا الناجيات ببابه ... تخلّف عني اليثربي ابن جابر[٣]
وقال ستكفيني عطية قادر ... على ما يشاء اليوم للخلق قاهر
فإن الذي أعطى العراق ابن عامر ... لربي الذي أرجو لسد مفاقري
فقلت خلا لي وجهه ولعله ... سيجعل لي حظ الفتى المتزاور
فلما رآني سأل عنه صبابة ... إليه كما حنَّت ظؤار الأباعرِ[٤]
فأبتُ وقد أيقنت أنْ ليس نافعًا ... ولا ضائرًا شيء خلاف المقادرِ

---

(١) الخلّة: الحاجة والفقر.
(٢) أكدى: رجع خائبًا.
(٣) الناجيات: جمع ناجية، وهي الناقة السريعة.
(٤) الظئر: الناقة العاطفة على ولد غير المرضعة له.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه: أتدري لما رزقت الأحمق؟ قال: لا يا رب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال.

ولبعض العرب:

ولا تجزع إذا أعسرت يومًا فقد أيسرت في الزمن الطويل
ولا تظنن بربك ظنَّ سوءٍ فإن الله أولى بالجميل
وإن العسر يتبعه يسارٌ وقول الله أصدق كل قيل
فلو أن العقول تسوق رزقًا لكان المال عند ذوي العقول[1]

في الحِلْم ودفع السيئة بالحسنة

يقال: الحليم عليم، والسفيه كليم. وقال محمد بن عجلان: ما شيء أشدُّ على الشيطان من عالم معه حِلم؛ إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم. يقول الشيطان: سكوته عليَّ أشدُّ من كلامه!

إذا كنت تبغي شيمةً غير شيمةٍ طبعت عليها لم تطعك الضرائبُ[2]

قال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشدُّ؟ قال: غضب الله. قال: فما يباعدني من غضب الله؟ قال: أن لا تغضب.

ويقال: مَن أطاع الغضب، أضاع الإرب.

قال أبو العتاهية:

ولم أر في الأعداء حين اختبرتهم عدو العقل أعدى من الغضب

قيل: إن رجلًا كان يغضبُ كثيرًا ويشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف. فأعطى كل صحيفة لرجل. وقال للأول: إذا اشتد غضبي فقم إليَّ بهذه الصحيفة وناولنيها.

وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناوليها. وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فناولني التي معك.

---

(١) المستطرف: ١/١٠٩.

(٢) الضريبة: الطبع والسجية.

وكان في الأولى: أَقْصِرْ، فما أنت وهذا الغضب. إنك لست بإله، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضًا.

وفي الثانية: ارحم مَن في الأرض يرحمك مَن في السماء.

وفي الثالثة: احمل عباد الله على كتاب الله فإنه لا يصلحهم إلّا ذاك.

قال النبيّ ﷺ: «مَن كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء». وقيل: ملأه الله أمنًا وإيمانًا.

شتم رجلٌ رجلًا، فقال له: يا هذا، لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعًا، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيرًا، فلن أجئها كبيرًا. وإني لا أكافىء مَن عصى الله فيَّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

حُكِيَ عن جعفر الصادق عليه السلام أن غلامًا وقف يصب الماء بين يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش على وجهه. فنظر إليه الصادق (ع) نظر مغضب، فقال: يا مولاي والكاظمين الغيظ. قال: قد كظمت غيظي. قال: والعافين عن الناس. قال: قد عفوت عنك. قال: والله يحبُّ المحسنين. قال: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

لما قَدِمَ نصر بن منيع بين يدي الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه. قال: يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمات أقولها. قال: قل. فأنشأ يقول:

زعموا بأن الصقر صادف مرة ... عصفورَ برٍّ ساقَهُ التقديرُ
فتكلم العصفورُ تحت جناحه ... والصقر منقضٌّ عليه يطيرُ
أني لمثلِكَ لا أُتَمِّمُ لُقْمةً ... ولَئِنْ شُويتُ فإنني لحقيرُ
فتهاون الصقرُ المُدِلُّ بصيدِهِ ... كرمًا وأفلت ذلك العصفورُ

قيل: فعفا عنه وخلّى سبيله.

قال الرشيد لأعرابي: بمَ بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة؟ قال: بحلمه عن سفيهنا وعفوه عن مسيئنا، وحمله على ضعيفنا. لا منّان إذا وَصَبَ، ولا حقود إذا غضب. رحب الجنان، سمح البنان، ماضي اللسان. فأومأ الرشيد إلى كلب صيدٍ بين يديه وقال: والله لو كانت هذه في هذا الكلب لاستحقّ بها السؤدد.

وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنبٍ وأن عَظُمتْ منه علي الجرائم
فما الناس إلّا واحد من ثلاثةٍ شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صُنْت عن إجابته نفسي، وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا تفضلت إنّ الحرّ بالفضل حاكم

وقال الأحنف بن قيس لابنه: يا بني، إذا أردت أن تؤاخي رجلًا فأغضبه، فإن أنصفك، وإلّا فاحذره. وقال الشاعر:

إذا كنت مختصًا لنفسك صاحبًا فمن قبل أن تلقاه بالود أغضبه
فإن كان في حال القطيعة منصفًا وإلّا فقد جربتهُ فتجنبْهُ

قيل: إن الأحنف سبَّه رجل وهو يماشيه في الطريق. فلما قرب من المنزل وقف وقال له: يا هذا إن كان بقي معك شيء فقله هٰهنا، فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا.

قال الشاعر:

وإذا بغى باغٍ عليك بجهله فاقتلهُ بالمعروف لا بالمنكر

قال المأمون إبراهيم بن المهدي بعد أن صفح عنه:

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا فاصفح بعفوك عنه
إن لم أكن في فعالي من الكرام فكنه[1]

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصّلَت: الآيتان ٣٤، ٣٥].

ومرَّ المسيح (ع) بقوم من اليهود، فقالوا له شرًا ـ فقال خيرًا ـ فقيل له: إنهم يقولون شرًا وتقول لهم خيرًا. فقال: كل واحد ينفق مما عنده.

(١) المستطرف: ١/٢٧٨ ـ ٢٨٠. والعقد الفريد: ٢٧٧.

قال الحسن بن رجاء:

أحبُّ مكارم الأخلاق جهدي ... وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلمًا ... فشرُّ الناس مَن يهوى السبابا
ومَن هاب الرجال تهيَّبوه ... ومَن حقر الرجال فلن يهابا
ومَن قضت الرجال له حقوقًا ... ولم يقض الحقوق فما أصابا

وقال آخر:

إذا كنت في قومٍ فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرءِ لا تسأل وسَلْ عن قرينه ... فكلُّ قرينٍ بالمقارن يقتدي

قال أحدهم:

إن النفوس لأجنادٌ مجندة ... بالإذن من ربّنا تجري وتختلفُ
فما تعارف منها فهو مؤتلف ... وما تناكر منها فهو مختلقُ

وقيل عن لسان أحد الأئمة:

سأله رجل قال: يا مولاي، إني أرى الشخص فأُحبُّهُ وأشعر أني أعرفه قبل الآن. فقال: ربما تكون روحه قريبة روحك أو أختها أو حبيبتها. ثم قال:

الأرواح جنود مجندة؛ مَن تحاب هناك تحابَّ هنا، ومَن تخاصم هناك تخاصم هنا.

قال الحسن بن رجاء:

وكن معدنًا للحلم واصفح عن الأذى ... فإنك راءٍ ما عملت وسامعُ
وأحبب إذا أحببت حبًّا مقاربًا ... فإنك لا تدري متى أنت نازعُ
وأبغض ما أبغضت غير مباينٍ ... فإنك لا تدري متى أنت راجعُ

قال أبو جعفر الشيباني:

أتانا يومًا أبو ميَّاس الشاعر ونحن في جماعة فقال: ما أنتم فيه وما تتذاكرون؟ قلنا: نذكر الزمان وفساده. قال: كلا، إنما الزمان وعاء. وما ألقي فيه

من خير أو شر كان على حاله. ثم أنشد:

أرى حُللًا تصانُ على أناسٍ وأخلاقًا تداس ولا تصانُ
يقولون الزمان به فسادٌ وهم فسدوا، وما فسَد الزمانُ

وكتب عقيل بن أبي طالب لأخيه الإمام علي (ع) يسأله عن أحواله فكتب إليه يقول:

فإن تسألني كيف أنت فإنني جليدٌ على غضّ الزمان صليبُ
عزيزٌ عليَّ أن ترى بي كآبةً فيفرحَ واشٍ أو يُساءَ حبيبُ(١)

في آداب المعاشرة

وأما آداب المعاشرة فالبشاشة، والبشر، وحسن الخلق، والأدب. فعن جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ قال: «من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا، والمصافحة إذا تلاقوا».

كان القعقاع بن شور الهذلي إذا جالسه رجل يجعل له نصيبًا من ماله ويعينه على حوائجه. ودخل يومًا على معاوية فأمر له بألف دينار، وكان هناك رجل قد فسح له المجلس فدفعها إليه أي للذي فسح له، فقال:

وكنت جليسَ قعقاعِ بن شور وما يَشْقَى بقعقاعٍ جليسُ
ضحوك السِّن أن نطقوا بخير وعند الشر مطرافٌ عبوس

قال ابن عباس في أدب المجالسة: لجليسي عليَّ ثلاث: أن أرمقه بطرفي إذا أقبل وأُوسع له إذا جلس، وأُصغي له إذا حَدَّث.

ويقال: لكل شيء محل، ومحل العقل مجالسة الناس.

ومثل الجليس كمثل العطّار، إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته.

كانت تحية العرب: صَبَحَّتْكَ الأنعمة، وطيِّبُ الأطعمة. ونقول أيضًا: صبحتك الأفالح وكل طير صالح.

---

(١) العقد الفريد: ٢/ ١٤١.

وقيل: أول ما يتعين على الجليس الإنصاف في المجالسة، بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه، فيكون كل منهما في محله.

قال الإمام الصادق عليه السلام: إذا دخلت منزل صديقك فأقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدر. وينبغي للإنسان أن لا يُقْبِلَ بحديثه على مَن لا يُقبلُ عليه. فقد قيل: إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله. ولا يبتدع كلامًا لا يليق بالمجلس. فقد قيل: لكل مقام مقال. وخير القول ما وافق الحال.

قال أبو العباس السفاح: ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي؛ لم يُعِدْ عليَّ حديثًا قط وقيل: إن أبا العباس كأن يحدثه يومًا، إذ عصفت الريح فأرمت طستًا من سطح إلى المجلس فارتاع مَن حضره ولم يتحرك الهذلي. ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح... فقال: ما أعجب شأنك يا هذلي! فقال: إن الله يقول: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: الآية ٤]. وإنما لي قلب واحد، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال. فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها، ولا وجمت لها. فقال السفاح: لئن بقيت لك لأرفعن مكانك.

كان ابن خارجة يقول: ما غلبني أحد قط غلبةَ رجل يصغي إلى حديثي.

قيل: المودة طلاقة الوجه والتودُّد إلى الناس. وقيل؛ البشر يدل على السخاء. كما يدُلُّ النور على القمر.

وقيل من السُّنَّة: إذا حدَّثت القوم فلا تقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحدٍ نصيبًا.

وقيل: إذا أردت حسن المعاشرة فألقَ عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة، ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات. وإذا جلست فلا تتكبر على أحد. وتحفظ من تشبيك أصابعك ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بخواتمك. وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك وكثرة بصاقك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس، وفي الصلاة.

وليكن مجلسك هادئًا. وحديثك منظومًا مرتبًا، وأصغ إلى الكلام، واسكت عن المضاحك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزيين، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع الناس على الظلم، ولا تهازل أمَتَكَ ولا عبدك فيسقط وقارك.

قال النبيّ ﷺ: «مَن جلس في مجلسي فكثر فيه لغطه. فقال: قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، وأشهد أن لا إلٰه إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، غفر له ما كان في مجلسه ذاك».

وقال بعضهم:

مَن لم يكن عقله مؤدبه ... لم يغنه واعظٌ من النسب
كم من وضيع الأصول في أُمم ... قد سوَّدوه بالعقل والأدب

أدب الرجل وأخلاق الصحاب

قال بعضهم:

السبعُ سبعٌ ولو كلَّت مخالبه ... والكلب كلب ولو بين السباع رُبي
وهكذا الذهب الإبريز خالطهُ ... صفر النحاس وكان الفضل للذَّهب
لا يُعجبنك أثوابٌ على رجلٍ ... دع عنك أثوابه وانظر إلى الأدب
فالعود لو لم تُفحْ منه روائحهُ ... لم يفرِق الناسُ بين العود والحطب
وليس يسودُ المرءُ إلا بنفسه ... وإن عدَّ آباءً كرامًا ذوي نسب
إذا العودُ لم يثمر ولو كان شعبةً ... من المثمرات اعتدَّه الناس من حطب

وقال آخر:

قد ينفع الأدبُ الأحداثَ من صغرٍ ... وليس ينفع بعد الشيبة الأدبُ
إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت ... ولن يلين إذا قوَّمتهُ الخشبُ

وقال أبو تمام:

إذا جاريت في خُلق دنيئًا ... فأنت ومَن تجاريه سواءُ
رأيتُ الحرَّ يجتنب المخازي ... ويحميه عن الغدر الوفاءُ
وما من شدَّةٍ إلّا سيأتي ... لها من بعد شدَّتها رخاءُ
لقد جرَّبتُ هذا الدهر حتى ... أفادتني التجاربُ والعناءُ
يعيش المرءُ ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاءُ
إذا لم تخشَ عاقبة الليالي ... ولم تستح فاصنع ما تشاء

وقال أبو فراس الحمداني في نتيجة الاختبار والتجارب:

لا أشتري بعد التجارب صاحبًا ... إلّا وددتُ بأنني لم أشرِهِ
وتركت حلو العيش لم أحفل به ... لما رأيت أغره في أمرِهِ
والمرءُ ليس بغانم في أرضِهِ ... كالصقر ليس بصائدٍ في وكرِهِ

الصديق الصدوق والعدو الحسود

قال الطغراني في المقارنة بين الصديق والعدو:

جامل عدوّك ما استطعت فإنهُ ... بالرفق يطمع في صلاح الفاسدِ
واحذر حسودك ما استطعت فإنهُ ... إن نمت عنه فليس عنك براقدِ
إن الحسود وإن رآك تودُّدًا ... منه أضرُّ من الغدوِّ الحاقدِ
ولربما رضي العدوُّ إذا رأى ... منك الجميل فصار غير معاندِ
ورضا الحسود زوالُ نعمتك التي ... أوتيتها من طارف أو تالد
فاصبر على غيظ الحسود فناره ... ترمي حشاه بالعذاب الخالدِ
إذا ما رأيت النار تأكل نفسها ... حتى تعود إلى الرماد الهامدِ

الرأي والاستشارة والعزم

قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩]. واختلف أهل التأويل في أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة: أحدها: أنه أمره بها في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيعمل عليه. وهذا قول الحسن. ثانيها: أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل، وهذا قول الضحاك. ثالثها: أنه أمره بمشاورتهم ليستنَّ به المسلمون وإن كان في غنية عن مشورتهم.

سمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن يترددا

فأضاف إليه قوله:

وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلًا ... فإن فساد العزم أن يتقيَّدا

ولمحمد بن إدريس الطائي:

ذهب الصواب برأيه فكأنما ... آراؤه اشتقت من التأييد
فإذا دجا خطب تبليج رأيه ... صبحًا من التوفيق والتسديدِ

ولمحمد بن الورّاق:

إن اللبيب إذا تفرق أمره ... فَتَقَ الأمورَ مناظرًا ومساورا
وأخُو الجهالة يستبدُّ برأيه ... فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

قال الإمام جعفر الصادق: لا تكونن أول مشير، وإياك والرأي الخطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشيرَن على مستبدٌ برأيه، ولا متلونٍ، ولا على لحوح.

وقيل: ينبغي أن يكون المستشار صحيح العلم، مهذب الرأي. فليس كل عالم يعرف الرأي الصائب. وكم من نافذٍ في شيء ضعيف في غيره. قال أبو الأسود الدؤلي:

وما كل ذي نصح بمؤتيك نُصْحَهُ ... وما كلُّ مؤتٍ نصحه بلبيبِ
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد ... فحق له من طاعةٍ بنصيبِ

لما أراد نوح بن مريم قاضي مرو، أن يزوج ابنته استشار رجلًا مجوسيًا، كان جارًا له... فقال: سبحان الله! الناس يستفتونك وأنت تستفتيني؟! قال: لا بد أن تشير علي. قال: إن كسرى ملك الفرس كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب يختار الحسب، ورئيسك محمد كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدي.

وقيل: إذا استجار الرجل ربه، واستشار صحبه، وأَجْهد رأيه، فقد قضى ما عليه ويقضي الله في أمره ما يحب.

النصيحة

ومما جاء في النصيحة:

اعلموا أن النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين، من سنن المرسلين. قال الله تعالى إخبارًا عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ

أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: الآية ٣٤]. وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٣].

وقال صالح عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٩].

ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن الدين نصيحة، إن الدين نصيحة، إن الدين نصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين ولعامتهم». فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله، وتنزيهه عمّا ليس له بأهل، والقيام بتعظيمه، والخضوع له ظاهرًا، وباطنًا، والرغبة في محابه، والبعد عن مساخطه، وموالاة مَن أطاعه ومعاداة مَن عصاه، والجهاد في رد العصاة إلى الطاعة قولًا وفعلًا. والنصيحة لكتابه إقامته في التلاوة، وتحسينه عند القراءة، وتفهم ما فيه، والذبّ عنه من تأويل المحدثين وطعن الطاعنين، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين. قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [صَ: الآية ٢٩].

وقال ورقة بن نوفل:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم … إني النذير فلا يغرركُم أَحَدُ
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته … إلّا الإله ويردى المالُ والولدُ
لم تغن عن هرمزٍ يومًا ذخائره … والخلد قد حاولت عادٌ فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد؛ أني قد أعددتك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قد أعد لك مني قلبًا معقودًا بنصيحتك، ويدًا مبسوطة لطاعتك، وسيفًا مجردًا على عدوك. وأنشد الأصمعي:

النصح والنصيحة أن تعدت … هوى المنصوح عزلها القبولُ
فخالفت الذي لك فيه حظٌ … فنالك دون ما أملت غولُ

وقال أيضًا:

النصح أرخص ما باح الرجال فلا … تردُدْ على ناصح نصحًا ولا تَلُمِ
إن النصائحَ لا تخفى مناهِلُها … على الرجال ذوي الألباب والفَهَم

وقيل: أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده في يد الحجاج فلم يقبل منه وسار إليه فحبسه وحبس أهله فقال فيروز:

أمرتك أمرًا حازمًا فعصيتني … فأصبحت مسلوب الإرادة نادمًا
أمرتك بالحجاج إذ أنت قادر … فنفسك أولى اللوم إن كنت لائمًا
فما أنا بالباكي عليك صبابةً … وما أنا بالداعي لترجع سالمًا

وقيل: مَن اصفر وجهه من النصيحة، اسودَّ وجهه من الفضيحة.

وقال طرفة:

ولا ترفُدَنَّ النصح من ليس أهله … وكن حين تستغني برأيك غانيا
وإن امرأً يومًا تولى برأيه … فدعه يصيب الرشد أو يك غاويا

وفي مثله قال أحدهم:

فلا تمنحن الرأي مَن ليس أهله … فلا أنت محمود ولا الرأي نافِعُهُ

حفظ العهد والوفاء بالوعد

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المَائدة: الآية ١]، وقال جلّ ذكره وتقدّس اسمه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: الآية ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: الآية ٣٤] والآيات في ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصَّف: الآيتان ٢، ٣].

رُوِيَ في صحيح البخاري أن النبيّ ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، إذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

فالوفاء من نسيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون، وتصدق فيه خطوات الظنون. ويقال: الوعد وجه، والإنجاز محاسنه. والوعد سحابة، والإنجاز مطره. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لكل شيء رأس، ورأس المعروف تعجيله. وأنشدوا:

إذا قلت في شيء، نعم فأتمهُ فإنّ نعم دَيْنٌ على الحر واجبُ
وإلّا فقل لا، تسترح وترتح بها لـئـلا تـقـول الـنـاس إنـك كـاذبُ

وقال آخـــــر:

لا كلّف الله نفسًا فوق طاقتها ولا تـجـود يـدٌ إلا بـمـا تـجـدُ
فـلا تَـعِـدْ عَـدةً إلا وفـيـتَ بـهـا واحذر خلاف مقالٍ للذي تَعِدُ

وقال أعرابي: وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مطلٌ وتعليل. وقال: العذر الجميل. خير من المطل الطويل.

ومدح بشار يومًا خالد بن برمك، فأمر له بعشرين ألفًا، فأبطأت عليه. فقال لقائده[1]: أقمني حيث يمر. فمر فأخذ بلجان بغلته وقال:

أظلّت علينا منك يومًا سحابة وأضاء لها برق وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يجلي فييأس طامعٌ ولا غيثها يأتي فتروي عطاشها

فقال ابن برمك: لا نبرح حتى تؤتى بها.

وقال صالح اللخمي:

لئن جمع الآفات فالبخل شرها وشر البخل المواعيد والمطل
ولا خير في وعد إذا كان كاذبًا ولا خير في قولٍ إذا لم يكن فعل

وقيل: ماتت للهذلي أم ولد، فأمر المنصور الربيع[2] أن يعزيه ويقول له: إن أمير المؤمنين موجِّه إليك جارية نفيسه لها أدب وظرف، يسليك بها، وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة. فلم يزل الهذلي يتوقع وعد أمير المؤمنين.

ونسيه المنصور، فحج المنصور ومعه الهذلي. وطاف معه بالمدينة، حتى وصل إلى بيت عاتكة. فقال: يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة التي

(١) أي للرجل الذي يقوده في الطريق، لأن بشار بن برد كان أعمى.
(٢) هو الربيع بن سليمان وزير المنصور.

يقول فيها الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتغزَّلُ حذر العدا وبه الفؤاد موكَّلُ
أني لأمنحكَ الصدودَ وإنني قسمًا إليكَ مع الصدود لأميلُ

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه. فلما رجع المنصور أَمرَّ القصيدة على قلبه فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذي كان وعد به الهذلي فأنجزه له واعتذر إليه.

وقال الشاعر:

تعجيلُ وعد المرء أكرومةٌ تنشر عنه أطيب الذِّكرِ
والحرُّ لا يمطل معروفه ولا يليق المطْلُ بالحرِّ

وقال آخر:

ولقد وعدت وأنت أكرم واعد لا خير في وعد بغير تمامِ
أنعم عليّ بما وعدت تكرُّمًا فالمَطْلُ يُذهب بهجة الإنعامِ

وقال آخر:

وميعادُ الكريم عليك دينٌ فلا تزد الكريم على السلامِ
يذكره سلامك ما عليه ويغنيك السلامُ عن الكلامِ

وقال آخر:

شكاك لساني ثم أمسكت نصفه فنصف لساني بامتداحك ينطق
فإن لم تنجّز ما وعدت تركتني وباقي لساني بالمذمَّة مطلقُ

وقال آخر:

باتت لوعدك عيني غير راقدة والليل حي الدياجي منبت السحرِ
هذا وقد بتُّ من وعدٍ على ثقة فكيف لو بتُّ من هجرٍ على حذرِ

في العقل وسداد الرأي

قال أبو هلال: من العجب أن العرب تمثلت في جميع الخصال بأقوام جعلوهم أعلامًا فيها؛ فضربوا بها المثل إذا أرادوا المبالغة، فقالوا:

أحلمُ من الأحنف بن قيس، ومن قيس بن عاصم؛ وأجودُ من حاتم، ومن كعب بن أمامة؛ وأشجعُ من بَسطام؛ وأبيَنُ من سُحبان وائل؛ وأرمَى من ابن ثقن؛ وأعلمُ من دَغفل؛ ولم يقولوا: أعقلُ من فلان. فلعلهم لم يستكملوا عقل أحد، على حب ما قال الأعرابي، وقد قيل له:

حِدَّ لنا العقل. فقال: كيف أحُدُّه ولم أره كاملًا في أحدٍ قط؟

وقيل لحكيم: ما جماع العقل؟ قال: ما رأيتُهُ في أحدٍ فأصِفُهُ، وما لا يُوجَدُ كاملًا فلا حدَّ له.

قال عبد الله بن عمر بن معاوية عن عمر بن عتبة المعروف بالعتبي: العقل عقلان عقلٌ تفرَّد الله تعالى بصُنعه، وهو الأصل، وعقلٌ يستفيدُهُ المرءُ بأدبه، وهو الفرع، فإذا اجتمعا قوَّي كل واحد منهما صاحبه تقوية النار في الظُّلمة للبصر.

قال بعض الشعراء في هذا اللفظ، ويروى لعلي بن أبي طالب (ع):

رأيتُ العَقْلَ عقلانِ ... فمطبوعٌ ومسموعُ
ولا ينفعُ مسموعٌ ... إذا لم يكُ مطبوعُ
كما لا تنفعُ الشمسُ ... وضوءُ العين ممنوعُ

وتقول الآية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: الآية ٤٦].

وقال ابن دريد:

وأفضلُ قسم الله للمرءِ عقلُهُ ... فليس من الخيراتِ شيءٌ يقاربُهْ
فزَيْنُ الفتى في الناس صحةُ عقلِهِ ... وإن كان محظورٌ عليه مكاسبُهْ
ويُزري به في الناس قلةُ عقلهِ ... وإنْ كرُمَتْ أعراقُهُ ومناسبُهْ
إذا أكمل الرحمنُ للمرءِ عقلَهُ ... فقد كملت أخلاقُهُ ومآربُهْ(١)

لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض، أتاه جبريل (ع) فقال: يا آدم إن الله عزّ وجلّ قد حباك بثلاث خصال لتختار منها واحدة وتتخلى عن اثنتين. قال: وما هن؟ قال: الدين والعقل والحياء.

(١) نهاية الأرب: ٣/ ٢٣٧.

قال آدم: اخترت العقل. فقال: جبريل للحياء والدين: ارتفعا. قالا: لن نرتفع. قال جبريل (ع): أتعصياني؟ قالا: لا، ولكن أُمرنا أن لا نفارق العقل[1].

قال محمد عبد الله بن طاهر:

لعمرك لا بالمال يكتسب الغنى ولا باكتساب المال يكتسب العقلُ
وكم من قليلِ المال يُحْمَدُ فضلُهُ وآخرُ ذو مالٍ وليس له فضلُ
وما سبقتْ من جاهلٍ قطُّ نعمةً إلى أحدٍ إلا أضرَّ به الجهلُ
وذو اللب إنْ لم يُعْطِ أحْمَدْتَ عقلَهُ وإن هو أعطى زانه القول والعقلُ

وقال محمد بن مناذر:

وترى الناس كثيرًا فإذا عُدَّ أهل العقل قلّوا في العدَدْ
لا يقلُّ المرءُ في القصدِ ولا يُعدم القِلَّة من لم يقتصِدْ
لا تعِدْ شرًا وعد خيرًا ولا تخلف الوعدَ وعجِّل ما تَعِدْ
لا تقل شعرًا ولا تهمم به وإذا ما قلتَ شعرًا فأجِدْ

قال النبيّ ﷺ: «العقل نور في القلب نفرّق به بين الحق والباطل، وبالعقل عرف الحلال والحرام، وعرفت شرائع الإسلام ومواقع الأحكام، وجعله الله نورًا في قلوب عباده ويهديهم إلى هدى، ويصدهم عن ردى.

من جلالة قدر العقل أن الله تعالى لم يخاطب إلّا ذوي العقول. فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرّعد: الآية ١٩]، وقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: الآية ٧٠] أي عاقلًا، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قٓ: الآية ٣٧] أي لمن كان له عقل.

وقال النبيّ ﷺ: «العاقل يحلم عمن ظلم، ويتواضع لمن هو دونه، ويسابق إلى البر من فوقه، وإذا رأى باب برٍّ انتهزه، وإذا عرضت له فتنة اعتصم بالله وتنكبها»[2].

(١) المستطرف: ١/٢٣.
(٢) تنكبها: تجنّبها وابتعد عنها.

ولعبد الله بن محمد:

تأمل بعينك هذا الأنام ... وكن بعض من صبانه نُبْلُهُ
فحِلْيَةُ كلِّ فتى فضلُهُ ... وقيمةُ كل امرئٍ عقلُهُ
ولا تتكل في طلاب العلا ... على نسب ثابتٍ أصلهُ
فما من فتى زانه أهلهُ ... بشيء وخالفه فِعلهُ

وقال أحد الشعراء:

عقل هذا المرء مرآ ... ةٌ ترى فيها فِعَالَهْ
فإذا كان عليها ... صدأٌ فهو جَهالَهْ
وإذا أخلصه الله ... صقالًا وصفالَهْ
فهي تعطي كل حيٍّ ... ناظرٍ فيها مثالَهْ

قال بعضهم:

إذا أحببتُ أقوامًا فلاصِقْ ... بأهل العقل منهم والحياءِ
فإنَّ العقل ليس له إذا ما ... تفاضلتِ الفضائلُ من كَفَاءِ

ولبعضهم:

العقل يأمر بالعفاف وبالتُّقى ... وإليه يأوي الحلم حين يؤولُ
فإن استطعت فخذ بفضلك فضله ... إن العقول يُرى لها التفضيلُ

وقال أبو العلاء المعري:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقال آخر:

لا تراني أبدًا أكرمُ ذا المال لمالِهْ
لا ولا تُزري بمن يعقل عندي سوءُ حالِهْ
إنما أقضي على ذاك وهذا بفعالِهْ
أنا كالمرآة ألقى كل وجهٍ بمثالِهْ
كيفما قلّبني الدهر يجدني من رجالِهْ(١)

---

(١) العقد الفريد: ١/١١١ ـ ١١٥.

وقالوا: لتجربة مرآة العقل. ولذلك حمدت آراء المشايخ، حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار، لا يطيش لهم سهم، ولا يسقط لهم فهم. وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع، فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة.

قال الشاعر:

ألم نر أن العقل زَيْنٌ لأهله ولكن تمام العقل طول التجاربِ

وقال آخر:

إذا طال عمر المرء في غير آفةٍ أفادت له الأيام في كرِّها عقلا

وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان، كما يعيش الأسد بقوته حيث كان.

قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقلٌ فإنه وإن كان ذا بيتٍ على الناس هيِّنُ
ومن كان ذا عقلٍ أجلّ لعقله وأفضل عقل عقل من يتديَّنُ

وقال كسرى أنو شروان: أربعة تؤدي إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأي إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير.

ويروى عن الإمام علي عليه السلام أنه كان يترنم بهذه الأبيات:

إن المكارم أخلاق مطهرةٌ فالعقل أوّلها والدينُ ثانيها
والعلمُ ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والعرف سادسها
والعين تعلم من عينَيْ محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أني لا أحدقها ولست أرشد إلا حين أعصيها

مما قيل في الدَّيْن

رُوِيَ عن علي عليه السلام قال: كان النبيّ ﷺ إذا أتى جنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل، ويسأل عن دَيْنه، فإن قيل عليه دين كفَّ الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دين صلّى عليه.

قال أحدهم:

لقد كان القريضُ سمير قلبي فألهتني القروضُ عن القريضِ

وقال غيلان بن مردة التميمي:

وإني لأقضي الدين بالدين بعدما ... يرى طالبي بالدين أن لست قاضيا

فأجابه ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيتَ الدينَ بالدين لم يكن ... قضاءً ولكن ذاك غرمٌ على غُرمِ

وقيل: الدين همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار.

قال الزهري: لا همَّ إلا هم الدين، ولا وجع إلا وجع العين. وعن النبيّ ﷺ قال: «مَن تزوَّج امرأةً بصداق ينوي أن لا يقضيه فهو سارق».

قيل: أُتيَ النبيّ ﷺ بجنازة، فلما قام ليكبِّر سأل: «هل عليه دين»؟ قالوا: ديناران يا رسول الله. فعدّل النبيّ ﷺ عنه، وقال: «صلّوا عليه». فقال علي: هما عليَّ يا رسول الله. فعدل النبيّ وصلّى عليه.

ثم قال لعليّ: «جزاك الله خيرًا وفكَّ الله رهانك كما فككت رهان أخيك إنه ليس من ميتٍ يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه. ومَن فكَّ رهان ميِّت فكَّ الله رهانه يوم القيامة»[1].

وقال الإمام الشافعي في الحظ والغنى:

لو أنَّ بالحيل الغنى لوجدتني ... بنجوم أفلاك السماء تعلُّقي

لكن من رُزِقَ الحِجَى حُرِمِ الغنى ... ضِدَّان مفترقان أيَّ تفرقِ

فإذا سمعتَ بأنَّ محرومًا أتى ... ماءً ليشربه فغاض فصدِّق

أو أنَّ محظوظًا غدا في كفِّهِ ... عودٌ فأورق في يديه فحقِّق[2]

سارقٌ يقطع سارقًا

مرّ عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقًا. فقال: سبحان الله! سارق العلانية يقطع سارق السر.

(١) المستطرف: ١/ ١٥٥.
(٢) كشكول البهائي، ص ٢٨١.

ومما قيل في العداوة والبغضاء[1]

قد ذكر الله العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: الآية ١٤] ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: الآية ٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: الآية ٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوِّك نفسك التي بين جنبيك» وقال زياد بن عبد الله:

فلو أني بُليتُ بهاشميٍّ ... خؤلته بنو عبد المدانِ
صِبرتُ على عداوته ولكن ... تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

وعن أبي حيان: قال لقمان: نقلت الصخور وحملتُ الحديد، فلم أر شيئًا أثقلُ من الدين. وأكلت الطيبات. وعانقتُ الحسان، فلم أرَ شيئًا ألذُّ من العافية.

وأنا أقول: لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء، خصوصًا إذا كانوا مساهمين في نسب، أو مجاورين في بلد. اللهم أني أعوذ بك من تتابع الإثم، وسوء الفهم، وشماتة ابن العم.

وأنشد الجاحظ:

تقول العاذلات تسلَّ عنها ... وداوِ عليلَ قلبك بالسلوِّ
وكيف ونظرة منها اختلاسًا ... ألذُّ من الشماتة بالعدوِّ

قال الجاحظ: ما رأيت سنانًا أنفذ من شماتة الأعداء.

قال حكيم: لا نأمن عدوَّك وإن كان ضعيفًا فإن القناة قد تقتل وإنّ عدمت السنان. قال الشاعر:

فلا تأمن عدوّك لو تراه ... أقلَّ وإذا نظرت من القُراد
فإنّ الحرب ينشأ من جبان ... وإنّ النار تُضرم من رماد

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب:

كفاية الله خير من توقّينا ... وعادة الله في الماضين تكفينا

---

(١) المستطرف: ١/٣٠٥.

كاد الأعادي فلا والله ما تركوا قولًا وفعلًا وتلقينا وتهجينا
ولم نزد نحن في سرٍّ وفي علنٍ على مقالتنا يا رب أكفينا(١)

ومما قيل في الحسد

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: الآية ٥٤] وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمةٍ محسود».

قيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك؟ قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة. فذكر جميع دواعي الحسد.

قال المغيرة شاعر آل المهلب(٢):

آل المهلب قومٌ إن مدحتهم كانوا الأركام أباءً وأجدادا
إنَّ العرانين تلقاها محسَّدةً ولا ترى للئام الناس حُسَّادا

في نوابع الحكم: الحسَدُ حسك، مَن تعلق به هلك.

وقال أحدهم:

إني حسدتُ فزاد الله في حَسَدي لا عاش مَن عاش يومًا غير محسودِ

وقال نصر بن سيار(٣):

إني نشأت وحسادي ذوو عددٍ ياذا المعارج لا تُنْقِصْ لهم عددا
إن يحسدوني على ما بي لما بهم فمثل ما بي مما يجلب الحسدا

وقالوا: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد.

ومما قيل في الحياء

قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوَّة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

(١) المستطرف: ١/٣٠٥.
(٢) هو المغيرة بن عمرو بن ربيعة الحنظلي المتوفى سنة ٩١ هـ/ ٧١٠ م. شاعر إسلامي، كان من رجال المهلب بن أبي صفرة. اشتهر بابن الحبناء، نسبة إلى أمه. وقيل: «هبناء» لقب غلب على أبيه لجبنه.
(٣) نصر بن سيّار (٦٦٦ ـ ٧٤٨ م). أمير من الدهاة الشجعان. كان شيخ مضر بخراسان، ثم وُلي إمرتها بعد وفاة أسد بن عبد الله القسري.

وقال علي بن أبي طالب: مَن كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه.

وعن زيد بن علي بن الحسين: مَن لم يستح فهو كافر. وقال الخوّاص إن العباد عملوا على أربع منازل.

على الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء. فأرفعها منزلة الحياء، لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال. قالوا: سواء علينا رأيناه أو رآنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء.

في الغرور

ومما قيل في الغرور الذي يحمل صاحبه على توهُّم أمور غير صحيحة قصيدة إيليا أبو ماضي «النجوم والضفادع» من ديوانه «الجداول». وأبو ماضي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧ م) من كبار شعراء المهجر ومن أعضاء «الرابطة القلمية» فيه. ولد في قرية «المحيدثة» اللبنانية وأقام في الإسكندرية سنة ١٩٠٠ يبيع السجائر ثم هاجر إلى أميركا سنة ١٩٠١ وتوفي فيها.

صاحت الضفدعَ لما شاهدت ... حولها في الماء أظلال النجومْ
يا رفاقي، يا جنودي: احتشدوا ... عَبَرَ الأعداءُ في الليل التخومْ
فاطردوهم واطردوا الليل معًا ... إنه مثلهُمُ باغٍ أثيمْ
زعقةٌ صار صداها في الدجى ... فإذا الشطُّ شخوصٌ وجسومْ
في أديم الماء من أصواتها ... رعدةُ الحمَّى وفي الليل وجومْ
فرَّق الفجرُ جلابيب الدجى ... ومحا من صفحة الأرض الرسومْ
فمشتْ في سربها مختاله ... كمليك ظافر بين قرومْ
ثم قالت: لكم البشرى ولي ... قد نجونا الآن من كيدٍ عظيمْ
نحن لو لم تقهر الشهب التي ... هاجمتنا لأذاقتنا الحُتومْ
وأقامت بعدنا من أرضنا ... في نعيم لم تجده في الغيومْ
أيها التاريخ سجِّلْ أننا ... أمةٌ قد غلبَتْ حتى النجوم

ومن الغرور الذي يودي بصاحبه إلى التهلكة، قصيد أمير الشعراء أحمد شوقي: ملك الغربان.

كان للغربان في العصر مليك ... وله في النخلةِ الكبرى أريكْ
فيه كرسيٌ وحذرٌ ومهود ... لصغار الملك أصحاب العهودْ

جاءه يومًا ـ ندورُ ـ الخادمُ وهو في الباب الأمين الحازمُ
قال: يا فرع الملوك الصالحين أنت لا زلْتَ تحبُّ الناصحينْ
سوسةٌ كانت على القصر تدور جازتِ القصر ودبَّتْ في الجذورْ
فابعثِ الغربان في إهلاكها قبل أن نهلَكَ في أشراكها
ضحكَ السلطان من هذا المقال ثم أدنى خادمَ الخيرِ وقال
إنا ربُّ الشوكةِ الضاني الجناح أنا ذو المنقَار غلّابُ الرياح
أنا لا أنظر في هذي الأمورْ أنا لا أبصرُ تحتي يا ندورْ
ثم لما كان عامٌ بعد عام قام بين الريح والنخل خصامْ
وإذا النخلة أقْوَى جذعها فبدا للريح سهلًا قلعُها
فهوَتْ للأرض كالتَّلِّ الكبير وهوى الديوان وانقضَّ السرير
فدعا السلطان ذا الخطب المهوّل ودعا خادمه الغالي يقول:
يا ندور الخير أسعف بالصياح ما ترى ما فعلت فينا الرياح؟
قال: يا مولاي لا تسأل ندورْ أنا لا أنظرُ في هذي الأمورْ

في الفِطرة والطِّباع

قال الإمام علي بن أبي طالب مخاطبًا قومًا قست قلوبهم وفسدت فطرتهم:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٧٤].

وفي قدرة العقل على التمييز بين الخطأ والصواب يقول الإمام علي:

كفاك عقلك ما أوضح لك سُبُل غيِّكَ من رُشْدِك.

وفي تبيان الحق يقول زهير بن أبي سلمى:

فإن الحقَّ مقطعه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جلاءُ

ويقول الشاعر في قيل الإنسان إلى الشاحنة والعدوان:

كلما أنبتَ الزمان قناةً ركَّبَ المرءُ في قناةٍ سِنانا

بيد أن مظهر المرء لا يدلُّ دائمًا على مخبره، ومن هنا يقول المتنبي:

إن السلاح جميع الناس تحمِلهُ وليس كل ذوات المخلبِ السبُعُ

ويقول النابغة في ذمّ الطمع وعاقبته الوخيمة:

الرفق يمنٌ والأناة سعادة فاستأنِ في أمرٍ تُلاقِ نجاحا
واليأس عمَّا فات يعقبُ راحةً ولرُبَّ مُطمعةٍ تعود ذُباحا

ويقال: الطمعُ ذُباح؛ وهو داءٌ في الحلق.

قيل لابن المقفع: مَن أدَّبك كل هذا الأدب؟

قال: نفسي.

فقيل له: أيؤدب الإنسان نفسه بغير مؤدب؟

فأجاب: كيف لا. كنت إذا رأيت في غيري حسنًا أتيته، وإن رأيت قبيحًا أبيته، وبهذا وحده أدَّبْتُ نفسي.

وقال أحمد شوقي:

وقد أنسى الإساءة من حسودٍ ولا أنس الضغينة والفعالا

قال قوم من الخوارج لمحمد بن الحنفية. لم غرَّر بك أبوك في الحروب ولم يغرر بأخويك الحسن والحسين؟

فأجابهم: لأنهما عيناه، وأنا يمينه؛ فهو يدفع عن عينيه بيمينه.

وهذا جواب من يُحسن التخلُّص من كيد الحاسدين.

سُئِلَ إبراهيم بن أحمد: لم لا تصحب الناس؟

فقال: إن صحبت من هو دوني آذاني بجهله، وإن صحبت مَن هو فوقي تكبَّر علي، وإن صحبتُ مَن هو مثلي حسدني.

قال إيليا أبو ماضي:

قال العدا حولي علت أصواتهم أَأُسَرُّ والأعداء حولي في الحمى
قلت ابتسم لم يقصدوك بذمهم لو لم تكن منهم أجلَّ وأعظما

سأل الإمام أحمد بن حنبل حاتم الأصم وكان من الحكماء: كيف السبيل إلى السلامة من الناس؟

فأجاب: تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم، ويؤذونك ولا تؤذيهم، وتقضي مصالحهم ولا تكلفهم بقضاء مصالحك.

قال: إنها صعبة يا حاتم!

فأجاب: ولَيْتَكَ تسلم.

قال أبو العلاء المعري:

ألا إنـمـا الأيـامُ أبـنـاء واحـد وإن الـلـيـالـي كـلهـا أخـواتُ
فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذي جاءت به السنواتُ

ما يُستحسن من المرأة عند العرب خَلْقًا وخُلُقًا:

قال السيد محمود شكري الآلوسي في كتابه «بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب»:

وأحسن ما رأيك من وصف النساء خلقًا وخُلُقًا ما ذكره كثير من أئمة الأدب ومنهم الميداني في كتابه «مجمع الأمثال» عند قولهم: «ما وراءك يا عصام؟». قال المفضل: أول مَن قال ذلك الحارث بن عمرو ملك كندة، وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم وكمالها وقوة عقلها، دعا امرأة من كندة، ذلك عقل ولسان وأدب، وقال لها: اذهبي حتى تعلمي عِلْم ابنة عوف، فمضت حتى انتهت إلى أمها وهي أمامة بنت الحارث، فأعلمتها ما قدمت له فأرسلت إلى ابنتها، وقالت: أي بنية، هذه خالتك أتتك لتنظر إليك فلا تستري عنها شيئًا إن أرادت النظر من وجه أو خلق، وناطقيها إن استنطقتك. فدخلت فنظرت ما لم تر قط. فخرجت من عندها، وانطلقت إلى الحارث. فلما رآها مقبلة قال: ما وراءكِ يا عصام؟ قالت: «صرَّحَ المخضُ عن الزُّبَد» رأيت جبهة كالمرآة المصقولة، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل، إن أرسَلَتْه خِلْتَهُ سلاسل؛ وإن مشطت قلت عناقيد جلاها الوابل[١]، وحاجبين كأنما خُطّا بقلم، أو سُوِّد بحُمَم[٢]، تَقَوّسا مثل عين الضبية العبهرة[٣] بينهما أنف كحدِّ السيف الصنيع[٤]. حَفّت به وجنتان كالأرجوان، في بياضٍ كالجُمان، شُقَّ فيه فم كالخاتم، لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غُرّ، ذات

(١) الوابل: المطر الشديد الضخم القطر. (٢) الحُمم: الفحم.

(٣) العبهرة: الممتلئة الجسم، والناعمة الطويلة الجامعة للحسن.

(٤) السيف الصنيع: الصقيل المجرّب.

أُشُر[١]، تقلب فيها لسانًا بفصاحة وبيان، بعقل وافر، وجواب حاضر، تلتقي فيه شفتان حمراوان تجلبان ريقًا كالشهد إذا دُلِك، في رقبة بيضاء كالفضة، رُكبت في صدر كصدر تمثال دُمية، وعَضُدان مُدْمَجان يتصل بهما ذراعان، ليس فيهما عظم يُمَسُّ ولا عرقٌ يُحَسّ. نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين، يخرقان عليهما ثيابها، تحت ذلك بطنٌ طُويَ طيّ القُباطيّ المدمجة (ثياب قبطية) كُسِّر عُكَنا[٢] كالقراطيس المدرجة، تحيط بتلك العُكن برّة كالدهن المجلدّ.

خلف ذلك ظهر كالجدول، ينتهي إلى خصْر لَوْلَا رَحْمَةُ الله لانْبَتَر. لها كفل يُقعدها إذا نهضت، ويُنهضها إذا قعدت، كأنهُ دِعْصُ[٣] رمل لبَّده سقوط الطلّ، تحمله فخذان لفًّا كأنما قُلبا على نضد جمان، تحتها سَاقَان خَدِلَتَان[٤] كالبردتين دُشّيَتا بشعرٍ أسود، كأنه حلقُ الزَّرد، يحملُ ذلك قدمان كحدو اللسان، فتبارك الله مع صغرهما وكيف تطيقان حمل ما فوقهما. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجها إياه.

وبعث بصداقها فجهِّزت، فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها: أي بنية، إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعولة للعاقلة ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه، ولكن الناس للرجال خلقن ولهن خلق الرجال. أي بنية، إنك فارقت الجوّ الذي منه خرجت، وخلفت العشَّ الذي فيه درجت، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا، فكوني له أمةً يكنْ لك عبدًا وشيكًا.

يا بنية، احملي عني عشر خصال يكنَّ لك ذخرًا وذكرًا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينيه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عيناه على قبيح، ولا يشم منك إلا طيبَ ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدو عنه حين منامه. فإن حرارة الجوع مَلْهَبَة، وتنغيص النوم مبغضة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على

(١) أُشُر الأسنان: التحزيز الذي فيها، ويكون خلقة.

(٢) العكن: هي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنًا.

(٣) الدعص: الكثيب، قطعة من الرمل مستديرة. (٤) خدلتان: ممتلتان ضخمتان مستديرتان.

نفسه وحشمة عياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء[١] على العيال والحشم حسن التدبير. ولا تفشي له سرًا، ولا تعصي له أمرًا، فإنك إن أفشيت له سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أوغرت صدره.

ثم أتَّقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا[٢]، والاكتئاب عنده إن كان فرِحًا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير.

وكوني أشدُّ ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة، أطول ما تكونين له مرافقة.

واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت وكرهت والله يخير لك.

فحُمِلَتْ إليه عروسًا وعظم موقعها عند الحارث، وولدت له سبعة ملوك حكموا اليمن.

قال الألوسي:

وفي الشعر الجاهلي كثير من أوصاف النساء محمودة، من ذلك قول بعضهم في قصيدة طويلة مشهورة:

بيضاءُ قد لبس الأديم أد ... يم الحسن فهو لجلدها جلدُ
ويزين فَوْدَيها إذا حَسَرَت ... ضافي الغدائر فاحم جَعْدُ[٣]
فالوجه مثل الصبح مبيضٌ ... والفرع مثل الليل مسودٌّ[٤]
وجبينها صلْتٌ وحاجبها ... شَخْتُ المخطّ أزَجُّ ممتدُّ[٥]
وكأنها وَسْنَى إذا نظرت ... أو مُدْنَفٌ لمَّا يَفِقْ بعدُ[٦]

---

(١) الإرعاء: الإبقاء عليهم. (٢) الترح عكس الفرح.
(٣) الفود: معظم شعر اللحة مما يلي الأذنين وناحية الرأس. وقال ابن السكيت الفودان: الضفيرتان. والغذائر: ج غديرة وهي الذؤابة، والفاحم: الأسود والجعد من الشعر خلَاف السبط أو القصير منه. وحسرت المرأة خمارها، كشفته.
(٤) الفرع: الشعر التام ـ ويروى بدل مبيض (منبلج).
(٥) الصَّلْت الجبين: الواضح. وقد صلت صلوتة، والشَّخْت: الدقيق، والأزجّ الحاجب: الدقيق في طول.
(٦) الوسن بفتحتين: النعاس، ورجل وَسْنان وامرأة وسن بهما سِنة. المدنف: المريض الذي لازمه المرض.

وكانت العرب مع اعتبارهم هذه الأمور في المرأة يراعون شرف الفضيلة، وهم الذين ينتفي بهم العار، ويحصل بهم الاستكثار. وفي الحديث: «تخيّروا لنطفكم ولا تضعوها إلا في الأكفاء».

ورُوِيَ أن أكثم بن صيفي قال لولده: يا بنيَّ لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فإن المناكح اللئيمة مدرجة للشرف.

وقال أبو الأسود الدؤلي لبنيه: قد أحسنت إليكم صغارًا وكبارًا، وقبل أن تولدوا. قالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟ قال: اخترت لكم من الأمهات من لا تُسبُّون بها.

ومما امتدح به الرجال أيضًا العفّة وكرم النفس. وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ما وُصف لي أعرابيٌّ قط فأحببت أن أراه إلَّا عنترة بن شداد» لقوله:

وأغضُّ طَرْفي إن بَدَتْ لي جارتي ... حتى يواريَ جارتي مأواها

ومن شعر عنترة الذي يمتدح به أخلاقه وكرم نفسه وشجاعته قوله:

بَكَرَتْ تخوّفني المنون كأنني ... أصبحت عن غرض المنون بمعزلِ
فأجبتها: إن المنية منهلٌ ... لا بُدَّ أن أُسقى بكأسِ المنهل
فأقنَيْ حياءك (لا أباللكِ) واعلمي ... إني امرؤ سأموت إن لم أقتلِ
ولقد أَبيتُ على الطوى وأظلُّهُ ... حتى أنال به كريم المأكلِ

في الصدق والكذب

عن عبد الله بن عمر قال:

جاء رجل إلى النبيّ ﷺ وقال: يا رسول الله، ما عمل أهل الجنة؟ قال: الصدق، إذا صدق العبد برَّ، وإذا برَّ أمِنَ، وإذا أمِنَ دخل الجنة.

قال: يا رسول الله ما عمل أهل النار؟ قال: الكذب؛ إن العبد إذا كذب فَجَر، وإذا فَجَر كفر، وإذا كفر دخل النار.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ [الجاثية: الآية ٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٠٥﴾

[النّحل: الآية ١٠٥]، وقال في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار» ـ وقال ﷺ: «الكذب مجانب الإيمان». وقال ﷺ: «لا يجوز الكذب في جدٍّ ولا هزل».

قال عمرو بن العلاء القارىء: ساد عتبة بن ربيعة وكان مُمْلقًا، وساد أبو جهل وكان حَدَثًا، وساد أبو سفيان وكان بخيلًا، وساد ابن الطفيل وكان عاهرًا، وساد كليب بن وائل وكان ظلومًا، وساد عُيَيْنة وكان محمقًا، ولم يسد قطُّ كذاب. فصلح السؤدد مع الفقير والحداثة، والبخل والعهر والظلم والحمق، ولم يصلح مع الكذب، لأن الكذب يعمُّ الأخلاق كلها بالفساد.

قال يحيىٰ بن خالد: رأيت شرّيب خمر نزع، ولصًّا أقلع، وصاحب فواحش رجع ولم أر كذابًا رجع.

قال الأصمعي: قيل لرجل معروف بالكذب، هل صدقت؟ قال: أخاف أن أقول «لا» فأصدق وآفة الكذب النسيان ـ قال الشاعر:

ومِن آفة الكذابِ نسيان كذبِهِ وتلقاه ذا دهيٍ إذا كان كاذبا

وقال أبو تمام:

يا أكثر الناس وعدًا حشوَهُ خُلُقٌ وأكثر الناس قولًا حشوه كذِبُ

وقال الله تعالى في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٠].

وقال محمود بن أبي الجنود:

لي حيلة فيمن يَنمُّ وليس في الكذاب حيلة
مَن كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليلة

وقال الأبشيهي في المستطرف:

لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء، وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك. ثم رجع

إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين: أعلم أنك لو لم تولِّ هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف[1] ساكت. فقال معاوية: ما لك لا تقول يا أبا بحر؟ فقال: أخاف الله تعالى إن كذبت، وأخافكم إن صدقت. فقال: جزاك الله خيرًا عما تقول. فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب. فقال: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا من شرار الناس، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت.

فقال الأحنف: يا هذا أمسك. فإن ذا الوجهين خليقٌ أن لا يكون عند الله وجيهًا. وقيل: إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاطعين، أو أصلح بين الزوجين، ويُذمُّ الصدقُ إذا كان بخيبة. وقد رفع الحرج عن الكاذب في الحرب وعن المصلح بين المرء وزوجه.

وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه، يقوي بذلك جأشهم. فكانوا إذا رأوه مقبلًا إليهم قالوا: جاءنا بكذب.

في ذمّ الغيبة وتحريمها

قال الأبشيهي في «المستطرف»: قال محمد بن حزم:

أول مَن عمل الصابون سليمان، وأول مَن عمل السويق ذو القرنين، وأول مَن عمل خبز الجرداق نمرود، وأول مَن اغتاب آدم إبليس لعنه الله.

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بي إلى السماء وردت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء يأكلون لحوم الناس.

وقال أيضًا ﷺ: «إياكم والغيبة فإنها أشدُّ من الزنا».

قال كُثَيِّر عَزَّة:

وسعى إليَّ بعيبِ عَزَّةَ نسوةٌ　　　جعل الإلٰهُ خدودهنَّ نعالها

(١) الأحنف بن قيس: هو ابن معاوية بن حصين المري السعدي التميمي، أبو بحر، سيد تميم، واحد من العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يضرب به المثل في الحلم. أعتزل الفتنة يوم الجمل، وشهد صفين مع عليّ (ع) توفي سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١ م.

اغتاب رجل الحسن البصري، فأهدى له طبقًا من الرطب، فأتاه الرجل وقال له: أغتبتك فأهديت إليّ! فقال الحسن: أهديتَ إليّ حسناتك فأردت أن أكافئك.

وبعض المتفقهين والمتعبّدين يعرضون بالغيبة تعريضًا، تُفهم به كما تفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: الله يصلحنا؛ الله يغفر لنا؛ الله يصلحه؛ نسأل له العافية؛ نحمد الله الذي لم يبتلينا بالدخول على الظلمة؛ نعوذ بالله من الكبر؛ يعافينا الله من قلة الحياء؛ والله يتوب علينا... وما أشبهه ذلك مما يفهم تنقيصه. فكل ذلك غيبة محرّمة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعَام: الآية ٦٨].

ومما أنشدوه في هذا المعنى:

وسمعكَ صُنْ عن سماعِ القبيحِ كصونِ اللسان عن النطق بِهْ
فإنك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبهْ
وكم أزعج الحرص من طالب فوافى المنية في مطلبِهْ

وقال في شرح نهج البلاغة، من حديث البراء بن عازب:

خطب رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهن، فقال: «لا لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبّعوا عوراتهم، فإنه من تتبّع عورة أخيه تتبّع الله عورته، ومَن يتتبّع الله عورته يفضحه في جوف بيته».

قال الإمام علي (ع): يا عبد الله، لا تعجل في عيب أحد بذنوبه، فلعلّه مغفورٌ له. ولا تأمن على نفسك معصية، فلعلّك معذَّبٌ عليه. فليكفف مَنْ عِلمَ منكم عيب. غيره لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكرُ شاغلًا له على معافاته مما ابتُليَ به غيره.

رُوِيَ أن رجلين كانا عند باب المسجد، فمرَّ بهما مخنَّث، فترك ذلك في نفسهما، فقالا: لقد بقي عنده منه شيء، فأقيمت الصلاة، وصلّيا مع الناس وذلك يجول في أنفسهما. فأتيا عطاء بن رباح، فسألاه، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة، إن كانا صائمين أن يقضيا صيام ذلك.

في خطبة حجَّة الوداع: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام لحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. إن الله حرَّم الغيبة كما حرَّم المال والدم».

سُئل الفضيل بن عياض عن غيبة الفاسق، فقال: لا تشتغِل بذكره، ولا تعوِّد لسانك الغيبة. أشغل لسانك بذكر الله، وإياك وذكر الناس، فإن ذكر الناس داء، وذكر الله دواء.

أتى رجل عمرو بن عبيد الله ـ فقال له: إن الأسواريّ لم يزل يذكرك ويقول: عمرو الضال. فقال له: يا هذا، والله ما رعيتَ حقَّ مجالسة الرجل حين نقلت لي حديثه، ولا رعيتَ حقي حين بَلَّغتَ عن أخي ما أكرهه. أعلمه أن الموت يُعمُّنا، والبعث يحشرنا، والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا.

قيل: روى معاذ بن جَبَل أن رجلًا ذُكر عند رسول الله ﷺ فقال قوم: ما أعجزه! قال عليه السلام: «اغتبتم صاحبكم» ـ فقالوا: قلنا ما فيه ـ فقال: إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه».

قال: وقد احتجَّ الزاعمون أن لا غيبة في الدين: وهذا ليس بحجة ـ لأن الصحابة إنما ذكرَت ذلك في مجلس الرسول ﷺ لحاجتها إلى تعرّف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضها التنقُّص.

ومن كلام علي بن أبي طالب (ع): أيها الناس من عَرَفَ من أخيه وثيقة دين وسداد طريق فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال. أما إنه قد يرمي الرامي، وتخطىء السهام، ويحيل الكلام، وباطل ذلك يبور، والله سميع وشهيد.

قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ١٢].

من دعاء الإمام زين العابدين:

اللهم أعزَّني، ولا تبتلني بالكِبْر، واعصمني من الفخر. اللهم ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزًّا ظاهرًا إلا أحدثت

لي ذلّة باطنة عند نفسي. اللهم وسدِّدْ لي أن أعارض مَن غشَّني بالنصح، وأكافيء مَن قطعني بالصلة.

وقيل في جشع بني الإنسان:

الذئب يترك شيئًا من فريسته ... للجائعين من الذؤبان إن شبعا
والمرء وهو يداري البطن من بشمٍ ... يسعى لسلبِ طاوي البطن ما جمعا

قال الحجاج لامرأة من الخوارج: والله لأعذبنّكم عذابًا. ولأحصدنّكم حصدًا.

فقالت: أنت تحصد والله يزرع.

وقال موسى بن عبد الله في سوء الزمان:

تولّت بهجة الدنيا ... فكل جديدها خَلِقُ
وخان الناس كلهم ... فما أدري بمن أثقُ
رأيتُ معالم الخيرا ... تِ سُدَّت دونها طرقُ
فلا حسبٌ ولا نسبٌ ... ولا دينٌ ولا خُلُقُ
فلستُ مصدِّقُ الأ ... قوام في شيء وأن صدقوا

قال أبو العلاء المعري يصف فساد الساسة والحكام:

يسوسون الأنام بغير عقل ... وينفُذُ أمرهم فيقال سَاسَهْ
فأفٍّ من الحياة وأفٍّ مني ... ومن زمنٍ سياستُه خساسهْ

وقال:

مُلَّ المقامُ فكَمْ أعاشر أمةً ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدَوْا مصالحها وهم أجراؤها

في تحريم السعاية بالنميمة

جاء في المستطرف، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلّغني أحدٌ من أصحابي عن أحد شيئًا، فإني أحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر. ومن الناس مَن يتلوّن ألوانًا، ويكون بوجهين ولسانين، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا».

قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله:

قل للذي لست أدري مِن تَلوُّنِهِ ... أَنَا صحٌ أم على غِشٌ يناجيني
أني لأكثِرُ مما سمتني عجبًا ... يدٌ تشُجُّ وأخرى منك تأسوني
تغتابني عند أقوام وتمدحني ... في آخرين وكلٌّ عنك يأتيني
هذان شيئان قد نافيت بينهما ... فأكفُفْ لسانك عن شتمي وتزييني

وقيل: لألفُ لحوح جموح، خيرٌ من واحد مُتلوِّن.

وأنشد بعضهم:

مَن نمَّ في الناس لم تُؤمن عقاربه ... على الصديق ولم تُؤمن مساعيه
كالسيل بالليل لا يدري به أحدٌ ... من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعهد منه كيف ينقُضُهُ ... والويل للودِّ منه كيف يفنيه

وقال آخر:

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا ... تأمَنْ غوائل ذي وجهين كيَّادِ

وقال في المستطرف:

كلّم معاوية الأحنف[١] بشيء بلغه فأنكره الأحنف، فقال له معاوية: أبلغني عنك الثقة. فقال له الأحنف: إن الثقة لا يُبْلِغ مكروهًا. وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية. وإذ أتاه ساعٍ يقول له: إن صدقتنا أبغضناك، وإن كذبتنا عاقبناك، وإن استقلنا أقلناك - وقال في جواب كتاب ساعٍ: نحن نرى أن قبول السعاية شرٌ من السعاية. لأنَّ السعاية دلالة، والقبول إجازة. وليس من دلَّ على شيء - وأجز به كمن قبله وأجازه. فاتقوا الساعي. فإنه لو كان في سعايته صادقًا. لكان في صدقه لئيمًا، إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العودة. وقيل: مَن سعى بالنميمة حَذِرَهُ الغريب ومقته القريب.

---

(١) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي - أبو بحر - سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان. وُلد في البصرة وأدرك النبيّ ﷺ ولم يره. اعتزل الفتنة، ثم شهد صفين مع علي (ع) ولما انتظم الأمر لمعاوية عاتبه، فأغلظ له الأحنف في الجواب فسُئلَ معاوية عن صبره عليه، فقال: هذا الذي إذا غضب، غضب له مئة ألف لا يدرون فيم الغضب.

وقال المأمون: النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها، ولا عداوة إلّا جرّدتها، ولا جماعة إلَّا بددتها، ثم لا بد لمن عُرف بها ونُسب إليها أن يُجتنب ويُخاف من معرفته ولا يوثق به.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: الآيتان ١٠، ١١]. وحسبك بالنمّام خِسَّة ورذيلة سقوطه وضعته. والهمَّاز: المجتاب الذي يأكل لحوم الناس.

ومما جاء في الغدر

لما جعل المنصور الخليفة العباسي العهدَ إلى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخّره، قدم المهدي عليه فقال:

أينسى بنو العباس ذبِّي عنهُمُ ... بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها
فتحت لهم شرق البلاد وغربها ... فذلَّ معاديها وعزَّ نصيرها
أقطع أرحامًا عليَّ عزيزةً ... وأبدي مكيداتٍ لها وأثيرها
فلما وضعتُ الأمر في مستقرِّه ... ولاحتْ له شمسٌ تلألأ نورها
دُفِعْتُ عن الأمر الذي أستحقُّه ... وأوسق أوساقًا من الغدر غيرها

قال المدائني: قال الحجاج بن يوسف لأنس بن مالك ـ حين دخل عليه في شأن ابنه عبد الله ـ وكان عبد الله قد خرج مع ابن الأشعث(١) ـ قال له:

لا مرحبًا بك ولا أهلًا. لعنة الله عليك من شيخ جوالٍ في الفتنة. مرة مع أبي تراب(٢) ومرة مع ابن الأشعث. والله لأقتلعنك قلع الصمغة، ولأعصبنَّك عصب السلمة، ولأجرِّدنَّك تجريد الضَّبْ. قال أنس: مَن يعني أبقاه الله؟ قال: إياك أعني! أصمَّ الله صداك. فكتب أنس إلى عبد الملك بن مروان بذلك، فكتب عبد الملك إلى الحجاج: بسم الله الرحمٰن الرحيم، والله قد صمَّمْتُ أن أركلك برجلي ركلةً تهوي بها إلى الجحيم. قاتلك الله يا أخيفش. أصكَّ الرجلين، أسوأ الجاعرتين، والسلام(٣).

(١) هو عبد الرحمٰن بن الأشعث المتوفى سنة ٨٥ هـ. قائد أموي، ثار على الحجاج وأبى الخضوع لأوامر الخليفة عبد الملك بن مروان. استولى على الكوفة، وهزمه الحجاج في معركة دير الجماجم. وأنس بن مالك هو الصحابي المعروف وخادم الرسول. توفي سنة ٩٣ هـ.
(٢) هو عليّ بن أبي طالب.
(٣) العقد الفريد: ١/ ١٩٢.

وقد عُرف الضبع بالغدر - وكنيته أم عامر - فضربوا به المثل. قالوا:

خرج قوم للصيد، فطاردوا ضبعة حتى ألجئوها إلى خباء أعرابي فأجارها، وجعل يطعمها ويسقيها. فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنِه وهربت، فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول:

ومَن يصنع المعروف في غير أهله ... يلاقِ كما لاقى مجير أم عامرِ
أعدَّ لها لما استجارت ببيته ... أحاليب ألبان اللقاح الدوائرِ
وأسمنها حتى إذا ما تمكنت ... فَرَتْهُ بأنيابٍ لها وأظافر
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من ... يجود بمعروفٍ على غير شاكر

الذئب المدلَّل: الطبع يغلب التطبّع!

شهدت إحدى القرى الجميلة الصغيرة في اليونان أغرب «قصة حب» بطلاها سيدة في الرابعة والخمسين تدعى إيفانجيليا فراكا وذئب متوحش عمره عشر سنوات.

وتبدأ هذه القصة الغريبة في عام ١٩٧٦ عندما عثرت السيدة على ذئب صغير مصاب، تركته أمه في الغابة القريبة من القرية التي تعيش فيها فما كان من إيفانجيليا إلا أن حملته وعادت به إلى البيت الذي تعيش فيه عند سفح الجبل بقرية لانجاديا.

وراحت السيدة تعنى بالذئب الصغير وتطعمه، ولم يمض وقت طويل حتى كانت القرية كلها تتحدث عن الذئب الصغير الأليف الذي يحرص الأطفال على زيارته واللعب معه.

ومرّت الشهور والأعوام، وبدأ الذئب الصغير يكبر، وبدت الشراسة في عينيه وفي عوائه المخيف بالليل.

وأسرع أهل القرية إلى صاحبته ينصحونها بأن تعيده إلى الغاية - حيث يجب أن يكون - حتى لا يصبح خطرًا يهدد الأطفال الذين يلعبون معه.

ولكن السيدة كانت تفزع لمجرد التفكير في أنها سوف تفقده، وشيئًا فشيئًا بدأ الناس يبتعدون عن «بيت الذئب» حتى أصبحت السيدة تعيش في عزلة تامة مع هذا الوحش المدلل.

إلى أن كانت إحدى الأمسيات، عندما ذهبت السيدة تقدم للذئب طعامه فهاجمها وأحدث إصابات بالغة في جميع جسمها، ونقلوها إلى المستشفى للعلاج. وقال أهل القرية: لا بد أنها اقتنعت الآن بضرورة التخلص منه. ولكنهم فوجئوا بها عندما ذهبوا لزيارتها، فكانت تتوسل إليهم وإلى الأطباء بألّا يتعرضوا له بأذى وقالت: «لقد أخطأت... فهو حيوان ذكي... ولا بد أنه سمع من الجيران وهم يطلبون إليّ التخلّص منه».

وقالوا في قلّة الوفاء

قال وهب بن منبّه: صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلًا غفر لي زلّة؛ ولا أقال لي عثرة، ولا ستر لي عورة.

وقال عليّ عليه السلام: إذا كان الغدر طبعًا. فالثقة بكل أحدٍ عجز. وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمًّى، وحيوانٌ غير موجود. قال الشاعر:

سمعنا بالصديق ولا نراه على التحقيق يوجد في الأنام
وأحسبه محالًا نمّقوه على وجه المجاز من الكلام

قال الإمام الصادق عليه السلام: أقلل من معرفة الناس، وأنكر من عرفت منهم. وإن كان لك مائة صديق، فاطّرح تسعة وتسعين، وكن من الواحد على حذر... وقيل لبعض الولاة: كم لك من صديق؟ فقال: أما في حال الولاية فكثير. وأنشد:

الناس أخوان من دامت له نعم والويل للمرء إن زلّت به القدمُ

لما نكب علي بن عيسى الوزير، لم ينظر ببابه أحد من أصحابه الذين كانوا يألفونه في ولايته. فلما رُدّت إليه الوزارة وقف بأصحابه وقال:

ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبها فكلما انقلبت يومًا به انقلبوا
يعظّموه أخا الدنيا فإن وثبت يومًا عليه بما لا تشتهي وثبوا

وقال آخر:

ما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليلُ

وقال البحتري:

إياك أن تغتر أو تخدعك بارقة ... من ذي خداع يرى بشرًا وألطافا
فلو قبلت جميع الأرض قاطبة ... وسرت في الأرض أوساطًا وأطرافا
لم تلق فيها صديقًا صادقًا أبدًا ... ولا أخًا يبذل الإنصاف إن صافى

وقال آخر:

لما رأيت بني الزمان وما بهم ... خلٌ وفيٌّ للشدائدِ أصطفي
فعلمت أن المستحيل ثلاثةٌ ... الغولُ والعنقاءُ والخِلُّ الوفي

مما قيل في الجار

باع أبو الجهم العدوي داره، وكان في جوار سعيد بن العاص، بمائة ألف درهم. فلما أحضرها المشتري قال له: هذا ثمن الدار، فأعطني ثمن الجوار، قال: أيُّ جوار؟ قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترى أحدٌ جوارًا قط؟

قال: رُدَّ عليَّ داري، وخذ مالك. لا أَدَعُ جوار رجل إن قعدت سأل عني، وإن رآني رحَّب بي، وإن غبت عنه حفظني، وإن شهدتُ عنده قرَّبني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابتني نائبة فرَّج عني...

فبلغ ذلك سعيدًا فبعث إليه مائة ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارك لك.

كان كعب بن مامة إذا جاور رجلًا قام له بما يصلحه، وحماه ممَّن يقصده، وإن هلك له شيء أخلفه عليه، وإن مات ودَّاه لأهله. فجاوره أبو دؤاد الإيادي، فزاره على العادة، فبالغ في إكرامه، فكانت العرب إذا حمدت جارًا قالت: جار كجار أبي دُواد.

قال قيس بن زهير:

أطوِّفُ ما أطوِّفُ ثم آوي ... إلى جار كجار أبي دؤاد

تعلَّم منه أبو دؤاد، وكان يفعل لجاره فعل كعب به.

جاء رجل إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة عبد الملك على دمشق، فقال: أيها الأمير، إنَّ عندي نصيحة. قال: أذكرها، قال: جارٌ لي رجع من البعث

سرًا. فقال: أما أنت فقد أخبرتنا أنك جار سوء. فإن شئت أرسلنا معك، فإن كنت كاذبًا عاقبناك، وإن كنت صادقًا مقتناك، وإن تركتنا تركناك. قال: بل أتركك أيها الأمير ـ وانصرف ـ.

من وصية الإمام عليّ عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام، لما ضربه ابن ملجم لعنه الله: «الله الله في جيرانكم، فإنها وصية نبيكم، ما زال يوصي بها حتى ظَنَنَّا أنه سيورثهم».

قال الأصمعي: جاور أهل الشام الروم، فأخذوا عنهم خصلتين: اللؤم والحسد. وجاور أهل البصرة الخزر، فأخذوا عنهم خصلتين: الزنا وقلة الوفاء. وجاور أهل الكوفة السواد، فأخذوا عنهم خصلتين: السخاء والغيرة.

قال لقمان: يا بنيَّ، حملتُ الحجارة والحديد فلم أرَ أثقل من جار السوء!

ومن أدعيتهم: اللهم إني أعوذ بك من مال يكون عليَّ فتنة، ومن ولد يكون عليَّ كلّاً، ومن حيلةٍ تُقرِّب الشيب، ومن جار سوءٍ تراني عيناه وترعاني أذناه. إن رأى خيرًا دفنه، وإن سمع شرًا طارَ بِهِ[1].

ولا تُفرطو في الثناء!

قال عليّ عليه السلام لرجل أفرط في الثناء عليه ـ وكان له مُتَهِمًا: «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك».

وقال النبيّ ﷺ لمن مدح إنسانًا كاد يسمعه: ويحك! قطعت عُنُقَ صاحبك! لو سمعها لما أفلح».

ناظر المأمون محمد بن القاسم النوشجاني في مسألة كلامية، فجعل النوشجاني يخضع في الكلام ويستخذي له، فقال: يا محمد، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل الحجة لي عليك. وقد ساءني منك ذلك. ولو شئت أن أفسِّر الأمور بعزَّةِ الخلافة وهيبة الرياسة لصُدِّقت وإن كنتُ كاذبًا، وعُدِّلت وإن كنت جائرًا، وصوِّبت وإن كنت مخطئًا، ولكن لا أقنع إلَّا بإقامة الحجة وإزالة الشبهة. وإن أنقص الملوك عقلًا وأسخفهم رأيًا مَن رضيَ بقولهم: صدق الأمير.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٧/٨، ٩، ٤٠.

قال معاوية لرجل: مَن سيِّد قومك؟ قال: أنا ـ قال: لو كنت كذلك لم تقله.

قال الإمام عليّ عليه السلام:

ربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تُثْنوا عليَّ بجميل ثناء، ولا تكلموني بما تكلَّم به الجبابرة، ولا تتحفظوا بما يُتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالًا في حق قيل لي، فإنه مَن استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يُعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه.

قال رجل لعبد الملك بن مروان: إني أريد أن أُسِرَّ إليك يا أمير المؤمنين شيئًا. فقال لمن حوله: إذا شئتم فانهضوا، فتقدم الرجل يريد الكلام، فقال له عبد الملك: قف! لا تمدحني فإني أعلم بنفسي منك، ولا تكذبني فإنه لا رأي لمكذوب، ولا تغتب عندي أحدًا فإني أكره الغيبة. قال: أفيأذن أمير المؤمنين في الانصراف؟ ـ قال: إذا شئت[1]...

وقال عليّ عليه السلام:

«إن من حقِّ مَن عظَّم جلالَ الله سبحانه في نفسه وجلَّ موضعه من قلبه، أن يصغُر عنده لعظم ذلك كلُّ سواه. وإن أحقَّ مَن كان كذلك لمن عظمت نعمة الله عليه ولطف إحسانه إليه، فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد إلَّا ازداد حق الله عليه عظمًا». وهذا مقام جليل من مقامات العارفين، وهو استحقار كل ما سوى الله تعالى. وذلك أن مَن عرف الله تعالى فقد عرف ما هو أعظم من كل عظيم. فمن شاهد الشمس المنيرة يستحقر ضوء القمر والسراج الموضوع في ضوء الشمس حال مشاهدته جرم الشمس.

وقال أبو الأسود الدؤلي في الحسود والسفين ومَن يعظ الناس ولا يعمل بما يدعوهم إليه:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداءٌ له وخصومُ
وترى اللبيب محسَّدًا لم يحترم شتم الرجال وعرضهُ مشتومُ
وكذاك من عظُمتْ عليه نعمة حُسَّاده سيفٌ عليه ضرومُ

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٢٣٢.

فاترك مجاراة السفيه فإنها ... ندمٌ وغِبٌّ بعد ذاك وخيمُ
فإذا جريتَ مع السفيه كما جرى ... فكلاكما في جريه مذمومُ
وإذا عتبتَ على السفيه ولمتهُ ... في مثل ما تأتي فأنت ظلومُ
يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلّا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى ... كيما يصحُّ به وأنت سقيمُ
وأراك تُصلح بالرشاد عقولنا ... أبدًا، وأنت من الرشاد عقيمُ
لا تنهَ عن خُلقٍ وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ
إبدأ بنفسك فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبَلُ ما وعظت ويُقتدى ... بالعلم منكَ، وينفع التعليم

وقال الإمام الشافعي هذه الأبيات، وهي من أدب الحياة:

دعِ الأيام تفعل ما تشاءُ ... وطِبْ نفسًا إذا حكم القضاءُ
ولا تجزع لحادثِ الليالي ... فما لحوادث الدنيا بقاءُ
وكن رجلًا على الأهوال جلدًا ... وشيمتُك السماحة والسخاءُ
يُغطي بالسماحة كل عيبٍ ... وكم عيبٍ يُغطيه السخاءُ
ولا حزنٌ يدوم ولا سرورٌ ... ولا عسرٌ عليك ولا رخاءُ
ولا تُرينَّ للأعداء ذُلّا ... فإن شماتةَ الأعدا بلاءُ
ولا تَرْجُ السماحة من بخيلٍ ... فما في النار للظمآن ماءُ
ورزقك ليس ينقصه التأني ... وليس يزيد في الرزق العناءُ
إذا ما كنت ذا قلبٍ قنوع ... فأنت ومالكُ الدنيا سواءُ
ومن نزلت بساحته المنايا ... فلا أرضٌ تقيه ولا سماءُ
وأرض الله واسعة ولكنْ ... إذا نزل القضا ضاق الفضاءُ

وقال صالح بن عبد القدوس المتوفى سنة ٨٥٥ هـ:

المرءُ يجمع والزمان يفرقُ ... ويضل يرقع والخطوب تمزّقُ
ولأن يعادي عاقلًا خير له ... من أن يكونَ له صديقٌ أحمقُ
فأربأ بنفسك أن تصادق أحمقًا ... إن الصديق على الصديقُ مصدق
وزنِ الكلامَ إذا نطقت فإنما ... يبدي عقول ذوي العقول المنطقُ

ومن الرجال إذا استوت أخلاقهم ... من يُستشار إذا استشير فيطرقُ
حتى يحلَّ بكل وادٍ قلبهُ ... فيرى ويعرف ما يقول فينطق
ما الناس إلا عاملان فعاملٌ ... قد مات من عطش وآخرَ يغرق

وقال الإمام عليّ بن أبي طالب في الصمت:

لا تبدأنَّ بمنطقٍ في مجلس ... قبل السؤال فإن ذلك يشنعُ
فالصمتُ يحسن كل ظنٍ بالفتى ... ولعله خرقٌ سفيهٌ أرقعُ
ودع المزاح فرَبَّ لفظة مازحٍ ... جلَبتْ إليك بَلابلًا لا تدفعُ
وحفاظ جارٍ لا تُضِعْه فإنه ... لا يبلغ الشرف الجسيم مضيَّعُ
وإذا استقالك ذو الإسارة عثرة ... فأقلهُ، إن ثواب ذلك أوسعُ
وأطِعْ أباك بكل ما أوصى به ... إن المطيع أباه لا يتضعضعُ

وقال أيضًا:

صُنِ النفس واحملها على ما يزينُها ... تَعِشْ سالمًا والقولُ فيك جميلُ
ولا تَرينَ النفس إلَّا تجمُّلا ... نبا بك دهرٌ أو جفاك خليلُ
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ ... عسى نكباتَ الدهر عنك تزولُ
يعزُّ غنيُّ النفس إن قلَّ مالُهُ ... ويفنى غنيُّ المال وهو ذليل
ولا خير في ودِّ أمرىء متلوِّنٍ ... إذا الريحُ مالت مال حيث تميلُ
جوادٌ إذا استغنيت عن أخذ مالهِ ... وعند احتمال الفقر عنك بخيلُ
فما أكثر الأخوان حين تعدّهم ... ولكنهم في النائباتِ قليلُ

وقال بعض الشعراء في مكارم الأخلاق:

أحبُّ الفتى ينفي الفواحش سمعُهُ ... كأن به عن كل فاحشةٍ وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطًا أذى ... ولا مانعًا خيرًا ولا قائلًا هجرا
إذا ما أتت من صاحبٍ لك زلةٌ ... فكن أنت محتالًا لزلته عذرا
غنى النفس ما يكفيك ... فإن زاد شيئًا عاد الغنى فقرا

في الآباء والأنبياء

أبوّة الرسول ﷺ

كان النبيّ ﷺ مضرب المثل في حبه لأولاده وأحفاده. فيُروى أن الأقرع بن حابس زار النبيّ ﷺ يومًا، فلما أخذ مجلسه واستقرّ به المقام، أقبل الحسن بن علي على الرسول ﷺ فرحّب به الرسول وضمه إلى صدره وقبّله بين عينيه. فتعجب الأقرع من فعل الرسول وعطفه الغامر وحنانه الدافق، ولم يقدر أن يستر دهشته، فقال للنبيّ ﷺ متعجبًا: أتُقَبِّل الأطفال؟ فقال له النبي ﷺ: «نعم وأية غرابة في هذا؟» قال الأقرع: والله إن لي عشرة من الأولاد ما قبَّلت واحدًا منهم قط!

وعندئذٍ قال الرسول ﷺ: «وما أفعل إذا كان الله تعالى قد نزع الرحمة من قلبك؟ إن الله رحيم يحب الرحماء، ومَن لا يَرحم لا يُرحم!».

ومن كلمات الإمام عليّ عليه السلام في وصيته لابنه الحسن (ع):

«وجدتك بعضي، بل وجدتك كليّ، حتى كأن شيئًا لو أصابك أصابني، وكأن الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي، فكتبتُ إليك كتابي مستظهرًا به إن أنا بقيت لك أو فنيت».

قيل: غضب الطرماح على امرأته فشفع فيها ولده منها صمصام، وهو غلام لم يبلغ عشرًا، فقال الطرماح:

أصمصام إن تشفعْ لأمك تلْقها ... لها شافعٌ في الصدر لم يتزحزحِ
هل الحب إلّا أنها لو تعرَّضتْ ... لذبك يا صمصام قلتُ لها: اْذبحي
أحاذر يا صمصام إن متَّ أن يلي ... تراثي وإياك امرؤٌ غير مصلحِ
إذا صكَّ وسط القوم رأسك صكةً ... يقول له النّاهي: ملكتَ فاسجحِ

وفي الحديث المرفوع: «إن ريح الولد من ريح الجنة».

قيل: غضب معاوية على ابنه يزيد، فهجره، فاستعطفه له الأحنف وقال له: يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ضليلة، وأرض ذليلة، فإن غضبوا فأرضِهِم، وإن سألوا فأعطِهم، تكن عليهم قفلًا فيملوا حياتك، ويتمنَّوْا موتك.

أحبُّ أولادي إليَّ

قيل لابنة الخُسّ: أيُّ ولدك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والغائب حتى يعود.

وابنة الخُسّ هذه هي بنت الخُسّ بن حابس الإيادية: فصيحة جاهلية، كانت ترد سوق عكاظ ولها أخبار فيه. قال الجاحظ في وصفها: «من أهل الدهاء والنكراء، واللَّسن واللَّقَن، والجواب العجيب، والكلام الصحيح، والأمثال السائرة، والمخارج العجيبة».

يا حبَّذا ريحُ الولَدْ!

ومن ترقيص الأعراب قول أعرابية لولدها:

يا حبذا ريحُ الولَدْ ... ريح الخزامي في البلَدْ
أهكذا كلُّ ولَدْ؟ ... أم لم يلد مثلي أحدْ؟!

وأنشد الرياشي:

مَن سرَّهُ الدهر أن يرى الكبدا ... يمشي على الأرض فلْيرَ الولدا

ومن وصية الإمام (ع) لابنه الحسن أن ينظر الولد إلى ما كان آبائه ويكون تكملةً لهم فيقول:

«احْي قلبك بالموعظة، وأمِتهُ بالزهادة وقوة اليقين، ونوِّره بالحكم، وذلِّله بذكر الموت، وبصِّرهُ فجائع الدنيا، وحذِّره صولة الدهر، وفُحش تقلب الليالي والأيام، واعرض عليه أخبار الماضي، وذكِّره بما أصاب مَن كان قبلك من الأولين، وسِرْ في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا، وعما انتقلوا، وأين حلُّوا ونزلوا، فإنك تجدهم انتقلوا عن الأحبة، وحلُّوا دار الغربة، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم. فأصلِحْ مثواك، ولا تبعْ آخرتك بدنياك، ودعْ القول، فيما لا تعرف، والخطاب فيما لم تكلَّف، وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته، فإنَّ الكفَّ عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال».

وقوله عليه السلام: «ودع القول فيما لا تعرف» من قول رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: «يا عبد الله، كيف بك إذا بقيت في حثالة من

الناس، مَرَجْت عهودهم وأماناتهم وصار الناس هكذا» ـ وشبَّك بين أصابعه ـ، قال عبد الله: «فقلت: مُرْني يا رسول الله، قال: «خذ ما تعرف، ودع ما لا تعرف وعليك بخويصة نفسك»(١).

إنما أولادنا أكبادنا

الشاعر حطان بن المعلَّى أحد شعراء العربية الذين وُهبوا القدرة على تجسيد هذه العاطفة في قالب شعري شديد النفاذ والتأثير، قادر على اجتياز الأزمان ومخاطبة الإنسان في كل مكان، من خلال تعبير سهل ممتنع وبساطة أخاذة وصدق مؤثر. يقول حطان:

أنزلني الدهر على حكمه ... من شامخ عالٍ إلى خَفْضِ
وغالني الدهر بوفر الغنى ... فليس لي مال سوى عرضي
أبكاني الدهر، ويا ربما ... أضحكني الدهر بما يرضي
لولا بُنيات كزغب القطا ... رددن من بعضٍ إلى بعضِ
لكان لي مضطربٌ واسعٌ ... في الأرض، ذات الطول والعرضِ
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادُنا تمشي على الأرضِ
لو هبَّتِ الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الغمضِ

وقال عبد العزيز الديريني(٢):

أحبُّ بنيَّتي ووددت أني ... دفنت بنيَّتي في قاع لحدِ
وما بي أن تهون عليَّ لكن ... مخافة أن تذوق الذُلَّ بعدي
فإن زوّجتها رجلًا فقيرًا ... تكون ببيتها والهمُّ عندي
وإن زوّجتها رجلًا غنيًّا ... فيلطم خدها ويسبُّ جدي

قال الشاعر أحمد شوقي في حب البنات وفضلهن:

أأبا البنات، رُزِقتهنَّ كرائمًا ... ورزقت في أصهارك الكُرماءِ
لا تذهبنَّ على الذكور بحسرةٍ ... الذُّكرُ نعمَ سلالة العظماءِ

---

(١) شرح النهج: ١٦/ ٦٤.

(٢) هو عبد العزيز بن أحمد الديريني، نسبة إلى «ديرين» في مصر. فقيه شافعي، من الزهاد. توفي سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م.

وأرى بُناة المجد يثلمُ مجدهم	ما خلَّفوا من صالحٍ وغشاءِ
إنَّ البنات ذخائرٌ من نعمةٍ	وكؤوس حبٌّ صادقٍ ووفاءِ
والساهرات لعِلَّةٍ أو كبرةٍ	والصابراتُ لشدَّةٍ وبلاءِ
والباكيانك يوم ينقطع البكا	والقاصداتك في العراء النائي
والذاكراتك ما حُيين تحدثًا	بسوالف الأخبار والآراء
بالأمس عزَّاهنَّ فيك عقائلٌ	واليوم جاملهنّ فيك رثائي
أجزعن أن يجري عليهن الذي	من قبلهن جرى على الزهراءِ؟
عذرًا لهن إذا ذهبن مع الأسى	وطلبن عند الدمع بعض عزاءِ
ما كل ذي ولدٍ يسمَّى والدًا	كم من أبٍ كالصخرة الصمَّاءِ
هَبْهُنَّ في عقل الرجال وحلمهم	أقلوبهن سوى قلوب نساء

وقال بعض المتقدمين في حبِّ البنين:

ولولا أميمة لم أفزع من العدم	ولم أَجُبْ في الليالي جندس الظّلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي	أن الذي يجفو ذوو الرحم
أحاذرَ الفقر يومًا أن يلمَّ بها	فيهتك الستر عن لحمٍ على وضَم[(١)]
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقًا	والموتُ أكرم نزَّالٍ على الحُرمِ

الصاحب بن عباد يهنّىء بعض أصحابه بابنة ولدت له:

كان الصاحب بن عباد مغرمًا بالسجع كلفًا به، وكان في بعض رسائله يترك نفسه على سجيتها. وإن لم يواته السجع استخدم أسلوب الازدواج. ورسائله تدل على مهارة واسعة، وقدرة أدبية خلّاقة. يشهد على ذلك هذه التهنئة اللطيفة ببنت ولدت لبعض أصحابه:

«أهلًا وسهلًا بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار، والمبشّرة بإخوة يتناسقون، بخباء يتلاحقون:

فلو أن النساء كمثل هذي	لفضلت النساءُ على الرجالِ
فما التأنيث باسم الشمس عيبٌ	ولا التذكير فخرٌ للهلالِ

(١) يقال: هو لحم على وَضَم، أي هو ذليل.

فادَّرِعْ يا سيدي اغتباطًا واستأنف نشاطًا، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها والذكور يعبدونها. والأرض مؤنثة، ومنها خلقت البريَّة وكثرت الذرية. والسماء مؤنثة وقد زُيِّنتْ بالكواكب وحليتْ بالنجم الثاقب، والنفس مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا عُرف الأنام. والجنة مؤنثة وبها وُعِدَ المتقون ولها بُعثَ المرسلون.

فهنيئًا لك ما أوليت، وأذرعك الله شكر ما أعطيت، وأطال الله بقاءَك ما عُرِف النسل والولد، وما بقي الأمد، وكما عُمِّر لُبَدْ.

عقيل بن علقمة يضرب ابنته لضحكها:

كان بنو عقيل بن علقمة بن مرة بن غطفان يتنقلون وينتجعون الغيث فسمع عقيل بن علقمة يومًا بنتًا له ضحكت فشهقت في آخر ضحكها، فاخترط السيف وحمل عليها وهو يقول:

فَرِقْتُ إني رجل فَروقُ ... لضحكةٍ آخرها شهيقُ

سبَّ أعرابي ولده وذكر له حقه. فقال الولد: يا أبتاه إن عظيم حقك علي لا يبطل صغير حقي عليك.

ومن فلسفة المعري بنظرته للأولاد قوله:

أرى ولد الفتى عبئًا عليه ... لقد سعد الذي أمسى عقيمًا
فأما أن يربيه عدوًا ... وإما أن يخلِّفه يتيمًا
أما شاهدت كل أبي وليدٍ ... يؤم طريق حتفٍ مستقيمًا

وصية الرشيد لمؤدّب ولده المأمون

ووصّى الرشيد مؤدّب ولده المؤمون، فقال:

«يا أحمر[1] إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيِّر يدك عليه مبسوطةٍ، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئهُ القرآن، وعرِّفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلِّمه السنن، وبصِّره بمواقع الكلام

(١) هو عليّ بن المبارك الأحمر صاحب الكسائي، وكان يؤدب الأمين. وكان مشهورًا بالنحو واتساع الحفظ، ومات سنة ٣٠٦.

وبديَّه، وامنعه من الضَّحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرَّنَّ بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه، فتميت ذهنه. ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإنْ أباهما فعليك بالشدة والغلظة»[(١)].

قال الشاعر أحمد شوقي في الأم:

لـولا الـتُّـقـى لـقـلـتُ لـم ... يـخـلـق سـواك الـولـدا
إن شـئـتِ كـان الـعـبـد أو ... إن شـئـتِ كـان الأسـدا
وإن تـردْ غـيًّـا غـوى ... أو تـبـغِ رشـدًا رشـدا
والـبـيـت أنـت الـصـوتُ فـيـ ... ـه وهـو لـلـصـوت صـدى
كـالـبـبـغـا فـي قـفـصٍ ... قـيـل لـه فـقـلَّـدا
وكـالـقـضـيـب الـلَّـدْنِ قـد ... طـاوع فـي الـشـكـل الـيـدا
يـأخـذ مـا عـوَّدتِـه ... والـمـرءُ مـا تـعـوَّدا

قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: الآية ٣٦]. وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: الآية ١٤]. وقال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤].

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣١.

في العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب

قال في المستطرف[1]: قد ندب الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحِجر: الآية ٨٥]. قيل: هو الرضا بلا عتب. وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ [الشّورى: الآية ٤٣]، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمَان: الآية ١٧].

أقوال في العفو والحلم

عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت قصورًا مشرفة على الجنّة، فقلت: يا جبريل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس».

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالعفو، فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود».

وقال الحسن بن أبي الحسن إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ، مَن كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العافون عن الناس، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشّورى: الآية ٤٠].

(١) المستطرف: ص ١٩٩.

وقال عليّ كرّم الله وجهه: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره، ويقول: لقد حبب إليَّ العفو حتى أني أخاف أن لا أثاب عليه، وكان يقول: لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو لارتكبوها، وقال: لو علم الناس حبي للعفو لما تقربوا إليَّ بالجنايات.

وقال عليّ كرّم الله وجهه: إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكرًا للقدرة عليه، وقال رضي الله تعالى عنه: أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثرًا إلا ويده بيد الله يرفعه، وقال رضي الله عنه: إن أول عوض الحليم عن حلمه، إن الناس أنصار له على الجاهل.

وقال المنتصر: لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفي(١) يلحقها ذم الندم. وقال ابن المعتز: لا تشن(٢) وجه العفو بالتقريح(٣) به. وقيل: ما عفا عن الذنب من قرع به. وقال رجل لرجل سبه: إياك أعني، فقال له: وعنك أعرض.

وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو والحلم وكان يقول: ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقي عرفت له فضله، وإن كان مثلي تفضلت عليه، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه، وكان مشهورًا بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته، وكان يقول: وجدت الاحتمال أنصر لي من الرجال. وقيل له: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم: كنا نختلف إليه في الحلم كما يختلف إلى الفقهاء في الفقه، ولقد حضرت عنده يومًا، وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه، فجاؤوا به مكتوفًا، فقال: ذعرتم أخي أطلقوه، واحملوا إلى أم ولدي ديته، فإنها ليست من قومنا، ثم أنشأ يقول:

أقول للنفس تصبيرًا وتعزيةً ... إحدى يديَّ أصابتني ولم ترِدِ
كلاهما خلفٌ من فقدِ صاحبه ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي(٤)

وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر. وقالوا: ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام. وقيل: مَن انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقه، فلم يجب شكره، ولم يحمد في العالمين ذكره، والعرب تقول: لا سؤدد مع الانتقام، والذي يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة

(١) التشفي: الانتقام.
(٢) لا تشن: لا تقبح.
(٣) التقريع: التوبيخ واللوم.
(٤) خلف: عوض.

شيمته، وإن كان ولا بد من الانتقام، فليرفق في انتقامه إلا أن يكون حدًا من حدود الله تعالى.

عفو المنصور

وقال المنصور لجانٍ عجز عن العذر: ما هذا الوجوم وعهدي بك خطيبًا لَسِنًا؟ فقال: يا أمير المؤمنين ليس هذا موقف مباهاة، ولكنه موقف توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فرق له وعفا عنه. وسعي إلى المنصور برجل من ولد الأشتر النخعي، ذكر له عنه أنه يميل إلى بني علي والتعصب لهم، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين ذنبي أعظم من نقمتك، وعفوك أعظم من ذنبي، ثم قال:

فهبني مسيئًا كالذي قلت ظالمًا ... فعفوًا جميلًا كي يكون لك الفضلُ
فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما ... أتيت به أهلًا فأنت له أهل

فعفا عنه، وأمر له بصلة.

عفو المأمون

أحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنبًا، فقال له: أنت الذي فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذي أسرف[1] على نفسه واتكل على عفوك، فعفا عنه وخلّى سبيله.

عفو الهادي

أحضر إلى الهادي رجل من أصحاب عبد الله بن مالك، فوبخه على ذنب، فقال: يا أمير المؤمنين إن إقراري يلزمني ذنبًا لم أفعله، ويلحق بي جرمًا لم أقف عليه، وإنكاري رد عليك، ومعارضة لك، ولكني أقول:

فإن كنت تبغي بالعقاب تشفّيًا ... فلا تزهدن عند التجاوز في الأجرِ

فقال: لله درّك من معتذر بحق أو باطل، ما أمضى لسانك، وأثبت جنانك[2] وعفا عنه وخلّى سبيله.

---

(١) أسرف: جهل وغفل وجاوز الحد أي ظلم نفسه.

(٢) الجنان: العقل.

حلم عمرو بن العاص

ركب يومًا عمرو بن العاص رضي الله عنه بغلة له شهباء، ومرّ على قوم فقال بعضهم: مَن يقوم للأمير، فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف؟ فقال واحد منهم: أنا، فقام وأخذ بعنان بغلته، وقال: أصلح الله الأمير، أنت أكرم الناس خيلًا، فلمَ ركبت دابة أشهاب وجهها؟ فقال: إني لا أمل دابتي حتى تملني، ولا أمل رفيقي حتى يملني. فقال: أصلح الله الأمير، أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه، فمن الأم؟ قال: على الخبير سقطت. أمي النابغة بنت حرملة بن عزة سبتها رماح العرب، فأتي بها سوق عكاظ، فبيعت، فاشتراها عبد الله بن جدعان، ووهبها للعاص بن وائل، فولدت، وأنجبت، فإن كان قد جعل لك جعل، فارجع وخذه، وأرسل عنان الدابة. وقيل: إن أمه كانت بغيًا عند عبد الله بن جدعان، فوطئها في طهر واحد أبو لهب وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل، فولدت عمرًا، فادعاه كلهم، فحكمت فيه أمه، فقالت: هو للعاص، لأن العاص هو الذي كان ينفق عليها. وقالوا: كان أشبه بأبي سفيان.

عفو الواثق

وكان الواثق يتشبه بالمأمون في أخلاقه وحلمه، وكان يقال له: المأمون الصغير. نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لست به، فقالت: السلام عليك أيها الأمير، فقال لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقالت: ليسعنا عدلكم، فقال: إذًا لا يبقى على وجه الأرض منكم أحد لأنكم حاربتم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، ومنعتم حقه، وسممتم الحسن رضي الله عنه، ونقضتم شرطه، وقتلتم الحسين رضي الله عنه، وسبيتم أهله، ولعنتم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على منابركم وضربتم عليّ بن عبد الله ظلمًا بسياطكم، فعدلنا لا يبقى منكم أحدًا، فقالت: فليسعنا عفوكم، قال: أما هذا، فنعم، وأمر برد أموالها عليها، وبالغ في الإحسان إليها.

حلم معاوية

كان معاوية رضي الله عنه يعرف بالحلم، وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة، وكان يقول: إني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي،

وذنب لا يسعه عفوي، وحاجة لا يسعها جودي، وهذه مروءة عالية المرتبة، وقال له رجل يومًا: ما أشبه إستك بإست أمك، فقال: ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها. وكتب معاوية إلى عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه يعتذر إليه من شيء جرى بينهما، يقول: من معاوية بن أبي سفيان إلى عقيل بن أبي طالب. أما بعد، يا بني عبد المطلب، فأنتم والله فروع قصي ولباب عبد مناف وصفوة هاشم، فأين أخلاقكم الراسية وعقولكم الكاسية؟ وقد والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى، ولن يعود لمثله إلى أن يغيب في الثرى، فكتب إليه عقيل يقول:

صدقت وقلت حقًا غير أني ... أرى أن لا أراك ولا تراني
ولست أقول سوءًا في صديقي ... ولكني أصد إذا جفاني[1]

فركب إلى معاوية رضي الله عنه، وناشده في الصفح عنه، واستعطفه حتى رجع.

معاوية والزرقاء بنت عدي

وحُكِيَ عنه رضي الله عنه أنه لما ولي الخلافة، وانتظمت إليه الأمور وامتلأت منه الصدور، وأذعن لأمره الجمهور، وساعده في مراده القدر المقدور، استحضر ليلة خواص أصحابه وذاكرهم، وقائع أيام صفين، ومَن كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى مَن كان يجتهد في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض، فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدي كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة: يا أصحاب علي تسمعهم كلامًا كالصوارم، مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل، والمدبر لقابل، والمسلم لحارب، والفار لكرّ، والمتزلزل لاستقر.

فقال لهم معاوية رضي الله عنه: أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا: كلنا نحفظه، قال: فما تشيرون عليَّ فيها؟ قالوا: نشير بقتلها، فإنها أهل لذلك. فقال لهم معاوية رضي الله عنه: بئسما أشرتم، وقبحًا لما قلتم. أيحسن أن يشتهر عني أنني بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها، إني إذا للئيم، لا والله لا فعلت ذلك أبدًا.

---

(١) أسد: أهجر.

ثم دعا بكاتبه فكتب كتابًا إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إليَّ الزرقاء بنت عدي مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهّد لها وطاء لينًا ومركبًا ذلولًا، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها، فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزائغة عن الطاعة، فحملها في هودج، وجعل غشاءه خزًّا مبطنًا، ثم أحسن صحبتها؟ فلما قدمت على معاوية قال لها: مرحبًا وأهلًا خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك يا خالة، وكيف رأيت سيرك؟ قالت: خير مسير، فقال: هل تعلمين لِمَ بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. قال: ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتحرضين على القتال؟ قالت: نعم، قال: فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس وبتر الذنب، والدهر ذو غِيَر[1] ومَن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

فقال: صدقت، فهل تعرفين كلامك، وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله، قال: لله أبوك، فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يُقطع الحديد إلا بالحديد، ألا مَن استرشدنا أرشدناه، ومَن سألنا أخبرناه أن الحق كان يطلب ضالة فأصابها، فصبرًا يا معشر المهاجرين والأنصار، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله، فإنه لا يستوي المحق والمبطل، فمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يستوون، فالنزال النزال، والصبر الصبر، ألا وأن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، ائتوا الحرب غير ناكصين، فهذا يوم له ما بعده. يا زرقاء. أليس هذا قولك وتحريضك؟

قالت: لقد كان ذلك، قال: لقد شاركت عليًا في كل دم سفكه، فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك. مثلك مَن يبشر بخير ويسر جليسه، فقال معاوية: أوَقد سرك ذلك؟ قالت: نعم، والله لقد سرّني قولك وأنى لي بتصديقه، فقال لها معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إليَّ من حبكم له في حياته، فاذكري حوائجك نقض. فقالت: يا أمير المؤمنين إني آليت على نفسي

---

(١) ذو غير: ذو أحداث وصروف.

أن لا أسأل أحدًا بعد علي حاجة، فقال: قد شار عليَّ بعض مَن عرفك بقتلك، فقالت: لؤم من المشير، ولو أطعته لشاركته، قال: كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك، فقالت: يا أمير المؤمنين كرم منك، ومثلك من قدر فعفا، وتجاوز عمن أساء وأعطى من غير مسألة، قال: فأعطاها كسوة ودراهم، وأقطعها ضيعة تغل كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمة، وكتب إلى والي الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

معاوية وعبد الله بن الزبير

قيل: كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضًا عبيد يعملون فيها، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير، فكتب عبد الله كتابًا إلى معاوية يقول له فيه: أما بعد، يا معاوية، إن عبيدك قد دخلوا في أرضي، فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن، والسلام. فلما وقف معاوية على كتابه، وقرأه ودفعه إلى ولده يزيد، فلما قرأه قال له معاوية: يا بني ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشًا يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه، فقال: بل غير ذلك خير منه يا بني، ثم أخذ ورقة، وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير، يقول فيه: أما بعد، فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله ﷺ، وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه، نزلت عن أرضي لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال والسلام. فلما وقف عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على كتاب معاوية رضي الله عنه، كتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام. فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير، وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد، فلما قرأه تهلل وجهه، وأسفر، فقال له أبوه: يا بني مَن عفا ساد، ومَن حلم عظم، ومَن تجاوز استمال إليه القلوب، فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء، فداوه بمثل هذا الدواء.

معاوية ورجل

لما دخل الفيل من دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه، فبينما هو كذلك إذ نظر في بعض الحجر من قصره رجلًا مع بعض

حرمه، فأتى الحجرة ودق الباب، فلم يكن من فتحه بد، فوقعت عينه على الرجل، فقال له: يا هذا في قصري، وتحت جناحي تهتك حرمتي، وأنت في قبضتي، ما حملك على هذا؟ قال: فبهت[1] الرجل، وقال: حلمك أوقعني، فقال له معاوية: فإن عفوت عنك تسترها عليَّ، قال: نعم. فعفا عنه وخلّى سبيله. وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجاني، وهو عروض قول الشاعر:

إذا مرضتم أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم ونعتذرُ

المنصور وأموال بني أمية

حُكِيَ عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال: ما رأيت رجلًا أربط جأشًا، وأثبت جنانًا من رجل سعى به إلى المنصور، أن عنده ودائع وأموالًا لبني أمية، فأمرني بإحضاره، فأحضرته إليه، فقال له المنصور: قد رفع إلينا خبر الودائع، والأموال التي عندك لبني أمية، فأخرج لنا منها، واحضرها، ولا تكتم منها شيئًا، فقال: يا أمير المؤمنين وأنت وارث بني أمية؟ قال: لا، قال: فوصي لهم في أموالهم ورباعهم؟ قال: لا، قال: فما مسألتك عما في يدي من ذلك؟ قال: فأطرق المنصور، وتفكر ساعة، ثم رفع رأسه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم، وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه، فاجعله في بيت أموالهم. فقال: يا أمير المؤمنين، فيحتاج إلى إقامة بيّنة عادلة أن ما في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه، فإن بني أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين.

قال: فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه وقال: يا ربيع، ما أرى الشيخ إلا قد صدق، وما يجب عليه شيء، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه، ثم قال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أن تجمع بيني وبين مَن سعى بي إليك، فوالله الذي لا إلـه إلا هو ما في يدي لبني أمية مال ولا وديعة، ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني عما سألتني عنه قابلت بين هذا القول الذي ذكرته الآن، وبين ذلك القول الذي ذكرته أولًا، فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة. فقال: يا ربيع اجمع بينه وبين مَن سعى به، فجمعت بينهما، فلما رآه

---

(١) بهت: احتار، ودهش مأخوذًا بالحجة.

قال: هذا غلامي اختلس لي ثلاثة آلاف دينار من مالي وأبق[1] مني وخاف من طلبي له، فسعى بي عند أمير المؤمنين. قال: فشدد المنصور على الغلام وخوفه، فأقر بأنه غلامه، وأنه أهذ المال الذي ذكره وسعى به كذبًا عليه وخوفًا من أن يقع في يده، فقال له المنصور: سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه، فقال: قد عفوت عنه، وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التي أخذها وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليه. فقال له المنصور: ما على ما فعلت من مزيد؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين إن هذا كله لقليل في مقابلة كلامك لي وعفوك عني، ثم انصرف. قال الربيع: فكان المنصور يتعجب منه، وكلما ذكره يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

الرشيد وحميد الطوسي

غضب الرشيد على حميد الطوسي، فدعا له بالنطع والسيف فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه، وإنما بكيت أسفًا على خروجي من الدنيا، وأمير المؤمنين ساخط عليَّ، فضحك وعفى عنه، وقال: إن الكريم إذا خادعته انخدع.

نسيت اسم نفسي

أمر زياد بضرب عنق رجل، فقال: أيها الأمير إن لي بك حرمة، قال: وما هي؟ قال: إن أبي جارك بالبصرة، قال: ومَن أبوك؟ قال: يا مولاي إني نسيت اسم نفسي، فكيف لا أنسى اسم أبي؟ فرد زياد كمه على فمه، وضحك وعفا عنه.

الحجاج ومن يحسن الكلام

أمر الحجاج بقتل رجل فقال: أسألك بالذي أنت غدًا بين يديه أذل موقفًا مني بين يديك إلا عفوت عني، فعفا عنه. ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث أتى رجل من بني تميم، فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب ما أحسنت في العفو، فقال الحجاج: أف لهذه الجيف! أما كان فيهم مَن يحسن الكلام مثل هذا؟ وعفا عنه وخلّى سبيله.

---

(١) أبق: فرّ وهرب.

إبراهيم بن المهدي والمأمون

كان إبراهيم بن المهدي يقول: والله ما عفا عني المأمون تقربًا إلى الله تعالى، ولا صلة الرحم، ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد(١) بقتلي.

كثرة العفو زيادة في العمر

سئل الفضل عن الفتوة، فقال: الصفح عن عثرات(٢) الإخوان. وفي بعض الكتب المنزلة: أن كثرة العفو زيادة في العمر. وأصله قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرّعد: الآية ١٧].

الرشيد ويزيد بن مزيد

قال يزيد بن مزيد: أرسل إليَّ الرشيد ليلًا يدعوني، فأوجست منه خيفة، فقال لي: أنت القائل: أنا ركن الدولة والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها؟ لا أم لك، أي ركن، وأي ثائر أنت؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما قلت هذا، إنما قلت: أنا عبد الدولة، والثائر لها، فأطرق وجعل ينحلّ(٣) غضبه عن وجهه، ثم ضحك، فقلت أحسن من هذا قولي:

خلافة الله في هارون ثابتة ... وفي بنيه إلى أن ينفخ الصور

فقال: يا فضل أعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح.

لو لم يكن ذنب لما عرف العفو

أمر مصعب بن الزبير بقتل رجل، فقال: ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتعلق بأطواقك وأقول: أي رب سل مصعبًا لِمَ قتلني؟ فقال: أطلقوه، فلما أطلقوه، قال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتك في خفض عيش. قال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فقال:

أيا المذنب الخطّاءُ والعفو واسعٌ ... ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِف العفوُ

---

(١) تكسد: يبطل العمل بها.

(٢) عثرات: زلآت.

(٣) ينحل: يتفكك ويزول.

اصنع ما أحبّ الله

تغيظ عبد الملك بن مروان على رجل، فقال: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا، فلما صار بين يديه قال رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت، فاصنع ما أحب الله، فعفا عنه وأمر له بصلة.

أقوال في العفو والحلم

قال الحسن: إن أفضل رداء تردّى به الإنسان الحلم. وهو والله عليك أحسن من برد الحبر. وفيه قال أبو تمام:

رفيقُ حواشي الحلمِ لو أن حلمه　　　بكفّيك ما ماريت في أنه برد(١)

ويقال: الحليم سليم، والسفيه كليم. وقال محمد بن عجلان: ما شيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، يقول الشيطان: سكوته عليَّ أشد من كلامه. شعر:

إذا كنت تبغي شيمةً غير شيمةٍ　　　طُبِعْتَ عليها لم تطعك الضرائبُ

وعن عليّ بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب. وفي التوراة: اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحقك فيما أمحق، وإذا ظلمت فاصبر، وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. وكان ابن عون إذا غضب على إنسان قال له: بارك الله فيك، وكانت له ناقة كريمة، فضربها الغلام فأندر(٢) عينها. فقالوا: إن غضب ابن عون، فإنه يغضب اليوم، فقال للغلام: غفر الله لك. وقال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشد؟ قال: «غضب الله». قال: فما يباعدني من غضب الله؟ قال: «أن لا تغضب» ويقال: مَن أطاع الغضب أضاع الأرب. قال أبو العتاهية:

ولم أر في الأعداء حين اختبرتُهم　　　عدوًا لعقل المرء أعدى من الغضب

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بالمرء إثمًا أن يقال له:

(١) ماريت: شككت. برد: ثوب.　　(٢) أندر عينها: أخرجها من مكانها.

اتق الله فيغضب، ويقول: عليك نفسك. وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل، فاحبسه، فإذا سكن غضبك فاخرجه، فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطًا. وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة. قال: ترك الغضب.

وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب، ويشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفة رجلًا. وقال للأول: إذا اشتد غضبي، فقم إليَّ بهذه الصحيفة وناولنيها، وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي، فناولنيها. وكان في الأولى: «اقصر، فما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضًا». وفي الثانية: ارحم مَن في الأرض يرحمك مَن في السماء». وفي الثالثة: «احمل عباد الله كتاب الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذاك». رُوِيَ أنه أنو شروان. وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت:

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وعن معاذ بن جبل، عن أنس رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ: «مَنْ كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء»، ورُوِيَ: ملأه الله أمنًا وإيمانًا. وقال ابن السماك: أذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط، ومضت خلفه حتى إذا قاربته رمت بالسوط وقالت: ما تركت التقوى أحدًا يشفي غيظه. وقال أبو ذر لغلامه: لِمَ أرسلت الشاة على علف الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك، قال: لأجمعن مع الغيظ أجرًا أنت حر لوجه الله تعالى. واستأطن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فأذن لهم، فقالوا: السلام عليك يا محمد، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: بل السأم عليكم، واللعنة، فقال: يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقالت: ألم تسمع ما قالوا، قال: قد قلت وعليكم.

عبد الملك بن مروان وأُم حمزة

رفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابي يقال له: حمزة، سرق، وقامت عليه البينة، فهمّ عبد الملك بقطع يده، فكتب إليه حمزة من السجن

يقـول شـعـر:

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها بعفوك أن تلقى مقامًا يشينُها
فلا خير في الدنيا وكانت خبيثة إذا ما شمالٌ فارقتها يمينُها

قال: فأبى عبد الملك إلا قطعه، فدخلت عليه أم حمزة وقالت: يا أمير المؤمنين بني وكاسبي وواحدي، فقال لها عبد الملك: بئس الكاسب لك هذا حد من حدود الله تعالى، فقالت: يا أمير المؤمنين اجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها، فقال عبد الملك: ادفعوه إليها، وخلى سبيله. شعر:

إذا ما طاشَ حلمك عن عدوٍ وهان عليك هجران الصديقِ
فلستَ إذًا أخا عفوٍ وصفحٍ ولا لأخٍ على عهدٍ وثيقِ
إذا زلَّ الرفيقُ وأنت ممنٍ بلا رفقٍ بقيت بلا رفيقِ
إذا أنت اتخذت أخًا جديدًا لما أنكرت من خلقٍ عتيقِ
فما تدري لعلك مستجيرٌ من الرمضاءِ[1] فرّ إلى الحريقِ
فكم من سالكٍ لطريقٍ أمنٍ أتاه يحاذر في الطريقِ

شتم رجل رجلًا فقال له: يا هذا لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعًا، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيرًا، فلن أجيئها كثيرًا، وإني لا أكافىء مَن عصى الله فيَّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

حلم جعفر الصادق

حُكِيَ عن جعفر الصادق رضي الله عنه أن غلامًا له وقف يصب الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب، فقال: يا مولاي «والكاظمين الغيظ» قال: قد كظمت غيظي، قال: «والعافين عن الناس» قال: قد عفوت عنك، قال: «والله يحب المحسنين» قال: اذهب، فأنت حر لوجه الله تعالى.

نصر بن منيع والخليفة

قيل: لما قدم نصر بن منيع بين يدي الخليفة، وكان قد أمر بضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمات أقولها. قال: قل،

(١) الرمضاء: وقت اشتداد حرارة الشمس.

فأنشأ يقـول:

زعموا بأن الصقر صادف مرةً ... عصفور بر ساقه التقديرُ
فتكلم العصفورُ تحت جناحه ... والصقر منقضٌّ عليه يطيرُ
إنّي لمثلك لا أتمّم لقمةً ... ولئن شُويتُ فإنني لحقيرُ
فتهاون الصقر المدل بصيده ... كرمًا وأفلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلّى سبيله. قال الشاعر:

أقرر بذنبك ثم اطلبْ تجاوزهُم ... عنهُ فإن جحود[1] الذنبِ ذنبان

وقال بعضهم:

يستوجب العفو التفى إذا اعترفْ ... وتاب عمّا قد جناه واقترفْ
لقوله قل للذين كفروا ... إن ينتهوا يُغفَر لهم ما قد سلف[2]

وقال آخر:

إذا ذكرت أياديك التي سلفت ... مع قبحِ فعلي وزلّاتي ومجترمي[3]
أكاد أقتلُ نفسي ثم يدركني ... علمي بأنك مجبولٌ على الكرمِ

حلم عمر بن الخطاب

رُوِيَ أن عمر رضي الله تعالى عنه رأى سكران، فأراد أن يأخذه ليعزره، فشتمه السكران، فرجع عنه، فقيل له: يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته، قال: إنما تركته لأنه أغضبني، فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسي، فلا أحب أن أضرب مسلمًا لحمية نفسي.

المنصور والكاتب

غضب المنصور على رجل من الكتّاب، فأمر بضرب عنقه، فأنشأ يقول:

وإنّا الكاتبونا وإن أسأنا ... فهبنا للكرام الكاتبينا

فعفا عنه وخلّى سبيله وأكرمه.

---

(١) جحود: نكران.
(٢) ما قد سلف: ما قد مضى.
(٣) مجترمي: أي اقترافي الذنوب والأخطاء.

حلم هشام بن عروة

قال الرشيد لأعرابي: بِمَ بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة؟ قال: بحلمه عن سفيهنا، وعفوه عن مسيئنا، وحمله عن ضعيفنا. لا منان إذا وهب، ولا حقود إذا غضب، رحب الجنان سمح البنان، ماضي اللسان، قال: فأومأ الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه، وقال: والله لو كانت هذه في هذا الكلب لاستحق بها السؤدد.

أقوال وأشعار في الحلم

قيل لمعن بن زائدة: المؤاخذة بالذنب من السؤدد؟ قال: لا، ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن يعظم جرمه، وقلّ شفعاؤه، ولم يجد ناصرًا. وقال محمود الوراق[١]:

سألزم نفسي الصفح عن كلِّ مذنبٍ … وإنْ عظمتْ منهُ عليَّ الجرائم
فما الناس إلا واحدٌ من ثلاثةٍ … شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدرَه … وأتبع فيه الحقَّ والحق لازمُ
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن … إجابته نفسي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا … تفضَّلت إنّ الحرّ بالفضل حاكم

وقال الأحنف بن قيس لابنه: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلًا فأغضبه، فإن أنصفك، وإلا فاحذره. قال الشاعر:

إذا كنت مختصًا لنفسك صاحبًا … فمن قبل أن تلقاه بالودِّ أغضبه
فإن كان في حال القطيعة منصفًا … وإلا فقد جرّبته فتجنّبه

ومن أمثال العرب: احلم تسد. قال الشاعر:

لن يبلغ المجد أقوامٌ وإن شرفوا … حتى يذلّوا وإن عزّوا لأقوامِ
ويشتموا فترى الألوان مسفرةً[٢] … لا صفح ذلك ولكن صفح إكرام

---

(١) هو محمود بن حسن الوراق، شاعر أكثر شعره في المواعظ والحكم، روى عنه ابن أبي الدنيا، وفي الكامل للمبرد نتف من شعره. وجمع ما وجد من شعره في ديوان وطبع، توفي سنة حوالي ٢٢٥ هـ.

(٢) مسفرة: ضاحكة حسنة.

وقال آخر:

وجهلٍ رددناه بفضل حلومنا ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

وقال الأحنف: إياكم ورأي الأوغاد، قالوا: وما رأي الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفو عارًا. وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لأسبنك سبًا يدخل معك قبرك، فقال: معك والله يدخل لا معي. وقيل: إن الأحنف سبّه رجل وهو يماشيه في الطريق، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا إن كان قد بقي معك شيء، فهات، وقله هٰهنا، فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا. وقال لقمان لابنه: يا بني ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه، ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا[1]

أصبت حليمًا أو أصابك جاهل

وقال آخر:

وإذا بغى باغٍ عليك بجهله فاقْتُلْهُ بالمعروف لا بالمنكر

وقال آخر:

قل ما بدا لك من صدقٍ ومن كذبٍ حلمي أصم وأذني غيرُ صماءِ

قبيح الفعل حسن الاعتذار

يُروى في بعض الأخبار، أن ملكًا من الملوك أمر أن يصنع له طعام، وأحضر قومًا من خاصته فلما مد السماط أقبل الخادم وعلى كفه صحن فيه طعام، فلما قرب من الملك أدركته الهيبة فعثر فوقع من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك، فأمر بضرب عنقه، فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك، فقال له: ويحك ما هذا؟ فقال: أيها الملك إنما صنعت هذا شحًا على عرضك، لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبي الذي به تقتلني: قتله في ذنب خفيف لم يضره وأخطأ فيه العبد، ولم

---

(١) الخنا: الفحش.

يقصده، فتنسب إلى الظلم والجور. فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر في قتلي وترفع عنك الملامة. قال: فأطرق الملك مليًا ثم رفع رأسه إليه وقال: يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار، قد وهبنا قبيح فعلك وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك، اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

المأمون وإبراهيم بن المهدي

حُكِيَ عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه، والمشهور في الآفاق بعفوه وحلمه، أنه لما خرج عمه إبراهيم المهدي عليه وبايعه العباسيون الخلافة ببغداد وخلعوا المأمون، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان فلما بلغه الخبر قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ولم يزل المأمون متطلبًا لإبراهيم حتى أخذه وهو متنقب[١] مع نسوة، فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدي المأمون فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال المأمون: لا سلم الله عليك ولا قرب دارك، استغواك[٢] الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام. فقال له إبراهيم: مهلًا يا أمير المؤمنين فإنّ ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة وقد جعلك الله فوق كل ذي ناب كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإن أخذت فبحقك وإن عفوت فبفضلك، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال هذه الأبيات:

ذنبي إليك عظيمٌ وأنت أعظم منه
فخذْ بحقّك أو لا فاصفح بعفوك عنهُ
إن لم أكن في فعالي من الكرام فكُنْهُ

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول وأكثر مما تأمل، ولقد حبب إليّ العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه، لا تثريب[٣] عليك اليوم. ثم أمر بفك قيوده وإدخاله الحمام وإزالة شعثه[٤] وخلع عليه ورد أمواله جميعها إليه

(١) متنقب: أي يلبس نقابًا على وجهه كما تلبس النساء.
(٢) استغواك: أضلك. (٣) لا تثريب: لا ملامة.
(٤) شعثه: أي استحمامه وتسريح شعره.

فقال فيه مخاطبًا:

رددت مالي ولم تبخل عليّ به وقبل ردّك مالي قد حقنت دمي
فإن جحدتك ما أوليت من كرم إنّي لباللؤم أولى منك بالكرم

الحجاج وابنة عباد بن أسلم

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري، فقال له عباد: أيها الأمير أنشدك الله لا تقتلني، فوالله إني لأعول أربعًا وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري. فرق لهن واستحضرهن وإذ واحدة منهن كالبدر، فقال لها الحجاج: ما أنت منه؟ قالت: أنا بنته فاسمع يا حجاج مني ما أقول ثم قالت:

أحجاجُ إمّا أن تمنّ بتركه علينا وإما أن تقتّلنا معا
أحجاج لا تفجع به إنْ قتلته ثمانًا وعشرًا واثنتين وأربعا
أحجاج لا تترك عليه بناته وخالاته يندبنه الدهر أجمعا

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة.

عمر بن الخطاب وعيينة بن حصن

لما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، فاستأذن فأذن له عمر فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى قال لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩] وأن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله تعالى.

الفضل بن الربيع والمزوّر

حُكِيَ أن رجلًا زوّر ورقة عن خط الفضل بن الربيع، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ثم جاء بها إلى وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها

خط الفضل فشرع في أن يزن له الألف دينار، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل فأطرق[١] الفضل، بوجهه ثم قال للوكيل: أتدري لم أتيتك في هذا الوقت؟ قال: لا، قال: جئت لأستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة، فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيّرًا في أمره فالتفت إليه الفضل وقال له: طب نفسًا وامض إلى سبيلك آمنًا على نفسك فقبّل الرجل يده وقال له: سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة، ثم أخذ المال ومضى.

ما جاء في العتاب

قيل العتاب خير من الحقد ولا يكون العتاب إلا على زلة. وقد مدحه قوم فقالوا: العتاب حدائق المتحابين ودليل على بقاء المودة. وقد قال أبو الحسن بن منقذ شعرًا[٢]:

أسطو عليه وقلبي لو تمكّن من ... يديَّ غلّهما غيظًا إلى عنقي
وأستعير له من سطوتي حنقًا ... وأين ذل الهوى من عزة الحنق[٣]

وذمه بعضهم، قال إياس بن معاوية: خرجت في سفر ومعي رجل من الأعراب فلما كان في بعض المناهل لقيه ابن عم فتعانقا وتعاتبا وإلى جانبهما شيخ من الحي فقال لهما: انعما عيشًا إن المعاتبة تبعث التجني والتجني يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العداوة ولا خير في شيء ثمرته العداوة. قال الشاعر:

فدعْ ذكر العتاب فربَّ شرٍّ ... طويلٍ هاجَ أوّلُه العتابُ

---

(١) أطرق: أحنى رأسه تفكيرًا.

(٢) هو علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، أبو الحسن سديد الملك، أمير، كان شجاعًا قوي النفس كريمًا، وهو أول مَن ملك قلعة شيزر بين «المعرة وحماه». وكانت في يد الروم له ديوان شعر جيد. توفي سنة ٤٧٩ هـ.

(٣) الحنق: الغضب، والسطوة: القوة والجاه.

وقيل العتاب من حركات الشوق وإنما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر:

علامة ما بين المحبين في الهوى   عتابهم في كل حقٍّ وباطلِ

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغيّر حاله معه يقول:

عرضنا أنفسًا عزَّت علينا   عليكم فاستخف بها الهوانُ
ولو أنّا رفعناها لعزَّتْ   ولكن كل معروضٍ مهانُ

وقال آخر يعاتب صديقه:

وكنت إذا ما جئت أدنيتَ مجلسي   ووجهُك من تلك البشاشة يقطرُ
فمنْ ليَ بالعين التي كنتُ مرَّةً   إليّ بها في سالف الدهر تنظر

وقال أبو الحسن بن منقذ:

أخلاقك الغر السجايا ما لها   حملت قذى الواشين وهي سلاف
ومرآة رأيك في عبيدك ما لها   صدئت وأنت الجوهر الشفاف

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حط عليه:

اقرأ كتابك واعتبره قريبًا   فكفى بنفسك لي عليك حسيبا
أكذا يكون خطاب إخوان الصفا   إن أرسلوا جعلوا الخطاب خطوبا
ما كان عذري أن أجبت بمثله   أو كنت بالعتب العنيف مجيبا
لكنني خفت انتقاص مودّتي   فيُعد إحساني إليك ذنوبا

وقال آخر:

أراك إذا ما قلت قولًا قبلته   وليس لأقوالي لديك قبولُ
وما ذاك إلّا أنّ ظنّك سيءٌ   بأهل الوفا والظن فيك جميل
فكن قائلًا قول الحماسي تائهًا   بنفسك عجبًا وهو منك قليل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم   ولا ينكرون القول حين نقول

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته إضاقة ثم ولي عملًا فأثرى فقصده محمد مسلمًا فرأى منه تغيرًا فكتب إليه:

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروةً   فأصبحت ذا يسرٍ وقد كنتَ عسرِ
فقد كشف الإثراء منك خلائقًا   من اللؤم كانت تحت ثوبٍ من الفقر

وقال آخر في المعنى:

دعوت الله أن تسمو وتعلو ... علوَّ النجم في أفقِ السماءِ
فلما أن سموت بُعدتَ عنّي ... فكان إذًا على نفسي دعائي

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرمًا وابن عرادة يتجنّى عليه ففارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع إليه وقال:

عتبت على سلم فلمّا فقدته ... وصاحبت أقوامًا بكيت على سلمِ
رجعت إليه بعد تجريب غيره ... فكان كبرٍ بعد طولٍ من السقم

وقال مسلم بن الوليد:

ويرجعني إليك إذا نأت بي ... دياري عنك تجربةُ الرجال

وقال أبو الحسن القابسي:

إذا أنا عاتبت الملوم فإنّما ... أخطّ بأقلامي على الماء أحرفا
وهبه ارعوى[1] بعد العتاب ألم تكن ... مودته طبعًا فصارت تكلفا

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه عند معاتبة الصديق أهون من فقده وما أحسن ما قيل في العتاب:

وفي العتاب حياةٌ بين أقوام ... وهو المحكّ لذي لَبْسٍ وإبهامِ[2]

---

(١) ارعوى: انصرف وامتنع.

(٢) لبس: الاختلاط والشبهة وعدم الوضوع.

في الوفاء بالوعد
وحفظ العهد ورعاية الذمم

قال في المستطرف[1]: أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى الذي من تمسك به هداه ومن استدل به أرشده هداه. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المَائدة: الآية ١]. وقال جلّ ذكره وتقدّس اسمه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢٠]. وقال جلّ وعلا: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النّحل: الآية ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٤]. والآيات في ذلك كثيرة من أشدها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا[2] عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصَّف: الآيتان ٢، ٣].

ورُوِيَ في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان». فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون وتصدق فيه خطرات الظنون، ويقال: الوعد سحابة والإنجاز مطره. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لكل شيء رأس ورأس المعروف تعجيله، وأنشدوا:

إذا قلتَ في شيءٍ نعم فأتمّهُ ... فإنَّ نعمْ دينٌ على الحرّ واجبُ
وإلَّا فقل لا تسترحْ وتُرِحْ بها ... لئلَّا يقول الناس إنّك كاذب

---

(١) المستطرف: ص ٢٠٩ ـ ٢١٦.

(٢) المقت: الكره، والبغض.

وقال آخر:

لا كلّف الله نفسًا فوق طاقتها ولا تجود يدٌ إلّا بما تجدُ
فلا تعِدْ عِدَةً إلّا وفيت بها واحذر خلاف مقالٍ للذي تعدُ

وقال أعرابي: وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتعليل وقال أعرابي أيضًا: العذر الجميل خير من المطل الطويل. ومدح بشار خالد بن برمك فأمر له بعشرين ألفًا فأبطأت عليه فقال لقائده: أقمني حيث يمر فأقامه فمر فأخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول:

أظلت علينا منك يومًا سحابةٌ أضاء لها برقٌ وأبطأ رشاشها[١]
فلا غيمها يجلى فييأس طابعٌ ولا غيثُها يأتي فتروي عُطاشها

فقال: لا تبرح حتى تؤتى بها وقال صالح اللخمي:

لئن جمع الآفات فالبخلُ شرّها وشرٌّ من البخل المواعيد والمطل[٢]
ولا خير في وعدٍ إذا كان كاذبًا ولا خير في قولٍ إذا لم يكن فعل

المنصور والهذلي

قيل: ماتت للهذلي أم ولد، فأمر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له: إن أمير المؤمنين موجه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها، وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة. فلم يزل الهذلي يتوقع وعد أمير المؤمنين ونسيه المنصور، فحجّ المنصور ومعه الهذلي فقال المنصور وهو بالمدينة: إني أحب أن أطوف الليلة المدينة فاطلب لي مَن يطوف بي. فقال الهذلي: أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة، فقال: يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص[٣]:

يا بيت عاتكة الذي أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكّل
إني لأمنحك الصدودَ وإنّني قسمًا إليك مع الصدود لأميل

(١) رشاسها: قطرها وماؤها، وأبطأ: أي أبطأ. (٢) المطل: التسويف والمماطلة.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبد اللهبن عاصم الأنصاري من بني ضبيعة، شاعر هجاء، صافي الديباجة، من طبقة جميل بن معمر، ونصيب، كان معاصرًا لجرير والفرزدق وهو من سكان المدينة، نفاه الوليد بن عبد الملك إلى «دهلك» وأمر بجلده لسوء سيرته، لقب بالأحوص لضيق في مؤخرة عينه، له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ١٠٥ هـ.

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق[١] اللسان يقول ما لا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذي كان وعد به الهذلي فأنجزه له واعتذر إليه.

أشعار في الوفاء بالوعد وحفظ العهد

قال الشاعر:

تعجيل وعد المرء أكرومةٌ تنشر عنه أطيب الذكر
والحرّ لا يمطل معروفه ولا يليق المطل بالحرّ

وقال آخر:

ولقد وعدتَ وأنتَ أكرمُ واعدٍ لا خير في وعدٍ بغير تمام
أنعم عليّ بما وعدت تكرُّمًا فالمطل يُذهب بهجةَ الإنعامِ

وقال آخر:

لعبدك وعدٌ قد تقدم ذكره فأوله حمدٌ وآخره شكر
وقد جمعت فيك المكارم كلها فما لك عن تأخير مكرمةٍ عذر

وقال آخر:

وميعاد الكريم عليه دينٌ فلا تزد الكريم على السلام
يذكره سلامك ما عليه ويغنيك السلام عن الكلام

وقال آخر:

شكاك لساني ثم أمسكت نصفه فنصف لساني بامتداحك ينطقُ
فإن لم تنجز ما وعدت تركتني وباقي لساني بالمذمة مطلق

وقال آخر:

باتت لوعدك عيني غير راقدةٍ والليلُ حي الدياجي منبتُ السحرِ
هذا وقد بت من وعدٍ على ثقةٍ فكيف لو بت من هجرٍ على حذر

---

(١) المذق: الكذب.

وقال آخر:

نـذكـر بـالـرّقـاع إذا نـسـيـنـا ويـأبـى الله أن تـنـسـى الـكـرام

الطائي وشريك نديم النعمان بن المنذر

كان النعمان قد جعل له يومين يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم مَن لقيه فيه أحسن إليه وأغناه. وكان هذا الطائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيئًا لصبيته وصغاره، فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان في يوم بؤسه فلما رآه الطائي علم أنه مقتول وأن دمه مطلول، فقال: حيا الله الملك إن لي صبية صغارًا وأهلًا جياعًا وقد أرقت ماء وجهي في حصول شيء من البلغة لهم، وقد أقدمني سوء الحظ على الملك في هذا اليوم العبوس وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى، ولن يتفاوت الحال في قتلي بين أول النهار وآخره، فإن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت وأوصي بهم أهل المروءة من الحي لئلا يهلكوا ضياعًا ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسي لنفاذ أمره. فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه على ضياع أطفاله رقَّ له ورثى لحاله، غير أنه قال له: لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا فإن لم ترجع قتلناه، وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان معه فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يـا شـريـك بـن عُـدي مـا مـن الـمـوت انـهـزام
مَـن لأطـفـالٍ ضـعـافٍ عـدمـوا طـعـمَ الـطـعـامِ
بـيـن رجـوع وانـتـظـار وافـتـقـارًا وسـقـام
يـا أخـا كـلّ كـريـمٍ أنـت مـن قـومٍ كـرام
يـا أخـا الـنـعـمـان جُـدْ لـيَ بـضـمـانٍ والـتـزام
ولـك الله بـأنّـي راجـعٌ قـبـل الـظـلام

فقال شريك بن عدي: أصلح الله الملك، عليّ ضمانه فمر الطائي مسرعًا وصار النعمان يقول لشريك: إن صدر النهار قد ولّى ولم يرجع، وشريك يقول: ليس للملك علي سبيل حتى يأتي المساء فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك قم فتأهب للقتل. فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلًا وأرجو أن

يكون الطائي فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل، قال: فبينما هم كذلك وإذ بالطائي قد اشتد عدوه في سيره مسرعًا حتى وصل. فقال: خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي. ثم وقف قائمًا وقال: أيها الملك مر بأمرك فأطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال: والله ما رأيت أعجب منكما أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقامًا يقوم فيه ولا ذكرًا يفتخر به، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء. فلا أكون أنا ألأم الثلاثة ألا وأني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي وكرم شريك. فقال الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي ... فعددت قولهمو من الإضلال

إني امرؤٌ مني الوفاء سجية ... وفعالُ كلَّ مهذبٍ مفضال

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك؟ فقال: ديني فمن لا وفاء فيه لا دين له. فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده مكرمًا إلى أهله وأناله ما تمناه.

المأمون وعبد الله بن طاهر

حُكِيَ أن الخليفة المأمون لما ولي عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه، دخل على المأمون بعض إخوانه يومًا فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب وهواه مع العلويين وكذلك كان أبوه قبله، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر فتشوش فكره وضاق صدره، فاستحضر شخصًا وجعله في زي الزهاد والنساك الغزاة ودسّه إلى عبد الله بن طاهر، وقال له: امض إلى مصر وخالط أهلها وداخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوي، واذكر مناقبه، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة[1] عبد الله بن طاهر ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعه إلى القاسم بن محمد العلوي واكشف باطنه وابحث عن دفين نيته، وائتني بما تسمع.

ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه إلى مصر ودعا جماعة من أهلها، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلما نزل

(١) البطانة: الخاصة والأصحاب.

من الركوب وجلس في مجلسه خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده فقال له: لقد فهمت ما قصدت فهات ما عندك، فقال: ولي الأمان؟ قال: نعم. فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد، فقال له عبد الله: أوتنصفني فيما أقوله لك؟ قال: نعم. قال: فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة؟ قال: نعم، قال: فيجب عليَّ وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة والولاية ولي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب، وأمري فيما بينهما مطاع وقولي مقبول، ثم إني ألتفت يمينًا وشمالًا فأرى نعمة هذا الرجل غامرة وإحسانه فائضًا عليَّ، أفتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وتقول: اغدر وجانب الوفاء، والله لو دعوتني إلى الجنّة عيانًا لما غدرت، ولما نكثت بيعته وتركت الوفاء له، فسكت الرجل، فقال له عبد الله: والله ما أخاف إلا على نفسك، فارحل من هذا البلد. فلما يئس الرجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع إلى المأمون، فأخبره بصورة الحال، فسره ذلك، وزاد في إحسانه إليه، وضاعف إنعامه عليه.

كافور الإخشيدي والمنجم

قال حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه. قال: قال لي أبو الفتح المنطيقي: كنا جلوسًا عند كافور الإخشيدي، وهو يومئذ صاحب مصر والشام، وله من البسطة والمكنة، ونفوذ الأمر وعلو القدر وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر، فحضرت المائدة والطعام، فلما أكلنا نام وانصرفنا، ولما انتبه من نومه طلب جماعة منا، وقال: امضوا الساعة إلى عقبة النجارين، وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك، فإن كان حيًا، فاحضروه، وإن كان قد توفي فسلوا عن أولاده، واكشفوا أمرهم.

قال: فمضينا إلى هناك، وسألنا عنه، فوجدناه قد مات، وترك بنتين إحداهما متزوجة، والأخرى عاتق[1]، فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك، فسيّر في الحال واشترى لكل واحدة منهما دارًا وأعطاهما مالًا جزيلًا وكسوة فاخرة، وزوج العاتق، وأجرى على كل واحدة منهما رزقًا وأظهر أنهما من المتعلفين به لرعاية أمورهما، فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك وقال: أتعلمون سبب هذا؟ قلنا: لا، فقال:

(١) عاتق: أي حرة غير متزوجة، وهي في أول إدراكها.

اعلموا أني مررت يومًا بوالدهما المنجم، وأنا في ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحالة رثّة، فوقفت عليه، فنظر إليَّ واستجلبني وقال: أنت تصير إلى رجل جليل القدر، وتبلغ منه مبلغًا كبيرًا، وتنال خيرًا، ثم طلب مني شيئًا، فأعطيته درهمين كانا معي، ولم يكن معي غيرهما، فرمى بهما إليَّ وقال: أبشرك بهذه البشارة وتعطيني درهمين؟ ثم قال: وأزيدك أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه، فاذكرني إذا صرت إلى الذي وعدتك به ولا تنس.

فقلت له: نعم، فقال: عاهدني أنك تفي لي ولا يشغلك ذلك عن افتقادي، فعاهدته، ولم يأخذ مني الدرهمين، ثم إني شغلت عنه بما تجدد لي من الأمور والأحوال وصرت إلى هذه المنزلة ونسيت ذلك، فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته في المنام قد دخل عليَّ، وقال لي: أين الوفاء بالعهد الذي بيني وبينك، وإتمام وعدك؟ لا تغدر، فيغدر بك، فاستيقظت وفعلت ما رأيتم، ثم زاد في إحسانه إلى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده، والله أعلم.

حديث السموأل بن عاديا

لما أراد امرؤ القيس الكندي المضي إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دروعًا وسلاحًا وأمتعة تساوي من المال جملة كثيرة، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل، فقال السموأل: لا أدفعها إلا لمستحقها وأبى أن يدفع إليه منها شيئًا. فعاوده، فأبى وقال: لا أغدر بذمتي ولا أخون أمانتي ولا أترك الوفاء والواجب عليَّ. فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره، فدخل السموأل في حصنه وامتنع به، فحاصره ذلك الملك. وكان ولد السموأل خارج الحصن، فظفر به ذلك الملك، فأخذه أسيرًا ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل، فأشرف عليه من أعلى الحصن، فلما رآه قال له: إن ولدك قد أسرته، وها هو معي، فإن سلمت إليَّ الدروع والسلاح التي لامرىء القيس عندك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر، فاختر أيهما شئت. فقال له السموأل: ما كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي. فاصنع ما شئت، فذبح ولده وهو ينظر، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبًا. واحتسب السموأل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه، فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرىء القيس سلم إليهم الدروع والسلاح، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه، فسارت الأمثال في

الوفاء تضرب بالسموأل، وإذا مدحوا أهل الوفاء في الأنام ذكروا السموأل في الأول.

صنيع البرامكة

قال خادم أمير المؤمنين المأمون: طلبني أمير المؤمنين ليلة، وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي: خذ معك فلانًا وفلانًا وسماهما أحدهما علي بن محمد، والآخر دينار الخادم، واذهب مسرعًا لما أقوله لك، فإنه قد بلغني أن شيخًا يحضر ليلًا إلى دور البرامكة، وينشد شعرًا ويذكرهم ذكرًا كثيرًا ويندبهم ويبكي عليهم، ثم ينصرف، فامض الآن أنت وعلي ودينار حتى تروا هذه الخرابات، فاستتروا خلف بعض الجدران، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئًا، فائتوني به. قال: فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات، وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي حديد، وإذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول:

ولما رأيت السيفَ جندلَ جعفرًا   ونادى منادٍ للخليفة في يحيىٰ
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي   عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها وردها، فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعًا شديدًا، وقال: دعوني حتى أوصي وصية، فإني لا أوقن بعدها بحياة. ثم تقدم إلى بعض الدكاكين، فاستفتح، وأخذ ورقة، وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه، ثم سرنا به، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره، وقال له: مَن أنت، وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها؟ قال الخادم: ونحن وقوف نسمع، فقال: يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندي أيادي خطيرة، أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم؟ قال: قل.

قال: يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدين، واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس أهلي، أشاروا عليَّ بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبيًا وصبية، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت بثويبات لي كنت قد أعددتها لأستمنح بها الناس، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعًا لا شيء عندهم، ودخلت

شوارع بغداد أسأل عن دور البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلى الباب خادمان، فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم، فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيىٰ بن خالد، ودخلت معهم، وإذا بيحيىٰ جالس على دكة له في وسط بستان، فسلمنا، وهو يعدنا مائة وواحد وبين يديه عشرة من ولده، وإذا غلام أمرد عذاراه(١) خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر(٢)، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني، فوضعوه بين يدي الغلام إلى جنب يحيىٰ.

ثم قال يحيىٰ للقاضي: تكلم وزوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا. فخطب القاضي، وزوجه، وشهد أولئك الجماعة، وأقبلوا علينا بالنثار(٣) ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت، والله يا أمير المؤمنين ملء كمي، ونظرت، فإذا نحن في المكان ما بين يحيىٰ والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلًا، فخرج إلينا مائة واثنا عشر خادمًا مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدي بين يدي يحيىٰ لا أجسر على أخذ الصينية، فغمزني الخادم، فجسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كمي، وأخذت الصينية في يدي وقمت، وجعلت ألتفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب بها، فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيىٰ يلحظني إذ قال للخادم: ائتني بذلك الرجل. فرددت إليه، فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي، ثم أمرني بالجلوس، فجلست فقال لي: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتي، فقال للخادم: ائتني بولدي موسى، فأتى به، فقال له: يا بني هذا رجل غريب، فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك.

فقبض موسى على يدي وأدخلني إلى دار من دوره، فأكرمني غاية الإكرام، وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش، وأتم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه

---

(١) الأمرد: الشاب الذي طلع شاربه ولم تطلع لحيته، والعذار: الشعر بين الأذن والصدغ.
(٢) الفهر: حجر رقيق تسحق به الأدوية. (٣) النثار: ما نثر على الجمع.

العباس وقال: إن الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل، وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك، وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام، فلما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني أفي الأموات هم أم في الأحياء. فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم، فقالوا لي: قم، فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: واويلاه سلبت الدنانير والصينية، وأخرج إلى عيالي في هذه الحالة. إنّا لله وإنّا إليه راجعون فرفع الستر الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي: مهما كان لك من الحوائج، فارفعها إليّ فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به، فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنًا ونورًا واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك، وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج، وحمل إلي ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين، وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعوني، فلما جاءتهم البلية، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل، أجحفني عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل عليَّ الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خرابات القوم، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إليَّ وأشكرهم على إحسانهم.

فقال المأمون: عليَّ بعمرو بن مسعدة، فلما أُتي به قال: يا عمرو، أتعرف هذا الرجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا، قال: رد له كل ما استأديته منه في مدته، ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده، قال: فعَلَا نحيب الرجل وبكاؤه، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال: يا هذا قد أحسنا إليك، فلمَ تبكي؟ قال: يا أمير المؤمنين وهذا أيضًا من صنائع البرامكة، إذ لو لم آت خراباتهم، فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين، ففعل ما فعل، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين. قال إبراهيم بن ميمون، فلقد رأيت المأمون قد دمعت عيناه، وظهر عليه حزنه وقال: لعمري هذا من صنائع البرامكة، فعليهم فابك، وإياهم فاشكر، ولهم فأوف ولإحسانهم فاذكر. وقيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، ودوام عهده

فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه قال الشاعر:

سقى الله أطلالَ الوفاءِ بكفِّه فقد دَرَسَتْ[١] أعلامُه ومنازله

وقال آخر:

أشددْ يديك بمن بلوت وفاءه إنَّ الوفاء من الرجال عزيز

لا خير فيمن نسي إذا وعد وعدًا

قال مالك بن عمارة اللخمي: كنت جالسًا في ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان، وقبيصة بن ذؤيب، وعروة بن الزبير، وكنا نخوض في الفقه مرة، وفي المذاكرة مرة، وفي أشعار العرب، وأمثال الناس مرة، فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة والتصرف في فنون العلم، وحسن استماعه إذا حدث، وحلاوة لفظه إذا حدث، فخلوت معه ليلة، فقلت له: والله إني لمسرور بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك، وإقبالك على جليسك، فقال: إن تعش قليلًا، فسترى العيون طامحة إليَّ، والأعناق نحوي متطاولة، فإذا صار الأمر إليَّ، فلعلك أن تنقل إلي ركابك، فلأملأن يديك. فلما أفضت إليه الخلافة، توجهت إليه، فوافيته[٢] يوم الجمعة، وهو يخطب على المنبر، فلما رآني أعرض عني، فقلت: لعله لم يعرفني، أو عرفني وأظهر لي نكره، فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب، فقال: أين مالك بن عمارة؟ فأخذ بيدي، وأدخلني عليه، فمد إلي يده وقال: إنك تراءيت لي في موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت، فأما الآن، فمرحبًا وأهلًا، كيف كنت بعدي؟ فأخبرته، فقال: أتذكر ما كنت قلت لك؟ قلت: نعم، فقال: والله ما هو بميراث وعيناه، ولا أثر رويناه، ولكني أخبرك بخصال مني سمت بها نفسي إلى الموضع الذي ترى، ما خنت ذا ود قط، ولا شمت بمصيبة عدو قط، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي حديثه، ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذًا بها، فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتي وقد فعل.

---

(١) درست: انمحت. (٢) وافيته: التقيته.

ثم دعا بغلام، فقال له يا غلام: بوئه[١] منزلًا في الدار، فأخذ الغلام بيدي، وأفرد لي منزلًا حسنًا، فكنت في ألذ حال، وأنعم بال، وكان يسمع كلامي وأسمع كلامه، ثم أدخل عليه في وقت عشائه، وغدائه، فيرفع منزلتي ويقبل عليَّ ويحادثني، ويسألني مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لي عشرون ليلة، فتغديت يومًا عنده، فلما تفرق الناس نهضت قائمًا، فقال: على رسلك، فقعدت، فقال: أي الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة[٢] لك في المعاشرة، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة، فقلت: يا أمير المؤمنين فارقت أهلي وولدي على أني أزور أمير المؤمنين، وأعود إليهم، فإن أمرني أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد، فقال: لا، بل أرى لك الرجوع إليهم والخيار لك بعد في زيارتنا، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار، وكسوناك وحملناك. أتراني قد ملأت يديك؟ فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعدًا، وزرنا إذا شئت، صحبتك السلامة.

أبو بكار الأعمى وآل برمك

رُوِيَ عن أبي بكار الأعمى، وكان قد انقطع إلى آل برمك، قال مسرور الكبير: لما أمرني الرشيد بقتل جعفر بن يحيىٰ دخلت عليه، فوجدت عنده أبا بكار الأعمى يغنيه ويقول:

فلا تحزن فكل فتًى سيأتي   عليه الموتُ يطرق أو يغادي[٣]

فقلت: في هذا والله قد أتيتك، ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته، وضربت عنقه، فقال أبو بكار: ناشدتك الله إلا ما ألحقتني به، فقلت له: ما الذي حملك على هذا؟ فقال: أغناني عن الناس، فقلت: حتى أستأمر الرشيد، ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد، وأخبرته بخبر أبي بكار، فقال: هذا رجل فيه مصطنع أضمه إليك، وانظر ما كان يجري عليه جعفر فادفعه إليه. وكان يحيىٰ بن خالد إذا أكد في يمينه قال: لا والذي جعل الوفاء أعز ما يرى. قال أبو فراس بن حمدان الشاعر:

بمن يتّقي الإنسانُ فيما ينوبه   ومن أين للحرِّ الكريم صحابُ
وقد صار هذا الناس إلّا أقلهُم   ذئابًا على أجسادهن ثيابُ

---

(١) بوئه: أحله وأسكنه. (٢) النصفة: العدل والمساواة.
(٣) يطرق أو يغادي: أي أن الموت سيأتيه ليلًا أو صباحًا.

المنصور وخادم هشام بن عبد الملك

سأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب، فقال: كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا، فقال المنصور: عليك لعنة الله تطأ بساطي وتترحم على عدوي؟ فقال: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فإني أشهد أنك لوفي حافظ للخير، ثم أمر له بمال، فأخذه، ثم قال: والله لولا جلالة أمير المؤمنين وإمضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة. فقال له المنصور: لله درك، فلو لم يكن في قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجدًا مخلدًا.

إخلاص زوجة

خرج سليمان بن عبد الملك، ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبابين الشام، فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي، قال سليمان: فرفعت البرقع عن وجهها، فحكت شمسًا عن متون غمامة، فوقفنا متحيرين ننظر إليها، فقال لها يزيد بن المهلب: يا أمة الله: هل لك في أمير المؤمنين بعلًا؟ فنظرت إلينا، ثم أنشأت تقول:

فإن تسألاني عن هواي فإنه — يجولُ بهذا القبرِ يا فتيان
وإني لأستحييه والترب بيننا — كما كنتُ أستحييه وهو يراني

رُوِيَ عن نائلة بنت القرافصة بن الأحوص الكلبي زوج عثمان رضي الله عنهما، أن عثمان لما قتل أصابتها ضربة على يديها، وخطبها معاوية، فردته، وقالت: ما يعجب الرجل مني؟ قالوا: ثناياك[1]، فكسرت ثناياها، وبعثت بها إلى معاوية، فكان ذلك مما رغب قريشًا في نكاح نساء بني كلب.

ولما أحسّ مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف، وقال له: انج بهذا فأخذه زياده ودقه بين حجرين، وقال: والله لا ينتفع به أحد بعدك. ولما قدم هدبة بن الحشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم، قالت زوجته: إن لهدبة عندي وديعة، فامهله حتى آتيك بها، فقال: أسرعي، فإن الناس قد كثروا، وكان مروان قد جلس لهم بارزًا عن داره، فمضت إلى السوق، وأتت

(١) الثنايا: الأسنان الأربع التي في مقدم الفم.

إلى قصاب، فقالت: أعطني شفرتك، وخذ هذين الدرهمين، وأنا أردها عليك، فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفها على وجهها، ثم جدعت أنفها من أصله، وقطعت شفتيها وردت الشفرة إلى القصاب. ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس، فقالت: أتراني يا هدبة متزوجة بعد ما ترى، فقال: الآن طابت نفسي بالموت، فجزاك الله من حليلة وفية خيرًا.

إخلاص أحمد اليتيم

ذكر عبد الله بن عبد الكريم، وكان مطلعًا على أحوال أحمد بن طولون عارفًا بأموره عالمًا بوروده وصدوره، فقال: ما معناه أن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلًا مطروحًا، فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة، وأحسنهم زيًا وصورة، فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به، فأخذه إليه، فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه، وقال له: أنت عندي بمكانة أرعاك بها، ولكن عادتي أني آخذ العهد على كل من أصرفه في شيء إنه لا يخونني فعاهده، ثم حكمه في أمواله وقدمه في أشغاله، فصار أحمد اليتيم مستحوذًا على المقام حاكمًا على جميع الحاشية الخاص والعام، والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه، فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن إليه، واعتمد في أمور بيوته عليه، فقال له يومًا: يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية ففي المجلس حيث أجلس سبحة جوهر، فائتني بها، فمضى أحمد، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شباب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب، فلما رأياه خرج الفتى وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلى قضاء وطره، فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إليَّ وأخذ العهد عليَّ، ثم تركها، وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه.

وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة، وخرج من الحجرة لئلا يذكرها للأمير، فأقامت أيامًا لم تجد من الأمير ما غيره عليها. ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه، وغمرها بعطاياه، واشتغل بها عمن سواها، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها، ولا يراها، وكان أولًا مشغولًا بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الخائبة الغادرة العائبة

العاهرة الفاسقة الفاجرة، فلما أعرض عنها اشتغالًا بالجارية الجديدة الممجدة السعيدة الحامدة المحمودة الوصيفة الموصوفة الأليفة المألوفة العارفة المعروفة، وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه من ملاعبة أترابها، وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف رضاب أضرابها، وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره، فكبر عليها إعراضه عنها ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها، فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها، وقالت: إن أحمد اليتيم راودني عن نفسي. فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظًا وغضبًا، وهمَّ في الحال بقتله، ثم عاوده حاكم عقله، فتأنى في فعله، واستحضر خادمًا يعتمد عليه، وقال له: إذا أرسلت إليك إنسانًا ومعه طبق من ذهب، وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكًا، فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق، وأحضره مغطى.

ثم إن الأمير أبا الجيش جليس لشربه، وأحضر عنده ندماءه الخواص، وأدناهم لمجلس قربه، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء، ولا هجس هاجس في قلبه، فلما مثل بين يدي الأمير، وأخذ منه الشراب شرع في التدبير، فقال: يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم، وقل له: يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكًا، فأخذ أحمد اليتيم ومضى، فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء، والخواص، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال: أنا ماضٍ في حاجة للأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق، فقالوا له: أرسل مَن ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وادخل بها على الأمير، فأدار عينيه، فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية، فأعطاه الطبق، وقال له: امض إلى فلان الخادم وقل له: يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكًا، فمضى ذلك الفراش إلى الخادم، فذكر له ذلك، فقتله، وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق، وأقبل به، فناوله لأحمد اليتيم، فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر، فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال: ما هذا؟ فقصّ عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم، وما كان من إنفاذ الطبق، وإرساله مع الفراش، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره.

قال: أتعرف لهذا الفراش خبر يستوجب به ما جرى عليه؟ فقال: أيها الأمير إن الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك، وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره، لما أنفذه لإحضار السبحة الجوهر، فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها، فأقرت بصحة ما ذكره أحمد، فأعطاه إياها، وأمره بقتلها، ففعل، وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه وضاعف إحسانه إليه، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه.

في الصدق

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى مبشرًا للصادقين: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المَائدة: الآية ١١٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [الأحزَاب: الآية ٣٥]. فمدحهم وبيّن لهم المغفرة والأجر العظيم.

وقال عمر رضي الله عنه: عليك بالصدق وإن قتلك. وما أحسن ما قيل في ذلك:

عليك بالصدق ولو أنه   أحرقك الصدق بنار الوعيدِ
وابغِ رضا المولى فأغبى الورى   من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال إسماعيل بن عبيد الله: لما حضرت أبي الوفاة جمع بنيه، فقال لهم: يا بني عليكم بتقوى الله وعليكم بالقرآن، فتعاهدوه، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلًا، ثم سئل عنه أقربه، والله ما كذبت كذبة قط مذ قرأت القرآن. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ بِمَ يعرف المؤمن؟ قال: «بوقاره ولين كلامه، وصدق حديثه». وقيل: لكل شيء حلية وحلية النطق الصدق.

وقال محمود الوراق:

الصدق منجاةٌ لأربابه   وقربة تدني من الرب

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة، فلا تتم هذه الثلاثة إلا به. وقال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه.

(١) المستطرف: ص ٢٦٣.

وقال المهلب بن أبي صفرة: ما السيف الصارم في يد الشجاع بأعزله من الصدق. وكان يقال على الصدوق: فلان وقف لسانه على الصدق. ويقال: الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعي. ويقال: لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لاطّلع على خزائن الغيب، ولكان أمينًا في السمٰوات والأرض. وقيل: مَن لزم الصدق وعوّد لسانه به وفق. ويقال: الصدق بالحر أحرى.

وقال عتبة بن أبي سفيان: إذا اجتمع في قلبك أمران لا تدري أيهما أصوب. فانظر أيهما أقرب إلى هواك، فخالفه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى.

وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب. وكان نقش خاتم ذي يزن، «وضع الخد للحق عز» وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان، فأمر له بمائة ناقة، فقبّل يده، وقال: والله ما قبلت يد قرشي غيرك إلا واحد، فقال: أهو المنصور؟ قال: لا والله، قال: فمن هو؟ قال: الوليد بن يزيد. قال: فغضب، وقال: والله ما قبلتها لله تعالى، فقال: والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى، ولكن قبلتها لنفسي، فقال: والله لا ضرّك الصديق عندي أعطوه مائة أخرى.

وقال عامر العدواني في وصيته: إني وجدت صدق الحديث طرفًا من الغيب فاصدقوا، يعني من لزم الصدق وعوّد لسانه وُفق، فلا يكاد ينطق بشيء يظنه إلا جاء على ظنه.

أنكحك الصدق

خطب بلال لأخيه امرأة قرشية، فقال لأهلها: نحن مَن قد عرفتم كنا عبدين، فأعتقنا الله تعالى، وكنا ضالين، فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين، فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخي، فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا، فالله أكبر. فأقبل بعضهم على بعض. فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته، ومشاهده ومكانه من رسول الله ﷺ. فزوجوا أخاه، فزوجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ ما عدا ذلك، فقال: مه يا أخي صدقت فأنكحك الصدق.

خلصة صدقه

خطب الحجاج فأطال، فقام رجل. فقال: الصلاة، فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك، فأمر بحبسه، فأتاه قومه زعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلي سبيله، فقال: إن أقر بالجنون خليته، فقيل له، فقال: معاذ الله لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني. فبلغ ذلك الحجاج، فعفا عنه لصدقه.

في شكوى الزمان وانقلابه بأهله

قال في المستطرف[1]: رُوِيَ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنّة إلا والذي قبله خير منه سمعت ذلك من نبيكم ﷺ وكان معاوية رضي الله تعالى عنه يقول: معروف زماننا منكر زمان قد مضى، ومنكره معروف زمان لم يأت. وكانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تُسبق، فجاء أعرابي فسبقها، فشق ذلك على الصحابة رضي الله عنهم، فقال ﷺ: «إن حقًا على الله أن لا يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلا وضعه».

انقلاب حال ذي الكلاع الحميري

حُكِيَ عن شيخ من همدان قال: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع الحميري بهدايا، فمكثت شهرًا لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف أشرافه من كوّة، فخرّ له من حول القصر سجدًا، ثم رأيته من بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص واشترى بدرهم لحمًا، وسمطه خلف دابته وهو القائل هذه الأبيات:

أفٌ للدنيا إذا كانت كذا	أنا منها في بلاءٍ وأذى
إن صفا عيش امرئٍ في صحبها	جرعته ممسيًا كأس الردى
ولقد كنت إذا ما قيل من	أنعم العالم عيشًا قيل ذا

---

(١) المستطرف: ص ٣٢٩.

أقوال وأشعار في شكوى الزمان

قال يونس بن ميسرة: لا يأتي علينا زمان إلا بكينا منه ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه. ومن قوله ذلك:

ربَّ يوم بكيت منه فلما ... صرت في غيره بكيت عليه

ومثله:

وما مرّ يومٌ أرتجي فيه راحةً ... فأخبره إلَّا بكيت على أمسي

ومن كلام ابن الأعرابي:

عن الأيام عدّ فعن قليلِ ... ترى الأيام في صوَرِ الليالي

وقال رضي الله عنه: ما قال الناس لشيء طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء. قال الشاعر:

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار التي كنت أعهدُ

دخل داود عليه الصلاة والسلام غارًا، فوجد فيه رجلًا ميتًا وعند رأسه لوح مكتوب فيه، أنا فلان ابن فلان الملك عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، ثم صار أمري إلى أن بعثت زنبيلًا من الدراهم في رغيف فلم يوجد، ثم بعثت زنبيلًا من الجواهر فلم يوجد، فدققت الجواهر واستفيتها[1] فمت مكاني، فمن أصبح وله رغيف وهو يحسب أن على وجه الأرض اغنى منه أماته الله كما أماتني.

وذكر أن عبد الرحمٰن بن زياد لما ولي خراسان حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق في كل يوم ألف درهم على نفسه أنه يكفيه، فرؤي بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها. وقال هيثم بن خالد الطويل: دخلت على صالح مولى منارة في يوم شات وهو جالس في قبة مغشاة بالسمور، وجميع فروشها سمور، وبين يديه كانون فضة يبخر فيه بالعود. ثم رأيته بعد ذلك في رأس الجسر وهو يسأل الناس.

---

(١) واستفيتها: أي أكلها بعد أن طحنها من غير ماء.

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد ونزل في داره وقعد على فرشه. دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: يا عامر: إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ في عظتك. وقال مالك بن دينار: مررت بقصر تضرب فيه الجواري بالدفوف ويقلن:

ألا يا دار لا يدخلْكِ حزنٌ ... ولا يغدرْ بصاحبك الزمانُ
فنعم الدارُ تأوي كلّ ضَيفِ ... إذا ما ضاق بالضيف المكانُ

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوزًا، فسألتها عما كنت رأيت وسمعت، فقالت: يا عبد الله إن الله يغيِّر ولا يتغيَّر والموت غالب كل مخلوق، قد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان.

وقال أبو العتاهية:

لئن كنتَ في الدنيا بصيرًا فإنّما ... بلاغُك منها مثل زاد المسافِر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر(١)

وقال عبد الملك بن عمير: رأيت رأس الحسين رضي الله عنه بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثم رأيت رأس زياد بين يدي المختار، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك، قال سفيان، فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها؟ قال: اثنتا عشرة سنة.

إنَّ للدّهر صرعةً فاحذرنها ... لا تبيتنّ قد أمنت الشرورا
قد يبيت الفتى معافى فيردى ... ولقد كان آمنًا مسرورا

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره على الدجلة ينظر، فإذا هو بحشيش في وسط الماء وفي وسطه قصبة على رأسها رقعة، فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعرًا وهو للشافعي رضي الله تعالى عنه:

تاه الأُعيرج واستعلى به البطرُ ... فقل له خير ما استعملته الحذرُ
أحسنن ظنّك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخفْ سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

---

(١) ضائر: أي مضر.

قال: فما انتفع بنفسه. وأعجب ما وجد في السير خبر القاهر أحد الخلفاء وقلعه من الملك وخروجه إلى الجامع في بطانة جبة بغير طهارة، ومد يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض، فتبارك الله يعز مَن يشاء ويذل مَن يشاء. وقيل: كان لمحمد الهلبي قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف، فبينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول:

ألا موتٌ يباع فاشتريه ... فهذا العيش ما لا خيرَ فيه

ألا رحم المهيمن نفس حر ... تصدّق بالوفاة على أخيه

قال: فرثى له رفيقه وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه، وحفظ الأبيات وتفرقا. ثم ترقّى المهلبي إلى الوزارة، وأخنى الدهر على ذلك الرجل الذي كان رفيقه، فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها:

ألا قل للوزير فدته نفسي ... مقال مذكِّر ما قد نسيه

أتذكر إذ تقول لضنك عيشٍ ... ألا موتٌ يباع فأشتريه

فلما قرأها تذكر، فأمر له بسبعمائة درهم ووقّع تحت رقعته: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٦١]. ثم قلّده عملاف يرتزق منه.

ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال له: أي الزمان أدركته أفضل، وأي الملوك أكمل؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا حامدًا وذامًّا، وأما الزمان فيرفع أقوامًا ويضع آخرين، وكلهم يذكر أنه يبلى جديدهم ويفرق عديدهم ويهزم صغيرهم ويهلك كبيرهم. وقال حبيب بن أوس:

لم أبكِ من زمنٍ لم أرض خلّته ... إلّا بكيت عليه حين ينصرمُ

وقال آخر:

يا معرضًا عنّي بوجهٍ مدبرٍ ... ووجوه دنياه عليه مقبلة

هل بعد حالك هذه من حالةٍ ... أو غايةٍ إلّا انحطاط المنزلة

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير:

ذهب الذين إذا رأوني مقبلًا ... بشّوا إليَّ ورحبوا بالمقبل
وبقيت في خلفٍ كأنَّ حديثهم ... ولغُ الكلاب تهارشتْ في المنزل[١]

وقال آخر في معناه:

يا منزلًا عبث الزمان بأهله ... فأبادهم بتفرّقٍ لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرةً ... كان الزمان بهم يضر وينفع
أيام لا يغشى لذكرك مربعٌ ... إلَّا وفيه للمكارم مرتعُ
ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم ... وبقي الذين حياتهم لا تنفع

وقال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي[٢]:

وإنّي رأيت الدهر منذ صحبته ... محاسنه مقرونة ومعايبُهْ
إذا سرّني في أوّل الأمر لم أزلْ ... على حذر من أن تذمّ عواقبه

وقال بعضهم:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ... والمنكرون لكل أمرٍ منكر
وبقيت في خلف يزيّن بعضه ... بعضًا ليدفع معورٌ عن معور[٣]
حلف الزمان ليأتين بمثلهم ... حنثت يمينك يا زمان فكفر[٤]

وكان يقال: إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير، وكان يقال: بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال. ويقال: زمام العافية بيد البلاء ورأس السلامة تحت جناح العطب. وقال بعضهم: نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارًا والشر إلا إقبالًا والشيطان في هلاك الناس إلا طمعًا، اضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيرًا يكابد فقرًا، أو غنيًا بدّل نعمة الله كفرًا، أو بخيلًا اتخذ بحق الله

---

(١) ولغ الكلاب: أي تدنيس الآنية بأفواهها.
(٢) إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: أبو محمد بن النديم من أشهر ندماء الخلفاء، تفرّد بصناعة الغناء، كان عالمًا باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام، راويًا للشعر، حافظًا للأخبار، فارسي الأصل ولد في بغداد سنة ١٥٥ هـ، وتوفي فيها سنة ٢٣٥ هـ. له تصانيف كثيرة منها: أغاني معبد، والاختيار من الأغاني والنوادر المتخيّرة.
(٣) المعور: القبيح من الرجال.
(٤) حنثت: أي لم تفِ بالقسم.

وفرًا، أو متمردًا كأن بسمعه عن سماع المواعظ وقرا. وقال آخر: نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب، وإذا ذكرنا الأحياء ماتت القلوب. ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول: يا ليتني مكانه».

ويقال: لا يقاوم عز الولاية بذل العزل. بيت:

ما من مسيءٍ وإن طالت إساءته إلا ويكفيك يومٌ من مساويه

وقال الأمين:

يا نفس قد حُقّ الحذرْ أين المفر من القدرْ
كلّ امرئٍ مما يخا ف ويرتجيه على خطرْ
من يرتشفْ صفو الزما ن يغص يومًا بالكدر

وقال بعضهم:

وقائلة ما بال وجهك قد نضت محاسنه والجسم بان شحوبه[١]
فقلت لها هاتي من الناس واحدًا صفا وقته والنائبات تنوبُهُ[٢]

وللأمير أبي علي بن منقذ:

أما والذي لا يملك الأمرَ غيره ومنْ هو بالسرّ المكتّم أعلمُ
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلمًا لإعلانها عندي أشد وأعظم
وبي كلٌّ ما يبكي العيون أقلّه وإن كنت منه دائمًا أتبسّمُ

وقال عليّ بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه: وايم الله ما كان قوم قط في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها، لأن الله تعالى ليس بظلّام للعبيد، ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد. قال الشاعر:

يقولون الزمان به فسادٌ وهم فسدوا وما فسد الزمانُ

وكفى بالقرآن واعظًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: الآية ١١]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) نضت: فارقت. (٢) تنوبه: أي تصيبه.

في الصبر على المكاره

قال في المستطرف(١): قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، وأمر به، وجعل أكثر الخيرات مضافًا إلى الصبر، وأثنى على فاعله، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وحثّ على التثبت في الأشياء، ومجانبة الاستعجال فيها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: الآية ١٥٣]. فبدأ بالصبر قبل الصلاة، ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠]. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٣٧]. وبالجملة، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز في نيف وسبعين موضعًا. وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥].

وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ في ذلكَ أخبار كثيرة، فمن ذلك قوله ﷺ: «النصر في الصبر». وقوله عليه الصلاة والسلام: «بالصبر يتوقع الفرج». وقوله: «الأناة من الله تعالى والعجلة من الشيطان، فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته والتثبت في حركاته وسكناته، وكثيرًا ما أدرك الصابر مرامه أو كاد، وفات المستعجل غرضه أو كاد».

وقال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلًا ونهارًا،

---

(١) المستطرف: ص ٣٣٢ ـ ٣٣٨.

فقلت يا أمير المؤمنين: إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادني إلا أن قال:

اصبر على مضض الإدلاج في السحر وفي الروح إلى الطاعات في البكر
إني رأيت وفي الأيام تجربةٌ للصبر عاقبةٌ محمودةُ الأثر
وقلّ من جدّ في أمرٍ يؤملهُ واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فحفظتها منه وألزمت نفسي الصبر في الأمور، فوجدت بركة ذلك.

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصب[(١)] ولا وصب[(٢)] ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا حط الله بها من خطاياه». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة». وقال ﷺ: «إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمَن رضي فله الرضا ومَن سخط فله السخط». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وعن إسحٰق بن عبد الله بن أبي فروة، عن أنس بن مالك قال: قال النبيّ ﷺ: «الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر، والصبر عند الصدمة الأولى، وعظم الأجر على قدر المصيبة، ومَن استرجع بعد مصيبته[(٣)] جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها».

ورُوِيَ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: احفظوا عني خمسًا. اثنتين واثنتين وواحدة. لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجوا إلا ربه، ولا يستحي أحد منكم إذا سُئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد إذا فارق الرأس الجسد فسُدَ الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور، وأيما رجل حبسه السلطان ظلمًا، فمات في حبسه مات شهيدًا فإن ضربه فمات، فهو شهيد.

---

(١) النصب: التعب والشقاء. (٢) الوصب: المرض.
(٣) استرجع: أي قال إنا لله وإنا إليه راجعون.

ورُوي في الخبر لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٢٣].

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر، أليس تمرض، أليس يصيبك الأذى، أليس تحزن»، قال: بلى يا رسول الله. قال: «فهذا ما تجزون به يعني جميع ما يصيبك من سوء يكون كفّارة لك، وبهذا اتضح أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء.

صبر رسول الله ﷺ

رُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل لعنه الله: أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فأخذه وأتى به. فلما سجد ﷺ وضع بين كتفيه السلا والفرث[١] والدم، فضحكوا ساعة وأنا قائم أنظر، فقلت: لو كان لي منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبيّ ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان، فأخبر فاطمة رضي الله عنها، فجاءت فطرحته عن ظهره، ثم أقبلت عليهم فسبتهم، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال: اللهم عليك بقريش، ثلاث مرات، فلما سمع القوم صوته ودعاءه ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته فقال: اللهم عليك بأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وربيعة، والوليد، وأمية بن خلف، فقال عليّ رضي الله عنه: والذي بعث محمدًا بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر. وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من رزقهن فقد رزق خيرَيْ الدنيا والآخرة. الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء في الرخاء».

لمّا صبرت انتصر الله لها

حُكِيَ أن امرأة من بني إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة، فسرقها سارق، فصبرت وردّت أمرها إلى الله، ولم تدع عليه، فلما ذبحها السارق، ونتف ريشها

(١) السلا والفرث: قذارة جوف الحيوان.

نبت جميعه في وجهه، فسعى في أزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبرًا من أحبار بني إسرائيل، فشكا له، فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها مَن قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت: سرقت، فقال: لقد آذاك مَن سرقها؟ قالت: قد فعل، ولم تدع عليه. قال: وقد فجعك في بيضها؟ قالت: هو كذلك، فما زال بها حتى أثار الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه، فقيل لذلك الحبر: من أين علمت ذلك؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتصر الله لها، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه.

ما قيل في الصبر شعرًا

من أحسن ما قيل في ذلك من المنظوم:

وإذا مسّك الزمان بضر ... عظمت دونه الخطوب وجلّتْ
وأتت بعده نوائب أخرى ... سئمت نفسك الحياة وملّت
فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني ... فالرّزايا إذا توالت تولّتْ
وإذا أوهنت قواك وجلّت ... كشفت عنك جملةً وتخلّت

ولمحمد بن بشر الخارجي:

إن الأمور إذا اشتدت مسالكُها ... فالصبر يفتح منها كلّ ما رتجا[(١)]
لا تيأسنّ وإن طالت مطاليه ... إذا استعنت بصبرٍ أن ترى فرجا

ولزهير بن أبي سلمى:

ثلاثٌ يعز الصبر عند حلولها ... ويذهل عنها عقل كلّ لبيبِ
خروج اضطرارٍ من بلاد يحبّها ... وفرقة أخوانٍ وفَقْد حبيبِ

وقال بعضهم:

عليك بإظهار التجلُّد للعدا ... ولا تظهرن منك الذبول فتحقرا
أما تنظر الريحان يشمم ناضرًا ... ويطرح في البيدا إذا ما تغيّرا

---

(١) رتج: أقفل.

ولابن نباتة:

صبرًا على نوب الزما ... ن وإنْ أبى القلب الجريح
فلكلِّ شيءٍ آخرٌ ... إمّا جميلٌ أو قبيح

وقال أبو الأسود وأجاد:

وإنّ امرءًا قد جرّب الدهر لم يخفْ ... تقلُّب عصريه لغير لبيبِ
وما الدهر والأيام إلا كما ترى ... رزيّةَ مالٍ أو فراق حبيبِ

ومن كلام الحكماء: ما جوهد الهوى بمثل الرأي، ولا استنبط الرأي بمثل المشورة، ولا حفظت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر. وقال نهشل[1]:

ويومٍ كأنَّ المصطلين بحرّه ... وإن لم يكن نارٌ قيامٌ على الجمر
صبرنا له صبرًا جميلًا وإنّما ... تُفرّج أبواب الكريهةِ بالصبرِ

قال ابن طاهر:

حذّرتني وذا الحذر ... ليس يغني من القدر
ليس مَن يكتم الهوى ... مثل مَن باح واشتهر
إنما يعرف الهوى ... من على مُره صبر
نفس يا نفس فاصبري ... فاز بالصَّبر من صبر

وكان يقال: مَن تبصّر تصبر. وكان يقال: إن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر. وكان يقال: لا دواء لداء الدهر إلا بالصبر. ولله در القائل:

الدهر أدّبني والصبر ربّاني ... والفوت أقنعني واليأس أغناني
وحنكتني من الأيام تجربةٌ ... حتى نهيت الذي قد كان ينهاني

وما أحسن ما قال محمود الوراق:

إني رأيت الصبر خير معوّلٍ ... في النائبات لمن أراد معولا[2]

---

(١) نهشل: توفي نحو ٤٥ هـ. هو نهشل بن حري بن حمزة الدارمي: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية وعاش في الإسلام، أسلم ولم ير النبيّ، صحب عليًا في حروبه، وبقي إلى أيام معاوية. قال الجمحي: «نهشل شريف مشهور».

(٢) المعول: المعين.

ورأيت أسباب القناعة أُكِّدت بعرى الغنى فجعلتها لي مَعقلا
فإذا نبا بي منزلٌ جاوزته وجعلت منه غيره لي منزلا
وإذا غلا شيءٌ عليَّ تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم:

إذا ما أتاك الدهر يومًا بنكبة فافرغ لها صبرًا ووسِّع لها صدرا(١)
فإن تصاريف الزمان عجيبةٌ فيومًا ترى يسرًا ويومًا ترى عسرا

وقال بعضهم:

وما مسّني عسرٌ ففوّضت أمره إلى الملك الجبّار إلَّا تيسّرا

وما أحسن ما قيل:

الدهر لا يبقى على حالة لا بدّ أن يقبلَ أو يدبر
فإن تلقّاك بمكروهة فاصبرْ فإنَّ الدهر لا يصبر

الصبر ستر الكروب

نقل عن محمد بن الحسن رحمه الله قال: كنت معتقلًا بالكوفة، فخرجت يومًا من السجن مع بعض الرجال وقد زاد همي وكادت نفسي أن تزهق وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل عليَّ ورأى ما أنا فيه من الكآبة فقال: ما حالك؟ فأخبرته القصة، فقال: الصبر الصبر، فقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الصبر ستر الكروب وعون على الخطوب». ورُوي عن ابن عمه عليّ رضي الله تعالى عنه أنه قال: الصبر مطية لا تدبر وسيف لا يكل، وأنا أقول:

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجمله عند الإلـه وأنجاه من الجزعَ
من شدَّ بالصبر كفًّا عند مؤلمهِ ألوت يداه بحبلٍ غير منقطع

فقلت: بالله عليك زدني، فقد وجدت بك راحة. فقال: ما يحضرني شيء عن النبي ﷺ. ولكني أقول:

أما والذي لا يعلم الغيب غيره ومن ليس في كلِّ الأمور له كفو
لئن كان بدءُ الصبر مرًّا مذاقه لقد يجتني من بعده الثمر الحلو

---

(١) أفرغ: أي اجعل لها مكانًا.

ثم ذهب، فسألت عنه، فما وجدت أحدًا يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك في الكوفة، ثم أُخرجت في ذلك اليوم من السجن، وقد حصل لي سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به. ووقع في نفسي أنه من الأبدال الصالحين قيضه الله تعالى لي يوقظني ويؤدبني ويسليني.

أخشى أن يذهب ماء وجهي

قيل: إن رجلًا كان يضرب بالسياط ويجلد جلدًا بليغًا، ولم يتكلم ويصبر ولم يتأوه، وقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له: أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى، قال: لِمَ لا تصيح؟ فقال: إن في هذا القوم الذين وقفوا عليَّ صديقًا لي يعتقد فيَّ الشجاعة والجلادة وهو يرقبني بعينه، فأخشى إن ضجيت يذهب ماء وجهي عنده ويسوء ظنه بي، فأنا أصبر على شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك. قال الشاعر:

على قدر فضل المرء تأتي خطوبهُ ... ويحمد منه الصَّبر مما يصيبه
فمنْ قلّ فيما يلتقيه اصطباره ... لقد قلّ فيما يرتجيه نصيبه

صبر أُولي العزم

قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر ولم يكلفني إلا ما كلفوا به، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥]. وإني والله لأصبرن كما صبروا. فإن النبيّ ﷺ لما صبر كما أمر أسفر وجه صبره عن ظفره ونصره، وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولوا العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا، وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة، فقال مقاتل رضي الله تعالى عنه: هم نوح وإبراهيم وإسحٰق ويعقوب ويونس وأيوب صلوات الله عليهم، وقال قتادة: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. ويقال: ما الذي صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولي العزم؟

صبر نوح عليه السلام

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان نوح عليه الصلاة والسلام يُضرب ثم يُلف في لبد ويُلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يعود ويخرج إلى قومه

ويدعوهم إلى الله تعالى، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه، فقال لابنه: يا بني انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يغرّك، فقال له ابنه: يا أبت مكّني من العصا، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحًا عليه الصلاة والسلام شج بها رأسه، وسال الدم على وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدهم، وإلا فصبرني إلى أن تحكم، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [هُود: الآيتان ٣٦، ٣٧]. قال: يا ربّ، وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء أنجي فيه أهل طاعتي وأغرق أهل معصيتي، قال: يا رب، وأين الماء؟ قال: أنا على كل شيء قدير، قل: يا رب، وأين الخشب، قال: اغرس الخشب.

فغرس الساج(١) عشرين سنة. وكفّ عن دعائهم وكفّوا عن ضربه، إلا أنهم كانوا يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه، فقطعها وجففها، وقال: يا رب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، وبعث الله له جبريل فعلمه، وأوحى الله تعالى إليه أن عجّل بعمل السفينة، فقد اشتد غضبي على مَن عصاني، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته، وإهلاك قومه، وعذابهم إلا مَن آمن معه. وفار التنور وظهر الماء على وجه الأرض، وقذفت السماء بأمطار كأفواه القرب، حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال، وعلا فوق أعلى جبل في الأرض أربعين ذراعًا، وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيّه نوحًا عليه الصلاة والسلام.

صبر إبراهيم عليه السلام

أما إبراهيم عليه الصلاة والسلام: فإنه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها، لم يروا في قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه، فأخذوه وحبسوه ببيت ثم بنوا حائزًا كالحوش طول جداره ستون ذراعًا في سفح جبل عالٍ ونادى منادٍ ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم ومَن تخلّف عن الاحتطاب أحرقه، فلم يتخلف منهم أحد، وفعلوا ذلك أربعين يومًا ليلًا ونهارًا حتى كاد الحطب يساوي رؤوس الجبال، وسدوا أبواب ذلك الحائز، وقذفوا فيه النار، فارتفع لهبها حتى كان الطائر

(١) الساج: شجر عظيم طويل عريض صلب الخشب أسوده.

يمر بها فيحترق من شدة لهبها، ثم بنوا بنيانًا شامخًا، وبنوا فوق منجنيقًا، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السماء ودعا الله تعالى وقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣].

وقيل: كان عمره يومئذ ستة وعشرين سنة، فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام، وقال يا إبراهيم: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل: سل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٦٩]. فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام، فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماءً عذبًا.

قال كعب: ما أحرقت النار غير أكتافه، وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام، وقيل: أكثر من ذلك، ونجاه الله تعالى، ثم أهلك نمرود وقومه بأخس الأشياء وانتقم منهم وظفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهم.

صبر إبراهيم وولده الذبيح عليهما السلام

تلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده قال: إني أريد أن أقرب قربانًا، فأخذ ولده والسكين والحبل، وانطلق، فلما دخل بين الجبال قال ابنه: أين قربانك يا أبت؟ قال: إن الله تعالى قد أمرني بذبحك، فانظر ماذا ترى؟ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٢]، يا أبت اشدد وثاقي كي لا أضطرب واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم فتراه أمي فيشتد حزنها، وأسرع إمرار السكين على حلقي ليكون أهون للموت عليَّ وإذا لقيت أمي، فاقرأ السلام عليها، فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويبكي ويقول: نِعْمَ العون أنت يا بني على ما أمر الله تعالى، قال مجاهد: لما أمرّ السكين على حلقه انقلبت السكين، فقال يا أبت: اطعن بها طعنًا. وقال السدي: جعل الله حلقه كصحيفة من نحاس لا تعمل فيها السكين شيئًا، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودي أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك، فأتاه جبريل عليه السلام بكبش أملح، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش، فلا جرم أن جعل الذبيح نبيًّا بصبره وامتثاله لأمره.

صبر يعقوب عليه السلام

أما يعقوب عليه الصلاة والسلام: فإنه لما ابتلي بفراق ولده وذهاب بصره واشتداد حزنه قال: فصبر جميل. وكذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لما ابتلاه الله تعالى بإلقائه في ظلمة الجب وبيعه كما تباع العبيد، وفراقه لأبيه، وإدخاله السجن، وحبسه فيه بضع سنين، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما واتساع القدرة بالملك في الدنيا مع ملك النبوة في الآخرة.

صبر أيوب عليه السلام

أما أيوب عليه الصلاة والسلام: فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله، وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية من حمله. ولنذكر شيئًا مختصرًا من ذلك وهو أن ملكًا من ملوك بني إسرائيل كان يظلم الناس، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام، فلم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له في مملكته، فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك، لأطيلن بلاءك، فقال إبليس لعنه الله: يا رب سلّطني على أولاده وماله، فسلّطه، فبث إبليس مردته من الشياطين، فبعث بعضهم إلى دوابه، ورعاتها، فاحتملوها جميعًا وقذفوها في البحر، وبعث بعضهم إلى زرعه وجناته فأحرقوها، وبعث بعضهم إلى منازله وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولدًا وخدمه وأهله، فزلزلوها فهلكوا.

ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه الصلاة والسلام، وهو يصلي، فتمثل له في صورة رجل من غلمانه فقال: يا أيوب أنت تصلي ودوابك ورعاتك قد هبّت عليها ريح عظيمة، وقذفت الجميع في البحر، وأحرقت زرعك وهدمت منازلك على أولادك وأهلك، فهلك الجميع، ما هذه الصلاة؟ فالتفت إليه وقال: الحمد لله الذي أعطاني ذلك كله، ثم قبله مني. ثم قام إلى صلاته، فرجع إبليس ثانيًا، فقال: يا رب سلطني على جسده، فسلطه، فنفخ في إبهام رجله فانتفخ ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقي أمعاؤه تبين وهو مع ذلك كله صابر محتسب مفوّض أمره إلى الله تعالى.

وكان الناس قد هجروه واستقذروه وألقوه خارجًا عن البيوت من نتن ريحه، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت فترددت إليه متفقدة، فجاءها إبليس يومًا في صورة شيخ ومعه سخله[1] وقال لها: ليذبح أيوب هذه السخلة على اسمي فيبرأ، فجاءته، فأخبرته، فقال لها: إن شفاني الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة. تأمريني أن أذبح لغير الله تعالى، فطردها عنه، فذهبت وبقي. ليس له مَن يقوم به، فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا أحد من الناس يتفقده خرّ ساجدًا لله تعالى وقال: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٨٣]، فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طوّل هذه المدة وهي على ما قيل ثمان عشرة سنة، وقيل غير ذلك، وإنه تلقى جميع ذلك بالقبول وما شكا إلى مخلوق ما نزل به. عاد الله تعالى بألطافه عليه، فقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء: الآية ٨٤]. وأفاض عليه من نعمه، ما أنساه بلوى نقمه، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه في يمينه تحلة قسمه، ومدحه في نص الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [صَ: الآية ٤٤].

جزاء الصبر

رُوِيَ عن الحسن البصري رضي الله تعالى أنه قال: كنت بواسط، فرأيت رجلًا كأنه قد نبش من قبر، فقلت: ما دهاك يا هذا؟ فقال: أكتم على أمري، حبسني الحجاج منذ ثلاث سنين، فكنت في أضيق حال، وأسوأ عيش، وأقبح مكان، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم، فلما كان بالأمس أخرجت جماعة كانوا معي، فضربت رقابهم، وتحدث بعض أعوان السجن أن غدًا تضرب عنقي، فأخذني حزم شديد وبكاء مفرط، وأجرى الله تعالى على لساني فقلت: إلٰهي اشتد الضر وفقد الصبر وأنت المستعان، ثم ذهب من الليل أكثره، فأخذتني غشية، وأنا بين اليقظان والنائم إذا آتاني آت فقال لي: قُم فصلّ ركعتين وقل: يا من لا يشغله شيء عن شيء، يا من أحاط علمه بما ذرأ وبرأ وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصي وساوس الصدور، وأنت بالمنزل الأعلى، وعلمك محيط بالمنزل الأندى، تعاليت علوًا كبيرًا، يا مغيث أغثني، وفكّ

(١) السخلة: ولد الضأن والمعزى.

أسري، واكشف ضري، فقد نفذ صبري، فقمت وتوضأت في الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه، ولم تختلف عليَّ منه كلمة واحدة، فما تم القول حتى سقط القيد من رجلي ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت. فقمت، فخرجت ولم يعارضني أحد، فأنا والله طليق الرحمٰن، وأعقبني الله بصبري فرجًا، وجعل لي من ذلك الضيق مخرجًا، ثم ودعني وانصرف يقصد الحجاز.

وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام، يا داود مَن صبر علينا وصل إلينا، وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها: دقار، فبينما أنا أطوف في خرابها إذا رأيت مكتوبًا بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الأبيات:

يا مَن ألحّ عليه الهمُّ والفكر ... وغيّرت حاله الأيام والغِير[1]
أما سمعت لما قيل في مثلٍ ... عند الأياس فأين الله والقدر
ثمّ الخطوب إذا أحداثها طرقت ... فاصبر فقد فاز أقوامٌ بما صبروا[2]
وكلّ ضيقٍ سيأتي بعده سعةٌ ... وكلّ فوتٍ وشيكٌ بعده الظفر

ولما حُبس أبو أيوب في السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته، وقلّ صبره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره، فرد عليه جواب رقعته يقول:

صبرًا أبا أيوب صبرَ مُبرِّحٍ ... وإذا عجزت عن الخطوب فمن لها
إنّ الذي عقد الذي انعقدتْ به ... عقد المكاره فيك يملك حلّها
صبرًا فإن الصبر يعقب راحةً ... ولعلّها أن تنجلي ولعلّها

فأجابه أبو أيوب يقول:

صبّرتني ووعظتني وأنا لها ... وستنجلي بل لا أقول لعلّها
ويحلّها مَن كان صاحب عقدها ... كرمًا به إذ كان يملك حلّها

---

(١) الغير: صروف الزمان وأحداثه.
(٢) طرقت: حلت ونزلت.

فما لبث بعد ذلك أيامًا حتى أطلق مكرمًا، وأنشدوا:

إذا ابتليتَ فثقْ بالله وارضَ به إنّ الذي يكشف البلوى هو الله
اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه لا تيأسنّ فإنّ الصانع الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته فما ترى حيلةً فيما قضى الله

في التأسي في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر

قال في المستطرف[1]: قال الثوري رحمه الله تعالى: لم يفقه عندنا مَن لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة. وقيل: الهموم التي تعرض للقلوب كفارات للذنوب. وسمع حكيم رجلًا يقول لآخر: لا أراك الله مكروهًا، فقال: كأنك دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لا بد أن يرى مكروهًا. وتقول العرب: ويلٌ أهون من ويلين. وقال ابن عيينة: الدنيا كلها غموم، فما كان فيها من سرور فهو ربح. وقال العتبي: إذا تناهى الغم انقطع الدمع بدليل أنك لا ترى مضروبًا بالسياط ولا مقدمًا لضرب العنق يبكي.

قيل: تزوج مغن بنائحة فسمعها تقول: اللهم أوسع لنا في الرزق، فقال لها: يا هذه إنما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفي ذلك، فإن كان فرح دعوني، وإن كان حزن دعوك. وقال وهب بن منبه: إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء. وقال مطرف: ما نزل بي مكروه قط فاستعظمته إلا ذكرت ذنوبي فاستصغرته.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه يرفعه: «يود أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب الله تعالى لأهل البلاء. وروى أبو عتبة عن النبيّ ﷺ قال: «إذا أحب الله عبدًا ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه. قالوا: وما اقتناه؟ قال: لا يترك له مالًا ولا ولدًا».

ومرّ موسى عليه الصلاة والسلام برجل كان يعرفه مطيعًا لله عزّ وجلّ قد مزقت السباع لحمه وأضلاعه وكبده ملقاة على الأرض، فوقف متعجبًا، فقال: أي

(١) المستطرف: ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠.

رب عبدك ابتليته بما أرى، فأوحى الله تعالى إليه أنه سألني درجة لم يبلغها بعمله، فأحببت أن أبتليه لأبلغه تلك الدرجة.

صبر عروة بن الزبير

كان عروة بن الزبير صبورًا حين ابتلي، حُكِيَ أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطىء عظمًا، فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب، فجمع له الوليد الأطباء، فأجمع رأيهم على قطع رجله، فقالوا له: اشرب مرقّدًا، فقال: ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى، فأحمي له المنشار، وقطعت رجله، فقال: ضعوها بين يدي ولم يتوجع، ثم قال: لئن كنت ابتليت في عضو فقد عوفيت في أعضاء. فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه أطلع من سطح على دواب الوليد، فسقط بينها فمات. فقال: الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحدًا لقد أبقيت جماعة.

صبر وشدة الشيخ الضرير

قدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير، فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعي مالي وعيالي، ولا أعلم عبسيًا يزيد ماله على مالي، فعرسنا في بطن واد، فطرقنا سيل، فذهب ما كان لي من أهل ومال وولد غير صبي صغير وبعير، فشرد البعير، فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير، فسمعت صيحة الصغير، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه، فرجعت إلى البعير، فحطم وجهي برجليه، فذهبت عيناي، فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل، فقال الوليد: اذهبوا إلى عروة ليعلم أن في الدنيا مَن هو أعظم مصيبة منه.

أقوال وأشعار في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر

قيل: الحوادث الممضة[1] مكسبة لحظوظ جليلة، إما ثواب مدخر أو تطهير من ذنب أو تنبيه من غفلة أو تعريف لقدر النعمة. قال البحتري: يسلي محمد بن يوسف على حبسه:

وما هذه الأيام إلّا منازل ... فمن منزلٍ رحبٍ إلى منزل ضنك

(١) الممضة: المؤلمة.

وقد دهمتك الحادثات وإنما — صفا الذهب الإبريز قبلك بالسّبك
أما في نبيّ الله يوسف أسوةٌ — لمثلك محبوسٌ عن الظلم والإفك(١)
أقام جميل الصبر في السجن برهةً — فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وقال علي بن الجهم لما حبسه المتوكل:

قالوا حبست فقلت ليس بضائري — حبسي وأي مهندٍ لا يغمد
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ — عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والنار في أحجارها مخبوءةٌ — لا تصطلي إن لم تثرها الأزند
والحبس ما لم تغشه لدنيّة — شنعاءَ نعم المنزل المتودّد
بيتٌ يُجدد للكريم كرامةً — ويُزار فيه ولا يزور ويحمد
لو لم يكن في الحبس إلّا أنّه — لا تستذلّك بالحجاب الأعبد
غرّ الليالي باديات عوّدٌ — والمال عاريةٌ يعار وينفد
ولكل حيٍّ معقبٌ ولربما — أجلى لك المكروه عمّا يحمد
لا يؤيسنك من تفرّج نكبةٍ — خطبٌ رماك به الزمان الأنكد
كم من عليلٍ قد تخطّاه الردى — فنجا ومات طبيبه والعوّدُ(٢)
صبرًا فإن اليوم يعقبه غدٌ — ويد الخلافة لا تطاولها يدُ

قال وأنشد إسحٰق الموصلي في إبراهيم بن المهدي حين حبس:

هي المقادير تجري في أعنّتها — فاصبر فليس لها صبرٌ على حال(٣)
يومًا تريك خسيس الأصل ترفعه — إلى العلاء ويومًا تخفض العالي

فما أمسى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون رضي الله عنه، وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب في إبراهيم بن المدني حين عزل:

ليهن أبا إسحٰق أسباب نعمةٍ — مجددةٍ بالعزل والعزل أنبلُ
شهدت لقد منّوا عليك وأحسنوا — لأنك يوم العزل أعلى وأفضل

---

(١) الإفك: الإثم والخطيئة. (٢) العود: الزوار.
(٣) أعنتها: أي في خيرها وشرها. والعنان: سير اللجام الذي تمسك به الدابة.

وقال آخر:

قــد زاد مــلك ســليــمــان فــعــاوده والشمس تنحطُّ في المجرى وترتفع

وقال أبو بكر الخوارزمي لمعزول: الحمد لله الذي ابتلى في الصغير وهو المال، وعافى في الكبير وهو الحال:

ولا عار إن زالت عن الحر نعمةٌ ولكنّ عارًا أنْ يزول التجمُّل(١)

وقيل: المال حظ ينقص ثم يزيد، وظل ينحسر ثم يعود. وسئل بزرجمهر عن حاله في نكبته فقال: عوّلت على أربعة أشياء: أولها أني قلت القضاء والقدر لا بد من جريانهما، الثاني: أني قلت إن لم أصبر فما أصنع، الثالث: أني قلت قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا، الرابع: أني قلت لعل الفرج قريب.

(١) التجمل: الصبر.

في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطَّلَاق: الآية ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: الآية ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يُوسُف: الآية ١١٠]. ويُروى عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «لو كان العسر في حجر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه». وقال عليه الصلاة والسلام: «عند تناهي الشدة يكون الفرج، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء». وقال عليّ رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ: «أفضل عبادة أمتي انتظارها فرج الله تعالى». وقال الحسن: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: الآيتان ٥، ٦]، قال النبيّ ﷺ: «أبشروا فلن يغلب عسر يسرين».

ومن كلام الحكماء: إن تيقنت لم يبق هم. وقال أبو حاتم:

إذا اشتملت على البؤس القلوبُ ... وضاق بما به الصدر الرحيبُ
وأوطنت المكاره واطمأنت ... وأرست في مكامنها الخطوب
ولم نر لانكشاف الضرّ وجهًا ... ولا أغنى بحيلته الأريب[2]
أتاك على قنوطٍ منك غوثٌ ... يمن به اللطيف المستجيبُ

---

(١) المستطرف: ص ٣٤١ ـ ٣٤٦.

(٢) قنوط: يأس.

وقال آخر:

عسى الهمُّ الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرجٌ قريب
فيأمن خائفٌ ويغاث عانٍ ... ويأتي أهله النائي الغريب(١)

وقال آخر:

تصبّر أيها العبد اللبيب ... لعلك بعد صبرك ما تخيب
وكل الحادثات إذا تناهت ... يكون وراءها فرجٌ قريب

وقال إبراهيم بن العباس:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعًا وعند الله منها المخرج(٢)
ضاقت فلمّا استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنّها لا تفرج

وقال آخر:

لئن صدّع البيت المشتّت شملنا ... فللبين حكمٌ في الجموع صدوع(٣)
وللنجم من بعد الرجوع استقامة ... وللشمس من بعد الغروب طلوع
وإن نعمةٌ زالت عن الحرّ وانقضت ... فإنّ بها بعد الزوال رجوع
فكن واثقًا بالله واصبرْ لحكمه ... فإن زوال الشرّ عنك سريع

دعاء الكرب

رُوِيَ أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة، أن أخرج الحسن بن الحسن بن علي من السجن وكان محبوسًا واضربه في مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط، فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس، وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ثم نزل يأمر بضربه، فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء عليّ بن الحسين عليه السلام، فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن، فقال: يا ابن العم ما لك ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك، قال: ما هو يا ابن العم؟

(١) عان: مقاس للمتاعب والأمراض.
(٢) ذرعًا: مكانًا وصبرًا، وذرع البيت أي مشى فيه من ناحية إلى ناحية من الهم وغيره.
(٣) صدع: فرق.

فقال: لا إلـه إلا الحليم الكريم لا إلـه إلا الله العلي العظيم، سبحان رب السمٰوات ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، ثم انصرف عنه، وأقبل الحسن يكررهما فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال: أراه في سجنه مظلومًا أخرجوه وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره، فأطلق بعد أيام وأتاه الفرج من عند الله تعالى.

المهدي وموسى بن جعفر

قال الربيع لما حبس المهدي موسى بن جعفر، رأى في المنام عليًا رضي الله تعالى عنه وهو يقول: يا محمد فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، قال الربيع، فأرسل المهدي إليَّ ليلًا فراعني ذلك، فجئته، فإذا هو يقرأ هذه الآية، وكان حسن الصوت، فقصّ عليَّ الرؤيا ثم قال: ائتني بموسى بن جعفر، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جانبه، وقال: يا أبا الحسن رأيت أمير المؤمنين يقرأ عليَّ كذا فعاهدني أن لا تخرج عليَّ ولا على أحد من ولدي، فقال: والله ما ذاك من شأني، فقال: صدقت، ثم قال: يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورده إلى أهله بالمدينة، قال الربيع: فأحكمت أمره ليلًا، فما أصبح إلا على الطريق، وقال إسماعيل بن بشار:

وكلُّ حرٍّ وإن طالت بليتُهُ   يومًا تفرّج غمّاه وتنكشفُ

مسلم بن الوليد ويزيد بن مزيد

قال مسلم بن الوليد: كنت يومًا جالسًا عند خياط بإزاء منزلي فمرّ بي إنسان أعرفه، فقمت إليه وسلّمت عليه وجئت به إلى منزلي لأضيفه وليس معي درهم بل كان عندي زوج أخفاف، فأرسلتها مع جاريتي لبعض معارفها فباعهما بتسعة دراهم واشترت بها ما قلته لها من الخبز واللحم، فجلسنا نأكل وإذا بالباب يطرق فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت، فقال: أنت مسلم بن الوليد، قلت: نعم، واستشهدت له بالخياط على ذلك فأخرج لي كتابًا وقال: هذا من الأمير يزيد بن مزيد، فإذا فيه: قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون في منزلك وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا، فأدخلته إلى داري وزدت في الطعام واشتريت فاكهة وجلسنا فأكلنا ثم وهبت لضيفي شيئًا يشتري به هدية لأهله وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة فوجدناه في الحمام، فلما خرج استؤذن

لي عليه فدخلت، فإذا هو جالس على كرسي وبيده مشط يسرح به لحيته فسلّمت عليه فرد أحسن رد وقال: ما الذي أقعدك عنا؟ قلت: قلّة ذات اليد وأنشدته قصيدة مدحته بها، قال: أتدري لم أحضرتك؟ قلت: لا أدري، قال: كنت عند الرشيد منذ ليالٍ أحادثه فقال لي: يا يزيد مَن القائل فيك هذه الأبيات:

سلَّ الخليفة سيفًا من بني مضر ... يمضي فيخترق الأجسام والهاما
كالدهر لا ينثني عمّا يهمُّ به ... قد أوسع الناس إنعامًا وإرغاما[1]

فقلت: والله لا أدري يا أمير المؤمنين، فقال: سبحان الله، أيقال فيك مثل هذا ولا تدري مَن قاله؟ فسألت فقيل لي: هو مسلم بن الوليد، فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد، فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه فقبّلت الأرض وسلّمت فرد عليَّ السلام فأنشدته ما لي فيه من شعر، فأمر لي بمائتي ألف درهم وأمر لي يزيد بمائة وتسعين ألف درهم وقال: ما ينبغي لي أن أساوي أمير المؤمنين في العطاء فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم وما أحسن ما قيل:

الأمن والخوف أيامٌ مداولةٌ ... بين الأنام وبعد الضيقِ تتسع

سبحان من قتل الأمير وفك الأسير

لما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الأموال، ضيّق على يزيد بن أبي مسلم فلما ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة ولي يزيد بن أبي مسلم إفريقية، وكان محمد بن يزيد واليًا عليها فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبي مسلم وشدد في طلبه فأتى به إليه في شهر رمضان عند المغرب وكان في يد يزيد بن أبي مسلم عنقود عنب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه: يا محمد بن يزيد، قال: نعم، قال: طالما سألت الله أن يمكنني منك، فقال: وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرني منك، فقال: والله ما أجارك ولا أعادك، وإن سبقني ملك الموت إلى قبض روحك سبقته، والله لا آكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك. ثم أمر به فكُتِّف ووضع في النطع وقام السياف فأقيمت الصلاة، فوضع العنقود من يده وتقدم ليصلي، وكان أهل إفريقية قد

(١) إنعامًا وإرغامًا: أي أن سيفه حماية للطائعين وحربًا على العاصين والمتمردين.

أجمعوا على قتله فلما رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله، وقيل لمحمد بن يزيد: اذهب حيث شئت فسبحان مَن قتل الأمير وفك الأسير.

أطلق القاتل

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو يقول: أطلق القاتل، فارتعت لذلك ودعوت بالشموع ونظرت في أوراق السجن وإذا ورقة إنسان ادعي عليه بالقتل وأقرّ به، فأمرت بإحضاره فلما رأيته وقد ارتاع فقلت له: إن صدقتني أطلقتك، فحدّثني إنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عظيمة، وإن عجوزًا جاءت لهم بامرأة صارت عندهم صاحت الله الله وغشي عليها، فلما أفاقت قالت: أنشدك الله في أمري فإن هذه العجوزة غرّتني وقالت: إن في هذه الدار نساء صالحات وأنا شريفة جدي رسول الله ﷺ وأمي فاطمة وأبي الحسين بن علي فاحفظوهم فيّ، فقمت دونها وناضلت عنها فاشتد عليّ واحد من الجماعة، وقال: لا بد منها وقاتلني فقتلته، وخلصت الجارية من يده، فقالت: سترك الله كما سترتني، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولًا والسكين بيدي فأمسكوني وأتوا بي إليك وهذا أمري، فقال إسحٰق: قد وهبتك لله ولرسوله فقال: وحق اللذين وهبتني لهما لا أعود إلى معصية أبدًا.

كل يوم هو في شأن

أمر الحجاج بإحضار رجل من السجن فلما حضر أمر بضرب عنقه فقال: أيها الأمير أخرني إلى غد، قال: وأي فرج لك في تأخير يوم واحد؟ ثم أمر برده إلى السجن فسمعه الحجاج في السجن يقول:

عسى فرجٌ يأتي به الله إنّه ... له كلّ يومٍ في خليقته أمر

فقال الحجاج: والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٩]. وأمر بإطلاقه.

المعتمد ومنصور الجمال

قال بعض جلساء المعتمد، كنا بين يديه ليلة فخفق رأسه بالنعاس فقال: لا تبرحوا حتى أغفى سويعة، فغفا ساعة ثم أفاق جزعًا مرعوبًا وقال: امضوا إلى السجن وائتوني بمنصور الجمال فجاؤوا به فقال له: كم لك في السجن؟ قال:

سنة ونصف، قال: على ماذا؟ قال: أنا جمال من أهل الموصل وضاق عليَّ الكسب ببلدي فأخذت جملي وتوجهت إلى بلد غير بلدي لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمي الحال وهم مقدار عشرة أنفس وجدوهم يقطعون الطريق فدفع واحد منهم شيئًا للأعوان فأطلقوه وأمسكوني عوضه وأخذوا جملي فناشدته الله فأبوا وسجنت أنا والقوم، فأطلق بعضهم ومات بعضهم وبقيت أنا فدفع له المعتمد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل شهر وقال: اجعلوه على جمالنا، ثم قال: أتدرون ما سبب فعلي هذا؟ قلنا: لا. قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول: أطلق منصورًا الجمال من السجن وأحسن إليه.

أشعار في الفرج بعد الشدة

قال الشاعر:

إذا تضايق أمرٌ فانتظرْ فرجًا فأضيق الأمرِ أدناه إلى الفرجِ

وقال آخر:

فلا تجزعنْ إن أظلم الدهر مرّةً فإنّ اعتكارَ الليل يؤذن بالفجرِ

وقال آخر:

لعمرك ما كلّ التعاطيل ضائرًا ولا كلّ شغلٍ فيه للمرء منفعه(١)
إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى عليك سواءً فاغتنمْ لذّة الدِعه(٢)
فإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى ألا ربَّ ضيقٍ في عواقبه سعه

وقال الرياشي: ما اعتراني هم فأنشدت قول أبي العتاهية حيث قال:

هي الأيام والغِيَر وأمر الله يُنتظر
أتيأس أن ترى فرجًا فأين الله والقدر

إلا سرّى عني وهبت ريحَ الفرج.

(١) التعاطيل: من التعطيل، وهو عدم العمل، وضائرًا: مضرًا.
(٢) الدعه: الاستقرار والأمان.

استغاثة

يُروى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم، فأرسل إلى قائد البحر وقال له: انفذ الآن مركبًا إلى إفريقية يأتوني بأخبارها، فعمد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب في موضعه كأنه لم يبرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم، قد امتثلت أمرك وأنفذت مركبًا فرجع بعد ساعة وسيحدثك مقدم المركب، فأمر بإحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت بالمركب فبينما أنا في جوف الليل والرجال يجدفون إذا بصوت يقول: يا ألله يا ألله يا غياث المستغيثين يكررها مرارًا، فلما استقرّ صوته في أسماعنا ناديناه مرارًا لبيك لبيك وهو ينادي يا ألله يا ألله يا غياث المستغيثين، فجدفنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقًا في آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب وسألناه عن حاله فقال: كنا مقلعين من إفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت على الموت وما زلت أصيح حتى أتاني الغوث من ناحيتكم.

أمانة

حكى أبو بكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك قال: أخبرني أبو الوليد الباجي عن أبي ذر قال: كنت أقرأ على الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءًا من الحديث في حانوت رجل عطار، فبينما أنا جالس معه في الحانوت إذ جاء رجل من الطوافين ممن يبيع العطر في طبق يحمله على يده، فدفع إليه عشرة دراهم وقال له: أعطني بها أشياء سماها له من العطر فأعطاه إياها فأخذها في طبقه وأراد أن يمضي فسقط الطبق من يده فانكب جميع ما فيه فبكى الطواف وجزع حتى رحمناه فقال أبو حفص لصاحب الحانوت: لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء، فقال: سمعًا وطاعة، فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها ودفع له ما عدم منها، وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له: لا تجزع فأمر الدنيا أيسر من ذلك.

فقال الطواف: أيها الشيخ ليس جزعي لضياع ما ضاع لقد علم الله تعالى أني كنت في القافلة الفلانية فضاع لي هميان[١] فيه أربعة آلاف دينار

(١) هميان: حزام من جلد توضع فيه الدراهم.

ومعها فصوص قيمتها كذلك فما جزعت لضياعها حيث كان لي غيرها من المال، ولكن ولد لي ولد في هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما تحتاج النفساء ولم يكن عندي غير هذه العشرة دراهم فخشيت أن أشتري بها حاجة النفساء فأبقى بلا رأس مال، وأنا قد صرت شيخًا كبيرًا لا أقدر على التكسب، فقلت في نفسي أشتري بها شيئًا من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى أستفضل شيئًا أسد به رمق أهلي ويبقى رأس المال أتكسب به، واشتريت هذا العطر فحين انكب الطبق علمت أنه لم يبقى لي إلا الفرار منهم، فهذا الذي أوجب جزعي.

قال أبو حفص: وكان رجل الجند جالسًا إلى جانبي يستوعب الحديث فقال للشيخ أبي حفص: يا سيدي أريد أن تأتي بهذا الرجل إلى منزلي، فظننا أن يعطيه شيئًا، قال: فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطواف وقال له: عجبت من جزعك، فأعاد عليه القصة فقال له الجندي: وكنت في تلك القافلة؟ قال: نعم وكان فيها فلان وفلان فعلم الجندي صحة قوله فقال: وما علامة الهميان وفي أي موضع سقط منك؟ فوصف له المكان والعلامة، قال الجندي إذا رأيته تعرفه، قال: نعم، فأخرج الجندي له هميانًا ووضعه بين يديه فحين رآه صالح وقال: هذا همياني والله وعلامة صحة قولي أن فيه من الفصوص ما هو كيت وكيت ففتح الهميان فوجده كما ذكر، فقال الجندي: خذ مالك بارك الله لك فيه، فقال الطواف: إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر فخذها وأنت في حل منها ونفسي طيبة بذلك، فقال الجندي: ما كنت لآخذ على أمانتي مالًا، وأبى أن يأخذ شيئًا ثم دفعها للطواف جميعها فأخذها ومضى ودخل الطواف وهو من الفقراء وخرج وهو من الأغنياء.

ضربة شافية

حُكِيَ أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيا الأطباء دواؤه لم يجدوا له شفاء، فدسوا على قتله وأرصدوا له رجلًا ومعه خنجر فلما كان في بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة أسفل خاصرته لم تخط المعي الذي فيه القولنج فخرج ما فيه من الخلط فعافاه الله تعالى وبرىء أحسن ما كان.

قضاء وقدر

أبو بكر الطرطوشي قال: حدّثنا القاضي أبو مروان الداراني بطرطوشة قال: نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار واستوقدوا نارهم وسووا معيشتهم، وكان في تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع، فقال رجل منهم: يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ولا يدخلن أحد في هذه البقعة فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل وبات خارجًا عنهم، ولم يقرب ذلك المكان، فأصبحوا في عافية وحملوا على دوابهم، فبينما هم كذلك إذ دخل ذلك الرجل إلى الدار ليقضي حاجته فخرّ عليه الحائط فمات لوقته.

بركة مولود

أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال: لقد جرت في هذه الدار وأشار إلى دار هناك، قضية عجيبة، قلت: وما هي؟ قال: كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة الخز، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخز في خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة، فلما نزلت القافلة أراد إنزال الخرج عن الحمار فثقل عليه فأمر إنسانًا هناك فأعانه على إنزاله، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره فأخبره أنه من أهل الكوفة وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد، فقال له الرجل كن رفيقي آنس بك وتعينني على سفري ونفقتك ومؤنتك عليّ، فقال له الرجل: وأنا أيضًا أختار صحبتك وأرغب في مرافقتك، فسار معه في سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت، فنزل الرفقة خارج المدينة ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم، فقال التاجر لذلك الرجل: احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشتري ما نحتاج إليه.

ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه، ورحلت الرفقة ولم ير أحدًا فظن أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم فلم يزل يسير ويجد في السير في المشي إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد، فسألهم عن صاحبه فقالوا: ما رأيناه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرنا فظننا أنك أمرته. فكرّ الرجل راجعًا إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثرًا ولا سمع له خبرًا، فيئس منه ورجع إلى الموصل مسلوب المال فوصلها نهارًا فقيرًا

جائعًا عريانًا مجهودًا فاستحى أن يدخلها نهارًا فتشمت به الأعداء، نعوذ بالله من شماتتهم، وخشي أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة، فاستخفى إلى الليل ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقيل له: مَن هذا؟ قال: فلان يعني نفسه، فأظهروا له سرورًا عظيمًا وحاجة إليه وقالوا: الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة، والحاجة، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية، وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم والله ما وجدنا ما نشتري به شيئًا للنفساء، فأتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا فلا سراج عندنا.

فلما سمع ذلك ازداد غمًّا على غمّه وكرِه أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك فأخذ وعاء للدهن ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك، وكان البياع أطفأ سراجه وأغلق حانوته ونام، فناداه فعرفه فأجابه، وشكر الله على سلامته، فقال له: افتح حانوتك وأعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن، فنزل البياع إلى حانوته وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت فرأى خرجه الذي هرب به صاحبه فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه، وقال: يا عدو الله ائتني بمالي، فقال له البياع: ما هذا يا فلان؟ والله ما علمتك متعديًا وأنا أبدًا ما جنيت عليك ولا على غيرك فما هذا الكلام.

قال: هذا خرجي هرب به خادم كان يخدمني وأخذ حماري وجميع مالي، فقال البياع: والله ما لي علم غير أن رجلًا ورد عليّ بعد العشاء واشترى مني عشاءه وأعطاني هذا الخرج فجعلته في حانوتي وديعة إلى حين يصبح، والحمار في دار جارنا والرجل في المسجد نائم، قال له: احمل معي الخرج وامضِ بنا إلى الرجل فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم في المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوبًا، فقال: ما لك؟ قال: أين مالي يا خائن؟ قال: ها هو في خرجك فوالله ما أخذت منه ذرّة، قال: فأين الحمار وآلته؟ قال: هو عند هذا الرجل الذي معك، فعفا عنه وخلّى سبيله ومضى بخرجه إلى داره فوجد متاعه سالمًا فوسع على أهله وأخبرهم بقصته فازداد سرورهم وفرحهم وتبرّكوا بذلك المولود.

الباب الثاني
قصص مساوىء الأخلاق

الظلم والظلمة

الأشرار والفجار

الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد

الريـــاء

الرشـــوة

الكـــذب

الحرص والطمع وطول الأمل

في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظَّلَمَة وأحوالهم

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: الآية ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٢]. قيل: هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: الآية ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧].

وقال رسول الله ﷺ: «مَن مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام»، وقال أيضًا ﷺ: «رحم الله عبدًا كان لأخيه قبله مظلمة في عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتي يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم»، وقال أيضًا ﷺ: «مَن اقتطع حق امرىء مسلم أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنّة»، فقال له رجل: يا رسول الله ولو كان شيئًا يسيرًا قال: «ولو كان قضيبًا من أراك».

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إليّ يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتًا من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحد منهم مظلمة، فإني ألعنه ما دام قائمًا يصلي بين يدي حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويكون من أوليائي وأصفيائي ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنّة».

وعن عليّ رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «إياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل الله تعالى حقه»، وعنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد ظُلم فشخص[2] ببصره إلى السماء إلا

---

(١) المستطرف: ص ١١٦ ـ ١١٩.

(٢) شخص: تطلع.

قال الله عزّ وجلّ لبيك عبدي حقًا لأنصرنك ولو بعد حين»، وعنه أيضًا أنه قال: «ألا إن الظلم ثلاثة فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب»، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: الآية ٤٨]. وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضًا، وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب فظلم العبد نفسه.

ومرّ رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يا رب إن حلمك على الظالمين قد أضرّ بالمظلومين فنام تلك الليلة فرأى في منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة، فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين وإذا مناد ينادي حلمي على الظالمين أحل المظلومين في أعلى عليين.

وقيل: مَن سلب نعمة غيره سلب نعمته غيره. وسمع مسلم بن بشار رجلًا يدعو على مَن ظلمه فقال له كل الظالم[1] إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك. ويقال: مَن طال عدوانه زال سلطانه، وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم، ورُئي لوح في أفق السماء مكتوب فيه لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله وتحته هذا البيت:

فلم أر مثل العدل للمرء رافعًا ولم أر مثل الجور للمرء واضعا

وقال الشاعر:

كنت الصحيح وكنّا منك في سقم فإن سقمت فإنا السالمون غدا
دعت عليك أكفٌ طالما ظُلمت ولـن تـرد يـدٌ مـظـلومـة أبـدا

وكان معاوية يقول: إني لأستحي أن أظلم مَن لا يجد عليَّ ناصرًا إلا الله، وقال أبو العيناء: كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود وقلت: قد تضافروا عليّ وصاروا يدًا واحدة فقال: يد الله فوق أيديهم، فقلت له: إن لهم مكرًا فقال: ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله، قلت: هم فئة كثيرة فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

وقال يوسف بن إسباط: مَن دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله في أرضه.

---

(١) كل الظالم: أي أوكله ودعه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «مَن أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه وإن كان أخاه لأبيه وأمه».

وقال مجاهد: يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجشادهم حتى تبدو العظام، فيقال لهم: هل يؤذيكم هذا فيقولون: إي والله، فيقال لهم: هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لما كشف الله العذاب عن قوم يوسف عليه السلام ترادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه.

وقال أبو ثور بن يزيد: الحجر في البنيان من غير حلّه عربون على خرابه، وقال غيره: لو أن الجنّة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب.

وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك لا يعجبك رحب الذراعين سفّاك الدماء فإن له قاتلًا لا يموت.

وقال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئًا قط هيبتي من رجل ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله فيقول: حسبك الله، الله بيني وبينك.

وقال بلال بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله.

وبكى عليّ بن الفضل يومًا فقيل له: ما يبكيك قال: أبكي على مَن ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة.

ورُوِيَ أن النبيّ ﷺ قال: «يقول الله تعالى اشتد غضبي على مَن ظلم مَن لا يجد له ناصر غيري»، ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر يا سليمان اذكر يوم الأذان فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٤] قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لي بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضًا مع أرضه. ورُوِيَ أن كسرى أنو شروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم فضربه المعلم يومًا

من غير ذنب فأوجعه فحقد أنو شروان عليه، فلما وُلي الملك قال للمعلم: ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلمًا؟ فقال له: لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنو شروان: زه زه.

وقال محمد بن سويد وزير المأمون:

فلا تأمننَّ الدَّهر حرٌّ ظلمته ... فما ليلُ حرٍّ إن ظلمتَ بنائمِ

ورُوِيَ أن بعض الملوك رقم على بساطه:

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلم مصدرهُ يفضي إلى النّدمِ
تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ ... يدعو عليك وعينُ الله لم تنمِ

وما أحسن ما قال الآخر:

أتهزأُ بالدعاء وتزدريهِ ... وما تدري بما صنع الدعاءُ
سهام الليل نافذةٌ ولكنْ ... لها أمدٌ وللأمد[1] انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربّي ... ويرسلها إذا نفذَ القضاءُ[2]

وقال أبو الدرداء: إياك ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فإنها تسري بالليل والناس نيام، وقال الهيثم بن فراس السامي من بني سامة بن لؤي في الفضل بن مروان:

تجبرت يا فضل بن مروان فاعتبرْ ... فقبلك كان الفضلْ والفضلْ والفضل
ثلاثة أملاكٍ مضوا لسبيلهم ... أبادهمُ الموت المشتّت والقتلُ

يريد الفضل بن الربيع والفضل بن يحيىٰ والفضل بن سهل. ووجد تحت فراش يحيىٰ بن خالد البرمكي رقعة مكتوب فيها:

وحق اللهِ إنّ الظلم لؤمٌ ... وإنَّ الظلم مرتعهُ وخيمُ[3]
إلى ديّان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

(١) الأمد: الوقت والحين. (٢) نفذ القضاء: حل ونزل.
(٣) مرتعه وخيم: أي أن عشبه ومرعاه لا يستمرأ لأن نهايته العذاب.

ووجد القاسم بن عبيد الله المكتفي في مصلاه رقعة مكتوبًا فيها:

بغي وللبغي سهامٌ تنتظر
أنفذ في الأحشا من وخز الإبر
سهام أيدي القانتين في السحر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء: ما كنت لألي[1] هذا بعدما حدّثني إبراهيم، قال: وما حدَّثك إبراهيم؟ قال: حدَّثني عن علقمة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشياع الظلمة حتى مَن برى لهم قلمًا أو لاق لهم دواة، فيجمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في نار جهنم».

محمد بن عبد الملك الزيات والمظلوم

وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال: جلس أبي للمظالم يومًا فلما انقضى المجلس رأى رجلًا جالسًا فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم. أدنني إليك فإني مظلوم وقد أعوزني العدل والإنصاف، قال: ومَن ظلمك؟ قال: أنت ولست أصل إليك فأذكر حاجتي قال: وما يحجبك؟ وقد ترى مجلسي مبذولًا؟ قال: يحجبني عنك هيبتك وطول لسانك وفصاحتك. قال: ففيم ظلمتك؟ قال: في ضيعتي الفلانية أخذها وكيلك غصبًا مني بغير ثمن فإذا وجب عليها خراج أديته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها فيبطل ملكي فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدي خراجها وهذا لم يسمع بمثله في المظالم، فقال له محمد: هذا قول تحتاج معه إلى بينة وشهود أشياء، فقال له الرجل: أيؤمنني الوزير من غضبه حتى أجيب؟ قال: نعم قد أمنتك.

قال: البينة هم الشهود وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شيء آخر فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء وأي شيء هذه الأشياء إن هي إلا الجور وعدولك عن العدل؟ فضحك محمد وقال: صدقت والبلاء موكل المنطق وإني لأرى فيك مصطنعًا ثم وقع له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه فكان قبل أن يتوصل إلى الإنصاف وإعادة ضيعته له، يقال له: يا فلان كيف الناس

(١) لألي: لأتولى، من الولاية.

فيقول: بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر، فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك وردّ عليه ضيعته وأنصفه قيل له ليلة: كيف الناس الآن؟ قال: بخير. قال: اعتمدت معهم الإنصاف ورفعت عنهم الإجحاف ورددت عليهم الغصوب وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب.

دعوة مظلوم

مما نقل في الآثار الإسرائيلية في زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلًا من ضعفاء بني إسرائيل كان له عائلة وكان صيادًا يصطاد السمك ويقوت منه أطفاله وزوجته، فخرج يومًا للصيد فوقع في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله، فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد، فرفع العواني خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصبًا بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال: إلـٰهي جعلتني ضعيفًا وجعلته قويًا عنيفًا، فخذ لي بحقي منه عاجلًا فقد ظلمني ولا صبر لي إلى الآخرة.

ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاهًا ونكزته في أصبع يده نكزة طار بها عقله وصار لا يقر بها قراره فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل به فلما رآها قال له: دواؤها أن تقطع الأصبع لئلا يسري الألم إلى بقية الكف، فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه فقال له الطبيب: ينبغي أن تقطع اليد إلى المعصم لئلا يسري الألم إلى الساعد فقطعها فانتقل الألم إلى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضوًا انتقل الألم إلى العضو الآخر الذي يليه.

فخرج هائمًا على وجهه مستغيثًا إلى ربّه ليكشف عنه ما نزل به، فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى في منامه قائلًا يقول: يا مسكين إلى كم تقطع أعضاءك امضِ إلى خصمك الذي ظلمته فارضه، فانتبه من النوم وفكر في أمره فعلم أن الذي أصابه من جهة الصياد، فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى

إليه فوقع بين يديه يتمرّغ على رجليه وطلب منه الإقالة[١] مما جناه، ودفع إليه شيئًا من ماله وتاب من فعله فرضي عنه خصمه الصياد فسكن في الحال ألمه وبات تلك الليلة فرد الله تعالى عليه يده كما كانت ونزل الوحي على موسى عليه السلام: يا موسى وعزّتي وجلالي لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته.

متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهّاتهم أحرارًا؟

مما تضمنته أخبار الأخيار ما رواه أنس رضي الله عنه قال: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك، فقال عمر رضي الله عنه: لقد عذت بمجير فما شأنك؟ فقال: سابقت بفرسي ابنًا لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعني بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين فبلغ ذلك عمرًا أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلت منه فهذا الحين أتيتك.

فكتب لعمرو بن العاص إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان، وقال للمصري: أقم حتى يأتيك فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصري فرمى إليه عمر رضي الله عنه بالدرة، قال أنس رضي الله عنه: فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين قال يا أمير المؤمنين: قد استوفيت واشتفيت قال: ضعها على ضلع عمرو، فقال يا أمير المؤمنين: لقد ضربت الذي ضربني قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع.

ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول: إني لم أشعر بهذا.

أحمد بن طولون والسيدة نفيسة

قيل: لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد،

(١) الإقالة: المسامحة.

فكتبت رقعة ووقفت بها في طريقه وقالت: يا أحمد يا ابن طولون فلما رآها عرفها فترجّل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها ملكتم فأسرتم وقدرتم فقهرتم وخوّلتم فعسفتم وردت إليكم الأرزاق فقطعتم هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها وأكباد جوعتموها وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم اعملوا ماشئتم فإنا صابرون وجوروا فإنا بالله مستجيرون واظلموا فإنا إلى الله متظلمون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، قال: فعدل لوقته.

عند الله تجتمع الخصوم

حُكِيَ أن الحجاج حبس رجلًا في حبسه ظلمًا فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام والموعد القيامة والسجن جهنم والحاكم لا يحتاج إلى بيّنة، وكتب في آخرها:

ستعلم يا نؤم إذا التقينا غدًا عند الإلٰه من الظلوم
أما والله إن الظلم لؤمٌ وما زال الظلوم هو الملومُ
سينقطع التلذّذ عن أناسٍ أداموه وينقطع النعيمُ
إلى ديّان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصومُ

المعتضد بالله وسارق الحلي

حكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحي قال: كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد أن أكل فانتبه منزعجًا وقال: يا خدم، فأسرعنا الجواب فقال: ويلكم أعينوني والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدرًا في سفينة فارغة فاقبضوا عليه واتوني به ووكّلوا بالسفينة مَن يحفظها، فأسرعنا فوجدنا ملاحًا في سفينة منحدرة وهي فارغة فقبضنا عليه ووكّلنا بها مَن يحفظها وصعدنا به إلى المعتضد، فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال: أصدقني يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك، فتلعثم وقال: نعم، كنت سحرًا في المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلي كثيرة وجواهر فطمعت فيها واحتلّت عليها حتى سددت فمها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها في الماء ولم أجسر على حمل سلبها إلى داري لئلا يفشو الخبر علي، فعوّلت على الهروب

والانحدار إلى واسط فصبرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين وأخذت في الانحدار فتعلق بي هؤلاء القوم فحملوني إليك.

فقال: وأين الحلي والسلب؟ قال: في صدر السفينة تحت البواري. قال المعتضد: عليّ به الساعة، فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببغداد مَن خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحرًا وعليها ثياب فاخرة وحلي فليحضر، فحضر في اليوم الثاني ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلّم ذلك إليهم، قال: فقلت يا مولاي من أين علمت أو أوحى إليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية. فقال: بل رأيت في منامي رجلًا شيخًا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التي قتلها اليوم ظلمًا وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يفتك، فكان ما شاهدتم.

الظُلم ثلاثة أنواع(١)

وتحدَّث عليّ بن أبي طالب عليه السلام في بعض خطبه عن الظُلم فقال:

«ألا وإنَّ الظلم ثلاثة: فظلمٌ لا يُغفَرَ، وظلمٌ لا يُترك، وظلمٌ لا يُطلب فأما الظلم الذي لا يغفرُ فالشرك بالله، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨].

وأما الظلمُ الذي لا يطلب، فظلمُ العبد نفسه عند بعض الهنات.

وأما الظلم الذي لا يُتْرَك، فظلمُ العبادِ بعضهُمْ بعضًا».

«يا أيها الناس، طوبى لِمن شغلَهُ عيْبُهُ عن عيوبِ الناس، وطوبى لمن لزم بيتَهُ وأكَلَ قُوتَهُ، واشتغلَ بطاعةِ رَبِّه، وبكى على خطيئته، فكانَ من نفسهِ في شغل والناس منهُ في راحةٍ».

وقال موصيًا واعظًا:

«أوصيكم عبادَ اللهِ بتقوى الله الذي ألبسَكُم الرِّياش، وأسبغ عليكُم المعاش فلو أنَّ أحدًا يجدُ إلى البقاء سُلَّمًا، أو لِدفع الموت سبيلًا، لكان ذلك لسليمان بن

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

داود (ع) الذي سُخِّر له مُلْكُ الجنِّ والأنس مع النَبُوَّةِ وعظيم الزُّلفة. فلمَّا استوفى طُعْمَتَهُ، واستكملَ مُدَّتهُ، رَمَتْهُ قسيُّ الفناء بنبالَ الموت، وأصبحتْ الدِّيار منهُ خالية، والمساكنُ مُعَطَّلة، وورثها قومٌ آخرون.

وإن لكم في القرون السالِفَة لَعِبْرَة، أينَ العمالقةُ وأبناءُ العمالقة؟ أين الفراعنةُ وأبناءُ الفراعنة؟ أين أصحَاب مدائنِ الرَّسِّ الذين قَتَلُوا النبيِّين، وأطفأوا سُنَنْ المرسلين، وأحيوا سُنَنَ الجبارين؟ أين الذين سارُوا بالجيوش، وهَزَموا الألوف، وعسكروا العساكر، ومدَّنوا المدائن؟».

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج:

العمالقة هم أولاد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. كان لهم الملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم. فمنهم عملاق بن لاوذ بن سام، ومنهم طسم بن لاوذ أخوه، ومنهم جديس بن لاوذ أخوهما. وكان العزُّ والملكُ بعد عملاق بن لاوذ في طسم. فلما ملكهم عملاق بن طسم، بغى وأكثر الفساد في الأرض حتى كان يطأ العروس ليلة عرسها وإن كانت بكرًا. وقبل وصولها إلى الزوج ففعل ذلك بامرأة من جديس يقال لها غفيرة بنت غفار، فخرجت إلى قومها وهي تقول:

لا أحــد أذلّ مــن جــديــس أهــكــذا يــفــعــل بــالــعــروس

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار، وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته، فصنع الأسودُ طعامًا ودعا عملاق الملك إليه. ثم وثب به وبطسم فقضى على رؤسائهم، ونجا منهمُ رياح بن مرّ، فصار إلى ذي جبشان بن تبَّعْ الحميري - ملك اليمن فاستغاثَ به، واستنجدَهُ على جديس.

فسار ذو جيشان في حِمْيَر فأتى بلاد - جَوّ - وهي قصبة اليمامة، فاستأصل جدَيسًا كلها، وأخْزبَ اليمامة، فلم يبقَ من جديس باقية، ولا لطسم إلّا اليسير.

ثم ملك بعد طسم وجديس - وَبَارُ بنُ أميم بن لاوذ بن أرم، فسار بولده وأهله فنزل بأرض وبار، وهي المعروفة برمل عالج، فبغوا في الأرض حينًا، حتى أفناهم الله.

ثم ملك الأرض بعد وَبَار - عبد ضَخْم بن أثَيْفْ بن لاوذ فنزلوا بالطائف حينًا، ثم بادوا.

ومِمَّن يُعدُّ من العمالقة عاد وثمود، فأمَّا عاد فهو عاد بن عويص بن أرم بن سام بن نوح. كان يعبد القمر، ويقال: إنَّهُ رأى من صُلبِهِ أولاد أولادِهِ أربعة آلاف، وإنَّهُ تزوج ألف جارية، وكانت بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن، وهي من شِحرْ عُمان إلى حضرموت. ومن أولاده شدَّاد بن عاد، صاحب المدينة المشهورة (إرم).

الفراعنة: ويقول عليه السلام: أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ جمِعْ فرعون، وهم ملوك مصر، فمنهم الوليد بن الريَّان فرعون يوسف، ومنهم الوليد بن مصعب فرعون موسى. ومنهم فرعون ابن الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وأخربَ بيت المقدس.

أصحاب الرَّسّ: قيل: إنهم أصحاب شعيب النبيّ وكانوا عبدة أصنام، ولهم مواشٍ وآبار يسقون منها.

والرسّ: بئرٌ عظيمة جدًا انخسفت بهم، وهم حولها، فهلكوا وخسفت بأرضهم كلّها وديارهم. وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة، كان بها قوم من بقايا ثمود بغوا فأهلكوا.

ومن قوله، عليه السلام، في الحقوق التي بها تستقيم الأمور وتُردُّ المظالم:

«وأعظم ما افترضَ سبحانه من تلك الحقوقِ، حقُّ الوالي على الرعية وحقُّ الرعيَّةِ على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كلّ، فجعلها نظامًا لأُلْفتهم وعزًّا لدينهم.

فليست تصلحُ الرعيةَ إلّا بصلاحِ الولاة، ولا تصلُحُ الولاة إلّا باستقامة الرعية.

فإذا أدَّتْ الرعيَّةُ إلى الوالي حقَّهُ، وأدّى الوالي إليها حقَّها، عزَّ الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالِمُ العدل، وجرت على إذلالها السُّنَنْ، فصلح بذلك الزمان، وطُمِعَ في بقاء الدولة. ويئِست مطامعُ الأعداء».

قال ابن أبي الحديد في الشرح(١):

بعث سعد بن أبي وقاص جرير بن عبد الله البجلي من العراق إلى عمر بن الخطاب بالمدينة ـ فقال له عمر:

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٦٣٣.

كيف تركتَ الناس؟ قال: تركتهم كقداح الجعبة، منها الأعصل الطائش (القليل الريش) ومنها القائم الرائش. قال: فكيف سعْدٌ لهم؟ قال: ثقافها الذي يقيم أودها، ويغمز عصلها. قال: فكيف طاعتهم؟ قال: يصلُّون الصلاة لأوقاتها، ويؤدون الطاعة إلى ولاتها.

قال: الله أكبر؛ إذا أقيمت الصلاة أُدِّيَت الزكاة، وإذا كانت الطاعة كانت الجماعة.

وتظلَّمَ أهل الكوفة إلى المأمون من واليهم فقال: ما علمتُ في عمَّالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية، ولا أعوَدُ عليهم بالرفق منه. فقال له أحدهم: فلا أحدٌ أولى منكَ يا أمير المؤمنين بالعدل والإنصاف. وإذا كان بهذه الصفة فمن عدلِ الأمير أن يوليه بلدًا بلدًا، حتى يلحق أهل كلّ بلدٍ من عدلِه مِثلُ ما لحقنا منه، ويأخذوا بقسطهم منه كما أخذ منه سوأهم. وإذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثر من ثلاث سنوات فضحِك وعزلهُ.

شرور الوزراء والأعوان

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج(١):

أُتي الوليد بن عبد الملك برجلٍ من الخوارج. فقال له: ما تقول في الحجاج؟ قال: وما عسيتُ أن أقول فيه؟ هو خطيئة من خطاياك، وشررٌ من نارك، فلعنك الله ولعن الحجاج معك. وأقبل يشتمها، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز فقال له: ما تقول في هذا؟ قال: ما أقول فيه: هذا رجل يشتِمكم، فإما أن تشتموه كما شتمكم، وإما أن تعفوا عنه.

فغضب الوليد وقال لعمر: ما أظنَّك إلا خارجيًا. قال عمر: وما أطنك إلا مجنونًا! وقام فخرج مغضبًا.

ولحقه خالد بن الريَّان صاحب شرطة الوليد، فقال له: ما دعاك إلى ما كلَّمتَ به أمير المؤمنين؟ لقد ضربتُ بيدي إلى قائم سيفي أنتظر أن يأمرني بضرب عنقك. قال: أوكنت فاعلًا لو أمرك؟ قال: نعم، فلما استُخلِفَ عمرُ جاء خالد الرَّيان فوقف على رأسه متقلدًا سيفه، فنظر إليه وقال:

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٤٢ ـ ٤٣.

يا خالد، ضع سيفك، فإنك مطيعنا في كل أمرٍ نأمرك به. وكان بين يديه كاتب للوليد، فقال له: ضع أنت قلمك، فإنك كنت تضرُّ به وتنفع. ثم قال: اللهم إني قد وضعتهما فلا ترفعهما. قال: فوالله ما زالا وضيعين حتى ماتا.

ويقول الإمام عليّ (ع) في هذا المعنى، وذلك في وصيته لمالك الأشتر: «إن شرَّ وزرائك مَن كان قبلك للأشرار وزيرًا، ومَن شركهم في الآثام. فلا يكونُنَّ لك بطانة، فإنهم أعْوان الأثمة، وإخوان الظلمة، وأنت واجدٌ خيرًا منهم ممن له مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم، مِمَّن لا يعاون ظالمًا على ظلمه، ولا آثمًا على إثمه. أولئك أخفُّ عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفًا، وأقلُّ لغيرك إلفًا.

أبو عبَّاد كاتب المأمون(١)

كان أبو عباد ثابت بن يحيىٰ كاتب المأمون إذا سئل الحاجة يشتمُ السَّائل ويسطو عليه ويُخجِله ويُبَكِّته ساعة، ثم يأمر له بها، فيقوم وقد صارت إليه وهو يذمّه ويلعنه. قال علي بن جبلة العكوك:

لعن الله أبا عباد لعنًا يتوالى
يوسع السائل شتمًا ثم يعطيه السؤالا

وكان الناس يقفون لأبي عباد وقت ركوبه، فيتقدم الواحد منهم إليه بقصة ليناوله إياها، فيركله برجله بالرّكاب، ويضربه بسوطه، ويطير غضبًا، ثم لا ينزل عن فرسه حتى يقضي حاجته ويأمر له بطلبته، فينصرف الرجل بها وهو يذمه، ساخطًا عليه، فقال فيه دعبل:

أولى الأمور بضَيْعةٍ وفساد ... مُلْكٌ يدبِّرهُ أبو عبَّاد
متعمِّدٌ بدواتِهِ جُلَساءَهُ ... فمضرَّجٌ ومُخضَّبٌ بمداد
وكأنه من دير عِزْقِلَ مُفْلِتٌ ... حَرِدٌ يجرُّ سلاسِلَ الأقياد
فاشدُدْ أميرَ المؤمنين صِفادهُ ... بأشدَّ منه في يدِ الحداد

---

(١) المستطرف.

وقال فيه بعض الشعراء:

قل للخليفة يا ابن عمِّ محمَّدٍ قَيِّدْ وزيرك إنَّهُ ركَّالُ
فلسوطهِ بين الرؤوس مسالكٌ ولرجله بين الصدور مجالُ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد بن العاص

لما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بن العاص؛ وكان قد صالحه وكتب له أمانًا وأشهد شهودًا ثم غدر به وقتله.

قال عبد الملك لرجل كان يستشيره ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: ما رأيك في الذي كان مني؟

قال: قد فات دَرْكُه. قال: لتقولن! قال: حزمٌ لو قتلته وحَيَيْت. قال: أولست بحي؟ فقال: ليس بحيٍّ من أوقف نفسه موقفًا لا يوثق له بعهد ولا بعقد. قال عبد الملك: كلامٌ لو سبق سماعه فعلي لأمسكت[1].

قال المسعودي:

وكان عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ذا شهامة وفصاحة وبلاغة وإقدام، وكان بينه وبين عبد الملك بن مروان محادثات ومكاتبات.

كتب إليه عبد الملك ذات مرة: حملت نفسك بالخلافة، ولست أهلًا لها، فكتب إليه عمرو: استدراج النعم إياك، أفادك البغي، ورائحة الغدر أورثتك الغفلة. زجرت عما وافقت عليه، وندبت إلى ما تركت سبيله. ولو كان ضعف الأسباب يؤيس الطالب، ما انتقل سلطان ولا ذل عزيز، وعن قريب يتبيّن مَنْ صريع بغي وأسير غفلة.

ودعا عمرو الناس إلى بيعته في دمشق، وكان عبد الملك غائبًا، فكرَّ راجعًا إليها، وناشده الرحم وقاله له: لا تفسد أمر أهل بيتك وما هم عليه من اجتمَاع الكلمة وفيما صنعت القوة لابن الزبير.

(١) العقد الفريد: ٥٨/١.

فرضي سعيد وصالح، كتب له عبد الملك أمانًا. ودخل مرةً إلى مجلس عبد الملك؛ وكان هذا قال لحاجبه: إذا دخل عمرو أن يغلق الباب وراءه ولا يدخل أحدًا من قومه.

ودخل عمرو فأغلق الحاجب الباب دون أصحابه، ومضى عمرو ولم يلتفت وهو يظنُّ أن أصحابه قد دخلوا معه كما كانوا يفعلون، فعاتبه عبد الملك طويلًا، وقد كان وصَّى صاحب حرسه ـ أبا زعزعة ـ بأن يضرب عنقه إذا قال له: «شأنك» ـ وهذه كانت العلامة بين عبد الملك وأبي زعزعة.

وأغلظ له القول ـ فقال: يا عبد الملك أتستطيل عليَّ كأنك ترى لك عليَّ فضلًا؟ إن شئت والله نقضت العهد بيني وبينك، ثم نصبت لك الحرب. فقال عبد الملك: قد شئت. فقال: وأنا فعلت.

فقال عبد الملك: يا أبا زعزعة شأنك. فألتفت عمر فلم يجد أصحابه، فدنا من عبد الملك، فضربه أبو زعزعة فقتله فقال له عبد الملك: إرمِ برأسه إلى أصحابه.

فلما رأوا رأسه تفرّقوا ـ ثم خرج عبد الملك فصعد المنبر وذكر عمرًا وذكر خلافه وشقاقه ـ ونزل عن المنبر[١].

يحيىٰ بن يعمر في مواجهة الحجّاج

قال الشعبي: كنت بواسط وكان يوم أضحى، فحضرت صلاة العيد مع الحجاج، فخطب الناس، ولما انصرفت جاءني رسوله، وعندما دخلت عليه قال لي: يا شعبي هذا يوم أضحى، وقد أردت أن أضحي فيه برجل من أهل العراق من محبي أبي تراب (عليّ بن أبي طالب) وأحببتُ أن تسمع قوله لتعلم أني قد أصبت الرأي فيما أفعل. فقلت له: أيها الأمير كان رسول الله ﷺ يضحّي بكبش فأستنّ به. فقال: إذا سمعت ما يقول صوّبت رأيي فيه لكذبه على الله ورسوله وإدخاله الشبهة في الإسلام.

ثم أمر الحجاج بالنطع والسياف، فأُحضرا، فقال: أحضروا الشيخ. فأتوا به وإذا هو يحيىٰ بن يعمر. فاغتممت غمًّا شديدًا، وقلت لنفسي: ماذا فعل هذا.

(١) مروج الذهب: ٣/١٠٩ ـ ١١٠.

حتى يُقتل؟! فقال له الحجاج: أنت أفقهُ أهل العراق. قال: أنا من فقهائهم. قال الحجاج: كيف زعمتَ أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ؟

قال يحيىٰ: ما أنا بزاعم ذلك. بل قائله بحق. فقال الحجاج: وأي حق؟ قال يحيىٰ: كتاب الله نطق بذلك. فقال الحجاج: لعلك تريد قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ [آل عِـمـران: الآية ٦١] الآية، وأن رسول الله ﷺ خرج للمباهلة ومعه عليّ وفاطمة والحسن والحسين؟

قال يحيىٰ: والله إنها لحجة بليغة، ولكن مع ذلك لا أحتجّ بها. فقال الحجاج: إن جئت بغيرها من كتاب الله فلك عشرة آلاف درهم، وإلا قتلتك وكنت في حلٍّ من دمك. قال يحيىٰ: نعم. وتلا قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٨٤، ٨٥] فقال الحجاج، وكان حافظًا للقرآن: أين تركت عيسى؟ قال يحيىٰ: ومن أين كان عيسى (ع) من ذرية إبراهيم ولا أب له؟ فقال الحجاج: من قبل أمه مريم.

قال يحيىٰ: عيسى من ذريّة إبراهيم بواسطة أمه وبينها وبينه ما تعلم من الأجداد، ولا يكون الحسن والحسين من ذريّة رسول الله ﷺ بواسطة أمهما فاطمة وهي ابنته بلا واسطة؟

فكأنما أُلقم الحجاج حجرًا، فأطلقه وأعطاه عشرة آلاف درهم وقال: لا بارك الله لك فيها[١].

البطش بعد العفو

قال المعتضد بالله أبو العباس أحمد: لما أوقع الفتنة إسماعيلُ بن بلبل بيني وبين أبي الموفق، فأوحشه مني حتى حبسني حبستي المشهورة، وكنت أتخوف القتل وأعيش مرارة السجن والأسر. ومن خشيتي القتل أقبلت على الدعاء، وكان إسماعيل يجيئني كل يوم حتى يظهر لي الولاء الكاذب. فدخل عليَّ يومًا وبيدي المصحف وأنا أقرأ، فتركته وأخذت أحادثه، فقال لي:

(١) ماذا في التاريخ: ٣/ ١٢٤.

أيها الأمير أعطني المصحف لأتفاءل لك به، فلم أجبه بشيء، فأخذ المصحف ففتحه فكان في أول سطر منه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩]، فاسودّ وجه إسماعيل واربدّ... وخلط الورق، وفتحه ثانية فخرج: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: الآية ٥] فازداد قلقًا واضطرابًا، وفتحه ثالثًا فخرج: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: الآية ٥٥].

فوضع المصحف وقال: أيها الأمير، أنت والله الخليفة بغير شك، فما حق بشارتي؟ فقلت: الله، الله في أمري، احقن دمي وحاذر أن يعلم الخليفة مثل هذا الكلام. ثم صار يتنصل لي ويعتذر، وأنا أظهر له التصديق حتى سكن. وسرعان ما جاء الموفق من الجبل، وقد اشتدت به علّته ومات، فخرجت من السجن وصرت خليفة، ومكنني الله من عدوي إسماعيل بن بلبل فأنفذت حكم الله فيه.

الفرج بعد الشدّة

قال عبد الله بن سليمان: كنت يومًا في حبس محمد بن عبد الملك بن الزيات في خلافة الواثق، وقد يئست من الفرج وفارقني الصبر، وخفت أن أكفر من رحمة الله، حتى وردت إليّ رسالة من أخي الحسن بن وهب وفيها شعر له:

محسن أبا أيوب أنت محلها ... فإذا جرعت من الخطوب فمن لها
إن الذي عقد الذي انعقدت به ... عقد المكاره فيك يحسن حلها
فاصبر فإن الله يعقب فرجه ... ولعلها أن تنجلي ولعلها
وعسى تكون قريبة من حيث لا ... ترجو وتمحو عن جديدك ذلها

فتفاءلت بذلك، وقويت نفسي، فكتبت إليه:

صبَّرتني ووعظتني وأنا لها ... وستنجلي، بل لا أقول؛ لعلها
ويحلها مَن كان صاحب عقدها ... ثقة به إذ كان يملك حلها

ولم يمضِ يومي ذاك حتى فرّج الله عني، وأُطلقت من حبسي. ورُوِيَ أن هاتين الرسالتين وقعتا بيد الواثق ـ الرسالة والجواب ـ فأمر بإطلاقي، وقال: والله، لا تركتُ في حبسي مَن يرجو الفرج.

ظالم يُبْلى بأظلم!

لا تـجـزعـنَّ ويـدًا إنـهـا دولٌ … دنـيـا تـنـقَّـلُ مـن قـومٍ إلـى قـومِ

هذا القول لمحمد بن عبد الملك بن الزيات.

كان سخط المتوكل على محمد بن عبد الملك بن الزيات بعد خلافته بأشهر، فقبض أمواله وجميع ما كان له، وقلّد مكانه أبا الوزير.

وكان ابن الزيات وزيرًا للمعتصم الخليفة العباسي ثم وزيرًا للواثق إلى أن ولي المتوكل وكان في نفسه عليه شيء.

كان ابن الزيات اتخذ للمصادرين والمغضوب عليهم تنُورًا من الحديد رؤوس مساميره إلى داخل، قائمة مثل رؤوس المسالّ، في أيام وزارته للمعتصم والواثق، فكان يُعذِب الناس فيه.

فأمر المتوكّل بإدخاله في ذلك التنور، فقال محمد بن عبد الملك الزيات للموكَّل به أن يأذن له في قلم وورق ليكتب ما يريد، فاستأذن المتوكل في ذلك فأذن له فكتب:

هي السبيلُ فمن يومٍ إلى يوم … كأنه ما تريك العين في النوم
لا تـجـزعَـنَّ رويـدًا إنَّـهـا دُوَلٌ … دنـيـا تَـنَـقَّـلُ مـن قـومٍ إلـى قـومِ

وتشاغل المتوكل في ذلك اليوم فلم تصله الورقة. فلما كان الغد قرأها فأمر بإخراجه فوجدوه ميتًا.

وكان حبسه أربعين يومًا في ذلك التنور إلى أن مات. وكان كاتبًا بليغًا وشاعرًا مجيدًا، وهو القائل في تحريض المأمون على عمه إبراهيم بن المهدي حين خرج عليه:

ألـم تـر أن الـشـيء لـلـشـيء عـلّةٌ … تكون له كالنار تقدح بالزندِ
كـذلـك جرَّ بـنـا الأمـور، وإنـمـا … يدلُّك ما قد كان قبل على البعدِ
وظـنّـي بـإبـراهـيـم أنَّ فـكـاكـهُ … سيبعثُ يومًا مثل أيامه النكد
تـذكّـر أمـيـر الـمـؤمـنـين قـيـامـه … وأيامه في الهزل منه وفي الجدِّ
إذا هـزَّ أعـواد الـمـنـابـر بـاسـمـه … تغنَّى بليلى أو بميَّةَ أو هند[١]

(١) مروج الذهب: ٤/٨٨.

قال الإمام عليّ (ع): أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة.

وقال بعض الحكماء: لذة العفو أطيب من لِذَّةِ التشفِّي والانتقام، لأن لذَّة العفو يشفعها حميد العاقبة، ولذَّة الانتقام يلحقها ألم الذَّم.

وقالوا: العقوبة ألأم حالات ذي القدرة وأدناها، وهي طرفٌ من الجزع[١].

المنذر بن ماء السماء في يوم بؤسه

كان المنذر بن ماء السماء قد نادمه رجلان من بني أسد، أحدهما: خالد بن المضلَّل، والآخر عمرو بن مسعود بن كلدة، فأغضباه في بعض القول، فأمر بأن يحفر لكل واحد حفرة بظهر الحيرة، ثم يجعلا في تابُوتين ويُدفنا في الحفرتين، حتى إذا أصبح سأل عنهما، فأُخبر بهلاكهما، فندم على ذلك، وغمَّهُ.

ثم ركب المنذر، حتى نظر إليهما، فأمر ببناء الغريَّيْن عليهما، فبُنيا عليهما، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريين، يسمِّي أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس.

فأول مَن يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل شومًا أي سودًا، وأول مَن يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظِربان أسود، ثم يأمر به، فيُذبح ويغرَّى بدمه الغريّان، فلبث بذلك برهة من دهره.

ثم إن عبيد الأبرص كان أول مَن أشرف عليه في يوم بؤسه، فقال له: هلّا كان الذبح لغيرك يا عبيد؟ فقال: «أتتك بحائنٍ[٢] رجلاه» فأرسلها مثلًا. فقال المنذر: أنشدني، فقد كان شعرك يعجبني، فقال عبيد: حال الجريضُ[٣] دون القريض، ـ وبلغ الحزام الطُبيين[٤] ـ فأرسلها مثلًا.

فقال له المنذر: اسمعني فقال: «المنايا على الحوايا»[٥]. فأرسلها مثلًا. فقال آخر: ما أشدَّ جزعك من الموت، فقال عبيد: لا يرحل رحلك من ليس معك، فأرسلها مثلًا. فقال المنذر: قد أمللتني، فأرحني قبل أن آمر بك، فقال عبيد: من عزَّ بزَّ، فأرسلها مثلًا. فقال المنذر: أنشدني قولك:

أقـفـرَ مـن أهـلـه مـلـحـوبُ

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/١٨٣.
(٢) الحائن: الهالك.
(٣) الجريض: الغصة.
(٤) الطبي: حلمة الضرع.
(٥) الحوايا: ما يحويه الإنسان في بطنه.

فقال عبيد:

أقفر من أهله عبيدُ   فليس يُبدي ولا يُعيدُ
عَنَتْ له عنَّة نكود   وحان منها له ورودُ

فقال المنذر: يا عبيد ويحك أنشدني قبل أن أذبحك، فقال عبيد:

والله إن متُّ لما ضرَّني   وإن أعشْ ما عشتُ في واحدة

فقال المنذر: إنه لا بُدَّ من الموت، ولو أن النعمان عرض لي في يوم بؤس لذبحته، فاختر لنفسك إن شئت الأكحل(١)، وإن شئت الأبجل(٢) - وإن شئت الوريد.

فقال عبيد: ثلاثُ خصال كسحابات عاد، واردها شرُّ ورَّاد، وحاديها شرُّ حاد، ومعادها شرُّ معاد، ولا خير فيه لمرتاد.

وإن كنت لا محالة قاتلي فاسقني الخمر، حتى إذا ماتتْ مفاصيل وذهلتْ لها ذواهلي فشأنك وما تريد. فأمر المنذر بحاجته من الخمر، حتى إذا أخذت منه، وطابت نفسه أمر بقتله(٣).

إنصاف المأمون أمةً من ابنه

روى الشيباني من حديث قحطبة بن حميد قال:

إني لواقف على رأس المأمون يومًا وقد جلس للمظالم، فكان آخر مَن تقدم إليه - وقد همَّ بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيىٰ بن أكثم، فقال لها يحيىٰ: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي في حاجتك، فقالت:

يا خير منتصفٍ يُهدَى به الرَّشَدُ   ويا إمامًا به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ القوم أرملةٌ   عُدِّي عليها فلم يُتْرك لها سَبَدُ
وابتُزَّ مني ضياعي بعد منعتها   ظُلمًا وفُرِّق مني الأهلُ والولدُ

---

(١) الأكحل: وريد في وسط الذراع.
(٢) الأبجل: وريد في الرجل أو اليد بإزاء الأكحل.
(٣) الأغاني: ٢٢/٩١ - ٩٣.

فأطرق المأمون حينًا ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

فـي دون مـا قـلت زال الـصـبـرُ والـجـلدُ
عـنـي وأقـرح مـنِّـي الـقـلبُ والـكـبـدُ
هـذا أذان صـلاة الـعـصـر فـانـصـرفـي
وأحـضـري الـخـصـم فـي الـيـوم الـذي أعِـدُ
والـمـجلسُ الـسـبتُ إن يُـقـضَـى الـجلوسُ لـنـا
نُـنـصِـفْـك مـنـه وإلّا الـمـجـلسُ الأحـدُ

قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول مَن تقدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك السلام أين الخصم؟ قالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأت إلى العباس ابنه. فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خُذ بيده وأجلسه معها مجلس الخصُوم، فجعل كلامُها يعلو كلامَ العباس. فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك.

فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها وأخرسه، ثم قضى لها بردِّ ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب إلى العامل الذي في بلدها أن يسقط الخراج عنها، ويُحسن معاملتها، وأمر لها بنفقة[١].

ملك يجلس للمظالم بنفسه

كان بعض الأكاسرة يجلس إلى المظالم بنفسه، ولا يثق بأحد، ويقعد بحيث يسمع الصوت، فإذا سمعه أدخل المتظلم، فأصيب بصمم في سمعه، فنادى مناديه: إن الملك يقول: أيها الرعية، إني إن أُصبْتُ بصمم في سمعي فلم أُصب في بصري. كلُّ ذي ظلامة فليلبس ثوبًا أحمر. ثم جلس لهم في مستشرفٍ له.

قال أبو العتاهية:

يا من تشرَّف بالدنيا وزينتها ليس التشرُّفُ رفع الطين بالطين

(١) العقد الفريد ١/ ٢٧ ـ ٢٨.

إذا أردت شريف الناس كلِّهم ... فانظر إلى ملكٍ في زي مسكين
ذاك الذي عظُمتْ والله نعمتهُ ... وذاك يصلح للدنيا وللدينِ

من وصيّة الإمام عليّ بن أبي طالب إلى عامله

من كتاب للإمام عليّ عليه السلام كتبه إلى قثم بن العباس، وهو عامله على مكة:

أمَّا بعد، فأقم للناس في الحج، وذكِّرهم بأيام الله، واجلس لهم في العصرين، فأفتِ المستفتي، وعلِّم الجاهل، وذاكر العالم، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلَّا لسانكَ ولا حاجب إلَّا وجهك. ولا تحجب ذا حاجة عن لقائك بها، فإنها إن ذيدت عن أبوابك في أوَّل وِردها لم تُحمد فيما بعد على قضائها[١].

ومن كلامه في تهذيب النفس

رحم الله امرءًا سمع حُكمًا فوعى، ودُعي إلى رشاد فَدَنا، وأخذ بحجزة هاد فنجا، راقب ربه، وخاف ذنبه، قدَّم خالصًا، وعمل صالحًا، اكتسب مذخورًا، واجتنب محذورًا، ورمى غرضًا، وأحرز عوضًا، كابر هواه، وكذَّب مناه. إن عليَّ جُنةً حصينة، فإذا جاء يومي انفرجت عنيٍّ وأسلمتني، فحينئذٍ لا يَطيشَ السهم، ولا يبرأ الكلم[٢].

الاحتكام إلى كتاب الله

دخل الحارث بن الأعور صاحب عليّ بن أبي طالب (ع). قال: يا أمير المؤمنين ألا ترى إلى الناس قد أقبلوا على هذه الأحاديث وتركوا كتاب الله قال: وقد فعلوها؟ قال: نعم ـ قال: أما أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتنة» قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم ـ وخبر بعدكم ـ وحكم ما بينكم ـ هو الفصل ليس بالهزل ـ ما تركه من جبار فصمه الله ـ ومَن أراد الهدي في غيره أظلَّه الله.

وهو حبل الله المتين ـ وهو الذكر الحكيم والصراط المستقيم ـ وهو الذي لمَّا سمعتهُ الجن قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عربيًا عجبًا يهدي إلى الرشد ـ مَن قال به صدق ومَن زال عنه عدا ـ ومَن عمل به أجر ـ ومَن تمسَّك به هدى السراط.

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٦٧. (٢) شرح النهج: ١/ ٣٩٩.

هاؤم اقرأوا كتابيَهْ!

جيء بأعرابي إلى السلطان، ومعه كتاب قد كتب فيه قصته، وهو يقول: «هاؤم اقرؤوا كتابيه».

فقيل له: يقال هذا يوم القيامة ـ قال: هذا والله شرٌ منه. إن يوم القيامة يؤتى بحسناتي وسيئاتي، وأنتم جئتم بسيئاتي وتركتم حسناتي.

في السلطان والرعيّة

روى الأبشيهي في باب «الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه» فقال:

عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وقّروا السلاطين وبجّلوهم، فإنهم عزّ الله وظله في الأرض إذا كانوا عدولًا».

وقال عليه الصلاة والسلام: «أيما راعٍ استرعى رعيته، ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها إلّا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء».

وقال مالك بن دينار: وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى: «أنا ملك الملوك رقاب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة لا تشغلوا ألسنتكم بسب الملوك ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم».

وقال أردشير لابنه: يا بني، الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الثاني. فالدين أس، والملك حارس، ومَن لم يكن له أس فمهدوم، ومَن لم يكن له حارس فضائع.

وقيل: لما دنت الوفاة لهرمز، وكانت امرأته حامل، عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى ولد له ولد. ولما أدرك تملك. وأغار على العرب فانتهكهم بالقتل، ثم خلع أكتاف سبعين ألفًا، فقيل له: ذو الأكتاف. وأمر العرب حينئذٍ بإرخاء الشعور ولبس المصبغات، وأن يسكنوا بيوت الشعر، وأن لا يركبوا الخيل إلّا عراة.

وقيل: من أخلاق الملوك: حب التفرد. كان أردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان، وإذا لبس حلة لم يُرد على أحد مثلها. وإذا تختم بخاتم كان حرامًا على أهل المملكة أن يتختموا بمثله.

وكان سعيد بن العاص بمكة إذا اعتمّ لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه.

ومما جاء في طاعة ولاة الأمور في الإسلام: أمر الله تعالى بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: الآية ٥٩]. وقال جابر بن عبد الله الأنصاري: بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إلـٰه إلّا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم. وفي صحيح البخاري أن النبيّ ﷺ أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر ومناصحته ومحبته والدعاء له.

التحذير من صحبة السلطان

سُئِلَ كلثوم بن عمرو التغلبي: لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب؟ قال: لأني رأيته يعطي عشرة آلاف من غير شيء، ويرمي من السور من غير شيء، ولا أدري أي الرجلين أكون.

قال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز: يا ميمون، احفظ عني أربعًا: لا تصحبن السلطان. وإنْ أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلوَنَّ بامرأة ولو اقرأتها القرآن، ولا تصل من قطع رحمه فإنه إليك أقطع، ولا تتكلم اليوم بكلام تعتذر منه غدًا.

كان يقال: قد خاطر بنفسه مَن ركب البحر، وأعظم منه خطرًا مَن صحب السلطان.

قال في كليلة ودمنة: ثلاثة لا يسلم عليها إلّا القليل: صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم على التجربة.

قال يحيىٰ بن خالد: إذا صحبت السلطان. فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق.

رُوِيَ أن بعض الملوك استصحب حكيمًا فقال له: أصحبك على ثلاث خصال: لا تهتك لي سترًا، ولا تشتم لي عرضًا، ولا تقبل فيَّ قول قائل حتى تستشيرني.

قال بعض الحكماء: إن زادك السلطان تأنيسًا فزده إجلالًا، وإن زادك إحسانًا فزده فعل العبد مع سيده؛ وإذا جعلك أخًا فاجعله أبًا، وإذا ابتليتَ بالدخول على السلطان مع الناس وأخذوا بالثناء عليه فعليك بالدعاء له، ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة، فإن ذلك شبيهٌ بالوحشة والغربة.

قال ابن عباس، قال لي أبي: يا بني إني أرى أمير المؤمنين يستشيرك، ويستخلطك ويقدمك على الأكابر أصحاب محمد ﷺ، وإني أوصيك بثلاث خصال: لا تفشينَّ له سرًا، ولا تجرينَّ عليه كذبًا، ولا تعاتبنَّ عنده أحدًا.

وكم رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به فكان كما قيل:

عَدْوَى البليدِ إلى الجليلدِ سريعةٌ والجمرُ يوضع في الرماد فيخمدُ

ومثل مَن صحبه السلطان ليصلحه مثل مَن ذهب ليقيم حائطًا مائلًا، فاعتمد عليه ليقيمه فخرّ الحائط عليه فأهلكه. قال الشاعر:

ومُعاشِر السلطان شبهُ سفينة في البحر ترجفُ دائمًا من خوْفه
إن أدخلت من مائِهِ في جوفها يغتالها مع مائِها في جوفه

وفي كتاب كليلة ودمنة: لا يسعد مَن ابتلي بصحبة الملوك، فإنهم لا عهد لهم، ولا وفاء ولا قريب، ولا حميم، ولا يرغبون فيك. إلا أن يطمعوا فيما عندك فيقربوك عند ذلك، فإذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك. ولا ودَّ للسلطان ولا إخاء، والذنب عنده لا يُغفر.

وقال ابن المعتز: مَن شارك السلطان في عزِّ الدنيا شاركه في ذلِّ الآخرة. وعنه: إذا زادك السلطان تأنيسًا وإكرامًا فزده تهيبًا واحتشامًا.

وقيل: مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة: عقل، وصبر، ومال. وتحته مكتوب: كذب عدوَّ الله. مَن كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان.

وقال حسان بن ربيع الحميري: لا تثقنَّ بالملك فهو ملول، ولا بالمرأة فإنها خئون، ولا بالدابة فإنها شَرود.

وقال عبيد بن عمير: ما ازداد رجل من السلطان قربًا، إلّا ازداد من الله بعدًا، ولا كثرت أتباعه إلّا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلّا كثُر حسابه. وقال ابن المبارك رحمه الله:

أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا
ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استـ
غنى الملوك بدنياهم عن الدين

في الحجَّاب والولاية

قال الأبشيهي في هذا الباب:

أما الحجاب، فقد قيل: لا شيء أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجّاب. وقيل: إذا سهل الحجّاب أحجمت الرعية عن الظلم. وإذا أعظم الحجاب هجمت على الظلم.

قال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه: مَن بالباب؟ فقال: رجل أناخ ناقته الآن، يزعم أنه ابن بلال مؤذن الرسول ﷺ. فأذن له أن يدخل. فلما دخل. قال: حدّثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَن ولي شيئًا من أمور المسلمين ثم حجب عنه، حجبه الله عني يوم القيامة». فقال عمر لحاجبه: إلزم بيتك. فما رؤي على بابه بعد ذلك حاجب.

وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يَرُدُّهُ بغير قضائها. قيل: فما الذي أشدُّ منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له.

ووقف عبد الله بن عباس العلوي على باب المأمون يومًا، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبلنا. وأما النظرة بعد النظرة، والتوقف بعد التعرف، فلا أفهم معناه. ثم تمثل بهذا البيت:

وما عن رضًا كان الحمار مطيتي ولكنَّ مَن يمشي سَيَرْضَى بما ركب

ثم انصرف. فبلغ ذلك المأمون، فضرب الحاجب ضربًا شديدًا، وأمر لعبد الله بصلة جزيلة. وقال الشاعر:

رأيت أناسًا يسرعون تبادرًا ... إذا فتح البواب بابك إصبعا
ونحن جلوسٌ ساكتون رزانة ... وحلمًا إلى أن يفتح الباب أجمعا

ووقف خراساني بباب أبي دلف العجلي حينًا فلم يؤذن له. فكتب رقعة وتلطف في وصولها وفيها:

إذا كان الكريم له حجابٌ ... فما فضل الكريم على اللئيم

فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريم قليل مالٍ ... ولم يُعْذَرْ تعلل بالحجاب
وأبواب الملوك محجباتٌ ... فلا تستنكرنَّ حجاب بابي

من محاسن النظم في ذمِّ الاحتجاب:

سأهجركم حتى يلين حجابكم ... على أنه لا بد سوف يلين
خذوا حذركم من صفوة الدهر إنها ... وإن لم تكن خانت فسوف تخون

وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسألة إلَّا أغلَقَ الله أبواب السمٰوات دون حاجته وخلته ومسألته». وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال:

سأصبر أن جفوتَ فكم صبرنا ... لمثلك من أمير أو وزير
رجوناهم فلما أخلفونا ... تمادت فيهم غِيَرُ الدهور
فبتنا بالسلامة وهي غُنْمٌ ... وباتوا في المحابس والقبور
ولما لم ننل منهم سرورًا ... رأينا فيهم كل السرور

وقال آخر:

ماذا على بوّاب داركم الذي ... لم يعطنا إذنًا ولا يستأذن
لو ردّنا ردًّا جميلًا عنكم ... أو كان يدفع بالتي هي أحسن

واستأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه، فهتف بالبكاء، فأتى إليه الناس، وفيهم كعب فقال: وما يبكيك يا سعد؟ قال: وما لي لا أبكي، وقد ذهب

الأعلام من أصحاب الرسول ﷺ ومعاوية يلعب بالأمة. فقال كعب: لا تحزن، إن في الجنة قصرًا من ذهب ـ يقال له: عدن، أهله الصديقون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله.

استأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم فحجبه، فقال:

في كل يومٍ لي ببابك وقفة ... أطوي إليه سائر الأبواب
وإذا حضرتُ رغبت عنك فإنه ... ذنبٌ عقوبته على الأبواب

وقال آخر:

ولقد رأيت بباب دارك جفوة ... فيها لحن ضيعك التكديرُ
ما بال دارك حين تدخل جنة ... وبباب دارك منكر ونكيرُ

وقال أبو تمام:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه ... على ما أرى حتى يلين قليلا
فما خاب مَن لم يأته متعمدًا ... ولا فاز مَن قد نال منه وصولا
إذا لم نجد للإذن عندك موضعًا ... وجدنا إلى ترك المجيء سبيلا

انتهى حديث الأبشيهي[1].

ومما ذكره صاحب العقد الفريد[2] عن الحجّاب:

قال محمود الوراق:

شاد الملوك قصورهم فتحصنوا ... من كل طالب حاجة أو راغب
عَالَوْا بأبواب الحديد لِعِزّها ... وتنوَّقوا في قبح وجه الحاجب
فإذا تلطّف للدُّخولِ عليهم ... راجٍ تلقّوهُ بوعدٍ كاذب
فاطلب إلى ملك الملوك ولا تكن ... باديَ الضراعة طالبًا مِن طالب

وقف أبو العتاهية على باب بعض الهاشميين فطلب الإدن. فقيل له: تكون لك عودة، فقال:

لئِنْ عُدْتُ بعد اليوم أني لَظالمٌ ... سأصْرِفُ وجهي حيث تُبغي المكارمُ
متى يَظفر الغادي إليك بحاجةٍ ... ونِصفُكَ محجوبٌ ونصفك نائمُ؟

(١) المستطرف: ١/١٤٥ ـ ١٤٧.
(٢) العقد الفريد: ١/٦٧ ـ ٧١.

ونظير هذا المعنى للعتابي:

قد أتيناك للسلامِ مرارًا غير من منّا بذاك المزار
فإذا أنت في استتارك بالله على مثل حالنا بالنهار

وقال غيره:

أتيتُكَ للتسليمِ، لا أنني امرؤٌ أردت بإتيانكَ أسباب نائِلك
فألفيتُ بوابًا ببابكَ مغرمًا بهدمِ الذي وصدته من فضائِلك
وقد قال قومٌ حاجبُ المرءِ عاملٌ على عرضِهِ، فاحذر خيانة عامِلَكْ

وقال الحسن بن هانىء:

أيها الراكب المغذُّ إلى الفضل ترفَّقْ فدونَ فضلِ حجابُ
ونَعَمْ هَبْكَ قد وصلت إلى الفضل فهل في يديك إلّا الترابُ

وقال العتابي:

حجابك ليس يشبهُهُ حجابٌ وخيرُكَ دون مطلبهِ السجادُ
ونومُكَ نوم من ورد المنايا فليس لهُ إلى الدنيَا أيابُ

وقال غيره:

أذا ما أتيناه في حاجةٍ رفعنا الرقاع له بالقصَبْ
له حاجبٌ دونهُ حاجبٌ وحاجبُ حاجِبهِ مُحْتجِبْ

وفيما جاء في القضاء وذكر القضاة:

وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق، فكشف عن باب مغلق، فظنناه كنزًا فكتبنا إلى أبي بكر فكتب إلينا لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي، ثم فتح فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلّة منسوجة بالذهب، وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خان الأمير وكاتباه وقاضي الأرض داهن في القضاء
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماء

وقال محمد بن حريث: بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم، فلما ألحُّوا عليه دخل بيته ونام على ظهره

وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللّهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك، فقُبض.

وعن أنس عن النبيّ ﷺ: «القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة».

قال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن سائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضيًا، لأن يدخل الرجل أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضيًا. وقيل: أول مَن أظهر الجور في القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كان أمير البصرة قاضيًا فيها، وكان يقول: إن الرجلين يتقدمان إليّ، فأجد أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأقضي له.

وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيىٰ بن أكثم مع رجل أدعى عليه بثلاثين ألف دينار، فطرح للمأمون مُصَلّى يجلس عليه، فقال له يحيىٰ: لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بيّنة، فأراد أن يحلف المأمون، فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة إني تناولتك من جهة القدرة، ثم أمر ليحيىٰ بمال وأجزل عطاءه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [صٓ: الآية ٢٦] وقال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [صٓ: الآية ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٧]، قال رسول الله ﷺ: «مَن حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق، فعليه لعنة الله».

عن أبي حازم قال: دخل عمر على أبي بكر فسلّم عليه فلم يرد عليه. فقال عمر لعبد الرحمٰن بن عوف: أخاف أن يكون وجَدَ عليَّ خليفة رسول الله ﷺ. فكلّم عبد الرحمٰن أبا بكر فقال: أتاني، وبين يديّ خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سائلي عنهما، وعمّا قالا.

وادعى رجل علي عليّ، عند عمر وعليّ جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك فتناظرا، وانصرف الرجل ورجع عليّ إلى مجلسه، فتبين لعمر التغيير في وجه عليّ. فقال: يا أبا الحسن ما لي أراك متغيرًا

أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنيتني بحضرة خصمي فهلّا قلت يا عليّ قم فاجلسْ مع خصمك. فأخذ عمر برأس عليّ فقبله بين عينيه ثم قال: بأبي أنتم، بكم هدانا الله، وبكم أخرجنا من الظلمان إلى النور[(١)].

غدر المماليك بالسلطان قطز

بويع الملك المظفر «قطز» عام ٦٥٧ هـ ـ وبينما هو في مملكته جاءت أخبار جحافل التتار وقد وصلت إلى دمشق تنهب البلاد وتقتل العباد. كان قطز من أشجع الفرسان ومن أهل الأصول بيع في رق ابن الزعيم فلطمه يومًا فبكى بحرقة فقيل له: أمِن لطمة واحدة تبكي؟ قال: إنما أبكي من لعنة أبي وجدي وهما أفضل منه.

جمع قطز الأمراء والفرسان وقرر الخروج إلى التتار. وفي عين جالوت بالشام أوقع بهم هزيمة مروّعة في ساعة تشيب لهولها الولدان.

كانت مصر تنتظر عودة من رد كيد المعتدين عن المسلمين وعن العالم، وكانت الزينات منصوبة، والزغاريد مدوية، والمصابيح مضاءة، والقوارب تمرح على صفحة النيل ابتهاجًا بعودة المنتصر.

وبينما كان قطز المنتصر في صحراء الصالحية يطارد أرنبًا ساق خلفه الأمراء وعلى رأسهم «بيبرس» أحد خاصته ومريديه، ثم دنا منه بيبرس وأراد أن يقبل يده، فلما مد السلطان يده إليه قبض عليه وضربه بيبرس في غدر باغت بسيفه، وسرعان ما أجهز عليه الأمراء. ارتوت الصحراء بدم هازم التتار ومحرر الشام، وكان الجيش العائد بالنصر حاملًا جثة صاحب النصر حيث ووريت ودفنت بين مقابر فقراء المسلمين.

سبحان مَن له الدوام

تسلطت شجرة الدر، سلطانة مصر، وكانت آخر سلاطين بني أيوب. حف بها المجد وسطعت أيامها بالأبهة ومظاهر الفخر فأنعمت على الأمراء بالوظائف السنية، وأغدقت على الجند بالأموال والعطايا ولكن الناس نفروا أن يتولى أمرهم امرأة، فتزوجت الأمير «عز الدين أيبك» التركماني. كانت شديدة الغيرة، فقتلت

---

(١) المستطرف: ١/١٥١ ـ ١٥٢.

زوجها الذي أصرّ على أن يحتفظ بزوجته الأولى «أم عليّ» فقتلته شجرة الدر شر قتلة. لكن شاءت الأقدار أن تظفر بها أم عليّ بمعاونة بعض الجواسيس فقتلوها ضربًا بالقباقيب في حمامها.

وحُملت شجرة الدر: «ملكة المسلمين، عظمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجليل والستر الجميل»، وألقيت من على سور القلعة عارية إلا من سروالها. فتسلل حرفوشان من العامة وسرقا من تكة سروالها لؤلؤتين وزجاجة من المسك وحملاها في قفة ووارياها في مقابر الصدقة».

ظلم المجتمع وذوي السلطان

يروي الرواة أن الخليفة العباسي المتوكل غضب يومًا على عافية بن شبيب وأقصاه عن مجلسه ونفاه إلى البصرة، لأنه رآه يأكل بطريقة لا تليق بمن يجالس الخليفة ـ وينال صلاته ـ.

وفي مثل هذه الرواية دلالة على أن بلاط الخلفاء كان يفرض على المقربين إليه تقاليد خاصة وأساليب معينة من العيش والحديث والسلوك الاجتماعي وأن مَن يحيد قيد شعرةٍ عن هذه التقاليد يُقضى عليه بالإقصاء عن مجالسه الخليفة وإن أدَّى ذلك إلى نكران مواهبه.

وغير بعيد أن يكون الوسط الاجتماعي الذي نشأ فيه ابن الرومي قد طبع معيشته وسلوكه بطابع لا يليق بمن يجالس الخليفة وينال صلاته.

لقد أدّى إقصاء ابن الرومي عن مجالس الخلفاء أن يرتاب سائر رجال الدولة حتى بمديحه لهم، فإذا هم يتأولونه إلى الهجاء. ولعل في هذه الريبة دلالة أيضًا على أن شاعرنا لم يكن يقدم على مدح هؤلاء إلّا متثاقلًا متكلفًا وأنهم كانوا يحسُّون في مديحه هذا التثاقل والتكلف، فيتخذون من ذلك حجة لانتقاص قدره.

وصف ابن الرومي حمالًا أعمى، في قطعة إنسانية تبين مدى حقده على الحرمان وعلى ذوي السلطان ـ وعلى كل مستأثر بالنعمة فقال:

رأيت حمالًا مُبين العمى يعثر في الأكم وفي الوهدِ
محتملًا ثقلًا على رأسه تضعف عنه قوة الجلدِ

بـيـن جـمـالاتٍ وأشـبـاهـهـا … مـن بـشـر نـامـوا عـلـى الـمـجـدِ
وكـلـهـم يـصـدمـه عـامـدًا … أو تـائـهِ الـلـبِّ بـلا عـمـدِ
والـبـائـس الـمـسـكـيـن مـسـتـسـلمٌ … أذلّ لـلـمـكـروه مـن عـبـدِ
ومـا اشـتـهـى ذاك ولـكـنـه … فـرَّ مـن الـلـؤم إلـى الـجـهـدِ
فـرَّ إلـى الـحـمـل عـلـى ضـعـفـه … مـن كـلـمـات الـمـكـثـرِ الـوغـدِ

فهو يستحضر ملكته في استيعاب الحالة الإنسانية في حالة هذا الأعمى واستسلامه لعبودية الفقر[١].

لو كان الاستبداد رجلًا

لو كان الاستبداد رجلًا وأراد أن ينتسب لقال:

أنا الشر، وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضُّرّ، وخالي الذل، وابني الفقير، وابنتي الحاجة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب.

في الغدر

قال أبو عمرو بن العلاء:

كانت بنو بني تميم أغدر العرب، وكانوا يسمون الغدر كيسان، فقال فيهم الشاعر:

إذا كنت في سعدٍ وخالك منهم … فـلا يـغـررك خـالـك مـن سـعـدِ
إذا ما دعوا كيسان كانت كهولهم … إلى الغدر أدنى من شبابهم المرد

المنصور وابن هبيرة

قال المدائني:

لما كتب أبو جعفر المنصور أمانًا لابن هبيرة ـ واختلف فيه الشهود أربعين يومًا ـ ركب ابن هبيرة في رجال معه حتى دخل على المنصور فقال له: إن دولتكم هذه جديدة فأذيقوا الناس حلاوتها ـ وجنبوهم مرارتها ـ لتسرع محبتكم إلى قلوبهم ـ ويعذُب ذكركم على ألسنتهم وما زلت منتظرًا لهذه الساعة، فأمر المنصور برفع

(١) عناوين جديدة لوجوه قديمة: ص ٢٩.

الستر بينه وبين ابن هبيرة ـ فنظر إلى وجهه وباسطه القول حتى اطمأن قلبه ـ فلما قال أبو جعفر لأصحابه: عجبًا من كل مَن كان يأمرني بقتله. ثم بعد ذلك قتله غدرًا[١].

بئس الشيمةُ الغدرُ بالعهد

قال قيس بن جردة الطائي، ويقال اسمه العارف أيضًا:

من مبلغ عمرو بن هندٍ رسالةً ... إذا استحقَبَتْها العيس جاءت من البد
أيوعدني والرَّمل بيني وبينه ... تبيَّنْ رويدًا ما أمامة من هندِ
ومن أجأةٍ حَوْلي رعانٌ كأنها ... قنابل خيلٍ من كميتٍ ومن وَرَدِ
غدرت بأمرٍ كنت أنت اجتررتنا ... إليه وبئس الشيمة الغدرُ بالعهد

وكان عمرو بن هند غزا اليمامة فأخفق فرجع منفضًا، فمرَّ بطيء ـ وكانوا في ذمته بكتاب عقد اكتتبه لهم وعهدٍ أحكمه معهم ـ فقال زرارة بن عديس له: أبيت اللعن، أصبْ من هذا الحي شيئًا ـ قال: ويلك إن لهم عقدًا لا يجوز لنا تخطيه.

فأخذ زرارة يهون عليه أمر العهد عليه ويحسن الإيقاع بهم، فلم يزل يقنعه لشيء كان في نفسه على طيء، حتى أصاب أذوادًا ونساءً، فهجا العارف الطائي عمرو بن هند بأبيات يعصب بها رأسه فيها بالغدر الذي كان منه، فوقعت الأبيات إلى عمرو بن هند، فتوعد عارفًا وحلف أن يقتله، فاتصلت مقالته بعارف، فقال التي أوردناها[٢].

أغشًّا وحنثًا

مرّ الخليفة عمر بن الخطاب على عجوز تبيع اللبن. فقال لها: يا عجوز لا تغشّي المسلمين، ولا تُشزي لبنك بالماء، قالت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم مرّ بها بعد ذلك فقال: يا عجوز ألم أعهد إليك أن لا تشوبي لبنك بالماء؟ قالت: والله ما فعلت يا أمير المؤمنين، فتكلمت ابنتها من داخل الخباء. فقالت: يا أمّاه! أغشًّا وحنثًا جمعت على نفسك؟ فسمعها عمر فأعجبته، فقال لولده: أيكم يتزوجها؟

---

(١) العقد الفريد ١/٥٨.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/١٤٦٦.

فتزوجها ابنه عاصم فولدت له أم عاصم. وتزوجها بعده عبد العزيز بن مروان، فولدت له عمر بن عبد العزيز[١].

مقتل يحيىٰ بن زكريا (يوحنا المعمدان)

كان ملك بني إسرائيل يكرم يحيىٰ بن زكريا ويُدني مجلسه ويستشيره في أمره ولا يقطع أمرًا دونه وإنه أراد أن يتزوج ابنة امرأة له، فسأل يحيىٰ عن ذلك فنهاه عن زواجها، وقال: لست أرضاها لك. فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيىٰ حين نهاه أن يتزوج ابنتها، فعمدت إلى الجارية حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابًا رقاقًا حمرًا، وطيبتها، وألبستها فوق ذلك كساء أسود، فأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه وأن تعرض له، فإن أرادها على نفسها أبَتْ عليه حتى يعطيها ما سألته، فإذا أعطاها ذلك سألته أن تؤتى برأس يوحنا بن زكريا في طسْت، ففعلت، فجعلت تسقيه وتعرض له. فلما أخذ فيه الشراب أرادها على نفسها، فقالت: لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك.

قال: ما تسأليني؟ قالت: أسألك أن تبعث إلى يحيىٰ بن زكريا، فأُوتي برأسه في هذا الطسْت.

فقال: ويحك سليني غير هذا وقالت: ما أريد أن أسألك إلَّا هذا.

فلما أبتْ عليه، بعث إليه فأُتي برأسه، والرأس يتكلم، حتى وُضع بين يديه وهو يقول: لا تَحِلُّ لك. فلما أصبح إذا دمُه يغلي.

فأمر بتراب فألقي عليه، فرقى الدم فوق التراب يغلي، فألقي عليه التراب أيضًا فارتفع الدم فوقه، فلم يزل يُلقي عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك. ثم أراد أن يبعث جيشًا لافتتاح مدينة فأتاه بختنصّر فكلّمه وقال:

إن الذي كنت أرسلت على رأس جيشك تلك المرَّة ضعيف، وإني دخلت المدينة وسمعت كلام أهلها فابعث فسار بختنصر حتى بلغوا ذلك المكان، فتحصّن أهله في المدينة. فلما اشتدَّ عليه المقام وجاع أصحابه أراد الرجوع، فخرجت إليه عجوز من عجائز بني إسرائيل فقالت: أين أمير الجند؟ فأتى به إليها، فقالت: إنه بلغني أنك تريد أن ترجع بجندك قبل أن تفتح هذه المدينة.

---

(١) نهاية الأرب ٣/ ٢٤٠.

قال: نعم، قد طال مقامي وجاع أصحابي فلست أستطيع المقام فوق الذي كان مني. فقالت: أرأيتك إن فتحتُ لك المدينة، أتعطيني ما أسألك؛ فتقتل من أمرتك بقتله، وتكفّ إذا أمرتك أن تكف؟

قال لها: نعم، قالت: إذا أصبحت فأقسم جندك أربعة أرباع، ثم أقِم على كلِّ زاوية ربعًا ـ ثم ارفعوا بأيديكم إلى السماء، فنادوا: «إنَّا نستفتحك بالله، بدم يحيىٰ بن زكريا»، فإنها سوف تسقط ففعلوا ذلك، فتساقطت المدينة، ودخلوا من جوانبها. فقالت المرأة: كفَّ يدك، أقتل على هذا الدم حتى يسكن، فانطلقت به إلى دم يحيىٰ وهو على التراب، فقتل عليه حتى سكن.

فلما سكن الدم قالت له: كفَّ يدك، فإن الله عزَّ وجلَّ إذا قُتِل نبي لم يرضَ حتى يُقتل مَن قتله ومَن رضي بقتله.

من تعسُّف الحجاج وظلمه

حُكِيَ أن الحجاج حبس رجلًا في حبسه ظلمًا فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام، والموعد يوم القيامة، والسجن جهنم، والحاكم لا يحتاج إلى بيّنة وكتب في آخرها:

ستعلم يا نؤوم إذ التقينا ... غدًا عند الإله من الظُّلُومُ
أما والله إن الظلم لؤمٌ ... وما زال الظلوم هو الملومُ
سينقطع التلذذ عن أناسٍ ... أداموه وينقطع النعيمُ
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصومُ

قدم إلى الحجاج أحد أقاربه من البادية وطلب منه أن يوليه بعض الحضر. فقال له الحجاج: إن الحضر يقرأون ويحك وأنت لا تعرف شيئًا قال: اسألني والله إني أعلم بالحساب. فقال الحجاج: أقسم ثلاثة دراهم على أربعة رجال فبدأ يقول: ثلاثة بين أربعة، لكل واحد درهم ويبقى الرابع. فما هم أيها الأمير لو أعطيت الرابع درهمًا من بيت المال فضحك الحجاج وقال: إن أهل أصبهان كسروا خراجهم ثلاث سنين، وكلما أتاهم والٍ أعجزوه، فلأرمينهم ببرويه هذا وعنجهيته. وولّاه أصبهان، فلما آتاها قال لهم: لماذا تغضبون ولاتكم ولا تدفعون الفيء؟ قالوا: المواسم يا مولاي سيئة فأمهلنا بالخراج ثمانية أشهر. فقال: أريد ضمناء عليكم. فجاؤوا بعشرة ضمناء منهم. ولما قرب الوقت بدأوا يهتموا بجمع الخراج

حتى حان موعد الدفع. فلم يأتوه بشيء. فجمع الضمناء وقال: أين الخراج؟ قالوا: أصابنا من الآفة ما نقض ذلك. فلما رأى ذلك، أقسم أن لا يفطر، وكان ذلك في شهر رمضان، حتى يجمعوا له المطلوب، ثم قدَّم أحدهم فضرب عنقه ووضعه في كيس وكتب: قبضنا المطلوب من فلان. كذلك فعل بالثاني. عندما رأى القوم الرؤوس تبذر وتجعل بأكياس بدل البذر. قالوا: توقف أيها الأمير سنحضر لك المال. فأحضروه في أسرع وقت، ولم يزل عليها حتى مات الحجاج.

تعسُّف وزير وكرامة قاضٍ

كان بين القاضي أحمد بن أبي دؤاد وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات (وزير المعتصم) منافسة شديدة، حتى منع الوزير شخصًا كان يصحب القاضي ويختص بقضاء حوائجه من التردد إليه. فبلغ ذلك القاضي، فجاء إلى الوزير وقال: «والله ما أجيئك متكثرًا بك من قِلَّة، ولا متعزّزًا بك من ذلَّة، ولكن أمير المؤمنين رتَّبك مرتبة أوجبت لقاءك، فإن لقيناك فله، وإن تأخرنا عنك فلك».

وكان الواثق قد أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات إلا قام له. فكان ابن أبي دؤاد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي - حتى لا يقال وقف من أجله[1].

وزير في بئر

قال يعقوب بن داود: حبسني «المهدي»، وكنت وزيره، في بئر بُنيت فوقه قبة فكنت فيها خمسة عشرة سنة وكان يدلي لي كل يوم رغيفًا وكوز ماء، وأؤذن بأوقات الصلاة فلما كان قبل الفجر رأيت في المنام كأن قائلًا يقول لي قل: يا شفيق، يا رفيق، أنت ربي الحقيق، ادفع عني الضيق، إنك على كل شيء قدير. فقلتها، فما شعرت إلا بأبواب تفتح، ثم أخذوني إلى قصر الخلافة وأنا خارج من ظلمة الزمان والبئر إلى شمس النهار الساطعة، لا أعرف من أيامي شيئًا، ولا من صروف الدهر خبرًا. قلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين «المهدي». فقال: لست به. فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الهادي. قال: لست به. قلت: السلام

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ٢٥، وجمهرة خطب العرب ٣/ ١٤٨.

عليك يا أمير المؤمنين الرشيد ورحمة الله. فقال: عليك السلام. أتاني الذي أتاك وخلى سبيلي[١].

قال الإمام عليّ (ع) في الظلم:

أمـــا والله إن الـــظـــلـم شـــؤمٌ ... ولا زال الـمـسـيء هـو الـظـلـومُ
إلـى ديَّـان يـوم الـديـن نـمـضـي ... وعـنـد الله تـجـتـمـع الـخـصـومُ
ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غدًا عند المليك من الملومُ؟
لأمـرٍ مـا تـصـرَّمـتِ الـلـيـالـي ... لأمـرٍ مـا تـحـرَّكـتِ الـنـجـومُ
سـل الأيـام عـن أمـم تـقـضَّـتْ ... سـتـنـبـيـك الـمـعـالـم والـرسـومُ
تـروم الـخـلـدَ فـي دار الـدنـايـا ... فـكـم قـد رام غـيـرك مـا تـرومُ
تـنـام ولـم تـنـم عـنـك الـمـنـايـا ... تـنـبَّـهْ لـلـمـنـيـة يـا نَـؤومُ
لـهـوت عـن الـفـنـاء وأنـت تـفـنـى ... فـمـا شـيءٌ مـن الـدنـيـا يـدومُ
تـمـوتُ غـدًا وأنـت قـريـر عـيـنٍ ... من الـشـهـوات فـي لـجـجٍ تـعـومُ

(١) مجلة العربي، العدد ٤٣٦، ص ١٨٨، سنة ١٩٩٥.

في ذكر الأشرار والفجار
وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة

قال في المستطرف[1]: عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «قبل قيام الساعة يرسل الله ريحًا باردة طيِّبة، فتقبض روح كل مؤمنٍ ويبقى شرار الخلق يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: كفى بالمرء شرًا أن لا يكون صالحًا ويقع في الصالحين.

وقال لقمان لابنه: يا بني كذب مَن قال الشر يطفىء الشر، فإن كان صادقًا فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفىء إحداهما الأخرى، وإنما يطفىء الشر الخيرُ كما يطفى الماءُ النارَ. ووصف بعضهم رجلًا من أهل الشر فقال: فلان عري من حلة التقوى ومحي عنه طابع الهدى، لا تثنيه يد المراقبة، ولا تكفه خيفة المحاسبة، وهو لدعائم دينه مضيع ولدواعي شيطانه مطيع. شعر:

كأنه التيسُ قد أودى به هرمُ   فلا لحمٌ ولا صوفٌ ولا ثمرُ

وقيل: مَن فعل ما شاء لقي ما ساء. وقيل: زنى رجل بجارية فأحبلها، فقالوا له: يا عدوّ الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت؟ قال: قد بلغني أن العزل مكروه، قالوا: فما بلغك أن الزنا حرام؟ وقيل لأعرابي كان يتعشق قينة: ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها، قال: فمن لي إذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد.

وقال أبو العيناء: رأيت جارية مع النخاس وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها، فسألتها عن ذلك، فقالت: يا سيدي إنه يواقعني من قيام، ويصلي من قعود،

(١) المستطرف: ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

ويشتمني بإعراب، ويلحن في القرآن، ويصوم الخميس والاثنين، ويفطر رمضان، ويصلي الضحى، ويترك الفرض. فقلت: لا أكثر الله في المسلمين مثله.

وكانت ظَلْمَةُ القوادة وهي صغيرة في المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم، فلما شبت زنت، فلما كبرت قادت. وقال صاحب المسالك والممالك إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحًا، خلا ملك قمار، قال الزمخشري رحمه الله: أقمت بقمار سنين، فلم أر ملكًا أغير منه، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل. وقمار ينسب إليها العود القماري كما ينسب إلى مندل، قال مسكين الدارمي(١):

ولا ذنبَ للعودِ القماريِّ إنّه ... يُحرّق إن نمّتْ عليه روائحه(٢)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عهدت الناس وهواهم تبع لأديانهم، وأن الناس اليوم أديانُهم تبعٌ لأهوائهم. وقال رسول الله ﷺ: «حسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ما جاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء

قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، وفي ذلك قيل:

إذا لم تصنْ عرضًا ولم تخشَ خالقًا ... وتستحِ مخلوقًا فما شئت فاصنع(٣)

وقال ابن سلام: العاقل شجاع القلب والأحمق شجاع الوجه. وذم رجل قومًا، فقال: وجوههم وأيديهم حديد أي وقاح بخلاء. ووصف رجل وقحًا فقال: لو دق الحجارة بوجهه لرضها ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها، قال الشاعر:

لو أن لي من جلد وجهك رفعةً ... لجعلت منها حافرًا للأشهب(٤)

---

(١) هو ربيعة بن عامر بن أنيف «بالتصغير» بن شريخ الدارمي التميمي شاعر عراقي شجاع من أشراف تميم، لقب مسكينًا لأبيات قال فيها:

«أنا مسكين لمن أنكرني»

له أخبار مع معاوية ومع زياد بن أبيه وله ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ٨٩ هـ.

(٢) نمت: دلّت.

(٣) تصن عرضًا: أي تحميه.

(٤) الأشهب: الحصان الذي كان لونه الشهبة وهي بياض غلب على السواد.

وقال آخر:

إذا رُزِق الفتى وجهًا وقاحًا تقلّب في الأمور كما يشاء

وقال أنو شروان: أربعة قبائح وهي في أربعة أقبح، البخل في الملوك والكذب في القضاة، والحسد في العلماء، والوقاحة في النساء. ويقال: مَن جسر أيسر ومَن هاب خاب. قال الشاعر:

لا تكونن في امور هيوبًا فإلى هيبةٍ يصير الهبوب(١)

وقال عليّ رضي الله عنه: إذا هبْتَ أمرًا فقع فيه، فإنَّ شرّ توقية أعظم مما تخاف منه. وقال رضي الله عنه: الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا، وإذا افترقوا نفعوا، فقيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟ قال: يرجع أهل المهن إلى مهنهم، فينتفع الناس بهم كرجوع البناء إلى بنائه والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه. وقال بعض السلف: لا تسبوا الغوغاء، فإنهم يطفئون الحريق ويخرجون الغريق. وقال الأحنف: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. وقال حكيم: لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل أراد السفه. قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهلِ الجاهلينا

وقيل: الجاهل مَن لا جاهل له. أي: مَن لا سفيه له يدفع عنه. وقيل: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس، إذ جاء أعرابي، فلطمه، فقام إليه واقد بن عمرو، فجلد به الأرض، فقال عمر: ليس بعزيز مَن ليس في قومه سفيه. وقال الشاعر:

ولا يلبث الجهّال أن يتهضّموا أخا الحلم ما لم يستعنّ بجهول(٢)

وقال صالح بن جناح:

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعدًا وخُيِّرت أنّى شئت فالحلم أفضلُ
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفًا ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثلُ

---

(١) هيوبًا: خائفًا ووجلًا.

(٢) يتهضموا: أي يبخسوه حقه.

وقال الأحنف بن قيس[(١)]:

وذي ضغن أبَيْتُ القولَ عنه ... بحلمٍ فاستمرّ على المقالِ
ومَن يحلمْ وليس له سفيهٌ ... يلاقِ المعضلاتِ من الرجالِ

وقال آخر:

فإن كنتُ محتاجًا إلى الحلم إنّني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوجُ
ولي فرسٌ للخير بالخير ملجمٌ ... ولي فرسٌ للشرّ بالشرّ مسرجُ
فمن رام تقويمي فإنّي مقوّمٌ ... ومن رام تعويجي فإنّي معوّج

وقال آخر:

فإن قيل حلمٌ قلت للحلم موضعٌ ... وحلم الفتى في غير موضعه جهل

في الغدر والخيانة

قال في المستطرف[(٢)]: قال رسول الله ﷺ: «أعجل الأشياء عقوبة البغي». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المكر والخديعة والخيانة في النار».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ثلاث من كن فيه كنّ عليه. البغي والنكث والمكر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يُونس: الآية ٢٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفَتْح: الآية ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فَاطِر: الآية ٤٣].

وكم أوقع القدر في المهالك من غادر، وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزي، فهو على فكّه غير قادر، وأوقعه في خطة خسف[(٣)] وورطة حتف[(٤)]، فما له من قوة ولا ناصر، ويشهد لصحة

---

(١) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المتقري التميمي أبو بحر سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحان الفاتحين، ولد في البصرة وأدرك النبيّ ﷺ ولم يراه ووفد على عمر وشهد صفين مع علي واشتهر بالحلم وله سير وأخبار كثيرة توفي سنة ٧٢ هـ.

(٢) المستطرف: ص ٢٢٠ ـ ٢٢٦.

(٣) الخسف: الذل والقهر والنقص.

(٤) الحتف: الموت.

هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوي الألباب من قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري.

قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري

تلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبيّ ﷺ فجاءه يومًا وقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا، فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه». ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثعلبة أما لك في رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبًا وفضة لسارت».

ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا، والذي بعثك بالحق نبيًا لئن رزقني الله مالًا لأعطين كل ذي حق حقه. وعاهد الله تعالى على ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «اللهمّ ارزق ثعلبة ما قال».

فاتخذ ثعلبة غنمًا فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، ونزل واديًا من أوديتها، وهي تنمو كما ينمو الدود، وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد، فلما كثرت الغنم وتنحّى صار يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلي بقية الصلوات في غنمه، فكثرت ونمت حتى بَعُدَ عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضًا عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «ما فعل ثعلبة»؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ غنمًا ما يسعها واد، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة». فأنزل الله تعالى آية الصدقة.

فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجل من بني سليم، ورجل من جهينة وكتب لهما أنصاب[1] الصدقة، وكيف يأخذانها، وقال لهما: «مرّا بثعلبة بن حاطب، وبرجل آخر من بني سليم، فخذا صدقاتهما». فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ انطلقا حتى تفرغا، ثم عودا إليّ، فانطلقا، وسمع بهما السلمي،

(١) أنصاب الصدقة: طريقة أخذ النصيب منها.

فنظر إلى خيار إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأياه قالا: ما هذا؟ قال: خذاه، فإن نفسي به طيبة، فمرا على الناس وأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فقرأه، ثم قال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ اذهبا حتى أرى رأيًا.

قال: فذهبا من عنده، وأقبلا على رسول الله ﷺ، فلما رآهما قال قبل أن يتكلما: «يا ويح ثعلبة»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة: الآيات ٧٥ - ٧٨]. وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة قد نزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبيّ ﷺ، فسأله أن يقبل صدقته، فقال: «إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة»، فجعل ثعلبة يحثو[1] التراب على رأسه ووجهه فقال رسول الله ﷺ: «هذا عملك قد أمرتك، فلم تطعني»، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئًا.

ثم أتى إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه حتى استخلف فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار، فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لم يقبلها رسول الله ﷺ منك، فلا أقبلها أنا، فقبض أبو بكر رضي الله تعالى عنه، ولم يقبلها.

فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي، فلم يقبلها منه، وقال: لم يقبل رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضي الله عنه، فأنا لا أقبلها؟ وقبض عمر رضي الله عنه، ولم يقبلها.

ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه، فسأله أن يقبل صدقته، فقال له: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما، فأنا لا أقبلها. ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه.

---

(١) يحثو التراب: يهيل به على رأسه.

قال الشاعر:

غدرتَ بأمرٍ كنت أنت جذبتنا إليه وبئس الشيمةُ الغدرُ بالعهد

يحلف وينوي الغدر

لما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام، وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيىٰ أن يقول: خذلني الله إن خذلته، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال الفضل بن الربيع: قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أجد نفسي أن أمري لا يتم، فقلت له: ولِمَ ذلك؟ أعز الله الأمير قال: لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر وكان كذلك لم يتم أمره.

جزاء الخيانة

ورد في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة، كان ملكًا بين دجلة والفرات وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق وبلغ ملكه الشام فأغار على مدينة سابور ذي الأكتاف، فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقًا كثيرًا.

ثم إن سابور جمع جيوشًا وسار إلى ضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شيء، ثم إن النضيرة بنت الضيزن عركت أي حاضت فخرجت من الربض[1] وكانت من أجمل أهل دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن، وكان سابور من أجمل أهل زمانه، فآرها ورأته فعشقها وعشقته وأرسلت إليه تقول: ما تجعل لي إن دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبي؟ فقال: أحكمك، فقالت: عليك بحمامة مطوقة ورقاء فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة فتتداعى المدينة كلها، وكان ذلك طلمسًا لا يهدمها إلا هو، ففعل ذلك فقالت له: وأنا أسقي الحرس الخمر فإذا صرعوا فاقتلهم، ففعل ذلك فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن، واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها.

فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرّر وتتململ في فراشها وهو من حرير محشو بريش النعام، فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آس التصقت بعكنتها[2] وأثرت

---

(١) الربض: من الحصن أو المقام والمكان.

(٢) العكنة: ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنًا.

فيها، وقيل: كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها، ثم إن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها. وقيل: إنه أمر رجلًا فركب فرسًا جموحًا وضفر غدائرها بذنبه، ثم استركضه فقطعها قطعًا.

جزاني جزاء سنمار

تقول العرب: جزاني جزاء سنمار، وهو أن أزدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مرىء فدل على ظهر الجزيرة، فدفع ابنه بهرام إلى النعمان وهو عامله على أرض العرب وأمره أن يبني له جوسقًا فامتثل أمره، وبنى له جوسقًا كأحسن ما يكون وكان الذي بنى الجوسق رجلًا يقال له سنمار، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه فقال: لو علمت أنكم توفوني أجرته لبنيته بناء يدور معا لشمس حيث دارت، فقالوا: وإنك لتبني أحسن من هذا ولم تبنه، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع، فكانت العرب تقول: جزاني جزاء سنمار.

أشهر الغدارين

وممن غدر عبد الرحمٰن بن ملجم لعنه الله، غدر بعليّ رضي الله عنه وقتله. وعمرو بن حرموز غدر بالزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله، وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله، غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره وقدم المهدي عليه، فقال عيسى:

أينسى بنو العبّاس ذبّي عنهُمُ ... بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها[١]
فتحت لهم شرق البلاد وغربها ... فذلّ معاديها وعزّ نصيرها
أقطع أرحامًا عليَّ عزيزةً ... وأبدي مكيداتٍ لها وأثيرُها
فلما وضعت الأمر في مستقرهِ ... ولاحت له شمسٌ تلألأ نورها
دُفعت عن الأمر الذي أستحقّهُ ... وأوسق أوساقًا من الغدر عيرُها[٢]

---

(١) ذبي: دفاعي.

(٢) أوسق: حمل. عيرها: البعير وغيره مما يحمل عليه.

غدر ضبعة

خرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجؤها إلى هباء أعرابي فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت، فجاء ابن عمه يطلبه، فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها، وأنشد يقول:

ومن يصنعِ المعروف مع غير أهله ... يلاقي كما لاقى مجيرُ أمّ عامر
أعدَّ لها لما استجارت ببيته ... أحاليب ألبانِ اللقاح الدوائرِ
وأسمنها حتى إذا ما تمكنّت ... فَرَتْه بأنيابٍ لها وأظافرِ(١)
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من ... يجود بمعروفٍ على غير شاكرِ

غدر الذئب

حكى بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو ذئب. فقالت: أتدري ما هذا؟ فقلت: لا، قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيرًا وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى، وأنشدت:

بقرتُ شويهتي وفجعت قومي ... وأنت لشاتنا ابنٌ ربيب(٢)
غُذيت بدرها ونشأت معها ... فمن أنباك أنّ أباك ذيبُ
إذا كان الطباع طباع سوءٍ ... فلا أدبٌ يفيد ولا أديب

في السرقة والسرّاق

سارق العلانية يقطع سارق السرّ

مرّ عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقًا، فقال: لا إله إلّا الله سارق العلانية يقطع سارق السر.

تصلب وأنت كاره

أمر الإسكندر بصلب سارق، فقال: أيها الملك إني فعلت ما فعلت، وأنا كاره. فقال: وتصلب أيضًا وأنت كاره.

---

(١) فرته: قطعته وشقته.

(٢) بقرت شهويهتي: قتلت وقورت بطنها.

قال أكتل السلمي، وكان لصًا فاتكًا:

وإنّي لأستحي من الله أن أرى ... أُجرجر حبلي ليس فيه بعيرُ
وأن أسأل المرء الدنيء بعيرَهُ ... وأجمالُ ربّي في البلاد كثيرُ

قال الفــرزدق:

وإنّ أبا الكرشاء ليس بسارقٍ ... ولكنْ متى ما يسرق القومُ يأكلِ

وكان لعمرو بن دويرة البجلي أخ قد كلف ببنت عم له، فتسور عليها الدار ذات ليلة، فأخذه أخوتها وأتوا به خالد بن عبد الله القسري، وجعلوه سارقًا، فسأله خالد، فصدقهم ليدفه الفضيحة عن الجارية، فهمّ خالد بقطعه، فقال عمرو أخوه:

أخالد قد والله أوطئت عشوةً ... وما العاشق المظلوم فينا بسارق[1]
أقرّ بما لم يأته المرء إنّه ... رأى القطع خيرًا من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد وزوجه الجارية.

فيما جاء في العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عزّ وجلّ العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: الآية ٦٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: الآية ٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: الآية ٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: العداوة تتوارث، وقال زياد بن عبد الله:

فلو أنّي بليت بهاشمي ... خؤلته بنو عبد المدانِ
صبرت على عداوته ولكنْ ... تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

وبث رجل في وجه أبي عبيدة مكروهًا، فأنشأ يقول:

فلو أنّ لحمي إذ وهي لعبت به ... سباعٌ كرامٌ أو ضباعٌ وأذؤب
لهوّن وجدي أو لسلي مصيبتي ... ولكنما أودى بلحميَ أكلُبُ

---

(١) العشوة: ركوب الأمر على غير تبصر وهدى.

وقيل لكسرى: أي الناس أحب إليك أن يكون عاقلًا؟ قال: عدوي، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأنه إذا كان عاقلًا كنت منه في عافية وأمن.

وقيل: كونوا من المرء الدغل(١) أخوف من الكاشح(٢) المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفي وبطن. وقالوا: إياك أن تعادي من إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الملك في لحافه. وقال أبو العتاهية:

تنحّ عن القبيحِ ولا تردْهُ ... ومن أوليته حسنًا فزده
ستلقي من عدوك كلّ كيدٍ ... إذا كاد العدوّ ولم تكده

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب، فقتل أخوها زوجها وهي حبلى بهجرس بن كليب، فلما كبر وشب قال:

أصاب أبي خالي وما أنا بالذي ... أميل وأمري بين خالي ووالدي
وأورث جساس بن مرة غصةً ... إذا ما اعترتني حرّها غير بارد

ثم قال بعد ذلك:

يا للرجال لقلبٍ ما له جَلَدٌ ... كيف العزاء وثاري عند جساس(٣)

ثم حمل على خاله فقتله وقال:

ألم ترني ثأرت أبي كليبًا ... وقد يرجى المرشّح للدخول
غسلت العار عن جسم ابن بكرٍ ... بجساس بن مرة ذي البتول

بيـــــت:

سنّ العداوةَ آباءٌ لنا سلفوا ... فلن تبيد وللآباء أبناء

ويقال: دار عدوك لأحد أمرين: إما للصداقة تؤمنك، أو لفرصة تمكنك، وكتب سويد إلى مصعب.

فبلّغ مصعبًا عني رسولي ... وهل تلقى النصيح بكل واد
تعلّم أنّ أكثر من تناجي ... وإن ضحكوا إليك هم الأعادي

---

(١) الدغل: المضمر الحقد.
(٢) الكاشح: المبغض.
(٣) جلد: صبر.

ويقال: فلان كثير المراق مر المذاق. وقال الحجاج لخارجي: والله إني لأبغضك، قال: أدخل الله الجنّة أشدنا بغضًا لصاحبه.

ولما أراد أنو شروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته، فأنكروا عليه، وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت، فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، وكانت أم قباذ تركية، وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم، فقيل: هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك، فقال: إن قصره من رجليه ولا يكاد يرى إلا جالسًا أو راكبًا، فلا يستبين ذلك فيه. فقيل: هو بغيض في الناس، فقال: أراه هلك ابني هرمز، فقد قيل: إذا كان في الإنسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة إلى الناس فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه:

ولست براءٍ عيب ذي الود كلّه ... ولا بغضَ ما فيه إذا كنت راضيًا
فعين الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

وفي المعنى قيل:

وعينُ البغض تُبرزُ كلَّ عيبٍ ... وعينُ الحب لا تجد العيوبا

وعن أبي حيان قال: قال لقمان: نقلت الصخور وحملت الحديد، فلم أر شيئًا أثقل من الدين، وأكلت الطيِّبات وعانقت الحسان، فلم أر شيئًا ألذ من العافية. وأنا أقول لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء خصوصًا إذا كانوا مساهمين في نسب أو مجاورين في بلد. اللهمّ إنّا نعوذ بك من تتابع الإثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم. وقيل لأيوب عليه السلام: أي شيء كان عليك في بلائك أشد؟ قال: شماتة الأعداء. وأنشد الجاحظ:

تقول العاذلات تسلَّ عنها ... وداو عليلَ قلبك بالسلو(١)
وكيف ونظرةٍ منها اختلاسًا ... ألذُّ من الشماتة بالعدو(٢)

وقال ابن أبي جهينة المهلبي:

كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهون غير شماتة الأعداء

(١) السلو: الصبر والهجر.
(٢) اختلاسًا: اختطافًا.

وقال الجاحظ: ما رأيت سنانًا أنفذ من شماتة الأعداء. وقيل: لما قبض رسول الله ﷺ سمع بموته نساء من كندة وحضرموت، فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف، فقال رجل منهم:

أبلغ أبا بكرٍ إذا ما جئتُهُ   أنَّ البغايا من بني مرّام
أظهرن في موت النبيّ شماتةً   وخضبن أيديهن بالغلّام[1]
فاقطعْ هُديت أكفهنَّ بصارمٍ   كالبرق أومض في متون غمامِ

فكتب أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله، فأخذهن وقطع أيديهن. ويقال: فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل، ولا يؤمل صلاحًا إلا في فسادك ولا رفعة إلا في سقوط حالك. وقال حكيم: لا تأمن عدوك وإن كان ضعيفًا، فإن القناة قد تقتل، وإن عدمت السنان. قال الشاعر:

فلا تأمنْ عدوّك لو تراه   أقلَّ إذا نظرتَ من القراد
فإن الحرب ينشأ من جبانٍ   وإن النار تُضرَمُ من رماد

بيت مفرد:

فمن لم يكن منكم مسيئًا فإنه   يشدّ على كف المسيء فيجلبُ

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب:

كفاية الله خير من توقّينا   وعادة الله في الماضين تكفينا
كاد الأعادي فلا والله ما تركوا   قولًا وفعلًا وتلقينًا وتهجينًا[2]
ولم نزد نحن في سر وفي علنٍ   على مقالتنا يا ربّنا اكفينا
فكان ذاك وردَّ الله حاسدنا   بغيظهِ لم ينل تقديره فينا

في الحسد

قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: الآية ٥٤] وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود».

---

(١) الغلام: نوع من الخضاب، والغلمة شهوة الضراب.

(٢) تهجينًا: تقبيحًا وعيبًا.

وقال عليّ رضي الله عنه: الحاسد مغتاظ على مَن لا ذنب له. وقيل: الحسود غضبان على القدر. ويقال: ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش. الحقد والحسد وسوء الخلق. وقيل: بئس الشعار الحسد. وقيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك؟ قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد.

وقال أعرابي: الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود، وهو مأخوذ من الحديث: «قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله».

وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي: رحمة الله تعالى عليه: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود، أولاها: غم لا ينقطع. الثانية: مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة: مذمة لا يحمد عليها، الرابعة: سخط الرب، الخامسة: يغلق عنه باب التوفيق.

قاتل الله الحسد ما أعد له بدأ بصاحبه فقتله

حُكِيَ أن رجلًا من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان. وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده، وقال في نفسه: إن لم أحتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين، وأبعدني منه، فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به إلى منزله، فطبخ له طعامًا، وأكثر فيه من الثوم، فلما أكل البدوي منه قال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم، فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته، ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين، فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه.

فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال: إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتابًا إلى بعض عماله يقول فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا، فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوي ودفع إليه كتاب، وقال له: امض به إلى فلان وائتني بالجواب. فامتثل البدوي

ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان.

فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل، فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك، ويعطيك ألفي دينار؟ فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأي أفعل. قال: أعطني الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار، وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير.

فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي، وسأل عن الوزير، فأخبر بأن له أيامًا ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي، فحضر، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها، فقال له: أنت قلت عني للناس أني أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك مكرًا منه وحسدًا، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه. فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوي واتخذه وزيرًا وراح الوزير بحسده.

أقوال وأشعار في الحسد

قال المغيرة شاعر آل المهلب:

آل المهلب قومٌ إن مدحتَهُمُ كانوا الأكارم آباءً وأجدادًا
إن العرانين تلقاها محسّدة ولا ترى للئام الناس حسّادًا[1]

وقال عمر رضي الله عنه: يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة في كل شيء إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشد تحاسدًا من التيوس. وعن أنس رضي الله تعالى عنه رفعه: إن الحسد

(١) العرانين: جمع عينين هو أول الأنف حيث يكون فيه الشحم والرفعة.

يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وقال منصور الفقيه[١]:

منافسة الفتى فيما يزول ... على نقصان همّته دليلُ
ومختار القليل أقل منه ... وكل فوائد الدنيا قليل

يقول الله عزّ وجلّ: الحاسد عدوّ نعمتي متسخّط لفعلي غير راضٍ بقسمتي التي قسمت لعبادي. قال الشاعر:

أيا حاسدًا لي على نعمتي ... أتدري على مَن أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه ... لأنك لم ترضَ لي ما وهبْ
فأخزاكَ ربّي بأن زادني ... وسدّ عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعي: رأيت أعرابيًا قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت. وقالوا: لا يخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقدح.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ألا لا تعادوا نعم الله، قيل: ومَن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

وقيل لعبد الله بن عروة: لِمَ لزمت البدو، وتركت قومك؟ فقال: وهل بقي إلا حاسد على نعمتي أو شامت علي نكبة، وقال الشاعر:

يا طالب العيش في أمنٍ وفي دعةٍ ... رغدًا بلا قترٍ صفوًا بلا رنق[٢]
خلّص فؤادك من غل ومن حسدٍ ... فالغل في القلب مثل الغلّ في العنق[٣]

وقال آخر:

اصبر على حسد الحسو ... د فإن صبرك قاتلُه
كالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكلُهْ

(١) هو منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي، أبو الحسن، فقيه شافعي، من الشعراء ضرير. سافر إلى بغداد في شبابه، ومدح بها الخليفة المعتز، وكان خبيث اللسان في الهجو. مات سنة ٣٠٦ هـ بمصر.

(٢) القتر: الضيق في النفقة، والرنق: الكدر. (٣) الغل: الحقد، والغل: الطوق والقيد.

وفي نوابغ الحكم الحسد حسك من تعلق به هلك، ولبعضهم:

إني حسدت فزاد الله في حسدي ... لا عاش من عاش يومًا غير محسود

وقال نصار بن سيار:

إنّي نشأت وحسّادي ذوو عُددٍ ... يا ذا المعارج لا تنقصْ لهم عددًا

إن يحسدوني على ما بي لما بهم ... فمثل ما بيَ ممّا يجلب الحسدا

وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد.

وقيل لأرسطاليس: ما بال الحسود أشد غمًّا؟ قال: لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس.

دَرسٌ يُلقَى عَلى حَاسِد(١)

قال المنصور بن أبي عامر يومًا لأبي يوسف الرَّماديّ: كيف ترى حالَكَ معي؟ فقال: فَوْقَ قَدْرِي ودونَ قَدْرِك. فأطرقَ المنصورُ كالغَضْبان، فانسلَّ الرَّمادي، وخرج وقد ندِم على ما بَدَرَ منه، وجعل يقول: أخطأتُ، لا والله ما يفْلح مع الملوك مَن يعاملُهم بالحقّ! ما كان ضرّني لو قلتُ له: إني بلغت السماء، وتمنطقت بالجوزاء! وأنشد:

متَى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةً ... لنَفْسيَ إلّا قد قَضَيْتُ قَضاءَها

ولما خرج كان في المجلس مَن يحسُده على مكانه من المنصور، فوجد فُرْصَةً فقال: وصل الله لمولانا الظَّفر والسَّعدَ! إن هذا الصنفَ صِنْفُ زُور وهذَيان، لا يشكرون نعمة، ولا يرعَوْن إلًّا(٢) ولا ذِمّة؛ كلابُ مَنْ غَلَب، وأصحاب من أخْصب، وأعداء مَن أجدب؛ وحسبُك منهم أنَّ الله جلَّ جلالهُ يقول فيهم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٢٢٤ - ٢٢٦]. والابتعادُ منهم أولى من الاقتراب؛ وقد قيل فيهم: ما ظنُّك بقوم الصدق يُسْتَحْسن إلا منهم!

فرفع المنصور رأسَه - وكان مُحَامِيَ أهلِ الأدب والشعر - وقد اسودّ وجههُ، وظهر فيه الغضبُ المفْرط؛ ثم قال: ما بالُ أقوام يُشيرون في شيء لم يُسْتَشاروا

(١) نفح الطيب: ٢ - ٢٢٦.

(٢) الإل: العهد.

فيه؛ ويسيئون الأدبَ بالحكم فيما لا يدرون، أَيُرْضِي أم يُسْخِط! وأنت - أيّها المنبعث للشرّ دون أن يُبْعَث - قد علمنا غرضَك في أهل الأدب والشعرِ عامة، وَحسدَك لهم، لأنّ الناس كما قال القائل:

مَــن رأى الـنـاسُ لـه فـضــ ـــلًا عــلـيــهــمْ حَــســدُوهُ

وعرفْنا غرضَك في هذا الرجل خاصَّة، ولسنا - إن شاء الله - نبلغ أحدًا غرضه في أحد؛ وإنّك ضربتَ في حديد بارد، وأخطأت وجه الصواب؛ فزدتَ بذلك احتقارًا وصَغارًا، وإني ما أطرقتُ من كلام الرماديّ إنكارًا عليه؛ بل رأيتُ كلامًا يجلُّ عن الأقدار الجليلة، وتعجَّبْتُ من تهدِّيه له بسرعة؛ والله لو حكَّمتُه في بيوت الأموال لرأيتُ أنها لا ترجَح ما تكلّم به قدرَ ذرَّة، وإياكم أن يعودَ أحدٌ منكم إلى الكلام في شخصٍ قبل أن يُؤخَذَ معه فيه؛ ولا تحكّموا علينا في أوليائنا ولو أبصرتُم منا التغيّر عليهم؛ فإنا لا نتغيرُ عليهم؛ بغضًا لهم؛ وانحرافًا عنهم، بل تأديبًا وإنكارًا؛ فإنا من تريد إبعاده لم نُظْهرْ له التغيّر، بل ننبذُه مرة واحدة؛ والتغيّر إنما يكون لمن يُراد استبقاؤه.

ولو كنتُ مائلَ السمع لكلّ أحد منكم في صاحبه لتفرّقتُم أيدي سبًا، وجُونبتُ أنا مُجانَبَة الأجرب، وإني قد أطلعتكم على ما في ضميري، فلا تَعْدِلوا عن مَرْضاتي.

ثم أمر أن يُردّ الرماديّ، وقال له: أَعِدْ عليّ كلامك، فارتاع. فقال: الأمرُ على خلاف ما قدَّرت، الثوابُ أولى بكلامك من العقاب، فسكن لتأنيسه[1]، وأعاد ما تكلم به، فقال المنصور: بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فمَ النابغة بالدُّر لكلام استملحه منه، وقد أمرّنا لك بما لا يَقْصُرُ عن ذلك وبما هو أنْوَهُ وأحسن عائدة.

وكتب له بمال وخِلَع وموضع يعيش منه؛ ثم ردّ رأسه إلى المتكلّم في شأن الرماديّ - وقد كاد يغوصُ في الأرض لشدةِ ما حلَّ به مما رأى وسمع - وقال: والعجبُ من قوم يقولون: الابتعادُ من الشعراء أولَى من الاقتراب! نعم، ذلك لمن ليس له مفاخرُ يريد تخليدَها، ولا أيادٍ يرغبُ في نشرها؟ فأين الذين

(١) التأنيس: خلاف الإيحاش.

قيل فيهم:

على مُكثريهم رِزْقُ من يعتريهمُ ... وعند المقلّينَ السماحةُ والبذْلُ[١]

وأين الذي قيل فيه:

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ ... بين مَبْدَاهُ[٢] ومُحْتَضَرهْ
فإذا ولّى أبو دُلَفٍ ... ولّتِ الدنيا على أَثَرهْ[٣]

أما كانَ في الجاهليّة والإسلام أكرمُ ممن قيل فيه هذا القول؟ بلى! ولكنَّ صُحْبةَ الشعراء والإحسانَ إليهم أحْيَتْ غابر ذكرهم، وخصّتهمْ بمفاخر عصرهم، وغيرُهم لم تُخلد المدائحُ مآثرَهم، فدثَرَ ذكرُهم، ودَرَس فخرُهم!

في الرياء

وأما ما جاء في الرياء: فقد قال الله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: الآية ١٤٢]. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين، وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين».

وقيل: لو أن رجلًا عمل عملًا من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه، فهو من أقبح الرياء.

وقيل: كل ورع يحب صاحب أن يعلمه غير الله، فليس من الله في شيء.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: ما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء».

وقيل: بينما عابد يمشي ومعه غمامة على رأسه تظله، فجاء رجل يريد أن يستظل معه، فمنعه، وقال: إن أقمت معي ولم يعلم الناس أن الغمامة تظلني، فقال له الرجل: قد علم الناس أنني لست ممن تظله الغمامة، فحولها الله تعالى إلى ذلك الرجل.

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في مدح آل هرم بن سنان.
(٢) المبدي: كل منتجع.
(٣) البيتان لعليّ بن جبلة في مدح أبي دلف.

وقال عبد الأعلى السلمي يومًا: الناس يزعمون أني مراء وكنت أمس والله صائمًا ولا أخبرت بذلك أحدًا.

في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون

أما الرشوة، فقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشي والمرتشي». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تولوا اليهود ولا النصارى فإنهم يقبلون الرشا ولا يحل في دين الله الرشا، قال الشهيدي: وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم.

وفي نوابغ الحكم أن البراطيل تنصر الأباطيل. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مَن شفع شفاعة ليرد بها حقًا أو يدفع بها ظلمًا، فأهدى له فقبل فذلك السحت، فقيل له: ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم، قال: الأخذ على الحكم كفر، وأنشد المبرد رحمه الله تعالى:

وكنت إذا خاصمت خصمًا كببته على الوجه حتى خاصمتني الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غلبت علي وقالت قم فإنك ظالم

وأما الدين وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال: فقد رُوِيَ عن أبي أُمامة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مَن تداين بدين وفيه نفسه وفاؤه ثم مات، تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء. ومَن تداين بدين وليس في نفسه وفاؤه ثم مات، اقتصّ الله لغريمه منه يوم القيامة». رواه الحاكم.

ورُوِيَ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتي له بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل، ويسأل عن دينه فإن قيل عليه دَين كفّ عن الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دَين صلّى عليه، فأُتي بجنازة، فلما قام ليكبّر ﷺ قال: «هل على صاحبكم دَين»؟ فقالوا: ديناران يا رسول الله، فعدل النبيّ ﷺ عنه وقال: «صلوا على صاحبكم»، فقال عليّ كرّم الله وجهه: هما عليّ يا رسول الله ﷺ وهو بريء منهما، فتقدم رسول الله ﷺ فصلّى عليه، ثم قال لعليّ رضي الله عنه: «أجزاك الله عنه خيرًا، فك الله رهانك ما فككت رهان أخيك، إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه، ومَن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة».

وقال بعض الحكماء: الدين همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار، وهو غل جعله الله في أرضه، فإذا أراد الله أن يذل عبدًا جعله طوقًا في عنقه.

وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى دينًا له على رجل، فقالوا: خرج إلى الغزو، فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن رجلًا قتل في سبيل الله، ثم أُحيي، ثم قتل لم يدخل الجنّة حتى يقضي دينه».

وعن الزهري قال: لم يكن رسول الله ﷺ يصلي على أحد عليه دين، ثم قال بعد: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم مَن مات وعليه دين فعليَّ قضاؤه» ثم صلّى عليهم.

وعن جابر لا هم إلا هم الدين ولا وجع إلا وجع العين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «مَن تزوج امرأة بصداق ينوي أن لا يؤديه إليها، فهو زانٍ، ومَن استدان دينًا ينوي أن لا يقضيه فهو سارق»، وقال حبيب بن ثابت: ما احتجت إلى شيء أستقرضه إلا استقرضته من نفسي، أراد أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة، ونظيره قول القائل:

وإذا غلا شيء عليَّ تركته ... فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم أيضًا:

لقد كان القريضُ سمير قلبي ... فألهتني القروضُ عن القريضِ

وقال غيلان بن مرة التميمي:

وإني لأقضي الدّينَ بالدين بعدما ... يرى طالبي بالدين أن لست قاضيًا

فأجابه ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن ... قضاء ولكن ذاك غرم على غرم[١]

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال: حبًا وكرامة، ولكن سكّن قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه، فقال: يا أبا سعيد أما تثق بي؟ قال: بلى، وإن خليل الله كان واثقًا بربّه، وقد قال له: ولكن ليطمئن قلبي.

(١) الغرم: الذنب.

في الكذب وما جاء به

قال الله تعالى في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزُمَر: الآية ٦٠]. وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور. والفجور يهدي إلى النار. وتحروا الصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به». ويقال: راوي الكذب أحد الكذابين. ويقال: رأس المآثم الكذب وعمود الكذب البهتان(١). وقيل: أمران لا ينفكان من الكذب، كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٨]. وهي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة. وقال الأصمعي: قلت لكذاب: أصدقت قط؟ قال: لولا أني أخاف أصدق في هذا لقلت لك لا، فتعجب.

وقال محمود بن أبي الجنود:

لي حيلة فيمن ينمّ ... وليس في الكذّاب حيلة
مَن كان يخلقُ ما يقولُ ... فحيلتي فيه قليلة

ويقال: فلان أكذب من لمعان السراب، ومن سحاب تموز. وكان بفارس محتسب يعرف بجراب الكذب، وكان يقول: إن منعت الكذب انشقت مرارتي، وإني والله لأجد به مع ما يلحقني من عاره من المسرة ما لا أجده بالصدق مع ما ينالني من نفعه. وقال فيلسوف: مَن عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله.

ولبعضهم:

حسب الكذوب من البلية ... بعض ما يحكى عليهِ
فمتى سمعت بكذبةٍ ... من غيره نسبت إليهِ

---

(١) البهتان: الإفك والزور.

وأضاف صيرفي قومًا. فأقبل يحدثهم، فقال بعضهم: نحن كما قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٢].

وعن عبد الله بن السدي قال: قلت لابن المبارك حدّثنا حديثًا، قال: ارجعوا، فلست أحدثكم، فقيل له: إنك لم تحلف، فقال: لو حلفت لكفرت وحدثتكم، ولكن لست أكذب، فكان هذا أحب إلينا من الحديث.

وقال مجاهد: يكتب على ابن آدم كل شيء حتى أنينه في سقمه، وحتى أن الصبي ليبكي، فتقول له أمه: اسكت وأشتري لك كذا، ثم لا تفعل، فتكتب كذبة.

وقال الفضيل: ما من مضغة[1] أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقًا. ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوبًا. وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: «أعظم الخطايا اللسان الكذوب».

قال الشاعر:

لا يكذب المرء إلّا من مهانته ... أو فعله السوء أو من قلّة الأدبِ
لبعضُ جيفةِ كلبٍ خير رائحة ... من كذبة المرء في وجد وفي لعب

ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا

لما نصب معاوية رضي الله تعالى عنه ابنه يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل، ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت، فقال معاوية: ما لك لا تقول يا أبا بحر؟ فقال: أخاف الله تعالى إن كذبت وأخافكم إن صدقت. فقال: جزاك الله خيرًا عما تقول، ثم أمر له بألوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال له: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت.

(١) مضغة: قطعة لحم أو غيره تمضغ.

فقال له الأحنف: يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهًا.

وقيل: إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاطعين أو أصلح بين الزوجين، ويذم الصدق إذا كان غيبة، وقد رُفع الحرج عن الكاذب في الحرب، وعن المصلح بين المرء وزوجه، وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه يقوي بذلك جأشهم، فكانوا إذا رأوه مقبلًا إليهم، قالوا: جاءنا بكذب.

وقال يحيىٰ بن خالد: رأينا شارب خمر نزع ولصًا وصاحب فواحش رجع، ولم نر كذابًا صار صادقًا. وكان عمرو بن معد يكرب مشهورًا بالكذب. وقيل لخلف الأحمر وكان شديد التعصب لليمن: أكان ابن معد يكرب يكذب؟ فقال: كان يكذب في المقال، ويصدق في الفعال. قيل: إن بلالًا لم يكذب مذ أسلم رضي الله تعالى عنه.

في ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: الآيتان ١، ٢].

ورُوِيَ أن النبيّ ﷺ قرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: الآيتان ١، ٢] قال: «يقول ابن آدم مالي، وهل من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأمضيت».

وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها، أن النبيّ ﷺ قال: «يا عائشة إن أردت اللحوق بي، فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلقي ثوبًا حتى ترقعيه».

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالرشد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل». وقيل: الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد في رزقه، وقيل لحكيم: ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب؟ قال: لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا طاوعتَ حرصك كنت عبدًا ... لكلِّ دنيئةٍ تدعى إليها

وقال آخر وأجـــاد:

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يشب إن الحريص على الدنيا لفي تعب

وقيل للإسكندر: ما سرور الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها. قيل: فما غمها؟ قال: الحرص عليها.

وقال الحسن: لو رأيت الأجل ومروره لنسيت الأمل وغروره.

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر؟ إن أسامة لطويل الأمل».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان نبيّ الله ﷺ يخرج فيبول ثم يمسح بالتراب، فأقول: إن الماء منك قريب، فيقول: ما يدريني لعلي ما أبلغه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: لا يزال الكبير شابًا في اثنين، حب المال وطول الأمل.

وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل، وقيل: مَن جرى في عنان أمله كان عاثرًا بأجله، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال، ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان في قوله:

وذي حـرصٍ تـراه يـلمّ وفـرًا لـوارثـه ويـدفـع عـن حِـمـاه
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ(١) فـريـسـتـه لـيـأكـلـهـا سـواه

ولقد أحسن مَن قال في الجناس الحقيقي:

إذا ما نازعتك(٢) النفس حرصًا فأمسكها عن الشهوات أمسكْ
ولا تـحـرص لـيـومٍ أنـت فـيـه وعدّ فرزق يومك رزق أمسك

ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن مَن ألهاه أمله أخزاه عمله، قال عبد الصمد بن المعدل:

ولـي أمـل قـطـعـت بـه الـلـيـالـي أرانـي قـد فـنـيـت بـه وداما

---

(١) طاو: جائع. (٢) نازعتك: أي حملتك وجمحت بك.

قال الحسن: إياكم وهذه الأماني، فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيرًا قط في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال قس بن ساعدة:

وما قد تولّى فهو لا شك فائتٌ فهل ينفغنِّي ليتني ولعلَّني

وقال آخر:

ولا تتعلّلْ بالأماني فإنّها عطايا أحاديث النفوس الكواذب

وقال آخر وأجاد:

الله أصدقُ والآمالُ كاذبةٌ وجلّ هذي المنى في الصّدر وسواس

وقال آخر:

شطّ[1] المزار يسعدى وانتهى الأمل فلا خيالٌ ولا رسمٌ ولا طلل
إلّا رجاءٌ فما ندري أندركه أم يستمرّ فيأتي دونه الأجل

وقال أبو العتاهية:

لقد لعبتُ وجدَّ الموت في طلبي وأن في الموت لي شغلًا عن اللعب
ولو سمتْ فكرتي فيما خُلِقْتُ له ما اشتدّ حرصي على الدنيا ولا طلبي

وله أيضًا:

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذلّ الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تقاد إليك عفوًا أليس مصير ذلك للزوال

وقد ضمنت البيت الأخير فقلت:

أيا مَن عاش في الدنيا طويلًا وأفنى العمر في قيلٍ وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى وجمّع من حرامٍ أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفوًا أليس مصير ذلك للزوال

(١) شط: بعد.

في الطمع وذمه

قال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: أكثرهم مصارع العقول تحت بروق المطامع، وقال رضي الله عنه: ما الخمر صرْفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

وفي الحديث: «إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر». وقال فيلسوف: العبيد ثلاثة: عبد رقّ، وعبد شهوة، وعبد طمع. وقال بعضهم: مَن أراد أن يعيش حرًا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع.

وقيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلام[1] فقال له كعب: يا ابن سلام مَن أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه، قال: الطمع وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس.

واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي، فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع، وقيل: لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينته ثلاثة أشياء: الحرص، والطمع، والحسد فهي تجري في أولاده إلى يوم القيامة، فالعاقل يخفيها، والجاهل يبديها، ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه.

قال إسماعيل بن قطري القراطيسي:

حسبي بعلميَ إنْ نفعْ ... ما الذلّ إلّا في الطمع
مَن راقب الله نزع[2] ... عن سوء ما كان صنع
ما طار طير وارتفع ... إلا كما طار وقع

وقل سابق البربري:

يخادع ريبَ الدهرِ عن نفسه الفتى ... سفاهًا وريب الدهر عنها يخادعه
ويطمع في سوف ويهلك دونها ... وكم من حريص أهلكته مطامعه

---

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحرث الإسرائيلي أبو يوسف، صحابي، قيل: إنه من نسل يوسف بن يعقوب، أسلم عند قدوم النبيّ ﷺ إلى المدينة وكان اسمه «الحصين» فسماه الرسول عليه الصلاة والسلام «عبد الله» وفيه نزلت الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأحقاف: الآية ١٠] والآية: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: الآية ٤٣] مات في المدينة سنة ٤٣ هـ.

(٢) نزع: ابتعد.

وقيل لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جاري فأفت خبزي، وقال أيضًا: ما رأيت رجلين يتساران في جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لي بشيء من ماله، وما زفت عروس إلا كنست بيتي رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إليّ.

قال بعضهم:

لا تـغـضـبـنّ عـلـى امـرئٍ لـك مـانـعٌ مـا فـي يـديـه
واغضب على الطّمع الذي استـ ـدعـاك تـطـلـب مـا لـديـه

الباب الثالث

قصص الكرم والكرماء
والبخل والبخلاء
والغنى والأغنياء
والفقر والفقراء
والطعـام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والطُّفيليين

في الجود والسخاء والكرم

قال في المستطرف[1]: اعلم أن الجود بذل المال، وأنفعه ما صرف في وجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٢]. قيل: إن الجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد. وقيل: مَن أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومَن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومَن آثر غيره بالحاضر، وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار. وأصل السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطي بخيلًا إذا صعب عليه البذل، والممسك حيًا إذا كان لا يستصعب العطاء.

قمة الكرم والإيثار

فمن الإيثار ما حُكِيَ عن حذيفة العدوي أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى ومعي شيء من الماء، وأنا أقول، إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك، فأشار إليَّ أن نعم، فإذا برجل يقول: آه، فأشار إليَّ ابن عمي أن انطلق إليه واسقه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك، فأشار إليَّ أن نعم. فسمع آخر يقول: آه، فأشار إليَّ أن انطلق إليه، فجئته، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

فداه بنفسه

ومن عجائب ما ذكر في الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدي قال: لما احترق المسجد بمرو، ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه، فأحرقوا خاناتهم، فقبض

---

(١) المستطرف: ص ١٦٩ ـ ١٨٢.

السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعًا فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم، فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها. فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل، فقال: والله ما كنت أبالي لولا أمّ لي. وكان بجنبه بعض الفتيان، فقال له: في رقعتي الجلد وليس لي أم، فخذ أنت رقعتي واعطني رقعتك. ففعل، فقتل ذلك الفتى وتخلّص هذا الرجل.

أسخى من قيس بن سعد

قيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة، فجاء زوجها، فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان. فجاءنا بناقة فنحرها، وقال: شأنكم. فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها، وقال: شأنكم، فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا القليل، فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده أيامًا، والسماء تمطر وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه ومضينا، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتمونا ثمن قرانا(١)، ثم إنه لحقنا، وقال: خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا، فأخذناها وانصرفنا.

أقوال في السخاء والكرم

قال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه.

وقال رسول الله ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر وفاتح له كلما افتقر».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط، فقال: لا.

وعنه ﷺ أنه قال: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنّة بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنّة قريب من النار، ولَجاهلٌ سخيٌ أحب إلى الله من عابد بخيل».

---

(١) قرانا: ضيافتنا.

وقال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود. تلا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: الآية ٣٩].

وقال الفضيل: ما كانوا يعدون القرض معروفًا.

وقال أكثم بن صيفي: صاحب المعروف لا يقع وإن وقع جد له متكأ.

وقيل للحسن بن سهل: لا خير في السرف[1]، فقال: لا سرف في الخير، فقلب اللفظ واستوفى المعنى.

ووجد مكتوبًا على حجر: «انتهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك، فكم من جامع لبعل حليلته».

وقال عليّ رضي الله تعالى عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك فإنما أنت فيه خازن لغيرك.

وقال النعمان بن المنذر يومًا لجلسائه: من أفضل الناس عيشًا وأنعمهم بالًا وأكرمهم طباعًا، وأجلّهم في النفوس قدرًا؟ فسكت القوم، فقام فتى فقال: أبيت اللعن، أفضل الناس مَن عاش الناس فضله، فقال: صدقت.

وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحدًا عن حاجة، لأنه إن كان كريمًا أصون عرضه أو لئيمًا أصون عن عرضي.

وكان مورق العجلي يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه، فيضع عند أحدهم البدرة، ويقول له: امسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل يقول له: أنت منها في حل.

وقال الحسن رضي الله عنه: باع طلحة بن عثمان رضي الله تعالى عنه أرضًا بسبعمائة ألف درهم، فلما جاء المال قال: إن رجلًا يبيت هذا عنده لا يدري ما يُطرّقه لغرير بالله تعالى ثم قسمه في المسلمين.

كرم عائشة رضي الله عنها

ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها: يا أم المؤمنين أصابتني فاقة[2] فقالت: ما عندي شيء، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت

(١) السرف: مجاوزة الحد والاعتدال. (٢) الفاقة: الحاجة.

بها إليك. فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد فأرسلت بها إليه في أثره، فأخذها ودخل بها السوق، فاشترى جارية بألف درهم، فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عباد المدينة، وهم: محمد وأبو بكر، وعمر بنو المنكدر.

كرم طلحة بن عبيد الله

وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه، جاء إليه رجل، فسأله برحم بينه وبينه، فقال: هذا حائطي بمكان كذا وكذا، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم، يراح إلى المال بالعشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالحائط. وقال زياد بن جرير: رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس وإنه ليخيط إزاره بيده.

رحم آدم عليه السلام

ذكر الإمام أبو علي القالي في كتاب الأمالي أن رجلًا جاء إلى معاوية رضي الله عنه فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلى ما قضيت حاجتي، فقال له معاوية: أمن قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأي رحم بيني وبينك؟ قال: رحم آدم عليه السلام. قال: رحم مجفوة(١) والله لأكونن أول مَن وصلها، ثم قضى حاجته.

كرم عدي بن حاتم

رُوِيَ أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدورًا كانت لأبيه حاتم، فملأها مالًا وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيرها فارغة.

كرم أبي سهل الصعلوكي

كان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي من الأجواد، ولم يناول أحدًا شيئًا وإنما كان يطرحه في الأرض، فيتناوله الآخذ من الأرض، وكان يقول: الدنيا أقل خطرًا من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى. وقد قال النبيّ ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى».

---

(١) رحم مجفوه: أي متقطعة ومفارقة.

التبرّع بالمعروف قبل السؤال

سأل معاوية الحسن بن عليّ رضي الله تعالى عنهم، عن الكرم فقال: هو التبرع بالمعروف قبل السؤال، والرأفة بالسائل مع البذل.

كرم رجل من قريش

قدم رجل من قريش من سفر، فمرّ على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضرّ به المرض، فقال له: يا هذا أعنّا على الدهر، فقال لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه، فصب في حجره أربعة آلاف درهم فهمّ ليقوم، فلم يقدر من الضعف فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه إليك؟ فقال: لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

قال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فدق عليه الباب، فخرج إليه وسأله عن حاجته، فقال: علي دين كذا وكذا، فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكيًا، فقالت له زوجته: هلا تعللت حيث شقت عليك الإجابة، فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إليَّ أن سألني.

كرم عبد الله بن أبي بكر

يُروى أن عبد الله بن أبي بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يومًا في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزًا، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم، فإنني امرأة عزب مات زوجي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء وقال: يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقالت: سبحان الله أتسخرني؟ فقال: يا غلام احمل إليها عشرين ألفًا، فقالت: اسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين، فما أمست، حتى كثر خطابها. وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين دارًا من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله تعالى عنه.

كرم قيس بن سعد بن عبادة

لما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله ما لا يمنع

عني الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا ينادي مَن كان لقيس عنده مال، فهو منه في حل. فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد. وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة، فيفرقها في الناس ولا يرى إلا وعليه دين.

كرم عبد الله بن جعفر

سمّن رجل بهيمة ثم خرج بها ليبيعها، فمرّ بعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه، فقال: يا صاحب البهيمة أتبيعها؟ قال: لا، ولكنها هي لك هبة، ثم تركها له، وانصرف إلى بيته، فلم يلبث إلا يسيرًا، وإذا بالحمالين على بابه عشرين نفرًا. عشرة منهم يحملون حنطة، وخمسة لحمًا وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة ونقلًا، وواحد يحمل مالًا، فأعطاه جميع ذلك، واعتذر إليه رضي الله تعالى عنه.

ولما مات معاوية رضي الله تعالى عنه، وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه، فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك، فقال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. فقال: بأبي وأمي أنت، فقال: ولهذه ألف ألف، فقال: أما إني لا أقولها لأحد بعدك، فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد، فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكّل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين.

وخرج رضي الله تعالى عنه هو والحسنان وأبو دحية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم من مكة إلى المدينة، فأصابتهم السماء بمطر، فلجأوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت(١) السماء، فذبح لهم الأعرابي شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابي: إن قدمت المدينة، فسل عنا، فاحتاج الأعرابي بعد سنين، فقالت له امرأته: لو أتيت المدينة، فلقيت أولئك الفتيان، فقال: قد نسيت أسماءهم، فقالت: سل عن ابن الطيار، فأتى المدينة، فلقي سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه، فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها، ثم أتى الحسين رضي

---

(١) سكنت السماء: هدأت وانقطعت.

الله تعالى عنه، فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل، فأمر له بألف شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه، فقال: كفاني إخواني الإبل والشياه، فأمر له بمائة ألف درهم. ثم أتى أبا دحية رضي الله تعالى عنه، فقال: والله ما عندي مثل ما أعطوك، ولكن ائتني بإبلك، فأوقرها لك تمرًا. فلم يزل اليسار في عقب الأعرابي من ذلك اليوم.

وقال الحسن والحسين يومًا لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم: إنك قد أسرفت في بذل المال، فقال: بأبي أنتما. إن الله عزّ وجلّ عوّدني أن يتفضّل عليَّ، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عني المادة.

وامتدحه نصيبٌ، فأمر له بخيل، وأثاث، ودنانير ودراهم. فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطي له هذا المال؟ فقال: إن كان أسود فإن ثناه أبيض، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيناه إلا ثيابًا تبلى ومالًا يفنى، وأعطانا مدحًا يروى وثناء يبقى.

وخرج عبد الله رضي الله تعالى عنه يومًا إلى ضيعة له، فنزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام أسود يقوم عليه، فأتى بقوته ثلاثة أقراص، فدخل كلب، فدنا من الغلام، فرمى إليه بقرص، فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث، فأكلهما. وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام. كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت؟ قال: فلمَ آثرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هي بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت أن أرده، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء، وإن هذا لأسخى مني، فاشترى الحائط، وما فيه من النخيل والآلات واشترى الغلام، ثم أعتقه، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل، والآلات. فقال الغلام: إن كان ذلك لي فهو في سبيل الله تعالى، فاستعظم عبد الله ذلك منه، فقال: يجود هذا وأبخل أنا؟ لا كان ذلك أبدًا.

كرم عبيد الله بن عباس

كان عبيد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما من الأجواد، أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، قال: يا ابن عباس إن لي عندك يدًا وقد احتجت إليها،

فصعد فيه بصره، فلم يعرفه، فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقفًا بفناء زمزم وغلامك يمتح[١] لك من مائها، والشمس قد صهرتك، فظللتك بفضل كسائي حتى شربت، فقال: أجل إني لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: ادفعها إليه، وما أراها تفي بحق يده.

كرم عبد الله بن عباس

قدم عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما على معاوية مرة، فأهدى إليه من هدايا النوروز حللًا كثيرة ومسكًا، وآنية من ذهب وفضة، ووجهها إليه مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب، وهو ينظر إليها، فقال له: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم، والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف عليهما الصلاة والسلام، فضحك عبد الله، وقال: خذها، فهي لك، قال: جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية، فيحقد عليَّ، قال: فاختمها بخاتمك، وسلمها إلى الخازن، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلًا، فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم.

وحبس معاوية عن الحسين بن عليّ رضي الله تعالى عنهما صلاته، فقيل: لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن عباس، فإنه قدم بنحو ألف ألف، فقال الحسين: وأنى تقع ألف ألف من عبد الله، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه، وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه، وقال: ويلك يا معاوية أصبحت لين المهاد، رفيع العماد، والحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال؟ ثم قال لوكيله: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب، وأخبره أني شاطرته، فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثاني، فلما أتاه الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثقلت والله على ابن عمي، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله رضوان الله عليهم أجمعين.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال له: يا ابن عم محمد ﷺ إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميته باسمك

(١) يمتح: يستخرج أو يستسقي.

تبركًا بك، وأن أمه ماتت، فقال له: بارك الله لك في الهبة، وآجرك على المصيبة، ثم دعا بوكيله، وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا، وفي العيش يبس، وفي المال قلة، فقال الأنصاري: جعلت فداءك لو سبقت حاتمًا بيوم ما ذكرته العرب.

معاوية والحسن بن علي

قال أبو جهم بن حذيفة يومًا لمعاوية: أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال[(١)]:

يقيننا ما نخاف وإنْ ظننّا ... به خير أراناه يقينا
نميل على جوانبه كأنّا ... إذا ملنا نميل على أبينا
نقلّبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرمًا ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم، وأنشده عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما:

بلوت الناس قرنًا بعد قرن ... فلم أر غير ختّالٍ وقالِ[(٢)]
ولم أر في الخطوبِ أشدّ وقعًا ... وأمضي من معاداة الرجالِ
وذقت مرارةَ الأشياء طرًّا ... فما شيءٌ أمرّ مِنَ السؤالِ[(٣)]

فأعطاه مائة ألف درهم. ودخل عليه الحسن يومًا وهو مضطجع على سريره، فسلّم عليه، وأقعده عند رجليه وقال: ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تزعم أني لست للخلافة أهلًا، ولا لها موضعًا؟ فقال الحسن: أواعجبًا مما قلت؟ قال: كل العجب. قال الحسن: وأعجب من هذا كله جلوسي عند رجليك، فاستحيا معاوية، واستوى جالسًا، ثم قال: أقسمت عليك يا أبا محمد ألا ما أخبرتني كم عليك دينًا؟ قال: مائة ألف درهم، فقال يا غلام: اعط أبا محمد

---

(١) هو حسان بن عبد كلال الحميري من ملوك حمير في الجاهلية، زحف بجيش من اليمن على الحجاز يريد انتزاع «الحجر» من الكعبة ونقله إلى اليمن لتحويل الحج إليه فقاتله فهر بن مالك بقبائل كنانة وغيرها فارتد منهزمًا.

(٢) ختال: مخادع. قال: هاجر ومبتعد عند الحاجة.

(٣) طرًا: عامة وقاطبة.

ثلاثمائة ألف يقضي بها دينه، ومائة ألف يفرقها على مواليه، ومائة ألف يستعين بها على نوائبه، وسوغها إليه الساعة.

كرم معن بن زائدة

كان معن بن زائدة من الأجواد وكان عاملًا على العراق بالبصرة، قيل: إنه أتى إليه أحد الشعراء، فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه، فلم يتهيأ له ذلك، فقال يومًا لبعض الخدم: إذا دخل الأمير البستان، فعرفني، فلما دخل أعلمه بذلك، فكتب الشاعر بيتًا ونقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن جالسًا على القناة، فلما رأى الخشبة أخذها، وقرأها فإذا فيها بيت مفرد:

أيا جودَ معنٍ ناج معنًا بحاجتي فليس إلى معنٍ سواك شفيعُ(١)

فقال: مَن الرجل صاحب هذه؟ فأتي به إليه، فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال: عليَّ بالرجل صاحب هذه، فأتي به، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها، ونظر فيها، وقال: عليَّ بالرجل صاحب هذه، فأتي به إليه، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها، ونظر فيها، وقال: عليَّ بالرجل صاحب هذه، فأُتي به إليه، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وتفكر في نفسه وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه، فخرج من البلد بما معه، فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده، فقال معن: لقد ساء والله ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم، ولا دينار. وفيه يقول القائل(٢):

يقولون معنٌ لا زكاةَ لماله وكيف يزكّي المالَ من هو باذله
إذا حال حولٌ لم تجدْ في دياره من المال إلا ذكرهُ وجمائله(٣)

---

(١) ناج: من المناجاة والنجوى، وهي الإسرار بالعواطف وغيرها.
(٢) الأبيات لأبي تمام. (٣) حول: عام. جمائله: فضائله.

تـراه إذا مـا جـئـتـه مـتـهـللًا كـأنّك تـعـطـيه الـذي أنت نائله
تعوّد بسط الكف حتى لو أنه أراد انقباضًا لم تطعه أنامله
فلو لم يكن في كفّه غير نفسه لجاد بها فليتقِ الله سائله

ومن قول معـن:

دعيني أنهي الأموال حتى أعفّ الأكرمين عن اللئام[(١)]

كرم يزيد بن المهلب

كان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار في الجود عجيبة. من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته، فقلت: أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لي، فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط، فائتنا إن شاء الله تعالى، فسافر، وأقمت، فقال لي بعض إخواني: اذهب إليه، فقلت: كان جوابه فيه ضعيف، قالوا: أتريد من يزيد جوابًا أكثر مما قال؟ قال: فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان في الليل دعيت إلى السمر، فتحدث القوم حتى ذكروا الجواري، فالتفت إلي يزيد، وقال: إيه يا عقيل، فقلت:

أفاضَ القومُ في ذكر الجواري فأما الأعزبون فلن يقولوا[(٢)]

قال: إنك لم تبق عزبًا. فلما رجعت إلى منزلي إذا أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم، وفي الليلة الثانية كذلك، فمكثت عشر ليالي، وأنا على هذه الحالة، فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر، فقلت: أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت، فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع، فأكبت عدوي وأسر صديقي، فقال: إنما أخيرك بين خلتين إما أن تقيم فنوليك، أو ترحل فنغنيك. فقلت: أولَم أيها الأمير؟ قال: إنما هذا تغنني أثاث المنزل، ومصلحة القدوم، فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال: حج يزيد بن المهلب، فطلب حلاقًا يحلق رأسه، فجاءه بحلاق، فحلق رأسه، فأمر له بخمسة آلاف درهم، فتحيّر الحلاق ودهش، وقال: آخذ هذه الخمسة الآلاف وأمضي إلى أم فلان أخبرها أني قد

(١) أعف: أي أمنعهم ذل السؤال.

(٢) أفاض: أكثروا خوضًا.

استغنيت؟ فقال: اعطوه خمسة آلاف أخرى، فقال: امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك.

وقيل: إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه، مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له، وهو في السجن، فجاءه الفرزدق يزوره، فقال للحاجب: استأذن لي عليه، فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه، فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعًا لما فيه، ولم آت ممتدحًا، فأذن له، فلما أبصره قال:

أبا خالدٍ ضاقتْ خراسانُ بعدكم ... وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ
فما قطرتْ بالشرق بعدك قطرةٌ ... ولا اخضرّ بالمروين بعدك عود
وما لسرور بعد عزِّك بهجةٌ ... وما لجوادٍ بعد جودك جودُ

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء، فقال الحاجب للفرزدق: هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه، ثم دفعها إليه، فأخذها وانصرف.

ومرّ يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه، بعجوز أعرابية، فذبحت له عنزًا، فقال لابنه: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار. قال: ادفعها إليها، فقال: هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك. قال: إن كان يرضيها اليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي. وقال مروان بن أبي الجنوب الشاعر: أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفًا وخمسين ثوبًا، ورواحل كثيرة، فقلت أبياتًا في شكره، فلما بلغت قولي:

فأمسكْ ندى كفّيك عني ولا تزدْ ... فقد خفتُ أن أطغى وأن أتجبرا

فقال: والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي، وأمر له بضياع تقوم بألف ألف.

أسخى الأسخياء

قال أبو العيناء تذاكروا السخاء، فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية، وعلى البرامكة في الدولة العباسية، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبي داود أسخى منهم جميعًا وأفضل.

كرم آل برمك

سئل إسحٰق الموصلي عن سخاء أولاد يحيىٰ بن خالد، فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر، فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد، وفي يحيىٰ يقول القائل:

سألت الندى هل أنت حرّ فقال لا ... ولكنّني عبدٌ ليحيىٰ بن خالدِ
فقلت شراءٌ قال لا بل وراثةٌ ... توارثني من والدٍ بعد والدِ

وفي الفضل يقول القائل:

إذا نزل الفضل بن يحيىٰ ببلدةٍ ... رأيتَ بها غيثَ السماحة ينبُتُ
فليس بسعالٍ إذا سيل حاجةً ... ولا بمكب في ثرى الأرض ينكت[1]

وفي محمد يقول القائل:

سألت الندى والجود ما لي أراكما ... تبدّلتما عزًا بذل مؤبّد[2]
وما بال ركنِ المجد أمسى مهدّمًا ... فقال أُصبْنا بابن يحيىٰ محمد
فقلت فهلا مُتّما بعد موته ... وقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقالا أقمنا كي نعزّي بفقده ... مسافة يومٍ ثم نتلوه في غد

كرم عليّ بن أبي طالب

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرّم الله وجهه: مَن كانت له جارية فليرفعها إليَّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة. وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي، فقال يا أمير المؤمنين: إن لي إليك حاجة، الحياء يمنعني أن أذكرها، فقال: خطها في الأرض، فكتب إني فقير فقال: يا قنبر اكسه حلتي، فقال الأعرابي:

كسوتني حلّةً تبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن نلت حسن الثنا قد نلت مكرمةً ... وليس تبغي بما قدمته بدلا
إن الثناء ليحيىٰ ذكر صاحبِه ... كالغيث يحيي نداهُ السهلَ والجبلا
لا تزهدِ الدهرَ في عرفٍ بدأت به ... كلّ امرىءٍ سوف يجزي بالذي فعلا

---

(١) ينكت: يحفر، وينقب مطرقًا.

(٢) مؤبد: أي أبدي ودائم.

فقال: يا قنبر زده مائة دينار، فقال: يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم. فقال رضي الله تعالى عنه: صَه يا قنبر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم، فأكرموه» ولعبد الله بن جدعان:

إني وإن لم ينل مالي مداخلتي وهّابٌ ما ملكت كفّي من المال[1]

لا أحبس المالَ إلا حيث أنفقُهُ ولا يُغيِّرني حالٌ إلى حال

أقوال وأشعار في الكرم والسخاء

قال بعض العرب لولده: يا بني لا تزهدن في معروف فإن الدهر ذو صروف، فكم راغب كان مرغوبًا إليه، وطالب كان مطلوبًا ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعُدّ من الرحمٰن فضلًا ونعمةً عليك إذا ما جاء للخير طالبُ

ولا تمنعنْ ذا حاجةٍ جاء راغبًا فإنّك لا تدري متى أنت راغب

وقال بعضهم:

أبيتُ خميصَ البطن عريان طاويًا وأوثر بالزاد الرفيق على نفسي[2]

وأمنحه فرشي وأفترشُ الثرى وأجعل سترَ الليل من دونه لبسي

حذارِ أحاديثَ المحافلِ في غدٍ إذا ضمّني يومًا إلى صدره رمسي[3]

وقال يحيىٰ البرمكي: أعط من الدنيا وهي مقبلة، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئًا، وأعط منها وهي مدبرة فإن منعك لا يبقى عليك منها شيئًا، فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك، ويقول: لله درّه ما أطبعه على الكرم، وأعلمه بالدنيا، وقد أمر يحيىٰ من نظمه فقال:

لا تبخلنّ بدنيا وهي مقبلةٌ فليس يُنقِصها التبذير والسرفُ

فإنْ تولتْ فأحرى أن تجود بها فليس تبقى ولكن شكرها خلف

---

(١) مداخلتي: اللئام والأدعياء من الناس. (٢) خميص البطن: جوعان. وأوثر: أفضل.
(٣) رمسي: قبري.

وقال يحيىٰ لولده جعفر: يا بني ما دام قلمك يرعد فامطره معروفًا وقال بعضهم:

لا تكثري في الجود لائمتي وإذا بخلت فأكثري لومي
كفِّي فلست بحاملٍ أبدًا ما عشتُ همّ غدٍ إلى يومي

وقال عليّ رضي الله تعالى عنه وكرّم وجهه: لا تستح من عطاء القليل، فالحرمان أقل منه.

كرم المخلوع

وسئل إسحٰق الموصلي عن المخلوع، فقال: كان أمره كله عجبًا، كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه، وكان عطاؤه عطاء مَن لا يخاف الفقر. كان عنده سليمان بن أبي جعفر يومًا، فأراد الرجوع إلى أهله، فقال له: سفر البر أحب إليك أم سفر البحر؟ قال: البحر ألين عليَّ. فقال: أوقروا له زورقه ذهبًا وأمر له بألف ألف درهم.

شكوى

شكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك، وقال: قد هجاني يا أمير المؤمنين، فاستحضره سليمان، وقال: لا أم لك أتهجو سعيدًا؟ قال: يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر: عشقت جارية مدنية، وأتيت سعيدًا، فقلت: إني أحب هذه الجارية وإن مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار وقد أتيتك، فقال لي: بورك فيك، فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك فيك. قال: فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد، فذكرت له حالي، فقال: يا جارية هاتي مطرفًا، فأتته بمطرف خز، فصر لي في كل زاوية مائتي دينار، فخرجت وأنا أقول:

أبا خالدٍ أعني سعيد بن خالدٍ أخا العرف لا أعني ابنَ بنت سعيد
ولكنني أعني ابنَ عائشة الذي أبو أبويه خالد بن أسيد
عقيدُ الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لم يرضَ الندى بعقيدِ
ذروه ذروه إنكم قد رقدتموا وما هو عن إحسانكم برقود

فقال سليمان: قل ما شئت.

كل ما سدّ فقرًا فهو محمود

كتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها:

إذا تكرّهت أن تعطي القليل ولم تقدر على سعةٍ لم يظهر الجود
بُثّ النّوال ولا تمنعكَ قلتُهُ فكلّ ما سدَّ فقرًا فهو محمود[١]

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه وفردة نعلة.

كرم عبد الله بن عتبة بن مسعود

باع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضًا بثمانين ألفًا، فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرًا؟ فقال: بل اجعله ذخرًا لي، واجعل الله ذخرًا لولدي، وقسمه بين ذوي الحاجات.

كرم ابن مالك القشيري

كان ابن مالك القشيري من الأجواد، قيل: إنه أنهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات، فعاتبه خاله، فقال:

يا خالُ ذرني ومالي ما فعلت به وخذْ نصيبك منه إنني مودي[٢]
فلن أطيعك إلّا أنْ تُخلّدني فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدي[٣]
الحمدُ لا يشترى إلا بمكرمةٍ ولن أعيش بمالٍ غير محمود

وقال المهلب: عجبت لمن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الأشرار بفعاله.

نُعين النازل على الإقامة ولا نُعينه على الرحيل

نزل بأبي البحتري وهب بن وهب القرشي ضيفًا، فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل، فلما همَّ بالرحيل لم يقر به أحد منهم وتجنبوه، فأنكر ذلك عليهم، فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل.

---

(١) بث النوال: وزع العطايا.
(٢) مودي: أي متلف ومنفق له.
(٣) كيدك: تدبيرك.

الحجاج وليلى الأخيلية

وفدت ليلى الأخيلية[١] على الحجاج، فقالت فيه:

إذا ورد الحجاج أرضًا مريضةً تتبّع أقصى دائها فشفاها[٢]
شفاها من الداءِ العضال الذي بها غلامٌ إذا هزّ القناة سقاها

فقال: لا تقولي غلام، ولكن قولي همام. يا غلام: أعطها خمسمائة فقالت: أيها الأمير اجعلها نعمًا، فجعلها إبلًا إناثًا، وقال أبو الفياض الطبري:

والعزّ ضيفٌ لا يراه بربعه من لا يرى بذلَ التلاد تلادا
والجود أعلى كعب كعبٍ قبلنا فمضى جوادًا يوم مات جوادا[٣]

وقال آخر:

أيقنت أن من السماح شجاعةً وعلمت أنَّ من السماحة جودا

كرم المستعين بالله

قال أحمد بن حمدون النديم: عملت أم المستعين بساطًا على صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من ذهب، وأعينهم يواقيت وجواهر، أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسألته أن يقف عليه، وينظر إليه، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته.

قال أحمد بن حمدون: فقال لي، ولأترجة الهاشمي: اذهبا، فانظرا إليه، وكان معنا الحاجب، فمضينا ورأيناه، فوالله ما رأينا في الدنيا شيئًا أحسن منه، ولا شيئًا حسنًا إلا وقد عمل فيه، فمددت أنا يدي إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان، فوضعته في كمي، ثم جئناه، فوصفنا له حسن ما رأيناه، فقال أترجه: يا أمير المؤمنين: إنه قد سرق منه شيئًا، وغمزه على كمي، فأريته الغزال، فقال: بحياتي عليكما ارجعا، فخذا ما أحببتما، فمضينا، فملأنا أكمامنا وأقبيتنا وأقبلنا نمشي

---

(١) هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب الأخيلية من بني عامر بن صعصعة، شاعرة فصيحة، ذكية جميلة، اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير، وأبلغ شعرها قصديتها في رثاء توبة، توفيت في ساوة بالري سنة ٨٠ هـ. ولها ديوان شعر مطبوع.

(٢) أرضًا مريضة: أي بها فتنة وفساد. (٣) التلاد: المال المورث.

كالحبالى، فلما رآنا ضحك، فقال بقية الجلساء: ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين؟ فقال: قوموا، فخذوا ما شئتم، ثم قام، فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك.

ونظر يزيد المهلبي سطلًا من ذهب مملوءَ مسكًا، فأخذه بيده وخرج، فقال له المستعين: إلى أين؟ فقال: إلى الحمام يا أمير المؤمنين. فضحك من قوله، وأمر الفراشين والخدم أن ينتهبوا الباقي، فانتهبوه، فوجهت إليه أمه تقول: سر الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه، فإنني أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار، فقال: يحمل إليها مثل ذلك حتى تعيد مثله، ففعلت، ومضى حتى رآه، وفعل به كفعله بالأول.

طلحة بن عبد الله والفرزدق

دخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يومًا، فوافق فيه الفرزدق، فقال يا أبا فراس: اختر عشرًا من الإبل، ففعل، فقال ضم إليها مثلها، فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة، فقال: هي لك، فقال:

يا طلح أنت أخو الندى وعقيدُهُ إن الندى ما مات طلحةَ ماتا
إن الندى ألقى إليك رحالهُ فبحيثُ بتَّ من المنازل باتا

كل شيء وثمنه

قدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور، فأكرمه، وأنعم عليه، وبعث إليه بألف دينار، فقال:

إن السماحة والمروءة والندى في قُبّةٍ ضربتْ على ابن الحشرجِ

فقال: زدني، فقال: كل شيء وثمنه.

كرم أبي عطاء السندي

وفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له، فأنزله، وأحسن إليه، وقال: ما عندك يا أبا عطاء؟ فقال: ما عسى أن أقول، وأنت أشعر العرب غير أني قلت بيتين. قال: هات. ما قلت فقال:

يا طالب الجواد إمّا كنت تطلبُهُ فاطلبْ على بابه نصرَ بنَ سيّارِ
الواهبُ الخيلَ تغدو في أعنّتها مع القيان وفيها ألف دينارِ

فأعطاه ألف دينار، ووصائف، وكساه كسوة جميلة، فقسم ذلك بين رفيقيه، ولم يأخذ منه شيئًا، فبلغ ذلك نصرًا، فقال: يا له. قاتله الله من سيد، ما أضخم قدره، ثم أمر له بمثله.

عمرو بن هبيرة والأعرابي

قال العتبي: أشرف عمرو بن هبيرة يومًا من قصره، فإذا هو بأعرابي يرقل قلوصه، فقال عمرو لحاجبه: إن أرادني هذا الأعرابي، فأوصله إليَّ، فلما وصل الأعرابي سأله الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به إليه، فلما مثل بين يديه قال له: ما حاجتك؟ فأنشد الأعرابي يقول:

أصلحك الله قلّ ما بيدي ... ولا أطيق العيال إذ كثروا
أناخَ دهري عليَّ كلكَلَهُ ... فأرسلوني إليك وانتظروا[1]

فأخذت عمر الأريحية، فجعل يهتز في مجلسه ثم قال: أرسلوك إليَّ وانتظروا إذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألف دينار.

كرم ابن عامر

قيل: أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم، فجرى القلم بخمسمائة ألف، فراجعه الخازن في ذلك، فقال: أنفذه، فما بقي إلا نفاذه، وأن خروج المال أحب إليَّ من الاعتذار، فاستشرفه الخازن فقال: إذا أراد الله بعبد خيرًا صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته، وأنا أردت شيئًا وأراد الجواد الكريم أن يعطي عبده عشرة أضعافه، فكانت إرادة الله الغالبة، وأمره النافذ.

ووقف أعرابي على ابن عامر، فقال: يا قمر البصرة، وشمس الحجاز، ويا ابن ذروة العرب، وابن بطحاء مكة، برحت بي الحاجة، وأكدت بي الآمال إلا بفنائك، فامنحني بقدر الطاقة لا بقدر المجد والشرف والهمة، فأمر له بمائتي ألف درهم.

هذه قطرة من سحابك

سمع المأمون قول عمارة بن عقيل:

أأترُكُ إن قلّتْ دراهمُ خالدٍ ... زيارته إنّي إذًا للئيم

(١) كلكله: صدره. وأناخ: حط رحاله.

فقال: أوَ قلت دراهم خالد احملوا إليه مائة ألف درهم، فبعثها خالد بن يحيىٰ إلى عمارة بن عقيل، وقال: هذه قطرة من سحابك.

كرم عبد الرحمٰن بن الضحاك

لما عزل عبد الرحمٰن بن الضحاك عن المدينة بكى، ثم قال: والله ما بكائي جزعًا من العزل، ولا أسفًا على الولاية، ولكن أخاف على هذه الوجه أن يلي أمرها مَن لا يعرف لها حقًا.

كرم يحيىٰ بن خالد

أراد الرشيد أن يخرج إلى بعض المتفرجات، فقال يحيىٰ بن خالد لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته: ما عند وكلائنا من الأموال؟ قال: سبعمائة ألف درهم. قال: فاقبضها إليك يا رجاء. فلما كان من الغد دخل عليه رجاء، فقبل يده وعنده منصور بن زياد، فلما خرج رجاء قال يحيىٰ لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبنا المال، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه في وجهنا هذا، فقال منصور: أنا أستخبر لك هذا. فقال يحيىٰ: إذن يقول لك، قل له يقبل يدي كما قبلت يده، فلا تقل له شيئًا، فقد تركتها له.

كرم عميلة الفزاري

عن الأخفش الصغير قال: كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدرًا وأكثرهم أدبًا، وأفصحهم لسانًا، وأثبتهم جنانًا، فطال عمره ونكبه دهره، فخرج عشية يتنفل[1] لأهله، فمرّ به عميلة الفزاري، فسلّم عليه، وقال: ما أصارك يا عمر إلى ما أرى؟ فقال: بخل مثلك بماله وصون وجهي عن مسألة الناس، فقال: والله لئن بقيت إلى غد لأغيّرن ما أرى من حالك، فرجع ابن عنقاء إلى أهله، فأخبرها بما قال له عميلة، فقالت له: لقد غرّك غلام في جنح الليل، قال: فكأنما ألقمت فاه حجرًا وبات متململًا بين رجاء ويأس، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل وصهيل الخيل تحت الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا: عميلة قد قسم ماله شطرين، وبعث إليك بشطره، فأنشأ يقول:

رآني على ما بي عميلة فاشتكى   إلى ماله حالي فواسى وما هجر

---

(١) يتنفل لأهله: يطلب العطاء.

ولما رأى المجد استُعيريت ثيابُه تـردّى رداءً سابغ الـذيـل واتـزر[١]
غـلامٌ حبـاه الله بـالـحسـن يـافـعًـا لـه سيـميـاءٌ لا تـشقّ عـلى الـبـصـر
كـأنَّ الـثـريـا عُـلِّـقـتْ فـي جـبـيـنـه وفي أنفه الشعري وفي جيده القمر[٢]

كرم عمر بن عبيد الله بن معمر

كان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي من الأجواد. قيل: إنه كان لرجل جارية يهواها، فاحتاج إلى بيعها، فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

هنيئًا لك المال الذي قد قبضته ولـم يبق في كفِّي غير التحسّرِ
أبـوءُ بـحزنٍ من فـراقك مـوجعٍ أنـاجي بـه صـدرًا طـويـل الـفـكّـرِ

فأجابها بقوله:

ولولا قعود الدهر بي عنكِ لم يكنْ يفرقُنا شيءٌ سوى الموت فاعذري
عـلـيـك سـلامٌ لا زيـارةٌ بـيـنـنـا ولا وصلَ إلَّا أن يشاءَ ابن معمر

فقال ابن معمر: قد شئت وقد وهبتك الجارية وثمنها، فخذها وانصرف.

كرم محمد بن عبد السلام

وفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله، فوجده في دار الخراج يطالب، فدخل عليه يتوجع له، فلما رآه محمد قال:

ولـقـد قـدمـتُ عـلى رجـالٍ طـالـمـا قـدم الـرجـال عـلـيـهـم فـتـمـوّلـوا
أخـنـى الـزمـانُ عـلـيـهـم فـكـأنّـمـا كـانـوا بأرضٍ أقفرت فتحوّلوا[٣]

فقال أبو الشمقمق[٤]:

الـجـودُ أفـلـسـهـم وأذهـبَ مـالـهـم فاليوم إن راموا السماحةَ يبخلوا

---

(١) سابغ الذيل: طويله ووافيه.
(٢) الثريا والشعري: من الكواكب، والجيد: العنق.
(٣) أخنى الزمان: غدر وأهلك.
(٤) هو مروان بن محمد شاعر هجاء من أهل البصرة، خراساني الأصل من موالي بني أمية، له أخبار مع شعراء عصره كبشار وأبي العتاهية، وأبي نواس. زار بغداد في زمن الرشيد، وكان بشار يعطيه في كل مائتي درهم يسميها أبو الشمقمق «جزية». توفي حوالي سنة ٢٠٠ هـ.

قال: فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه، فكتب بذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة، فوقع إلى عالمه بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة، وإسقاط ما عليه من البقايا، وأمر له بمائة ألف درهم معونة على مروءته.

كرم المأمون

قال أبو العيناء: حصلت لي ضيقة شديدة، فكتمتها عن أصدقائي، فدخلت يومًا على يحيىٰ بن أكثم القاضي، فقال: إن أمير المؤمنين جلس للمظالم، وأخذ القصص، فهل لك في الحضور؟ قلت: نعم، فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسني، ثم قال: يا أبا العيناء، بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجوتك دونَ النّاس كلّهمِ   وللرجاءِ حقوقٌ كلّها تجبُ
إن لم يكن لي أسبابٌ أعيشُ بها   ففي العلا لكَ أخلاقٌ هي السبب

فقال: يا سلامة انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال: بقية من مال، قال: فادفع له منها مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها في كل شهر. فلما كان بعد أحد عشر شهرًا مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء، حتى تقرحت أجفانه، فدخل عليه بعض أولاده، فقال: يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء، فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيئان لو بكت الدماءُ عليهما   عيناي حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما   فقدُ الشباب وفرقةُ الأحبابِ

كرم أحمد بن طولون

كان أحمد بن طولون كثير الصدقة، وكان راتبه منها في الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة، وسوى ما يطبخ في دار الصدقة. وكان الموكل بصدقته سليم الخادم، فقال له سليم يومًا: أيها الأمير إني أطوف القبائل، وأدق الأبواب لصدقاتك، وإن اليد تمد إليّ، وفيها الحناء، وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب، أفأعطي أم أرد؟ قال: فأطرق طويلًا، ثم قال: كل يد امتدت إليك فلا تردها.

كرم جعفر بن سليمان

قال سلمة بن عياش[١] في جعفر بن سليمان:

وما شمّ أنفي ريحَ كف شممتُها   من الناس إلّا ريحُ كفِّك أطيبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر.

كرم عبد العزيز بن عبد الله

كان عبد العزيز بن عبد الله جوادًا. مضيافًا، فتغدى عنده أعرابي يومًا، فلما كان من الغد مرّ على بابه، فرأى الناس في الدخول على هيئتهم الأمس، فقال: أوَكل يوم يطعم الأمير الناس؟ قالوا: نعم، فأنشأ يقول:

أكلّ يوم كأنّه عيدُ أضحى   عند عبد العزيز أو عيدُ فطرِ
وله ألفُ جفنةٍ مترعاتٍ[٢]   كل قدر يمدها ألف قدر

كرم سعيد بن العاص

تعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص، فلما خرجوا بقي فتى من الشام قاعدًا، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى، فذكر أن أباه مات، وخلف دينًا وعيالًا، وسأله أن يكتب له كتابًا إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله، فدفع له عشرة آلاف دينار وقال له: لا أدعك تقاسي الذل على أبوابهم.

كرم علي بن سليمان

دخل رجل على عليّ بن سليمان الوزير، فقال له: سألتك بالله العظيم ونبيّه الكريم إلا ما أجرتني من خصمي، فقال: ومَن خصمك؟ حتى أجيرك منه، فقال: الفقر، فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فأخذها وانصرف. فبينما هو في الطريق إذ أمر الوزير برده إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم ونبيّه الكريم متى أتاك خصمك معنفًا، فأرجع إلينا متظلمًا.

---

(١) هو سلمة بن عياش شاعر راوية نقاد من أهل البصرة له أخبار مع أبي حية النمري وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وهو من شعراء الحماسة الصغرى لأبي تمام وحماسة ابن الشجري. توفي حوالي سنة ١٧٠ هـ.

(٢) جفنة مترعات: الجفنة، القصعة التي يوضع فيها الطعام، ومترعات: مليئة ومباحة للطالبين.

كرم خيثمة بن عبد الرحمٰن

قال الأعمش: كانت عندي شاة، فمرضت، وفقدت الصبيان لبنها، فكان خيثمة بن عبد الرحمٰن يعودها بالغداة والعشي ويسألني. هل أسوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها، وكانت تحتي لبد أجلس عليه، فكان إذا خرج يقول: خذ ما تحت اللبد حتى وصل من علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

كرم يزيد بن مزيد

حكى أبو قدامة القشيري قال: كنا مع يزيد بن مزيد يومًا، فسمع صائحًا يقول: يا يزيد بن مزيد، فطلبه فأتي به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ قال: فقدت دابتي ونفدت نفقتي، وسمعت قول الشاعر:

إذا قِيلَ منْ للجودِ والمجد والندى ... فنادي بصوتٍ يا يزيد بن مزيدِ

فأمر له بفرس أبلق كان معجبًا به، وبمائة دينار، وخلعه سنية فأخذها وانصرف.

كريم حتى بعد موته

حُكِيَ أن قومًا من العرب جاؤوا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره، فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام وهو يقول له: هل لك أن تبيعني بعيرك بنجيبي[(١)]؟ وكان الميت قد خلف نجيبًا، وكان للرائي بعير سمين، فقال: نعم، وباعه في النوم بعيره بنجيبه، فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير، فنحره في النوم، فانتبه الرائي من نومه، فوجد الدم يسيح من نحر بعيره، فقام وأتم نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوا، ثم رحلوا وساروا، فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق سائرون استقبلهم ركب، فتقدم منهم شاب، فنادى، هل فيكم فلان ابن فلان؟ فقال صاحب البعير: نعم ها أنا فلان ابن فلان فقال: هل بعت من فلان الميت شيئًا؟ قال: نعم. بعته بعيري بنجيبه في النوم، فقال: هذا نجيبه، فخذه، وأنا ولده، وقد رأيته في النوم، وهو يقول: إن كنت

(١) النجيب: الفتي من الإبل.

ولدي، فادفع نجيبي إلى فلان. فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته.

أسخى الناس

رُوِيَ عن الهيثم بن عدي أنه قال: تمارى ثلاثة نفر في الأجواد، فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر، فقال الآخر: أسخى الناس: قيس بن سعيد بن عبادة، فقال الآخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي، فتنازعوا بفناء الكعبة، فقال لهم رجل: لقد أفرطتم في الكلام، فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر بما يعود، فنحكم على العيان. فقام صاحب ابن جعفر فوافاه، وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له، فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سبيل ومنقطع به، قال: فأخرج رجله، وقال: ضع رجلك واستوِ على الناقة، وخذ ما في الحقيبة، وكان فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار. ومضى صاحب قيس، فوجده نائمًا فقالت له جارية قيس: ما حاجتك؟ فقال: ابن سبيل ومنقطع به، فقالت له الجارية: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن الإبل[1]، فخذ راحلة من رواحله، وما يصلحها، وعبدًا، وامض لشأنك، قيل: إن قيسًا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت، فأعتقها، ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله، فخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه، قال بعض الشعراء:

وإذا ما اختبرتَ ودَّ صديقٍ ... فاختبر ودّه من الغلمانِ

ومضى صاحب عرابة، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة، فقال: يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به. وكان معه عبدان، فصفق بيده اليمنى على اليسرى، وقال: أواه أواه، والله ما أصبح ولا أمسي الليلة عند عرابة شيء، ولا تركت له الحقوق مالًا، ولكن خذ هذين العبدين، فقال الرجل: والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك، فقال: إن أخذتهما، وإلا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت، فأعتق، فأخذ الرجل العبدين ومضى. ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد، فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهد.

---

(١) معاطن الإبل: زرائبها.

إن زدتنا زدناك

قيل: إن شاعرًا قصد خالد بن يزيد، فأنشده شعرًا يقول فيه:

سألت الندى والجود حرّان أنتُما ... فقالا يقينًا إنّنا لعبيدُ
فقلت ومَن مولاكما فتطاولا ... إليَّ وقالا خالدُ ويزيد

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم، وقل له: إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

كريمُ كريمِ الأمهات مهذّبٌ ... تدفّقُ يمناه الندى وشمائله
هو البحرُ من أي الجهاتِ أتيته ... فلجّتُهُ المعروفُ والجود ساحله[1]
جوادٌ بسيط الكف حتى لو أنه ... دعاها لقبضٍ لم تجبه أنامله

فقال يا غلام: أعطه مائة ألف درهم، وقل له: إن زدتنا زدناك، فأنشد يقول:

تبرّعتَ لي بالجود حتى نعشتني ... وأعطيتني حتى حسبتك تلعبُ
وأنبتَّ ريشًا في الجناحين بعدما ... تساقط مني الريش أو كاد يذهب
فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى ... حليف الندى ما للندى عنك مذهبُ

فقال يا غلام: أعطه مائة ألف درهم وقل له: إن زدتنا زدناك، فقال: حسب الأمير ما سمع، وحسبي ما أخذت وانصرف.

مَن انتهى إليهم الجود في الجاهلية

أما الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية: فهو حاتم بن عبد الله الطائي، وهرم بن سنان، وخالد بن عبيد الله، وكعب بن أمامة الأيادي. وضرب المثل بحاتم وكعب، وحاتم أشهرهما.

فأما كعب، فجاد بنفسه، وآثر رفيقيه بالماء في المفازة، ومات عطشًا، وليس له خبر مشهور.

وأما خالد بن عبيد الله، فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو، فقال له: إني قلت فيك بيتين من الشعر، فقال: في مثل هذا الحال؟ قال:

(١) لجته: أعماقه.

نعم، فقال: هاتهما، فأنشده يقول:

يـا واحـد الـعـرب الـذي ... مـا فـي الأنـام لـه نـظـيـرُ
لـو كـان مـثـلـك آخـرٌ ... مـا كـان فـي الـدنـيـا فـقـيـر

فقال: يا غلام، أعطه عشرين ألف دينار، فأخذها وانصرف.

رسول الله ﷺ وعدي بن حاتم الطائي

أما حاتم، فأخباره كثيرة، وآثاره في الجود شهيرة، ويكنّى أبا سفانة وأبا عدي، وكان يسير في قومه بالمرباع والمرباع ربع الغنيمة، وكان ولده عدي يعادي النبيّ ﷺ، فبعث النبيّ ﷺ عليًا إلى طي، فهرب عدي بأهله وولده ولحق بالشام، وخلف أخته سفانة، فأسرتها خيل رسول الله ﷺ، فلما أُتي بها إلى النبيّ ﷺ قالت: يا محمد هلك الوالد، وغاب الرافد، فإن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإن أبي كان سيد قومه يفك العاني، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائبًا، أنا بنت حاتم الطائي، فقال لها النبيّ ﷺ: «يا جارية هذه صفات المؤمنين حقًا، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه. خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق». وقال فيها: «ارحموا عزيزًا ذل وغنيًا افتقر، وعالمًا ضاع بين جهال». فأطلقها ومنّ عليها، فاستأذنته في الدعاء له، فأذن لها، وقال لأصحابه: «اسمعوا وعوا»، فقالت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سببًا في ردها عليه. فلما أطلقها رجعت إلى قومها، فأتت أخاها عديًا وهو بدومة الجندل، فقالت له يا أخي: ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله، فإني قد رأيت هديًا ورأيًا سيغلب أهل الغلبة رأيت خصالًا تعجبني. رأيته يحب الفقير، ويفك الأسير ويرحم الصغير ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ. وإني أرى أن تلحق به، فإن يك نبيًا فللسابق فضله، وإن يك ملكًا فلن يذل في عز اليمن.

فقدم عدي إلى النبيّ ﷺ فألقى له وسادة محشوة ليفًا، وجلس النبيّ ﷺ على الأرض، فأسلم عدي بن حاتم، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها، وكانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها

وتعطيها الناس، فقال لها أبوها: يا بنية إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أعطي وتمسكي، وإما أن أمسك وتعطي، فإنه لا يبقى على هذا شيء، فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق.

أخبار حاتم الطائي

قال ابن الأعرابي: كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية، وكان جوادًا يشبه جوده شعره ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفرًا إذا قاتل غلب، وإذا سئل وهب، وإذا سابق سبق وإذا أسر أطلق، وكان إذا أهل رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشرًا من الإبل وأطعم الناس، واجتمعوا إليه، وكان قد تزوج ماوية بنت عفير، وكانت تلومه على إتلاف المال، فلا يلتفت لقولها. وكان لها ابن عم يقال له مالك، فقال لها يومًا: ما تصنعين بحاتم، فوالله لئن وجد مالًا ليتلفنه، وإن لم يجد ليتكلفن ولئن مات ليتركن أولادًا عالة على قومك. فقالت ماوية: صدقت إنه كذلك.

وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية وكان طلاقهن أن يكن في بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قِبل المشرق حولته إلى المغرب، وإن كان من قِبل المغرب حولته إلى المشرق، وإن كان من قِبل اليمن حولته إلى الشام، وإن كان من قِبل الشام حولته إلى اليمن، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته، فلم يأتها، ثم قال لها ابن عمها: طلقي حاتمًا وأنا أتزوجك، وأنا خير لك منه، وأكثر مالًا، وأنا أمسك عليك، وعلى ولدك. فلم يزل بها حتى طلقته، فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء، فقال حاتم لولده: يا عدي ما ترى ما فعلت أمك؟ فقال: قد رأيت ذلك. قال: فأخذ ابنه وهبط بطن واد، فنزل فيه، فجاءه قوم، فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون، وكان عدتهم خمسين فارسًا، فضاقت بهم ماوية ذرعًا وقالت لجاريتها: اذهبي إلى ابن عمي مالك، وقولي له: إن أضيافًا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلًا، فأرسل إلينا بشيء نقريهم ولبن نسقيهم، وقالت لها: انظري إلى جبينه وفمه، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه، وإن ضرب بلحيته على زوره[1]، ولطم رأسه، فاقبلي ودعيه. فلما أتته وجدته متوسدًا وطبًا[2] من لبن، فأيقظته وأبلغته الرسالة وقالت له: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم،

---

(١) زوره: صدره. (٢) الوطب: الوعاء.

فلطم رأسه بيده وضرب بلحيته، وقال: اقرئيها السلام وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتمًا لأجله، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم.

فرجعت الجارية، فأخبرتها بما رأت وبما قال لها، فقالت لها: اذهبي إلى حاتم وقولي له: إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ولم يعلموا مكانك فأرسل إلينا بناقة نقريهم ولبن نسقيهم، فأتت الجارية حاتمًا، فصاحت به، فقالت: لبيك قريبًا دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه، فقال لها: حبًا وكرامة، ثم قام إلى الإبل، فأطلق اثنتين من عقالهما وصاح بهما حتى أتيا الخباء، ثم ضرب عراقيبهما[١]، فطفقت ماوية تصيح: هذا الذي طلقتك بسببه. نترك أولادنا وليس لهم شيء، فقال لها: ويحك يا ماوية الذي خلقهم وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم. وكان إذا اشتد البرد وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدونها في بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلًا، فيقصدها، ولم يكن حاتم يمسك شيئًا ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود بهما، ثم جاد بفرسه في سنة مجدبة.

حُكِيَ أن ملكان ابن أخي ماوية قال: قلت لها يومًا: يا عمة حدّثيني ببعض عجائب حاتم وبعض مكارم أخلاقه، فقالت: يا ابن أخي أعجب ما رأيت منه أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف، وقد أخذني وإياه الجوع وأسهرنا، فأخذت سفانة، وأخذ عديًا، وجعلنا نعللهما حتى ناما، فأقبل عليَّ يحدّثني ويعللني بالحديث حتى أنام، فرفقت به لما به من الجوع، فأمسكت عن كلامه لينام، فقال لي: أنمت؟ فلم أجبه، فسكت ونظر في فناء الخباء، فإذا شيء قد أقبل، فرفع رأسه، فإذا امرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدي أتيتك من عند صبية يتعاوون كالكلاب أو كالذئاب جوعًا، فقال لها: أحضري صبيانك، فوالله لأشبعنهم، فقامت سريعة لأولادها، فرفعت رأسي وقلت له: يا حاتم، بماذا تشبع أطفالها، فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها، فلما جاءت المرأة نهض قائمًا، وأخذ المدينة بيده وعمد إلى فرسه، فذبحه، ثم أجج نارًا ودفع إليها شفرة، وقال: قطعي واشوي وكلي وأطعمي صبيانك، فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها، فأيقظت أولادي وأكلت

(١) العرقوب: عصب غليظ فوق العقب في مؤخر القدم.

وأطعمتهم، فقال: والله إن هذا لهو اللؤم تأكلون وأهل الحي حالهم مثل حالكم، ثم أتى الحي بيتًا بيتًا يقول لهم انهضوا بالنار، فاجتمعوا حول الفرس، وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية، فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير إلا العظم والحافر، ولا والله ما ذاقها حاتم، وإنه لأشدهم جوعًا، وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره:

أماويّ إنَّ المال غادٍ ورائحٍ ... ويبقى من المال الأحاديث والذكرُ
وقد علم الأقوام لو أنَّ حاتمًا ... أراد ثراءَ المال كان له وفرُ

وأغار قوم على طيىء، فركب حاتم فرسه وأخذ رمحه ونادى في جيشه وأهل عشيرته، ولقي القوم، فهزمهم وتبعهم، فقال له كبيرهم: يا حاتم هب لي رمحك، فرمى به إليه، فقيل لحاتم: عرضت نفسك للهلاك، ولو عطف عليك لقتلك. فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب مَن يقول هب لي؟ ولما مات عظم على طيء موته، فادعى أخوه أنه يخلفه، فقالت له أمه: هيهات شتان والله ما بين خلقتيكما، وضعته، فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلًا من الجيران، وكنت أنت ترضع ثديًا ويدك على الآخر، فأنّى لك ذلك. قال الشاعر:

يعيش الندى ما عاش حاتمُ طيِّىءٍ ... وإن مات قامت للسخاء مآتمُ

وكانت العرب تسمي الكلب داعي الشمير، ومتمم النعم، ومشيد الذكر لما يجلب من الأضياف بنباحه. والضمير: الغريب، وكانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح، ولم تشب النيران فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العمد لتستوحش فتنبح، فتهتدي الضُلّال وتأتي الأضياف على نباحها.

الكَريم طَرُوب(١)

قدم عبدُ الله بنُ جعفر على معاوية بالشام، فأنزله دار عِياله، وأظهر من إكرامه ما يستحقه، فغاظ ذلك زوج معاوية، ثم سمعتْ ذات ليلة غناءً عند عبد الله بن جعفر: فجاءت إلى معاوية، وقالت: هلمَّ فاسمع ما في منزل الذي جعَلْتَه من لحمك ودمك وأنزلْتَه بين حرَمك.

(١) العقد الفريد: ٢ ـ ٤٩، الأغاني ٤ ـ ٢١٢.

فجاء معاوية؛ فسمع شيئًا حرّكه وأطْربه، فقال: والله إني لأسمع شيئًا تكاد الجبال تخرُّ له! ثم انصرف.

فلما كان في آخر الليل سمع معاويةُ قراءةَ عبد الله بن جعفر، وهو قائم يصلي، فنبّه زوجه، وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعتني، هؤلاء قومي ملوكٌ بالنهار، ورهبانٌ بالليل!

ثم إن معاوية أرقَ ذات ليلة؛ فقال لخادمه: اذهب فانظر مَنْ عند عبد الله بن جعفر وأخْبِرْه أني قادم عليه.

فذهب وأخبره، فأقام عبد الله كلَّ مَن كان عنده؛ فلما جاء معاوية لم يرَ في المجلس غير عبد الله، فقال: مجلسُ مَن هذا؟ قال عبد الله: هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: مُره فليرجع إلى مجلسه، حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد. قال: مجلس مَنْ هذا؟ قال: مجلس رجل يداوي الآذان يا أمير المؤمنين؛ قال: إن أُذُني عليلة فمُرْه أن يرجعَ إلى مجلسه، وكان مجلس بُدَيح المغني، فأمره عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه، فقال له معاوية: داوِ أذني من علَّتها، فتناول العودَ وغنى، وقال:

ودِّعْ هريرةَ إنَّ الركبَ مُرْتَحِل وهل تطيقُ وداعًا أيها الرجلُ

فحرك عبد الله بن جعفر رأسه. فقال له معاوية: لم حركتَ رأسك يابن جعفر؟ قال أَرْيَحيَّة أجدها يا أمير المؤمنين لو لَقيتُ عندها لأبْلَيْت، ولو سئلتُ لأعطيت.

وكان معاوية قد خَضب، فقال ابن جعفر لبدَيح: غنِّ غير هذا ـ وكان لمعاوية جارية أعزُّ جواريه عليه، وكانت تتولى خِضَابَه فغنَّى بُدَيح وقال:

أليس عندك شكرٌ للتي جَعَلَتْ ما ابْيَضَّ من قادِماتِ الرأسِ كالحُمَم
وجدّدتْ منك ما قد كان أخْلَقه صَرْفُ الزمان وطولُ الدهر والقدَم

فطرب معاوية طربًا شديدًا، وجعل يحرك رجله، فقال له ابن جعفر: يا أمير المؤمنين، إنك سألتني عن تَحْريك رأسي فأجبتك وأخبرتُك، وأنا أسألك عن تحريك رجلك! فقال: كل كريم طروب!

ثم قام، وقال: لا يبرح أحدٌ منكم حتى يأتيَ له إذْني. ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كُسوته، وإلى كل رجل منهم بألف دينار، وعشرة أثواب.

الأعرَاب في جُهدِهم وَضَنْكَ عَيشِهم[١]

قال زيادٌ لغَيلان بن خَرَشة: أحبُّ أن تحدِّثني عن العرب وجهدها، وضَنْك عَيشها، لنَحمد الله على النِّعمةِ التي أصْبَحنا بها، فقال غيلان: حدّثني عمي قال:

توالت على العربِ سنونَ تسعٌ في الجاهلية حَطَمت كلَّ شيء، فخرجتُ على بَكْر لي في العرب، فمكثت سبعًا لا أطعَمُ إلا ما ينَالُ منه بعيري، أو من حشرات الأرض، فشددت على بطني حجَرًا من الجوع، حتى دفعتُ في اليوم السابع إلى حِوَاءٍ[٢] عظيم، فإذا بيتٌ جُحِش[٣] عن الحي، فَمِلْتُ إليه، فخرجت إليَّ امرأة طُوَالة[٤] حُسَّانة[٥]، فقالت: مَنْ؟ قلتُ: طارقُ ليل، يلتمسُ القِرى! قالت: لو كان عندنا شيء لآثَرْنَاكَ به، والدالُّ على الخير كفاعله، حِسَّ[٦] هذه البيوت، ثم انظر إلى أعظمها فإن يك في شيء منها خيرٌ فَفِيه.

ففعلتُ حتى دَفَعْتُ إلي، فرحَّب بي صاحبُه، وقال: مَنْ؟ قلت: طارق ليل، يلتمس القِرى. فقال: يا فلان، فأجابه، فقال: هل عندك طعَام؟ فقال: لا، فوالله ما وقرَ[٧] في أذُني شيء كان أشدَّ عليّ منه.

قال: فهل عندك شراب؟ قال: لا. ثم تأوَّه، فقال: قد بقَّينا في ضرع الفُلَانة[٨] شيئًا لطارق إن طرَق. قال: فأتِ به. فأتى العَطَن[٩] فابْتَعثَها، فما سمعتُ شيئًا قطُّ كان أشد من شَخْبِ تِيك الناقة في تلك العُلْبة[١٠]، حتى إذا ملأها، وفاضتْ من جوانبها، وارتفعتْ عليها رَغْوَة كجُمَّة الشيخ، أقبل بها يَهْوِي نحوي،

---

(١) المحاسن والمساوىء: ٩٩، عيون الأخبار: ٣ ـ ٢٤٤.
(٢) الحواء: جماعة البيوت المتدانية.
(٣) جحش: نحى وأبعد عن البيوت.
(٤) طوالة: طويلة القامة.
(٥) حسانة: حسناء.
(٦) حس: تعرف أحوالها.
(٧) وقر: ثقل.
(٨) الفلانة والفلان بالتعريف: كناية عن عير الآدميين.
(٩) العطن: مناخ الإبل حول وردها.
(١٠) العلبة: قدح ضخم من جلود الإبل، أو من خشب يحلب فيها.

فعثَر بعود أو حجر، فسقطتِ العُلبة من يده، فما أُصِبْتُ بمصيبة أفزع لقلبي، ولا أعظم موقعًا عند من انكفاء تلك العلبة على مثل الحال التي كنت فيها.

فلما رأى ذلك ربُّ البيت خرج شاهرًا سيفه، فبعثَ الإبلَ، ثم نظر إلى أعظمها سَنامًا، ودفه إليّ مُدْية، وقال: يا عبد الله، اصطلِ واحتمل.

جعلت أهوِي بالبَضْعَة[١] إلى النار، فإذا بلغَتْ إناها[٢] أكلتُها، ثم مسحتُ ما في يدي من إهالتها[٣] على جلدي، وقد قَحِلَ[٤] عليَّ عظمي، حتى كأنه شَنّ[٥]، ثم شربتُ شربةَ ماءٍ، وخرَرْتُ مغشيًّا عليّ، فما أفقتُ إلى السَّحَر.

وقطع زيادُ الحديث، وقال: لا عليك ألَّا تخبرنا بأكثر من هذا، فَمن المنزولُ به؟ قلتُ: عامرُ بنُ الطّفيل.

يَجُودُ عَلَى مِقْدَار نَفْسه[٦]

خرج عُبيد الله بن العباس مرةً من المدينة يريدُ معاويةَ في الشام، فأصابَتْه سماءٌ؛ فنظر إلى نُوَيْرَةٍ[٧] عن يمينه، فقال لغلامه: مِلْ بنا إليها.

فلما أتَياها إذا شيخٌ ذو هيئةَ رثَّة، فقال له: أنِخْ؛ انزل، حُيِّيتَ! ودخلَ إلى منزله، فقال لامرأته: هيِّئي شاتَك أقضِي بها ذِمامَ[٨] هذا الرجل، فقد توسَّمتُ فيه الخير؛ فإن يكن من مُضَر فهو من بني عبد المطلب، وإن يكن من اليمن فهو من بني آكِلِ المُرَار. فقالت له: قد عرفتَ حال صِبْيتي، وأنَّ معيشتَهم منها؛ وأخافُ الموتَ عليهم إن فقدوها؛ فقال: موتُهم أحبُّ إليّ من اللّؤم، ثم قبض على الشاة؛ فأخذ الشَّفْرَة، وأنشد:

قَريبَتِي لا تُوقِظِي بَنِيَّه ... إن يُوقَظُوا ينتحبوا عَليه
ويَنْزَعوا الشَّفْرَة من يَديه ... أبْغِض هذا أن يُرَى لديه

ثم ذبحها وكَشط جلدها، وقطعها أرباعًا، وقذفها في القِدْر حتى إذا استوت ثَرَدَ في جَفْنَة؛ فعشّاهم ثم غدّاهم.

---

(١) البضعة: القطعة من اللحم.
(٢) بلغ إناه: نضجه وإدراكه.
(٣) الإهالة: الشهم أو ما أذيب من الشحم.
(٤) قحل: يبس.
(٥) الشن: القربة الخلق الصغيرة.
(٦) خزانة الأدب: ٣ - ٥٩٣.
(٧) تصغير نار.
(٨) الذمام: الحرمة.

وأراد عبيدُ الله الرحيلَ، فقال لغلامه: ازمِ للشيخ ما معك من نفقةٍ، فقال: ذَبح لك الشاة فكافِئه بثمن عشرة أمثالها؛ وهو لا يعرفُك! فقال: وَيحك! إن هذا لم يكن يملكُ من الدنيا غيرَ هذه الشاة، فجادَ لنا بها، وإن كان لا يعرفُنا فأنا أعرفُ نفسي، ارمِ بها إليه، فرماها إليه، فكانتْ خمسمائة دينار!

ثم ارتحلَ عُبَيْد الله، فأتى معاويةَ، فقضى حاجتَه، ثم أقبل راجعًا إلى المدينةِ، حتى إذا قربَ من ذلك الشيخ قال لغلامه: مِلْ بنا ننظره في أيّ حالة هو، فانتهيا إليه، فإذا برجل سَرِيّ عنده دُخانٌ عال، ورمادٌ كثير، وإبلٌ وغنم؛ ففرح بذلك، وقال له الشيخُ: انزل بالرُّحْب والسَّعة! فقال له عبيد الله: أتعرفُني؟ فقال: لا، والله، فمن أنت؟ فقال: أنا نَزِيلُك ليلة كَذا وكذا، فقام إليه فقبّل رأسَه ويَديْه ورِجْليه، وقال: قد قلتُ أبياتًا؛ أتسمعُها مني؟ فقال: هات، فأنشد:

توسَّمتُه[1] لما رأيتُ مَهابةً ... عليه وقلتُ: المرءُ من آل هاشِم

وإلّا فمِنْ آل المُرار فإنهمْ ... ملوكٌ عظامٌ مِنْ كِرَامِ أعاظِم

فقمْتُ إلى عَنْزٍ بقيّةِ أعنزٍ ... لأذبحَها فعلَ امرئٍ غيرِ نادِمِ

فعوَّضني عنها غَنَاي ولم تكنْ ... تُسَاوِيُ[2] عَنْزِي غيرَ خَمْسِ دراهم

فقلت لأهلي في الخَلَاء[3] وصِبْيَتي: ... أحقًّا أرى أم تلك أحلامُ نائِم!

فضحك عُبيد الله، وقال: أعطيتَنا أكثرَ مما أخذتَ منا، يا غُلام، أعطِه مثلها! وبلغتْ فَعْلَتُه معاوية فقال: لله دَرُّ عبيد الله، من أي بَيْضَة خرج! وفي أي عُشٍّ دَرَج!

يَد عِندَ عُبَيد الله بن العبّاس[4]

أتى رجلٌ عبيدَ الله بن العباس ـ وهو بفِناء دارِه فقال: يابنَ العباس؛ إن لي عندك يدًا وقد احتجتُ إليها؛ فصعَّد فيه بَصره وصوَّبَه، فلم يعرفْه. ثم قال له: ما يدُك عندنا؟ قال: رأيتُك واقفًا بزمْزم وغلامُك يمْتَحُ[5] لك من مائها، والشمسُ قد صَهَرَتْك، فظلّلتُك بطَرَف كسائي حتى شربتَ!

(١) توسمته: تفرسته.
(٢) تساوي: بوضع الضمة على الياء للضرورة.
(٣) الخلاء: الفضاء.
(٤) خزانة الأدب: ٣ ـ ٢٥٦.
(٥) متح الماء: نزعه.

قال: إني لأذكرُ ذلك، وإنه يترددُ في خاطري وفِكْري! ثم قال لقيِّمه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرةُ آلاف درهم. قال: ادفعها إليه، وما أراها تَفِي بحقِّ يدِه عندنا!

قال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيلَ ولدٌ غيرُك لكان فيه ما كفاه، فكيف وقد وَلَدَ سيِّدَ الأولين والآخرين محمدًا ﷺ، ثم شفَع بك وبأبيك!

لَو بدأتِ بِي[1]

خرج الحَسنُ والحسينُ وعبدُ الله بن جعفر حُجّابًا، ففاتتهم أثْقَالُهم[2]؛ فجاعوا وعطشوا؛ فمرّوا بعجُوز في خِباء لها؛ فقال أحدُهم: هل مِنْ شَرَاب؟ قالت: نعم. فأناخُوا إليها، وليس لها إلا شُوَيهة[3]. فقالت: احلبوها فاشْرَبوا لبنها، ففعلوا.

فقالوا: هل مِنْ طعام؟ قالت: لا؛ إلا هذه الشاة فليذْبَحْها أحدكم حتى أهَيّيء لكم ما تأكلون!

فقام إليها أحدُهم فذبحهَا وكَشَطها[4]، ثم هيّأتْ لهم طعامًا فأكلوا، وأقاموا حتى أبْرَدوا[5].

فلما ارتحلوا قالوا: نحن نفرٌ من قريش ووجهتنا هذا الوجه؛ فإذا رجعنا سالمين، فألمى بنا فإنا صانعون إليك خيرًا! وارتحلوا.

وأقبلَ زوجُها، فأخبرتْهُ بخبرِ القوم والشاةِ، فغضب وقال: ويحك! تَذْبَحين شاتِي لقومٍ لا أعرفُهم، ثم تقولين: نَفَرٌ من قريش!

ثم بعد مدّة ألجأتهما الحاجةُ دخول المدينة فدخَلَاها، وجعلا يَلْتَقِطَان البَعْر ويعيشان بثَمنه؛ فمرّت العجوزُ ببعض سِكَكِ المدينة، فإذا الحسنُ بن علي واقفٌ بباب داره، فعرفَ العجوزَ، فبعثَ إليها غلامَه، فدعا بها، فقال لها: يا أمةَ الله، أتعرفينني؟ قالت: لا! قال: أنا ضيفُكِ بالأمس يوم كذا وكذا! قالت: بأبي أنتَ وأمي!

---

(١) ثمرات الأوراق للحموي: ٢٤.

(٢) جمع ثقل: وهو المتاع.

(٣) شاة صغيرة.

(٤) يريد: سلخها.

(٥) أبردوا: دخلوا في آخر النهار.

ثم اشترى لها من شياه الصدقة ألفَ شاة، وأمر لها بألف درهم، وبعثَ بها مع غلامه إلى الحسين، فأمر لها بمثل ذلك، وبعث بها مع غلامه إلى عبدِ الله بن جعفر، فقال لها: بكمْ وصلَكِ الحسَنُ والحسين؟ قالت: بألفي درهم، وألفي شاة. فقال لها: لو بدأْتِ بي لأتعبتُهما في العطاء! أعطوها عَطِيَّتَهُما.

فرجعت العجوزُ إلى زوجها بأربعةِ آلاف درهم، وأربعة آلاف شاة!

اختبَار الأجوَاد(١)

تمارَى ثلاثةٌ في أجوادِ الإسلام، فقال رجل: أسْخَى الناس في عصرنا هذا عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب. وقال آخر: أسْخَى الناس عَرَابة الأوْسي. وقال ثالث: بل قَيْس بن سعد بن عُبَادة. وأكْثَرُوا الجِدال في ذلك، وعَلَا ضجيجهُم وهُم بِفِنَاءِ الكعبة.

فقال لهم رجل: قد أكْثَرْتُم الجدال في ذلك، فما عليكم أن يمضيَ كلُّ واحد منكم إلى صاحبِهِ يسألُه، حتى ننظرَ ما يُعطيه، ونحكم على العِيانَ؟

فقامَ صاحبُ عبد الله إليه، فصادفه قد وضعَ رجْلَه في غَرْز(٢) ناقَتهِ يريد ضَيْعَةً له، فقال: يابنَ عَمِّ رسولِ الله! قال: قل ما تشاء. قال: أناابن سبيلٍ ومنقطع به، فأخرجَ رِجْلَه من غَرْز الناقة، وقال له: ضَعْ رجلك، واسْتَوِ على الراحلة؛ وخذْ ما في الحقيبة، واحتفظ بالسيف، فإنه من سيوف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه!

فجاء الناقة، والحقيبةُ فيها مطارفُ(٣) خَزّ، وأربعةُ آلاف دينار، وأعظمُها وأجلُّها السيفُ!

ومضى صاحب قيس بن سعد بن عُبَادة، فصادفه نائمًا، فقالت الجارية: هو نائم، فما حاجتُك إليه؟ قال: ابن سبيل ومنقَطع به، قالت: حاجتُك أهون من إيقاظه! هذا كيسٌ فيه سبعمائة دينار، والله يعلمُ أن ما في دار قيس غيره، خُذه؛

---

(١) غرر الخصائص: ١٥٥، ثمرات الأوراق للحموى: ١ ـ ١٠٢.
(٢) الغرز: ركاب الرحل.
(٣) المطرف من الثياب: ما جعل في طرفه علمان.

وامْضِ إلى مَعَاطِنِ[١] الإبل، إلى أموالِ[٢] لنا بعلامتنا فخُذْ راحلةً من رواحله، وما يصلحها وعبدًا، وامْضِ لشأنك!

ولما انتبه قيس من رَقْدَتِه أخْبَرَتْهُ بما صَنَعَتْ فأعْتَقَها.

ومضى صاحبُ عَرابة الأوسيّ إليه؛ فألفاه قد خرج من منزله يريدُ الصلاة وهو يمشي على عَبْدين، وقد كُفَّ بصَرُه، فقال: يا عَرابة، ابنُ سبيل ومنقطع به، فخلّى العَبْدَين، وصفَّقَ بيُمْنَاه على يُسْراه، وقال: أوّاه! أواه! ما تركت الحقوقُ لِعَرَابةَ مالًا، ولكن خُذْهما ـ يعني العبدين ـ قال: ما كنتُ بالذي أقُصُّ جناحيك. قال: إن لم تَأْخُذْهما فهما حُرَّان، فإن شئتَ تأخذ، وإن شئت تَعْتِقْ، وأَقْبَلَ يلتمسُ الحائط، راجعًا إلى منزله.

فأخذهما صاحبُه، وجاء بهما إلى رِفاقه؛ فقالوا: إن هؤلاء الثلاثة أجودُ عصرهم، إلا أنّ عَرَابة أكثرُهم جودًا لأنه أعْطَى جهده.

الأخطَل محبُوس في كنيسَة[٣]

قال إسحٰق بن عبد الله: قدمت الشامَ وأنا شابٌّ مع أبي، فكنت أطوفُ في كنائسها ومساجدها، فدخلتُ كنيسة دمشق، وإذا الأخطل فيها محبوسٌ، فجعلتُ أنظرُ إليه. فسأل عني فأُخْبِرَ بنسبي؛ فقال: يا فتى؛ إنك لرجلٌ شريف، وإني أسألُك حاجةً. فقلت: حاجتُك مقضية. قال: إن القَسّ حبسني هٰهنا فتكلِّمُه ليخليَ عني.

فأتيتُ القسّ فانتسبت له، فرحب وعظم، ثم قلت: إنّ لي إليك حاجةً. قال: وما حاجتُك؟ قلت: الأخطل تُخَلِّي عنه. قال: أعيذُك بالله من هذا! مثلُك لا يتكلم فيه؛ فاسقٌ يشتمُ أعراضَ الناس ويهجوهم! فلم أزل أطلبُ إليه حتى مضى معي متكِئًا على عصاه، فوقف عليه ورفع عصاه، وقال: يا عدو الله! أتعودُ تشتم الناس وتهجوهم وتقذِف المحصنات! وهو يقول: لست بعائد ولا أفعل ويستخذي له.

(١) المعاطن: جمع معطن، وهو مبرك الإبل.

(٢) أموال: تريد الإبل، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل، لأنها كانت أكثر أموالهم.

(٣) الأغاني: ٨ ـ ٢٠٩.

فقلت له: يا أبا مالك، الناسُ يهابُونك، والخليفةُ يُكْرِمُك، وقدرُك في الناس قَدْرُك، وأنت تخضعُ لهذا وتستخذي له! فجعل يقول لي: إنه الدِّين! أنه الدِّين!

حَدِّثني عَن أغرب مَا مرَّ بك[1]

لما أَفْضَتِ الخلافةُ إلى بني العَبَّاس اختفى جميعُ رجالِ بني أُميَّة ـ وكان منهم إبراهيمُ بن سُلَيمان ـ فشفعَ له عند السَّفَّاح بعضُ خواصّه. فأَعْطَاه الأمان، ثم أحلَّه مجلسَه، وأكرم مَثْواه.

وقال له السَّفاح ذات يوم: يا إبراهيم، حدِّثني عن أغرَب ما مرَّ بك أيامَ اختفائك.

فقال: كنت مختفيًا في الحِيرة بمنزل مُشْرِفٍ على الصحراء، فبينما كنْتُ يومًا على ظَهْرِ ذلك البيت أبصرتُ أعلامًا سَوْدَاء قد خرجتْ من الكوفة تُريدُ الحِيرة، فأَوْجَسْتُ منها خِيفةً إذ حسبتُها تقصدني.

فخرجتُ مُسْرِعًا من الدار متنكِّرًا، حتى أتيتُ الكوفةَ، وأنا لا أعرفُ مَنْ أَخْتَفي عنده، فبقيت متحيِّرًا في أمري، فنظرتُ وإذا أنا بباب كبير فدَخَلْتُه، فرأيت في الرَّحبَة رجلًا وَسِيمًا لطيفَ الهيئةِ، نظيفَ البِزّة، فقال لي: مَن أنت؟ وما حاجتُك؟ قلت: رجلٌ خائفٌ على دَمِه، جاء يَسْتَجِيزُ بك.

فأدخلني منزله، وَوَاراني في حُجرة تلي حجرةَ حُرَمِه، فأقمتُ عنده، ولي كلُّ ما أحبُّ من طعام وشرابٍ ولِباس، وهو لا يسألني عن شيء من حالي، إلا أنه كان يركبُ في كلِّ يوم من الفجر، ولا يرجع إلّا قُبَيل الظهر.

فقلتُ له يومًا: أراك تُدمِن[2] الركوبَ، فَفيمَ ذلك؟ قال لي: إن إبراهيمَ بنَ سليمان بن عبد الملك قَتل أبي، وقد بَلغني أنه مختفٍ في الحِيرة، فأنا أطلبهُ لعلي أجدُه وأُدرِك منه ثأرى. فلما سمعتُ ذلك ـ يا أمير المؤمنين ـ عَظُم خوفي، وضاقتِ الدنيا في عينيّ، وقلت: إني سُقْتُ نفسي إلى حَتْفِي.

(١) بحر الآداب: ٣ ـ ٥٢.

(٢) تدمن: تديم.

ثم سألتُ الرجلَ عن اسمه واسمِ أبيه، فأخبرني عن ذلك؛ فعلمت أنَّ كلامَه حقّ؛ فقلت له: يا هذا؛ إنه قد وجَبَ عليّ حقك، وجزاءً لمعروفك لي أريدُ أن أدلّك على ضَالّتِك.

فقال: وأينَ هو؟ قلت: أنا بُغْيَتك إبراهيم بن سُليمان، فَخُذْ بِثأرِك. فتبسم، وقال: هل أضْجَرك[1] الاختفاءُ والبعدُ عن دارك وأهلك فأحْبَبتَ الموت؟ قلت: لا والله! ولكني أقول لك الحق، وإني قتلتُ أباكَ في يوم كذا من أجل كذا وكذا.

فلما سمع الرجلُ كلامي هذا، وعلم صِدْقِي تغيَّر لونُه واحمرّتْ عيناه؛ ثم فكّر طويلًا، والتفت إليّ، وقال: أمّا أنتَ فسوف تَلْقى أبي عند حاكم عادل فيأخذُ بثأره منك، وأمّا أنا فلا أخفُر ذمتي[2]، ولكني أرغَب أنْ تبعد عني فإني لستُ آمَنُ عليك من نفسي. ثم إنه قدم لي ألفَ دينار، فأبيتُ أخْذَها، وانصرفتُ عنه.

فهذه الحادثة أغربُ ما مرَّ بي، وهذا الرجلُ هو أكرمُ مَن رأيته، وسمعتُ عنه بعدَك يا أمير المؤمنين.

جُود عَبد الوَاحِد بن سلَيمان[3]

قال عبد الله بن إبراهيم الجمَحي: قلت لابنِ هَرْمة: أتمدحُ عبدَ الواحد بن سليمان بشعرٍ ما مَدَحْتَ به غيرَه فتقول فيه هذا البيت:

وجدنَا غالبًا كانتْ جَناحًا ... وكان أبُوك قادِمةَ[4] الجناح

ثم تقول فيها:

أعبْدَ الواحدِ الميمونَ إني ... أغَصُّ جِدَار سُخْطك بالقَرَاح[5]

فبأيّ شيء استوجبَ ذلك منك؟ فقال: إني أخبرك بالقصة لتعْذرني:

أصابتني أزْمَةٌ بالمدينة، فاستنهضتني بنتُ عمي للخروج؛ فقلت لها: ويحك! إنه ليس عندي ما يقِلّني. فقالت: أنا أُنهضك بما أمكنني، وكانتْ عندي

---

(١) أضجرك: أتعبك.

(٢) لا أخفر ذمتي: لا أنقض عهدي معك ولا أغدر بك بعد أن أمنتك.

(٣) الأغاني: ٦ ـ ١٠٧.

(٤) القوادم: أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح، الواحدة قادمة.

(٥) القراح: الماء لا يخالطه شيء.

نابٌ[١] لي، فنهضتُ عليها نهجّدُ النوام[٢]، ونؤذي السمار، وليس من منزل أنزله إلا قال الناس: ابن هرمة! حتى دَفعتُ إلى دمشق.

فأويتُ إلى مسجد عبد الواحد في جوف الليل، فجلستُ فيه أنتظرُه إلى أن بزغ الفجر، فإذا الباب ينفلق عن رجلٍ كأنه البدر، فدنَا فأذّن، ثم صلّى ركعتين؛ وتأملته فإذا هو عبد الواحد، فقمتُ فدنوتُ منه وسلّمتُ عليه؛ فقال لي: أبو إسحـٰق! أهلًا ومَرْحبًا؛ فقلتُ: لبيك، بأبي أنتَ وأمي! وحيّاك الله بالسلام وقرّبك من رِضْوانه؟ فقال: أما آن لك أن تزورَنا؟ فقد طال العهدُ، واشتدَّ الشوق، فما وراءَك؟ قلت: لا تسلْني ـ بأبي أنت وأمي ـ فإن الدّهر قد أخْنى عليَّ؛ فما وجدتُ مُستغاثًا غيرك؛ فقال: لا ترعْ[٣]. فقد وَرَدْتَ على ما تحبُّ إن شاء الله.

فوالله إني لأخاطبُه، فإذا بثلاثة فتية قد خرجوا كأنهم الأشْطَان[٤]، فسلّموا عليه، فاستَدْنى الأكبرَ منهم فهمسَ إليه بشيء دوني ودون أخويه، فمضى إلى البيت ثم رجع، فجلس إليه فكلمه بشيء دوني ثم ولّى، فلم يلبَث أن رجع ومعه عَبْدٌ ضابط[٥]، يحمل عبئًا من الثياب حتى ضرَب به بين يدي[٦]، ثم همس إليه ثانيةً فعاد، وإذا به قد رجع ومعه مثلُ ذلك، فضرب به بين يدي.

فقال لي عبد الواحد: اذنُ يا أبا إسحـٰق؛ فإني أعلم أنك لم تصرْ إلينا حتى تفاقم صَدعُك؛ فخذ هذا وارجع إلى عِيالك، فوالله ما سللنا لك هذا إلا من أشْداق عِيالنا، ودفع إليّ ألف دينار، وقال لي: قمْ فارحل فأغِثْ مَنْ وراءك.

فقمت إلى الباب، فلما نظرتُ إلى ناقتي ضِقتُ؛ فقال لي: تعالى، ما أرى هذه مُبَلِّغتك. يا غلامُ؛ قدّم له جملًا. فوالله لقد كنتُ بالجمل أشدَّ سرورًا مني بكلِّ ما نلتُه؛ فهل تلومني أن أغص حِذارَ سُخطِ هذا بالقَراح! والله ما أنشدته ليلتئذ بيتًا واحدًا.

(١) الناب: الناقة المسنّة.
(٢) تهجّد النوام: نوقظهم، وهو من الأضداد.
(٣) لا تراع: لا تخف ولا تفزع.
(٤) الأشطان: جمع شطن، وهو الحبل الطويل.
(٥) ضابط: قوي شديد.
(٦) رمى به.

أبو حنيفة يرعى الجوَار[١]

كان لأبي حَنيفة جارٌ بالكوفة يُغَنّي في غُرْفته، ويسمعُ أبو حنيفة غِنَاءَه فيعجبه، وكان كثيرًا ما يغنّي . :

أضاعُوني وأيَّ فَتًى أضاعُوا لِيَوْمِ كريهه وسِدَادِ[٢] ثَغْرِ

فلقيه العَسَسُ[٣] ليلةً فأخذوه وحُبِس.

فَفَقَدَ أبو حنيفة صوتَه تلك الليلة، فسأل عنه من غدٍ فأُخْبِرَ؛ فدعَا بِسَوَادِهِ وطَويلته[٤] فلبسهما، وركب إلى عيسى بن موسى، فقال له: إن لي جارًا أخذه عَسَسُك البارحة فحُبس، وما علمتُ منه إلا خيرًا. فقال عيسى: سلّموا إلى أبي حنيفة كلَّ مَن أخذه العَسَسُ البارحة؛ فأُطلقوا جميعًا؛ فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سِرًّا: ألستَ كنت تغنّي يا فتى كل ليلة:

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا

قبل أضَعْنَاك؟ قال: لا والله، ولكن أحسنتَ وتكرَّمتَ، أحسن الله جزاءَك. قال: فعُدْ إلى ما كنت تغنّيه، فإني كنت آنسُ به، ولم أر به بأسًا، قال: أفعل!

يُرْبى الله الصّدقات[٥]

قال سوّار: انصرفتُ يومًا من دارِ المهدي، فلما دخلتُ منزلي دعوتُ بالطعام فلم تقبلْهُ نفسي، فأمرتُ به فرُفِع، ودخلتُ وقتَ القائلة فلم يأخذْني نوم، فنهضتُ وأمرتُ ببغلة لي فأُسْرِجَتْ وأُحْضرَت، فركبتُها.

فلما خرجت استقبلَني وكيلٌ لي، ومعه مال، فقلت: ما هذا! فقال: ألفا درهم جَبَيْتُها من مُسْتَغَلّكَ الجديد. قلت: أمسكها معك واتبعني.

فخلّيت رأس البغلة حتى عبرت الجسر، ثم سرتُ حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعتُ إلى باب الأنبار، فانتهيتُ إلى باب دار لطيف، عليه شجرَةٌ،

(١) الأغاني: ١ ـ ٤١٤.
(٢) سداد الثغر: سده بالخيل والرجال.
(٣) العسس: جمع عاس وهو الذي يطرق بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة.
(٤) الطويلة: القلنسوة العالية المدعمة بعيدان؛ وكان السواد شعارًا لبني العباس.
(٥) العقد الفريد للملك السعيد: ١٢٣.

وعلى الباب خادم، فوقفت وقد عطشت؛ فقلت للخادم: عندك ماءٌ تَسْقِينِيه؟ قال: نعم! وقام، فأخرج قُلَّة نظيفة طيبةَ الرائحة، عليها مِنديل، فناولَني فشربتُ، وحضر وقتُ العصر فدخلتُ مسجدًا، فصلَّيت فيه.

فلما قضيتُ صلاتي إذا أنا بأعمى يتلمّس الطريق، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد! قلت: وما حاجتُك، فجاء حتى قعد إليّ وقال: شممت منك رائحةً طيبة، فظننتُ أنك من أهل النعيم، فأردتُ أن أُلقيَ إليك شيئًا. فقلت: قل. قال: ترى بابَ هذا القصر؟ قلت: نعم، قال: هذا قصرٌ كان لأبي فباعَه، وخرج إلى خُراسان وخرجتُ معه، فزالت عنه النِّعم التي كنَّا فيها، وعميتُ، فقدمت هذه المدينة؛ فأتيتُ صاحبَ هذه الدار لأسأله شيئًا يَصِلُني به وأتوصل به إلى سوّار؛ فإنه كان صديقًا لأبي. قلت: ومَن أبوك؟ قال: فلان ابن فلان.

قال: فإذا هو كان أصدق الناس لي، فقلت له: يا هذا؛ فإن الله تعالى قد أتاك بسوّار؛ ومنعه النوم، والطعام والقَرار حتى جاء به فأَقْعده بين يديك. ثم دعوت الوكيل، فأخذت الدراهم منه، فدفعتُها إليه؛ وقلت له: إذا كان غَدٌ فصِرْ إلى منزلي؛ ثم مضيتُ فقلت: ماأُحَدِّثُ أميرَ المؤمنين المهدي بشيء أظرفَ من هذا.

فأتيتهُ فاستأذنتُ عليه فأذِن لي، فلما دخلتُ عليه حدَّثْتُه، فأعجَبَه، ثم أمر لي بألفي دينار، وقال: ادْفعها إلى الأعمى. فنهضتُ، فقال: اجلس، أَعليك دَين؟ قلت: نعم! قال: كم دَيْنُك؟ قلت: خمسون ألف درهم! فأمسك، وجعل يحادثُني ساعة، وقال: امضِ إلى منزلك. وإذا بخادم معه خمسون ألفًا، وقال: يقول لك أمير المؤمنين: اقضِ بها دينَك؛ فقبضتُ ذلك منه.

فلما كان من الغد أبطأ عليّ الأعمى، وأتاني رسولُ المهدي يدعوني، فجئتُه، فقال: فكرْتُ البارِحَة في أمرك، فقلت: يقضي دينه، ثم يحتاجُ إلى القَرْض أيضًا، فأمرت لك بخمسين ألف درهم أخرى. فقبضتُها، ثم انصرفت!

فجاءني الأعمى، فدفعتُ إليه الألفين، وقلت له: قد رزقَ الله تعالى بكرمه ـ بإسداء المعروف إليك ـ بأضعاف ذلك، ثم أعطيتُه شيئًا آخر من مالي، وجهَّزْتُه وانصرف.

لَا أسال سِوَاك وَلَو سففْتُ التراب[1]

ركب محمدَ بن إبراهيم الإمام دَيْنٌ، فركب إلى الفضلِ بن يحيىٰ، ومعه حُقَّة فيها جوهر؛ فقال له: قصّرتْ بنا غلّاتنا، وأغفَل أمرَنا خليفتُنا، وتزايدت مئونتنا، ولزمنا دَينٌ احتجنا لأدائه إلى ألف درهم؛ فكرِهْتُ بَذْلَ وجهي للتجار وإذالة عِرْضي بينهم، ولك مَنْ يعطيك منهم، ومعي رهن ثِقة بذلك، فإن رأيتَ أنْ تأمر بعضهم بقبضه، وحَمْلِ المال إلينا!

فدعا الفضلُ بالحُقَّةِ، فرأى ما فيها، وخَتمها بخاتم محمد بن إبراهيم، ثم قال له: نُجْحُ الحاجة أنْ تقيمَ عندنا اليوم. فقال له: إن في المُقام عليّ مشقة؛ فقال: ما يشقُّ عليك من ذلك؟ إنْ رأيْتَ أن تلبسَ شيئًا من ثيابنا دعوتُ به، وإلا أمرتَ بإحضار ثيابِ مَنْ منزلك. فأقام، ونهض الفضل، ودعا بوكيله، وأمره أن يحملَ المال ويسلمه إلى خادم محمد بن إبراهيم، ويسلمه الحقَّةَ بما فيها من الجوهر بخاتمه، ويأخذ خَطّه بذلك. ففعل الوكيل؛ وأقام محمد عنده إلى المغرب، وليس عنده شيء من الخَبَر.

ثم انصرف إلى منزله فرأى المال، وأحضر له الخادمُ الحقّة؛ فغدا على الفضل ليشكرَه؛ فوجده قد سبقه بالركوب إلى دار الرشيد؛ فوقف منتظرًا، فقيل له: قد خرج من الباب الآخر قاصدًا منزله. فانصرف عنه.

ولما وصل إلى منزله وجد أنّ الفضلَ قد وجّه إليه ألف ألف درهم أُخر، فغدا عليه وشكره وأطال؛ فأعلمه أنه بات ليلته وقد طالت عليه غمًّا بما شكاه، إلى أنْ لقي الرشيد، فأعلمه حاله؛ فأمره بالتقدير له، ولم يزل يُمَاكِسُه[2] إلى أن تقرر الأمرُ له على ألف ألف درهم، وأنه ذكر أنه لم يصلك بمثلها قط، ولا زادك على عشرين ألف درهم؛ فشكرته وسألته أن يكتب بها صَكًّا[3] بخطه، ويجعلني الرسول.

فقال له محمد: صدق أمير المؤمنين، إنه لم يصلني قطّ بأكثر من عشرين ألف، وهذا إنما تهيأ بك، ولك، وعلى يديك، وما أقدر على شيء أقْضِي به

(١) الوزراء والكتاب: ١٩٦.
(٢) تماكسا في البيع: تشاجا.
(٣) الصك: الكتاب.

حقك، ولا على شُكْرٍ أُجازي به معروفَك، غير أنه «عليّ وعليّ»؛ وحلف أيمانًا موكدَة - إن وقفتُ عَلَى باب أحدٍ سواك، ولا سألتُه حاجةً أبدًا، ولو سفِفْتُ التراب!

فكان لا يركبُ إلى غير الفضل إلى أن حدث من أمر البرامكةِ ما حَدَث، فكان لا يركبُ إلى غير دار الخليفة، ويعودُ إلى منزله، فعُوتب بعد تقضّي أيامهم في تَرْك إتيان الفضل بن الربيع، فقال: والله لو عمرتُ ألف عام، ثم مَصِصتُ الثِّماد(١)، ما وقفتُ بباب أحَدٍ بعد الفضل بن يحيىٰ، ولا سألته حاجة حتى ألقى الله عزّ وجلّ!

ولم يزل على ذلك حتى مات.

تِيــهٌ وَكَرَم(٢)

قيل للفضل بن يحيىٰ البرمكي: ما أحْسنَ كرمَك لولا تِيْهٌ فيك! فقال: تعلمتُ الكرمَ والتِّيْهَ من عُمَارة بن حمزة! فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: كان أبي عاملًا على بعض كُوَر بلاد فارس، فانكسرتْ عليه جُمْلةٌ مستكثرة، فحُمِل إلى بغداد، وطولبَ بالمال؛ فدفعَ جميعَ ما يملكه، وبقيت عليه ثلاثةُ آلاف ألف درهم لا يعرفُ لها وجهًا، والطلبُ عليه حَثيث، فبقيَ حائرًا في أمره.

وكانت بينه وبين عُمَارة بن حمزة منافرةٌ ومواحشة؛ لكنه علم أنه ما يقدر على مساعدته إلا هو، فقال لي يومًا وأنا صبيّ: امْض إلى عُمارة وسَلِّم عليه عني، وعرِّفه الضرورةَ التي قد صِرْنا إليها، واطلب منه هذا المبلغَ على سبيل القَرْض، إلى أن يستهل الله تعالى باليُسْر. فقلت له: أنت تعلم ما بينكما، فكيف أمضي إلى عدوِّك بهذه الرسالة وأنا أعلم أنه لو قدَر على إتلافك لأتلفك؟ فقال: لا بدّ أن تمضيَ إليه، لعلّ الله يسخِّره ويوقع في قلبه الرحمة!

قال الفضل: فلم تمكني مُعاوَدته، وخرجتُ وأنا أقدّم رجلًا وأُؤخر أخرى، حتى أتيتُ دارَه، واستأذنتُ في الدخول عليه؛ فأذنَ لي، فلما دخلتُ وجدته في صَدْر إيوانه، متكئًا على مَفَارش وثيرة، وقد غلّف شعر رأسه ولحيته بالمسك، وَوَجهُه إلى الحائط - وكان من شدة تيهه لا يقعُدُ إلا كذلك - فوقفت أسفل

(١) الثماد: الماء القليل.

(٢) وفيات الأعيان: ٢ - ٤١٠.

الإيوان، وسلّمت عليه، فلم يردّ السلام، فسلمتُ عليه عن أبي، وقصصتُ عليه القصة، فسكت ساعة ثم قال: حتى نَنْظُر!

فخرجتُ من عنده نادمًا على نقل خُطايَ إليه، ومُوقنًا بالحرمان، عاتبًا على أبي أنْ كلفني إذلالَ نفسي بما لا فائدةَ فيه، وعزمتُ على ألّا أعودَ إليه غيظًا منه.

فغبتُ عنه ساعة، ثم جئتُه وقد سكن ما عندي. فلما وصلتُ إلى الباب وجدتُ بِغالًا محمَّلةً؛ فقلتُ: ما هذه؟ فقيل: إن عُمارةَ قد سَيَّر المال؛ فدخلتُ على أبي، ولم أخبره بشيء مما جرى لي معه كي لا أكدّر إحسانَه عليه.

فمكثنا قليلًا، وعاد أبي إلى الولاية، وحصلتْ له أموالٌ كثيرة؛ فدفع إليّ ذلك المبلغَ وقال: احمله إليه. فجئت به؛ ودخلتُ عليه فوجدتُه على الهيئة الأولى؛ فسلمتُ عليه فلم يردّ، فسلمت عليه عن أبي وشكرتُ إحسانَه، وعرفته بوصول المال؛ فقال لي بحَرَد[1]: ويحك! أقَسْطَارًا[2] كنتُ لأبيك؟ اخرج عني، لا بارك الله فيك؛ وهو لكَ! فخرجتُ ورددْت المال إلى أبي، وعَجبنَا من حاله!!

جُودُ البرامِكَة[3]

قال مُخَارِق:

أَذِن لنا أميرُ المؤمنين الرشيدُ أنْ نُقيم في منازلنا ثلاثةَ أيَّام، وأعلمنا أنه مُشتغِل فيها؛ فمضى الجلساءُ أجمعون إلى منازلهم، وأصبحت السماءُ مُتغيِّمة تطِشُّ[4] طشًّا خَفيفًا، فقلت: والله لأذهَبنَّ إلى أستاذي إبراهيم[5] فأعرف خبَره ثم أعود.

فأمرتُ مَنْ عندي أن يسوُّوا مَجلسًا لنا إلى وقت رجوعي؛ فجئت إلى إبراهيم الموصلي، فإذا البابُ مفتوح، والدِّهْليز قد كُنِس، والبوّاب قاعد؛ فقلت: ما خبرُ أستاذي؟ فقال: ادخلْ، فدخلتُ فإذا هو جالس في رِواق له، وبين يديه قُدُور تُغَرْغِر[6]، وأباريق تَزْهَر، والسِّتارة منصوبةٌ والجواري خَلْفها.

---

(١) الحرد: الغضب.
(٢) القسطار: الصيرفي.
(٣) الأغاني: ٥ ـ ١٧٨.
(٤) الطش: المطر الضعيف، وهو فوق الرذاذ.
(٥) إبراهيم بن إسحٰق الموصلي.
(٦) تغرغر: تصوت للغلي.

فدخلتُ أترنّمُ ببعض الأصوات، وقلتُ له: ما بالُ السِّتارة لستُ أسمَعُ من ورائها صوتًا؟ فقال: اقعُد، وَيْحَك! إني أصبحتُ على الذي ظَننتَ، فأتاني خبرُ ضَيْعة تجاورُني، قد والله طلبتُها زمانًا وتمنَّيتُها فلم أمْلِكها؛ وقد أُعطِيَ بها صاحبُها مائة ألف درهم. فقلتُ: وما يمنعُك منها؟ فوالله لقد أعطاك الله أضعافَ هذا المال وأكثر! قال: صدقت، ولكن لستُ أطِيبُ نفسًا أن أُخْرِجُ هذا المال؛ فقلت: فمن يُعطيك الساعة مائةَ ألف درهم؟ والله ما أطمعُ في ذلك من الرشيد، فكيف بمن دونه! فقال: اجلس، خذ هذا الصوت، ونَقَر بقضيب معه على الدواة وألقى عليّ:

نام الخليّون مَنْ همٍّ ومن سَقَم وبتُّ مِنْ كَثْرةِ الأحزان لم أنَم

يا طالبَ الجود والمعروفِ مجتهدًا اعْمِدْ ليحيىٰ حليفِ الجود والكرَم

قال مخارق: فأخذتُه فأحكمتُه؛ ثم قال لي: امْضِ الساعةَ إلى باب الوزير يحيىٰ بنِ خالد، فإنك تجدُ الناس عليه، وتجدُ البابَ قد فُتِح، ولم يجلس بعدُ، فاستأذِنْ عليه قبلَ أن يصلَ إليه أحد، فإنه سينكِرُ عليك مَجيئَك ويقول: من أين أقبلتَ في هذا الوقت؟ فحدِّثْه بقَصْدِك إياي، وما ألقَيْتُ إليك من خَبَرِ الضّيعةِ، وأَعْلِمْه أني صنعتُ هذا الصَّوْت وأعجبني، ولم أَرَ أحدًا يستحقه إلا فلانةَ جاريتَه، وأني ألقيتُه عليك حتى أحكَمْتَه لتطرحَه عليها؛ فسيدعو بها، ويأمر بالسِّتارة أن تُنصَب، ويُوضع لها كرسيّ، ويقول لك: اطرَحه عليها بحضرتي؛ فافعل، وأْتِني بالخبر بعد ذلك.

ففعَل كلَّ شيء قاله لي إبراهيم؛ وأَحْضر الجارية فألقيتُه عليها، ثم قال لي: تقيمُ عندنا يا أبا المهنّأ أو تنصرف؟ فقلت: أنصرف أطال الله بقاءَك، فقد علمتُ ما أُذِنَ لنا فيه! قال: يا غُلام؛ احمل مع أبي المهنّأ عشرة آلاف درهم، واحمل إلى أبي إسحٰق مائة ألف درهم ثمنَ هذه الضيعة؛ فحُمِلَتِ العشرة الآلاف إليّ، وأتيتُ منزلي، فقلت: أُسَرّ يومي هذا، وأُسَرُّ مَنْ عندي؛ ومضى الرسولُ إليه بالمال.

فدخلتُ منزلي، ونثرتُ على مَنْ عندي من الجواري دراهم من تلك البَدْرة، وتوسَّدْتُها وأكلتُ وشرِبت وطربت وسُرِرْتَ يومي كله.

فلما أصبحتُ قلتُ: والله لآتينَّ أستاذي ولأعْرِفَنَّ خبره، فأتيتُه فوجدتُ البابَ كهيئته بالأمس، ودخلتُ فوجدتُه على مثلِ ما كان عليه، فترنمتُ وطربت فلم يتلقَّ

ذلك بما يجب! فقلت له: ما الخبرُ؟ ألم يأتك المال؟ قال: بلى؟ فما كان خبرُك أنت بالأمس؟ فأخبرتُه بما وُهِبَ لي، وقلت: ما يُنتظر من خلف الستارة؟ فقال: ارفع السَّجْف[1]، فرفعته فإذا عشر بِدَر، فقلت: وأي شيء بقي عليك في أمْرِ الضَّيعة؟ قال: ويحك! ما هو والله إلا أن دخلتُ منزلي حتى شَحِحتُ عليها، فصارتْ مثل ما حويتُ قديمًا؛ فقلت: سبحان الله العظيم! فتصنَعُ ماذا؟ قال: ثم حتى أُلقيَ عليك صوتًا صنعتُه، يفوق ذلك الصوت. فقمتُ وجلستُ بين يديه، فألقى عليَّ:

ويَفرحُ بالمولود مِنْ آل بَرْمَكٍ بُغَاةُ النَّدى والسيفُ والرمحُ ذو النَّصلِ
وتنبسطُ الآمالُ فيه لِفضله ولا سيما إن كان من وَلَدِ الفَضْلِ

قال مخارق: فلمَّا ألقى عليَّ الصوت سمعت ما لم أسمع مثلَه قط، وصَغُر عندي الأول فأحْكَمتهُ؛ ثم قال: انهض الساعةَ إلى الفضلِ بن يحيىٰ، فإنك تجدُه لم يَأذنْ لأحد بعدُ؛ فاستأْذِنْ عليه، وَحدِّثْه بحديثنا أمس، وما كان من أبيه إلينا وإليك، وأعْلمه أني قد صنعتُ هذا الصوتَ وكان عندي أرفع من الصوتِ الذي صنعتُه بالأمس، وأني ألقيتُه عليك حتى أحكمتَه، ووجهتُ بك قاصدًا لتُلقيَه على فلانة جارِيته.

فصِرْتُ إلى باب الفضل، فوجدتُ الأمر على ما ذكر، فاستأذنْتُ فوصلتُ، وسألني: ما الخبرُ؛ فأخبرتُه بخبري في اليوم الماضي، وما وصل إليّ وإليه من المال؛ فقال: أَخْزَى الله إبراهيمَ فما أبخلَه على نفسه! ثم دعا خادمًا، فقال: اضرب السّتارة فضربها، فقال لي: أَلْقِه، فلما غنَّيْتُه لم أتمه حتى أقبل يَجُرُّ مِطْرَفَه[2]، ثم قعد على وِسادة دون الستارة؛ وقال: أَحْسَن والله أُستاذُك، وأحسنتَ أنت يا مُخارق. فلم أخرج حتى أخذتْه الجارية وأحكَمَتْه؛ فسُرَّ بذلك سرورًا شديدًا؛ وقال: أقِمْ عندي اليوم، فقلتُ: يا سيدي، إنما بقي لنا يومًا واحد، ولولا أني أُحِبُّ سرورَك لم أخرج من منزلي. فقال: يا غلامُ، احمل مع أبي المهنَّأ عشرين ألف درهم واحمل إلى إبراهيم مائتي ألف درهم.

فانصرفتُ إلى منزلي بالمال، ففتحتُ بَدْرَة، فنثرت منها على الجواري وشربتُ وسُرِرت أنا ومَنْ عندي يومنا.

---

(١) السجف: الستر.
(٢) المطرف: الثوب فيه علمان.

فلما أصبحتُ بكّرتُ إلى إبراهيم أتعرَّف خبَرَه وأعرِّفه خَبَري، فوجدتُه على الحال التي كان عليها أوَّلًا وآخِرًا، فدخلتُ أتَرَنَّمُ وأُصَفِّقُ، فقال لي: ادْنُ؛ فقلتُ: ما بقيَ؟ فقال: اجلس وارفع سَجْف هذا الباب، فإذا عشرون بَدْرَة مع تلك العشر؛ فقلت: ما تنتظر الآن؟ فقال: ويحك! ما هو والله إلا أن حصلتْ حتى جَرَت مجرى ما تقدَّم. فقلت: والله ما أظن أحدًا نال في هذه الرتبة ما نلتَه! فَلِمَ تبخلُ على نفسك بشيء تمنيتَه دهرًا، وقد مَلّكك الله أضعافَه؟!

ثم قال: اجلس فخذ هذا الصوت، وألقى عليّ صوتًا أنساني والله صوتَيَّ الأوَّلَيْن:

أفي كلّ يوم أنتَ صَبٌّ وليلةٍ ... إلى أمّ بكرٍ لا تفيقُ فَتُقْصِرُ
أُحِبُّ على الهِجْران أكْنَافَ بيتها ... فيالَكَ من بيتٍ يُحَبُّ ويُهْجَرُ
إلى جعفَر سارتْ بنا كلُّ جَسْرَةٍ ... طواها سُراها نحوَهُ والتهجّرُ(١)
إلى واسعٍ للمُجْتَدِينَ فِناؤه ... تروح عطاياه عليهم وتَبْكُر

قال مخارق: ثم قال لي إبراهيم: هل سمعتَ مثلَ هذا؟ فقلت: ما سمعت قطّ مثله، فَلَم يزل يردّدُه عليَّ حتى أخذتُه؛ ثم قال لي: امضِ إلى جعفر، فافعلْ به كما فعلتَ بأخيه وأبيه.

قال: فمضيتُ ففعلتُ مثلَ ذلك، وخبّرتُه ما كان منهما؛ وعرضتُ عليه الصوتَ، فسُرَّ به؛ ودعا خادمًا، فأمره بضَرْب الستارة وأحضر الجارية؛ وقعد على كرسي، ثم قال: هاتِ يا مخارق. فاندفعتُ فألقيت الصوت عليها حتى أخَذَتْه؛ فقال: أحسنتَ والله يا مخارق، وأحْسَنَ أُستاذُك، فهل لك في المقام عندنا اليوم؟ فقلتُ: يا سيدي، هذا آخرُ أيامنا، وإنما جئتُ لموقع الصوت مني حتى ألقيتُه على الجارية، فقال يا غلام: احمل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصلي ثلاثمائة ألف درهم.

فصرتُ إلى منزلي بالمال، فأقمتُ ومَن معي مسرورين نشرب بقيةَ يومنا ونَطرَبُ، ثم بكرتُ إلى إبراهيمَ فتلقاني قائمًا، وقال لي: أحسنتَ يا مخارق،

(١) الجسرة: الناقة العظيمة. السرى: السير بالليل، والتهجر: السير في الهاجرة، أي في نصف النهار عند اشتداد الحر.

فقلت: ما الخبر؟ فقال: اجلس فجلستُ، فقال لمنْ خلف الستارة: خذوا فيما أنتم فيه؛ ثم رفعَ السَّجْف فإذا المال، فقلتُ: ما خبرُ الضيعة؟ فأدخل يده تحت مِسْوَرة[١]، وهو متَّكيءٌ عليها، فقال: هذا صَكُّ الضَّيْعَة! سُئِل عن صاحبها فوُجد ببغداد، فاشتراها منه يحيىٰ بن خالد، وكتب إليَّ: قد علمت أنك لا تسخو نفسًا بشراء الضَّيْعة من مالٍ يحصل لك؛ ولو حيزَتْ لك الدنيا كلها، وقد ابتعتُها لك من مالي، ووجهتُ لك بصكِّها؛ وهذا المال كما ترى.

ثم بكى، وقال لي: يا مخارق؛ إذا عاشرتَ فعاشِرْ مثل هؤلاء، وإذا غنَّيت فغنّ لمثل هؤلاء، هذه ستمائة ألف وضيعة بمائة ألف، وستون ألف درهم لك حصلنا ذلك أجمع، وأنا جالسٌ في مجلسي لم أبرح منه، فمتى يدرَك مثل هؤلاء!

حُسن العَفْو[٢]

قال محدِّث: مدَح شاعرٌ أبا حاتم كاتبَ الديوان فلم يَصِلْه بشيء؛ فأنشأ شعرًا يقول فيه:

لتُنْصِفَنّي يا أبا حاتِم　　　أو لأصيرَنّ إلى حاكم

فاحتفظها صاحبُ الخبر، ورفعها إلى الرشيد[٣]؛ فقال: صدَق! لولا أني نائمٌ ما كانت أموري تَجْرِي على هذه السبيل! وأمر بإخراج الجرائد من الدار إليه، فأول ما وَجَدَ على منصور بن زيادة عشرة آلاف ألف درهم!

فحدَّث صالح صاحبُ المصلّى، قال: دعاني الرشيد، وهو على كرسيّ، فقال: اذهب الساعةَ فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم، فإنْ لم يُؤَدِّها إلى المغرب فاضرب عنقَه، وجِئني برأسه؛ وأنا نفيٌّ[٤] من المهدي لئن أنت دافعتَ عنه لأضربنَّ عنقك! قلت: يا سيدي، فإن أعطاني بعضها، ووقَّتَ لي في بعضها وقتًا؟ قال: لا!

فخرجتُ فأعلمتُه بالخبر، فأسْقِط في يده؛ وقال: ما أراد إلا قَتْلي، لأنه يعلم أنَّ مقدارَ ما لي لا يبلغُ ما به طالبني؛ ولكن تأذنُ لي أن أدخُلَ بيتي فأُودِّع أهلي! فأذنت له فدخل ودخلتُ معه، وبقيتُ واقفًا، فبعثَ إلى أمهات أولاده وبناتِه

---

(١) المسورة: الوسادة من الجلد.
(٢) المحاسن والمساوي: ٤٥٣.
(٣) انظر صفحة ١١٠.
(٤) فلان نفي: دعي، قد نفي.

ونسائه أن اخرُجنَ إليّ كما كنتُنَّ تخرجْن عند موتي، فإنّ هذا آخرُ أيامي؛ ولا سِتْرَ لكُنَّ بعدي!

فَخَرَجْنَ إليه مشقَّقات الجيوب، مخمَّشات الوجوه، بصُراخ شديد؛ فبكى إليهنّ، وبكيْنَ إليه، وبكيتُ معهنَّ، ثم ودَّعَهُنَّ وخرج، وهُنَّ في أثره وَاضعاتِ التربا على رؤوسهن.

ثم قال: يا أبا مُقَاتل؛ لو أذِنتَ لي في المصير إلى أبي عليّ يحيىٰ بن خالد البرمكي، فكنتُ أوصيه بولدي وأهلي! فقلت: امضِ!

وصِرْنا إليه، وقد نزل في ساعته، وهو على كرسيّ يغسِلُ يديه، فلما توسَّطنا الدارَ جعل منصور يبكي ويمشي إليه حتى دنا منه، وهو يسألُه عن الحال، فيمنعُه البكاءُ من إخْبَاره؛ فقصصتُ عليه قصتَه، فقال: ارجع إلى أمير المؤمنين، وسَلْه أن يَهبَه لي! قلت: ما إلى ذلك سبيل، ولا يراني إلا والمالُ معي أو رأس المنصور، كما أمرني!

فقال لخادم له: ائت فلانة فَسَلْها: كم لنا عندها من المال؟ فانصرف ورجع فذكر أنّ عندها خمسةَ آلآف ألف درهم! فقال لي: احملها. وأبلغ أمير المؤمنين رسالتي في باقيها. فأعلمتُه أن لا سبيلَ إلى حَمْلِ بعضها دون بعض، فأطرق، ثم رفع رأسه، ثم قال يا غلام: ائت دنانير فقل لها: تبعث إليّ بالجوهر الذي وهبه لها أمير المؤمنين، فبعثَته إليه بحُقّة[1]، فقال: هذا جوهرٌ ابْتَعناه لأمير المؤمنين بمائتي ألف دينار، وهو عارفٌ به، وقد جعلتُه له بمائة ألف دينار، فاحمله إليه والرسالة، فأَبيتُ!

فوجه إلى الفَضْل ابنه: إنَّك كنتَ أعلمتَني أنك على ابتياع ضَيْعَة نفيسة، وقد أصبتُها، ولا يوجدُ مثلُها في كلّ وقتٍ، وابتياعُها فرصةٌ، فاحملْ إلى مالها، فعاد الرسولُ ومعه ألف ألف درهم!

ووجه إلى جعفر ابنه أنْ يوجِّه إليه بألف ألف درهم، فأنفذ إليه صَكًا إلى الجِهْبِذِ[2] بها.

---

(١) وعاء من الخشب أو العاج أو غير ذلك مما يصلح أن ينحت منه.

(٢) الجهبذ: النقاد الخبير.

فقبضْتُ المال، ووافيتُ الرشيد قبل المغرب، وهو على حالته ينتظرُ رجوعي إليه، فأخبرتُه الخبر، فلما انتهيت إلى خبر الحقَّةِ، قال: صدقَ! وقد ظننت أنه لا يُنْجِيه غيرهم، احمل هذا المال أجمعَ إلى أبي علي، واردُدْه عليه، وأعْلمْه أني قد قبلتُ ذلك عن منصور، ورددتُه عليه! ففعلت ذلك.

ولقيني بعد ذلك يحيىٰ منصرفًا من الدار، ومنصورٌ معه يُسَايرُه ويضاحكه، والناسُ خَلْفَه، فقلت: والله لأنصحنَّ هذا الشيخَ الكريم، فدخلت معه، ودخل المنصور ودعا بغدائه؛ فلما نهض المنصور قلت: يا أبا علي؛ إني والله ما رجعْتُ إلا لنُصْحِك! وقد رأيت مكان هذا الرجل منك؛ وكنا حين حملت المال أنهضتُه معي، فوالله ما قطعَ نصفَ الصحن من الدار حتى تمثَّل بهذا البيت:

فـمـا بُـقْـيَـا عـليَّ تـركـتـمـانـي ولـكـن خـفْـتـما صَـرَدَ[1] الـنِّـبَـال

فعارض أكرَم فعلك بألأم خصلةٍ فيه؛ فدعاني الامْتِعَاضُ من ذلك إلى إخبارك، فإني من تَعْلَمُ في مَوَدَّتكَ وطاعتك!

فأكبَّ على الأرض ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: اعذره؛ فقد كان عقله عَزَب[2] عنه في ذلك الوقت!

قال: فكان عذرُه له أحسنَ من إحيائه إياه.

أفضَل الأصحَاب[3]

كان محمد بن حُمَيْد الطُّوسي على غَدائه يومًا مع جُلسائه، وإذا بصَيْحةٍ عظيمة على باب داره، فرفع رأسه، وقال لبعضِ غلمانه: ما هذه الضِّجة؟ مَنْ كان على الباب فَلْيَدْخل!

فخرج الغلام، ثم عاد إليه، وقال: إن فلانًا أُخِذ وقد أُوثِق بالحديد، والغلمانُ ينتظرون أمرَكَ فيه؛ فرفع يده عن الطعام؛ فقال رجل من جُلَسائه: الحمد لله الذي أمْكَنكَ من عدوّك، فسبيله أن تَسقِيَ الأرضَ من دَمه؛ وأشار كلٌّ من جلسائه عليه بقتْله عَلَى صِفةٍ اخْتارها، وهو ساكت!

---

(١) سرد الرمح صردًا: نفذ حده، أي خفتما أن تصيب نبالي.

(٢) عزب: بعد.

(٣) نهاية الأرب: ٦ ـ ٦٣، غرر الخصائص: ٢٣٩.

ثم قال: يا غلام؛ فُكَّ عنه وَثَاقه، ويدخل إلينا مكرَّمًا.

فأُدخِل عليه رجلٌ لا دمَ فيه؛ فلما رآه هشَّ إليه، ورفع مجلسه، وأمر بتجديد الطعام. وَبَسَطه بالكلام، ولقَّمه حتى انتهى الطعام، ثم أمر له بكُسْوةٍ حسنةٍ وصِلة، وأمر بردِّه إلى أهله مُكرَّمًا، ولم يعاتبْه على جُرْمٍ ولا جناية.

ثم التفت إلى جلسائه، وقال لهم: إنَّ أفضل الأصحاب من حضَّ الصاحبَ على المكارم، ونهاه عن ارتكاب المآثم؛ وحسّنَ لصاحبه أن يجازيَ الإحسان بضعفِه، والإساءةَ بصفحه؛ إنا إذا جازَينا مَن أساءَ إلينا بمثل ما أساء فأين موقعُ الشكرِ على النعمةِ فما أُتيحَ من الظفر! إنه ينبغي لمنْ حضر مجالسَ الملوك أن يُمْسِكَ إلا عنْ قولٍ سَدِيد وأمْرٍ رشيد؛ فإن ذلك أدومُ للنعمة، وأجمع للألْفةِ. إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١].

مَا وَلدتِ العَربُ أكرمَ منك(١)

قال الأصمعيّ: قصدتُ في بعض الأيام رجلًا كنتُ أغشَاهُ لكَرمه؛ فوجدتُ على بابه بوَّابًا؛ فمنعني من الدخول إليه؛ ثم قال: والله يا أصمعيّ ما أوْقفنِي على بابه لأمنع مثلك إلا لرقَّة حاله، وقصور يده؛ فكتبتُ رُقْعَةً فيها:

إذا كان الكريمُ له حِجابٌ فما فضلُ الكريمِ على اللئيم!

ثم قلتُ له: أَوْصِلْ رُقْعَتي إليه؛ ففعل وعاد بالرُّقعة، وقد وقَّعَ على ظهرها:

إذا كان الكَريمُ قليلَ مالٍ تحجَّبَ بالحجابِ على الغريمِ

ومع الرّقعةِ صُرَّةٌ فيها خمسمائة دينار.

فقلت: والله لأُتحفَنّ المأمونَ بهذا الخبر؛ فلما رآني قال: من أينَ يا أصمعيّ؟ قلتُ: من عند رجلٍ من أكرم الأحياء حاشا أمير المؤمنين.

قال: ومَنْ هو؟ فدفعتُ إليه الورقةَ والصُّرةَ، وأعدْتُ عليه الخبر. فلما رأى الصُّرَّةَ قال: هذا من بيتِ مالي، ولا بدّ لي من الرجل! فقلتُ: والله يا أمير

(١) ثمرات الأوراق للحموي: ١ ـ ٢٣٢.

المؤمنين إني أستَحْي أن تُرَوِّعه[١] برُسُلك، فقال لبعض خاصته: امْض مع الأصمعيّ؛ فإذا أراك الرجلَ، فقل له: أَجِبْ أميرَ المؤمنين من غير إزعاج!

فلمّا حضر الرجلُ بين يدي المأمون قال له: أنت الذي وقَعْتَ لنا بالأمس؛ وَشكَوْتَ رِقةَ الحال، وأن الزمان قد أناخ عليك بِكَلْكَلِهِ[٢] فدفَعْنَا إليكَ هذه الصُّرة لتُصْلِحَ بها حالَك، فقصدك الأصمعي ببيتٍ واحدٍ؛ فدفعتَها إليه!

فقال: نعم يا أميرَ المؤمنين؟ والله ما كذبتُ فيما شكوتُ لأمير المؤمنين من رقَّةِ الحال؛ لكني استَحْيَيْتُ من الله تعالى أن أُعيدَ قاصِدي إلّا كما أعادَني أميرُ المؤمنين.

فقال له المأمون: لله أنتَ! فما ولدت العربُ أكرمَ منك.

الأصمَعِي يطلب القِرَى[٣]

قال الأصمعيّ: سرتُ في تَطْوافي في العرب بجبلي طيّء؛ فدفعتُ إلى قوم منهم يَحْتلِبون اللبن، ثم يَصيحون: الضيفَ الضيفَ! فإن جاءَ مَنْ يضِيفُهم، وإلّا أراقوه، فلا يَذُوقون منه شيئًا دون الضيف إلا أن يَجهَدَهم الجوع.

ثم دَفَعتُ إلى رجل من ولد حاتم بن عبد الله، فسألْتُه القِرى، فقال: القِرى والله كثير، ولكن لا سبيلَ إليه، فقلت: ما أحسب عندك شيئًا؛ فأمَرَ بالجِفَان فأُخْرِجتْ مُكَرَّمة بالثريد، عليها وَذَرُ[٤] اللَّحم، وإذا هو جادٌّ في المَنْعِ؛ فقلت: واللهِ ما أشبهتَ أباك حيث يقول:

وأبرزُ قِدْري بالفناء، قليلُها ... يُرَى غيرَ مضنُونٍ به وكثيرُها

فقال: إلّا أُشْبِهْهُ في هذا؛ فقد أَشْبهتهُ في قوله:

أَمَاوي إما مانع فَمُبيِّن ... وإمّا عطاءٌ لا يُنَهْنِهُهُ[٥] الزَّجْرُ

فأنا والله مانعٌ مبيّن. فرحلتُ عنه.

---

(١) روعه: أفزعه.
(٢) الكلكل: الصدر، والمعنى: أنك في ضيق وشدة.
(٣) ذيل الأمالي: ١٠٩.
(٤) الوذرة من اللحم: القطعة الصغيرة لا عظم فيها.
(٥) ينهنهه: يكفه.

ودفعت إلى امرأةٍ من ولدِ ابن هَرْمة فسألتُها القِرَى، فقالت: إني والله مُرْمِلةٌ مُسْنِتَة[١]، ما عندي شيء، فقلت: أما عندك جَزُور؟ فقالت: والله ولا شَاة، ولا دُجاجة، ولا بَيْضَة! فقلت: أمَا ابنُ هَرْمة أبوكِ؟ فقالت: بلى والله! إني لمنْ صميمهم. قلت: قَاتلَ اللهُ أباكِ ما كان أكذبه حيث يقول:

لا أُمْتعُ العُوذَ[٢] بالفصَال ولا أَبْتـاعُ إلا قـريـبـةَ الأجَـلِ
إنـي إذا مـا الـبـخـيـلُ آمَـنَـهـا باتَتْ ضَمُوزًا منّي على وَجَلِ[٣]

وَوَلّيتُ، فنادت: ارْبَعْ أيها الراكب؛ فعْلُه والله ذلك أقله عندنا؛ فقلت: إلّا تكوني أوسَعْتِنَا قِرًى، فقد أوْسَعْتِنَا جوابًا!

لقد أمكنَكَ الله مِنَ الوَفَاء[٤]

قال صاحبُ شرطة المأمون: دخلتُ يومًا مجلسَ أميرِ المؤمنين ببغداد؛ وبين يديه رجلٌ مُكبَّلٌ بالحديد: فلمّار رآني؛ قال لي: يا عبّاس! قلت: لبّيك يا أمير المؤمنين!

قال: خُذْ هذا إليك، واحتفظ به، وبكِّر به إليّ في غد!

فدعوتُ جماعةً فحملوه ولم يقدرْ أن يتحرّك! فقلت في نفسي: مع هذه الوصيةِ التي أوصاني بها أميرُ المؤمنين من الاحتفاظ به يجبُ أن يكون معي في بيتي، فأمرتُهم فتركوه في مجلسٍ لي في داري.

ثم أخذتُ أسألُه عن قضيّته وعن حالِه، ومن أين؟

فقال: أنا من دِمَشق؛ فقلت: جزى الله دمشقَ وأهلَها خيرًا! فمن أنْتَ من أهلها؟ قال: وعمّن تسألُ؟ قلت: أتعرفُ فلانًا؟ قال: ومن أين تعرفُ ذلك الرجل! قلتُ: وقعت لي معه قضيَّة. فقال: ما كنتُ بالذي أعرِّفُك خبرَه حتى تعرِّفني قضيَّتك معه!

(١) أسنتت: أصابتها السنة، وهي الجدب. (٢) العوذ: الحديثات النتاج.
(٣) ضمز البعير: أمسك جرته في فيّه ولم يجتر.
(٤) المستطرف: ١ ـ ٢٤٠؛ العقد الفريد للملك السعيد: ٨١.

فقال: كنتُ مع بعضِ الولاة بدمشق؛ فبغى أهلُها، وخرجوا علينا حتى إن الوالي تدلّى في زنبيل[١] من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهربتُ في جملة القوم.

فبينما أنا هاربٌ في بعض الدُّرُوب إذا بجماعة يعْدُون خلفي؛ فما زلتُ أعْدُو أمامهم، حتى فُتُّهم؛ فمررتُ بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالسٌ على باب داره؛ فقلت: أغِثني أغاثَك الله! قال: لا بأسَ عليك! ادخل الدار؛ فدخلت، فقالت زوجتُه: ادخلْ تلك المقصورة[٢]؛ فدخلتُها، ووقف الرجلُ على باب الدار فما شعرتُ إلا وقد دخل، والرجالُ معه يقولون: هو والله عندك!

فقال: دونكم الدار، فتّشوها؛ ففتّشوها حتى لم يبقَ سوى تلك المقصورة، وامْرَأَتُه فيها؛ فقالوا: هو هنا! فصاحتْ بهم المرأة ونهَرَتهم؛ فانصرفوا.

وخرج الرجلُ وجلس على باب دارِه ساعةً، وأنا قائم أرجُف، ما تَحمِلني رِجْلاي من شدَّة الخوف؛ فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك! فجلستُ فلم ألْبث حتى دخل الرجلُ فقال: لا تخفْ، قد صرف الله عنك سرَّهم، وصِرْت إلى الأمْنِ والدَّعَة.

فقلت له: جزاك الله خيرًا! ثم ما زال يعاشِرُني أحسن معاشرة وأجملَها، وأفرَد لي مكانًا في داره، ولم يفتُر عن تفقُّد أحوالي.

فأقمتُ عنده أربعة أشهر في أرْغَدِ عيش وأهنئِهِ إلى أن سكَنت الفتنةُ وهدأتْ وزال أثَرُها؛ فقلت: أتأذنُ لي في الخروج حتى أتَفَقَّدَ حال غلماني؛ فلعلي أقفُ منهم على خبر! فأخذ عليَّ المواثيق بالرجوع إليه.

فخرجتُ فطلبتُ غِلماني؛ فلم أرَ لهم أثرًا؛ فرجعتُ إليه وأعلَمْتُه الخبر. وهو مع هذا كلِّه لا يعرفُني ولا يسألُني، ولا يعرف اسمي، ولا يخاطبُني إلا بالكُنْيَة.

ثم قال: عَلَام تَعزم؟ فقلتُ: عزمتُ على التوجّه إلى بغداد؛ فقال: القافلة بعدَ ثلاثة أيام؛ وهأنذا قد أعلَمْتُك!

---

(١) الزنبيل: القفة.

(٢) المقصورة: الدار الواسعة المحصنة أو هي أصغر من الدار، ولا يدخلها إلا صاحبها.

فقلت له: إنك تفضّلت عليّ هذه المدَّة، ولك عليّ عهدٌ ألا أنسى لك هذا الفضل ولأُكافئنَّك ما استطعت.

ثم دعا غلامًا له أسود، وقال له: أَسْرِج الفرس، ثم جَهّز آلةَ السفر؛ فقلت في نفسي: ما أظنُّ إلا أنه يريدُ أن يخرجَ إلى ضَيْعةٍ أو ناحيةٍ من النواحي؛ فأقاموا يومهم ذلك في كدٍّ وتعب.

ولما حان يومُ خروج القافلة جاءني السَّحَرَ[١]، وقال لي: قم، فإن القافلةَ تخرجُ الساعة، وأكرهُ أن تَنفرِدَ عنها، فقلتُ في نفسي: كيف أصنعُ، وليس معي ما أتزوَّد به، ولا ما أَكْتَرِي به مركوبًا[٢]! ثم قمتُ، فإذا هو وامرأتهُ يحملان أفْخَرَ الملابس، وخفَّين جديدين، وآلة السفر. ثم جاءني بسيف ومِنْطَقَة فشدّهما في وسطي، ثم قدّم بَغْلًا فحمل عليه صندوقين وفوقهما فَرْش، وقدّم إليّ فرسًا، وقال: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك، ويَسُوسُ مركوبك.

وأقْبلَ هو وامرأتُه يعتذران إليّ من التقصير في أمري، وركب معي يشيّعني، وانصرفتُ إلى بغداد وأنا أتوقّعُ خبرَه، لأفِيَ بعهدي له في مجازاته ومكافأته، واشتغلتُ مع أمير المؤمنين، فلم أتفرَّغ أن أُرْسِلَ إليه من يكشفُ خبره، فلهذا أسأَلُ عنه!

فلما سمع الرجُلُ الحديثَ قال: لقد أَمْكَنَك الله من الوفاءِ له، ومكافأتِه على فعله ومجازاتِه على صنيعِه بلا كُلْفة عليك، ولا مئونةٍ تَلزمُك.

فقلتُ: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضّرُّ الذي أنا فيه غيّرَ عليك حالي، وما كنتَ تعرفُه منّي.

فما تمالكْتُ أن قمتُ وقبّلْتُ رأسه، ثم قلتُ له: فما الذي أصارَك[٣] إلى ما أرى؟ فقال: هاجَتْ بدمشق فِتنةٌ مثلُ الفتنةِ التي كانت في أيامك؛ فنُسِبَتْ إليَّ وبعث أميرُ المؤمنين بجيوش، فأصْلَحُوا البلد، وأُخِذْتُ أنا وضُرِبْتُ إلى أن أشرفتُ على الموت! وقُيِّدْتُ وبُعِثَ بي إلى أميرِ المؤمنينَ، وأمري عنده عظيمٌ، وخَطبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا مَحالَة!

(١) السحر: قبيل الصبح. (٢) المركوب: ما يركب.
(٣) أصارك: صيرك.

وقد أُخْرِجْتُ من عند أهلي بلا وصيَّةٍ، وقد تَبِعَني من غِلْمَاني من ينصرفُ إلى أهلي بخَبَري، وهو نازلُ عند فلان، فإن رأيتَ أن تجعلَ من مكافأتك لي أن ترسلَ مَن يُحْضِرُه حتى أوصيَه بما أُريد! فإن أنتَ فعلتَ ذلك فقد جاوزتَ حدَّ المكافأة، وقمتَ لي بوفاء عهدك! قلتُ: يصنعُ الله خيرًا.

ثم أحْضَرَ العباس حدّادًا في الليل فكّ قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال[1]، وأدخله حمّام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سيَّر مَن أحضَرَ إليه غلامَه.

فلما رآه جعلَ يبكي ويوصيه؛ فاستدعى العباسُ نائبَه، وقال: عَلَيّ بالأفراس والهدايا، ثم أمره أن يشيّعه إلى حَدِّ الأنبار!

فقال له: إن ذَنْبي عند أمير المؤمنين عظيمٌ، وخَطْبي جسيم، وإن أنتَ احتججت بأنّي هربتُ بعثَ في طلبي كلّ مَن على بابه، فأُردّ وأقتل.

فقال العبّاس: انجُ بنفسك ودَعْني أدبِّر أمري! فقال: والله لا أبرحُ بغداد حتى أعلمَ ما يكون من خبرك! فإن احتجْتَ إلى حضوري حضرت.

فقال العباس: إن كان الأمرُ على ما تقول، فلتكن في موضع كذا، فإن أنا سَلِمتُ في غداة غدٍ أعْلَمْتُكَ، وإن أنا قُتِلتُ فقد وَقَيْتُكَ بنفسي كما وقيتَني!

ثم تفرّغ العباس لنفسه، وتحنّط وجهّز له كفنًا.

قال العبّاس: فلم أفرغ من صلاة الصبح ألا ورسلُ المأمون في طلبي، وهم يقولون: هاتِ الرجل معك وقُمْ!

فتوجّهتُ إلى دار أمير المؤمنين؛ فإذا هو جالسٌ ينتظر. فقال: أين الرجل؟ فسكتُّ! فقال: ويحك! أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ اسمعْ منى. فقال: لله عليّ عهدٌ لئن ذكرتَ أنه هرب لأضْرِبَنَّ عُنقَك! فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هَرَبَ، ولكن اسمَعْ حديثي وحديثَه، ثم شأنك وما تريد أن تفعَله في أمري! قال: قل.

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ كان من حديثي معه كيت وكيتَ، وقَصَصْتُ عليه القصة جميعَها، وعرّفتُه أني أريدُ أن أفيَ له، وأكافئه على فعله معي، وقلت: أنا

---

(١) الأنكال: جمع نكل. قيد الشديد.

وسيدي ومولايَ أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفحَ عني؛ فأكون قد وفيتُ وكافأتُ وإما أن يقتلني فأقيَه نفسي، وقد تحنّطت، وها هو ذا كفني يا أمير المؤمنين!

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك، لا جزاكَ الله عن نفسك خيرًا؛ إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئُه بعد المعرفة بهذا؟ هلا عرّفتني خبرَه، فكنا نكافئُه عنك، ولا نقصّر في وفائك له!

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه هٰهنا وقد حلف ألا يبرحَ حتى يعرفَ سلامتي، فإن احتجت إلى حضوره حضر.

فقال المأمون: وهذه منّةٌ أعظمُ من الأولى، اذهبْ إليه الآن، فطيّب نفسه وسكّن رَوْعه، وائتني به حتى أتولّى مكافأته.

فأتيتُ إليه وقلت له: ليزُل خوفُك، إن أمير المؤمنين قال كذا وكذا!

فقال: الحمد لله الذي لا يحمدُ على السراء والضراء سواه؛ ثم قام وركب، فلما مَثَلَ بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه، وأدناه من مجلسه وحدّثه، حتى حضر الغداء فأكل معه، وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق، فاستعفى، فأمر له بصلةٍ وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به.

مِن جُود أبي دُلَف(١)

لما مرض أبو دُلَف بالعلّة التي مات بها أقام شهرًا ملازمًا الوِسَادة، فأفاق يومًا، فقال لخادمه بِشْر: كم لي على هذه الحال؟ قال: شهر. فلما سمع ذلك من بِشْر بكى كثيرًا، وقال: أيمرُّ عليّ من عمري هذه المدة لا أَبَرُّ فيها أحدًا من الناس! يا بشر؛ اخرج إلى الباب فإن قلبي يشهدُ أن بالباب قومًا لهم إلينا حوائج؛ فلا تمنع أحدًا من الدخول إلينا.

فخرج بشر، فإذا عشرة من أولاد أبي طالب، فأمرهم بالدخول، فدخلوا؛ فابتدر رجلٌ منهم، وقال: أصلَحك الله! نحن قوم من بني أبي طالب من أهل بيت رسول الله، وقد أحاطت بنا المصائب، وأجحفت بنا النوائب، فإن رأيتَ أن تجبر كَسْرنا، وتغني فَقْرنا، فعجِّل!

(١) المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط.

فقال لخادمه: خُذْ بيدي، فأجلِسني على ذاك الفراش، ففعل، ثم قال: ليأخذْ كل واحدٍ منكم ورقةً، وليكتب فيها بخطه: إنه قبض مني مائةَ ألف درهم. فتحيّروا عند قوله، فلما كتبوا الرقاع وضعوها بين يديه، فقال لخادمه: ائتني بالمال، فأحضره، فأعطى كلَّ واحد منهم مائة ألف درهم.

فلما تسلموا المال قال رجل منهم: بالآباء نفديك، وبالأمهات نقِيك! والله ما لنا مال ولا عقار، وخطُوطنا عندك ماذا تصنعُ بها! فبكى، وقال لهم: أتظنون أنها وثائقُ عليكم! لا والله، لا والله! ثم قال لخادمه: يا بِشْر، إذا أنا متّ فاجعل الرقاع في أكْفاني ألْقَى بها محمدًا ﷺ يوم القيامة؛ ثم قال له: أعط كلّاً منهم ألف درهم لنفقة طريقه. انصرفوا باركَ الله فيكم!

حُسْن المكَافأة(١)

حكى الحسنُ بن سهل، قال: كنتُ يومًا عند يحيىٰ بن خالد البرمكي، وقد خَلا في مجلسه لإحكام أمرٍ من أمور الرشيد، فبينما نحن جلوسٌ إذ دخل عليه جماعةٌ من أصحاب الحوائج، فقضاها لهم؛ ثم توجَّهوا لشأنهم، فكان آخرَهم قيامًا أحمدُ بن أبي خالد، فنظر يحيىٰ إليه، والتفتَ إلى الفضل ابنه؛ وقال: يا بني؛ إن لأبيك مع أبي هذا الفتى حديثًا، فإذا فرغتُ من شغلي هذا فذكِّرْني أحدّثك به.

فلما فرغ من شغله وطَعِم قال له ابنُه الفضل: أعزَّك الله يا أبي؛ أمرْتني أن أُذَكِّرك حديث أبي خالد، قال: نعم، يا بني:

لما قِدم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيرًا لا يملكُ شيئًا، فاشتدَّ بي الأمر، إلى أنْ قال لي مَن في منزلي: إنا كتمنا حالنا؛ وزاد ضررُنا، ولنا اليوم ثلاثةُ أيام ما عندنا شيءٌ نَقْتَاب به! فبكيتُ يا بنيّ لذلك بكاء شديدًا، وبقيت وَلْهَانَ حيران مُطْرِقًا مفكّرًا.

ثم تذكَّرت مِنْدِيلًا كان عندي، فقلتُ لهم: ما حالُ المنديل! فقالوا: هو باقٍ عندنا. فقلتُ: ادْفَعُوه لي، فأخذتُه ودفعته إلى بعض أصحابي، وقلتُ له: بِعْه بما تَيَسَّر، فباعَه بسبعَةَ عشر درهمًا، فدفعتُها إلى أهلي، وقلتُ: أنْفِقُوها إلى أن يرزق اللهُ غيرَها!

(١) المستطرف: ١ ـ ٢٣٩.

ثم بكّرتُ من الغدِ إلى باب أبي خالد، وهو يومئذ وزيرُ المهدي، فإذا الناسُ وقوفٌ على داره ينتظرون خروجَه؛ فخرج عليهم راكبًا، فلما رآني سلّم عليّ، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد؛ ما حالُ رجلٍ يبيعُ من منزله بالأمس منديلًا بسبعة عشرَ درهمًا! فنظر إليَّ نظرًا شديدًا؛ وما أجابني.

فرجعتُ إلى أهلي كسيرَ القلبِ، وأخبرتُهم بما اتَّفق لي مع أبي خالد، فقالوا: بئس والله ما فَعَلت! توجهت إلى رجلٍ كان يَرْتجيك لأمرٍ جليل؛ فكشفتَ له سِرَّك وأطْلَعْتَه على مكنون أمرك، فأزرَيْتَ[١] عنده بنفسك، وصغَّرت عنده منزلَتك، بعد أن كنتَ عنده جليلًا، فما يَراك بعد اليوم إلا بهذه العين! فقلت: قد قضى الأمرُ بما لا يمكن استِدْرَاكُه.

فلما كان من الغد بكّرتُ إلى باب الخليفة، فلما بلغتُ البابَ استقبلني رجلٌ، فقال لي: قد ذُكرتَ الساعةَ بباب أمير المؤمنين؛ فلم ألتفتْ لقوله، فاستقبَلني آخر، فقال لي: كمقالةِ الأول، ثم استقبلني حاجبُ أبي خالد، فقال لي: أين تكون؟ قد أمرني أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين.

فجلستُ حتى خرج. فلما رآني دعاني، وأمر لي بدابَّة، فركبتُ، وسرتُ معه إلى منزله، فلما نزل قال: عليّ بفلان وفلان الحنّاطَيْن[٢]. فأحْضرا، فقال لهما: ألم تشتريا مني غلّاتِ السواد[٣] بثمانيةَ عشرَ ألف ألف درهم؟ قالا: بلى، قال: ألم أشترط عليكما شركةَ رجلٍ معكما! قالا: بلى. قال: هذا هو الرجل الذي اشترطتُ شَرِكَتَه لكما، ثم قال لي: قمْ معهما.

فلما خرجْنا، قالا لي: ادْخل معنا بعضَ المساجد حتى نكلِّمَك في أمرٍ يكونُ لك فيه الربح الهنيء؛ فدخلنا مسجدًا، فقالا لي: إنك تحتاجُ في هذا الأمر إلى وكلاء وأُمَنَاء وأعوان ومُؤن، لا تقدر منها على شيء، فهل لك أن تبيعَنا شركتَك بمال نعجّله لك، فتنتفعَ به، ويسقطَ عنك التعب والنَّصَب؟ فقلت لهما: وكم تبذلان لي؟ فقالا: مائةَ ألف درهم. فقلت: لا أفعل.

---

(١) أزرى به: حقره وهوّن من شأنه. (٢) الحناط: بائع الحنطة، وهي البر.
(٣) السواد: ما حوالي الكوفة من القرى.

فما زالا يزيداني، وأنا لا أرضى إلى أن قالا لي: ثلاثمائة ألف درهم، ولا زيادة عندنا على هذا. فقلت: حتى أشاورَ أبا خالد. قالا: ذلك لك!

فرجعتُ إليه وأخبرتُه، فدعا بهما، وقال لهما: هل وافقتُما على ما ذَكَرَ؟ قالا: نعم. قال: اذهبا، فانْقُدَاه المال الساعةَ، ثم قال لي: اصلحْ أمرَك، وتهيَّأ، فقد قلدتُك العمل.

فأصلحتُ شأني، وقلّدَني ما وعدني به؛ فما زلت زيادةٍ، حتى صار أمري إلى ما صار.

ثم قال لولده الفضل: يا بني؛ فما تقولُ في ابْنِ مَن فعلَ بأبيك هذا الفعلَ؟ وما جزاؤه؟ قال: حقٌّ لعمري وجَبَ عليك له. فقال: والله يا ولدي ما أجد له مكافأةً؛ غير أني أعزلُ نفسي وأولّيه.

رَجَوْتكَ دُون الناس(١)

قال أبو العَيْنَاء: حصلت لي ضِيقةٌ شديدة، فكتمتُها عن أصدقائي، فدخلت يومًا على يحيىٰ بن أكثم؛ فقال: إن أمير المؤمنين المأمونَ جلس للمظالم؛ فهل لك في الحضور؟ قلت: نعم! فمضيتُ معه إلى دار أمير المؤمنين؛ فلما دخلنا عليه أَجْلَسَه وأجلسني، ثم قال: يا أبا العيناء؛ ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجوتُك دونَ الناس كلِّهم ... وللرجاءِ حقوقٌ كلُّها تَجِبُ
إن لم تَكُنْ ليَ أسبابٌ أعيشُ بها ... ففي العُلَا لك أخلاقٌ هي السَّبَبُ

فقال: يا سلامة؛ انظر أي شيء في بيت مالنا دُون مالِ المسلمين؟ فقال: بقية من مال! فادْفعْ إليه مائةَ ألف درهم، وابعثْ له بمثلها في كلِّ شهر!

فلما كان بعد أحد عشر شهرًا مات المأمون؛ فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرَّحت أجفانُه؛ فدخل عليه بعضُ أولاده، فقال: يا أبتاه! بعد ذهاب العين ماذا ينفعُ البكاء؟ فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيئان لو بكت الدماءَ عليهما ... عيناي حتى يُؤذنا بذهابِ
لم يبلغا المعشَارَ من حقّيْهما ... فقدُ الشبابِ وفُرقَةُ الأحباب

(١) ثمرات الأوراق للحموي: ٢ ـ ٢٤٥.

عفّة الشَريفُ الرضيّ(١)

حكى أبو حامد بن محمد الإسفرايني الفقيهُ الشافعي، قال: كنتُ يومًا عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة، فدخل عليه الرضيّ أبو الحسن فأعظَمه وأجلّه، ورفعَ من منْزِلته، وخلّى ما كان بيده من القِصَص والرّقاع، وأقْبلَ عليه يحادثُهُ إلى أن انصرف.

ثم دخلَ بعد ذلك المرتضى أبو القاسم، فلم يُعظِّمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإكرام، وتشاغل عنه برقاع يقرؤها وتوقيعات يُوَقّع بها، فجلس قليلًا، وسأله أمرًا فقضاه، ثم انصرف.

قال أبو حامد: فتقدّمت إليه وقلتُ له: أصلح الله الوزير! هذا المرتضى هو الفقيه المتكلّم صاحبُ الفنون، وهو الأمثل الأفضل منهما، وإنما أبو الحسن شاعرٌ. فقال لي: إذا انصرفَ الناسُ، وخَلا المجلس أجبتُك عن هذه المسألة. قال: وكنتُ مجمعًا على الانصراف، فجاءني أمر لم يكن في الحُسْبَان، فدعت الضرورةُ لملازمة المجلس إلى أن تقوّض الناسُ واحدًا فواحدًا.

فلمّا لم يبقَ إلا غلمانُه وحُجّابه دعا بالطعام، فلما أكلْنا وغسل يده وانصرفَ عنه أكثرُ غلمانه، ولم يبق عنده غيري، قال لخادم له:

هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذُ أيام، وأمرتكَ أن تجعلَهما في السَّفَط(٢) الفلانيّ. فأحضرهما فقال: هذا كتابُ الرضيّ، اتَّصل بي أنه قد وُلِدَ له ولد، فأنفذتُ إليه ألفَ دينار، وقلت: هذه للقَابلة ـ فقد جرت العادة أن يَحْمِلَ الأصدقاء إلى أخلّائهم، وذوي مودَّتهم مثل هذا في مثل هذه الحال ـ فردَّها، وكتب إليَّ هذا الكتاب، فاقرأه.

قال: فقرأته، وهو اعتذار عن الردّ، وفي جملته: إننا ـ أهلَ بيت ـ لا يطَّلع على أحوالنا قابلةٌ غريبة، وإنما عجائزنا يتولَّين هذا الأمر من نسائنا، ولسنَ ممن يأخُذْن أجرة، ولا يقبلْن صِلَة.

---

(١) ابن أبي الحديد: ١ ـ ١٣.

(٢) السفط: الجوالق، أو كالقفة.

قال: فهذا، هذا. وأما المرتضى فإننا كنا قد وزَّعنا وقَسَّطنا[١] على الأملاك تقسيطًا نَصْرِفه في حفْر فُوَّهة النهر المعروف بنهر عيسى، فأصاب مِلكًا للشريف المرتضى عشرون درهمًا، وقد كتب إليّ منذ أيّام في هذا المعنى هذا الكتاب فاقرأه؛ فقرأتُه، وهو أكثر من مائةِ سطر يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالةِ والطلبِ والسؤال في إسقاط هذه الدراهم عن أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه.

قال فَخْر الملك: فأيّهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل؟ هذا العالم المتكلم الفقيهُ الأوحد، ونفسُه هذه النفس، أم ذلك الذي لم يُشْهر إلا بالشعر خاصة؛ ونفسهُ تلك النفس؟ قلت: وفّق الله الوزير، فما زال موفّقًا، وما وضع الأمر إلا موضعه، ولا أحلّه إلا في محلّه.

أمِيـــن[٢]

قال أحد التجار: قصدتُ الحجَّ في بعض الأعوام، وكانت تجارتي عظيمةً، وأموالي كثيرة، وكان في وسطي هِمْيان[٣]، فيه دنانير وجواهر قيّمة، وكان الهمْيان من ديباج أسود.

فلمّا كنت ببعض الطريق نزلت لأقضيَ بعض شأني، فانحلَّ الهمْيان من وسطي، وسقط ولم أعلم بذلك إلا بعد أن سرتُ عن الموضع فراسخ، ولكنّ ذلك لم يكن يؤثّر في قلبي لما كنت أحتويه من غنًى، واستخلفتُ ذلك المال عند الله إذ كنت في طريقي إليه تعالى.

ولما قضيتُ حِجّتي[٤] وعُدْتُ، تتابعتِ المحنُ عليّ حتى لم أملك شيئًا! فهرَبت على وجهي من بلدي. ولما كان بعد سنين من فقري أفضيتُ إلى مكان وزوجي معي، وما أملك في تلك الليلة إلّا دانِقًا[٥] ونصفًا، وكانت الليلة مطيرة، فأويت في بعض القرى إلى خان خراب، فجاء زوجي المخاض فتحيّرتُ، ثم ولدتْ فقالت: يا هذا؛ الساعة تخرج روحي، فاتخذ لي شيئًا أتقوّى به، فخرجتُ أخبط في الظلمة والمطر حتى جئت إلى بدَّال[٦] فوقفت عليه، فكلّمني بعد جهد،

---

(١) قسط الشيء: فرقه.
(٢) الفرج بعد الشدة: ٢ ـ ١٤.
(٣) الهميان: المنطقة.
(٤) الحجة (بالكسر) المرة الواحدة، وهي من الشواذ.
(٥) الدانق: سدس الدرهم.
(٦) البدال: بياع الأطعمة.

فشرحتُ له حالي، فرحمني وأعطاني بتلك القطع حلبةً وزيتًا وأغلاهما، وأعارني إناءً جعلتُ ذلك فيه، وجئت أريدُ الموضع، فلمّا مشيتُ بعيدًا وقربتُ من الخان زلقتْ رجلي، وانكسر الإناء وذهب جميع ما فيه؛ فوردَ على قلبي أمرٌ عظيم ما ورد عليَّ مثلُه قط! فأقبلتُ أبكي وأصيح؛ وإذا برجل قد أخرج رأسه من شبّاك في داره، وقال: ويلك! ما لك تبكي! ما تَدَعُنا أن ننام!

فشرحتُ له القصة، فقال: يا هذا؛ البكاء كله بسبب دانقٍ ونصف!

قال: فداخلني من الغمّ أعظم من الغمّ الأول، فقلتُ: يا هذا؛ والله ما عندي شيء لما ذهب منّي، ولكن بكائي رحمةً لزوجي ولنفسي؛ فإنَّ امرأتي تموتُ الآن جوعًا، ووالله لقد حججتُ في سنة كذا وكذا وأنا أملِك من المال شيئًا كثيرًا، فذهب منّي هِمْيان فيه دنانير وجواهر تساوي ثلاثة آلاف دينار، فما فكّرتُ فيه، وأنت تراني الساعة أبكي بسبب دانق ونصف، فاسأل الله السلامة؛ ولا تُعَايِرْني فتُبْلى بمثل بَلْوَايَ.

فقال لي: بالله يا رجل، ما كانت صفةُ هُمْيانك، فأقبلت أبكي، وقلت: ما ينفعُني ما خاطبتَني به أوَ ما تراه من جَهْدي[1] وقيامي في المطر حتى تستهزىء بي أيضًا! وما ينغني وينفعك من صفة هِمْياني الذي ضاع منذ كذا وكذا!

ومشيتُ؛ فإذا الرجل قد خرج وهو يصَيح بي: خذ يا هذا، فظننته يتصدّق عليّ، فجئت وقلت له: أيّ شيء تريد؟ فقال لي: صف هِمْيانك وقَبَض عليّ، فلم أجد للخلاص سبيلًا غير وصفه له، فوصفته فقال لي: ادخُلْ، فدخلتُ، فقال: أين امرأتك؟ قلتُ: في الخان، فأنفذ غلمانه فجاءوا بها، وأدخلتْ إلى حُرَمه[2]، فأصلحوا شأنها وأطعموها كلَّ ما تحتاج إليه وجاءوني بجُبة وقميص وعمامة وسَرَاويل، وأدخلتُ الحمام سحَرًا، وطرح ذلك عليّ، وأصبحتُ في عيشة راضية. وقال: أقم عندي أيامًا، فأقمتُ عشرة أيام، كان يعطيني في كل يوم عشرة دنانير، وأنا متحيِّر في عِظَم بِرّه بعد شدّة جفائه!

فلمّا كان بعد ذلك قال لي: في أي شيء تتصرّف؟ قلت: كنت تاجرًا، قال: فلي غلّات وأنا أعطيك رأس مال تتّجر فيه وتَشْركني. فقلت: أفعل، فأخرج لي

---

(١) الجهد: المشقة.

(٢) حرم الرجل: أهله.

مائتي دينار فقال: خذها واتَّجر فيها هٰهنا، فقلت: هذا معاش قد أغْناني به الله يجب أن ألزمه، فلزمتُه.

فلمّا كان بعد شهور ربحتُ فجئتُه وأخذت حقّي وأعطيتُه حقّه، فقال: اجلس؛ فجلستُ، فأخرج لي هِمياني بعينه وقال: أتعرفُ هذا؟ فحين رأيتُه شَهَقْتُ وأُغْمِي عليّ، فما أفقتُ إلا بعد ساعة! ثم قلت له: يا هذا؛ أمَلك أنت أم نبيٌّ! فقال: أنا أحفظه منذ كذا وكذا سنة، فلمّا سمعتك تلك الليلة تقول ما قلته، وطالبتك بالعلامة فأعطيْتَها أردتُ أن أُعطيكَ للوقت همِيانك، فخفتُ أن يُغْشَى عليك، فأعطيتك تلك الدنانير التي أوهمتك أنها هِبَة، وإنما أعطيتُكها من همِيانك؛ فخذ هِمْيانك واجعلني في حلّ! فشكرته ودعوتُ له.

وأخذت الهمْيان ورجعت إلى بلدي، فبعتُ الجوهر وضممت ثمنه إلى ما معي واتّجرتُ، فما مضت إلا سنيّات حتى صرت صاحب عشرة آلاف دينار وصلحت حالي!

في البخل والشّحّ
وذكر البخلاء وأخبارهم

أحاديث نبوية في ذمّ البخل
والتحذير منه والاستعاذة بالله منه(١)

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش، وإياكم والشح، فإنّما أهلكَ مَن كان قبلكم الشح: أمرهم بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، إياكم والشح، فإنه أهلك مَن كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا».

وعن أبي هريرة، أن النبيّ ﷺ قال: «إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش، وإياكم والظلم، فإنه عند الله ظلمة يوم القيامة، وإياكم والشح والبخل».

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «نجا أوّل هذه الأمة باليقين والزهد، وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل».

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع».

---

(١) كتاب البخلاء للخطيب البغدادي ص ٢٥ ـ ٦٠.

وعن شعيب بن العلاء، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ شهيدًا فبكته باكية، فقالت: واشهيداه! فقال النبيّ ﷺ: «وما يدريك أنه شهيد؟ فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه».

وعن عمر، أن النبيّ ﷺ كان يتعوّذ من خمس: «من البخل، والجبن، وفتنة الصدر، وعذاب القبر، وسوء العمر». لفظ ابن حنبل.

وعن مصعب بن سعد، عن سعد: أنّه كان يأمر بخمس، ويذكرهن عن النبيّ ﷺ: «اللهم! إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أردَّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر».

وعن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل والجبن والبخل».

وعن عمر بن محمد بن جبير بن مطعم، أن محمد بن جبير قال: أخبرني جبير بن مطعم أنه بينا هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين علقت رسول الله ﷺ الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ! فقال: «أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدونني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا».

وعن سلمان بن ربيعة، قال: قال عمر: قسم النبيّ ﷺ فقلت: غير هؤلاء كانوا أحق به منهم، قال: «إنهم يخيروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني، ولست بباخل».

وعن أبي سعيد الخدري، قال: دخل رجلان على رسول الله ﷺ، فسألاه ثمن بعير، فأعطاهما دينارين، فخرجا من عنده فلقيهما عمر ابن الخطاب، فأثنيا، وقالا معروفًا، وشكرا ما صنع بهما. فدخل عُمر على رسول الله ﷺ! فأخبره بما قالا، فقال له رسول الله ﷺ: «لكن فلانًا أعطيته ما بين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك. إن أحدكم ليسألني، فينطلق في مسألته متأبطها وهي نار». قال: فقال عمر: ولم تعطيهم ما هو نار؟ قال: «يأبون إلّا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل».

وعن جابر، قال: دخل رجلان على رسول الله ﷺ، فاستعانا في شيء، فأعانهما بدينارين، فدخل عليه عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله! رأيت فلانًا

وفلانًا خرجا من عندك، فإذا هما يثنيان خيرًا. قال: «لكن فلانًا ما يقول ذاك، وقد أعنته ما بين عشرة إلى مائة، فما يقول ذاك، فإن أحدكم يخرج بصدقته من عندي متأبطها، وإنما هي له نار». فقلت: يا رسول الله! وكيف تعطيه وقد علمت أنها له نار؟ قال: «فما أصنع؟ يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل».

وعن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن السخاء شجرة من أشجار الجنة، لها أغصان مدلاة في الدنيا؛ فمن كان سخيًا تعلَّق بغصن من أغصانها، فساقه ذلك الغصن إلى الجنة. والبخل شجرةٌ من أشجار النَّار، لهَا أغصان مدلاة في الدنيا. فمَن كان بخيلًا تعلق بغصن من أغصانها، فساقه ذلك الغصن إلى النّار».

وعنَ جعفر بن محمد، عن أبيه؛ حديث السَّخاء والبخل، قال: فقال أبو عبد الله: ليس السخيُّ المبذر الّذي ينفق ما له في غيْر حقَّه، ولكنَّه الذي يؤدي إلى الله ما فرضه عليه في ماله من الزكاة وغيرها، والبخيل الّذي لا يؤدي حقَّ الله في ماله.

وعن جعفر بن محمد؛ عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «السخاء شجرة من شجر الجنة، أغصانها متدليات في الدنيا؛ فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة؛ والبُخْلُ شجرةٌ من أشجار النَّار، أغصانها متدلياتٌ في الدنيا؛ فَمَنْ أخذ بغصْن من أغصانها قاده ذلك الغصن إلى النار».

وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «الجود من جود الله تعالى، فجودوا يجد الله لكم، ألا إن الله خلق الجود فجعله في صورة رجل، وجعل أسَّهُ راسِخًا في أصْل شجرة طوبى، وشد أغصانها بأغصان سدرة المنتهى، ودلّى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة، إلا إنّ السخاء من الإيمانَ والإيمان في الجنة. وخلق البخل من مقته، وجعل أسّهُ راسخًا في أصْل شجرة الزقوم، ودلّى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله النار، ألا إنّ البخل من الكفر، والكفر في النار».

وعن عبد الله بن جراد، قال: قال رسول الله ﷺ: «السخاء شجرة تنبت في الجنة، فلا يلج الجنة إلّا سخي، والبخل شجرة تنبت في النار، فلا يلج النار إلّا بخيل».

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قال: «مثل المنفق والبخيل مثل رجلين عليهما جنَّتان من حديد من لدن ثدييهما إلى تراقيْهما، فجعل المنفق ينفق، فاتسعت عليه الدرع، ومرّت تجن بنانه، وإن أراد البخيل أن ينفق قلصت، ولزمت كل حلقة مكانها، حتى أخذت بترقوته أو بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع».

وعنه أيضًا، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جنتان أو جبتان من لدن ثدييهما إلى تراقيهما، فإذا أراد المنفق أن ينفق سبغت عليه الدرع، أو مرت تجن بنانه وتعفو أثره، وإذا أراد البخيل أن ينفق قلصت ولزمت كل حلقة موضعها حتى تأخذ بعنقه، أو ترقوته فهو يوسعها ولا تتسع».

وعنه أيضًا، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من تراقيهما إلى ثدييهما ـ قال أحمد: إلى أيديهما ـ، فأما المنفق فلا ينفق نفقة إلا اتسعت حلقه، فهو يوسعها عليه، وأما البخيل فلا تزاد عليه إلّا استحكامًا».

وعن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «طعام السخي دواء» وقال التنوخيّ: «شفاء» ـ «وطعام الشحيح داء».

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سيدكم يا بني لحيان؟» قالوا: سيدنا جدُّ بن قيس، إلّا أنه رجل فيه بخل، قال رسول الله ﷺ: «وأي داء أكبر من البخل؟».

وعن جابر، قال: جاء حيٌّ من الأنصار، يقال لهم: بنو سلمة، رهط معاذ بن جبل، فقال: «يا بني سلمة مَن سيدكم» قالوا: سيدنا جد بن قيس؛ وإنَّا لنبخله. فقال النبيّ ﷺ: «وأيّ داء أدوى من البخل؟».

وعنه أيضًا، قال: قال النبيّ ﷺ لبني سلمة: «يا بني سلمة! من سيدكم؟» قالوا: جدُّ بن قيس، على أنَّا نبخله. قال: «وأي داء أدوى من البخل؟ بل سيدكم الأبيض عمرو بن الجموح».

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجدُّ بن قيس، ولكننا نبخله. قال: «وأيّ داء أدوى من البخل! ولكنّ سيدكم عمرو بن الجموح».

وعن أنس، قال: وقف رسول الله ﷺ على مجلس بني سلمة، فقال: «يا بني سلمة مَن سيدكم؟» قالوا: جد بن قيس، إلّا أنا نبخله. قال: «إن السيد لا يكون بخيلًا، بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح».

وعن عبد الله بن كعب، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بني سلمة! مَن سيدكم؟» قالوا: الجدّ بن قيس، على أنّا نبخله. فقال: «وأي داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم الجعد القطط عمرو بن الجموح».

وعن كعب بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: سيدنا جد بن قيس. فقال رسول الله ﷺ: «تسودونه؟» قالوا: إنه أكثرنا مالًا، وإنا على ذلك، لنزنه بالبخل. فقال رسول الله ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل؟ ليس ذلك سيدكم». قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ قال: «سيدكم بشر بن البراء».

وعن الزهري، قال: أخبرني عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ـ يعني كعبًا ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مَن سيدكم يا بني سلمة؟» فقالوا: يا رسول الله! سيدنا جدُّ بن قيس. فقال: «وبما تسودونه؟» قالوا: لأنه أكثرنا مالًا، وإنّا على ذلك لنزنُهُ بالبخل. فقال رسول الله ﷺ: «فأي داء أدوى من البخل؟ ليس ذلك سيدكم». قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ فقال: «سيدكم البراء بن معرور».

وكان جوادًا سيِّدًا مُدافِعًا عن قومه، فقال شاعر بني سلمة:

أَجَدُّ بْنُ قَيْسٍ دَاوِ بُخْلَكَ؛ إِنَّهُ ... أَبَى لَكَ عِنْدَ المُصْطَفَى أَنْ تُسَوَّدَا

ولحسان بن ثابت:

وَقَالَ رَسُولُ الله والْحَقُّ لَازِمٌ ... لِمَنْ كان مِنَّا: مَنْ تُسَمُّونَ سَيِّدَا؟
فَقُلْنَا لَهُ: جَدُّ بْنُ قَيْسٍ ـ عَلَى الَّذي ... نُبَخِّلُهُ فِينَا ـ وَقَدْ نَالَ سُؤْدُدَا
فَقَالَ: وَأَيُّ الدَّاء أَدْوَى مِنَ الَّذِي ... رَمَيْتُمْ بِهِ جدًّا وَأَعْلَى بِهَا يَدَا؟
فَسَوَّدَ بِشرَ بْنَ البَرَاءِ بِجُودِهِ ... وَحُقَّ لَبِشْرِ بْنِ الْبَرَا أَنْ يُسَوَّدَا
فَلَيْسَ بِخَاطٍ خُطْوَةً لِدَنِيَّةٍ ... وَلَا بَاسِطٍ يَوْمًا إِلَى غَيْرِهِ يَدَا

إِذَا جَاءَهُ السُّؤَالُ أَنْهَبَ مَالَهُ   وَقَالَ: خُذُوهُ؛ إِنَّهُ عَائِدٌ غَدَا
فَلَوْ كُنْتَ يَا جَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى الَّتِي   عَلَى مِثْلِهَا بِشْرٌ لَكُنْتَ الْمُسَوَّدَا

وعن أبي ذر، قال: قال النبيّ ﷺ: «ثلاثة يبغضهم الله تعالى: البخيل والمنان والفاجر». أو قال: «التاجر الحلّاف، والفقير المختال».

وعن عليّ بن أبي طالب، عن النبيّ ﷺ قال: «إن الله تعالى يبغض البخيل في حياته، السخي عند موته».

وعن أبي هريرة، عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «السخيُّ الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل».

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قال: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد».

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: سوء الخلق، والبخل».

وعن أبي عبد الرحمٰن السلمي، قال: لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلًا ولا جبانًا».

وعن جابر، عن أبي جعفر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلًا ولا جبانًا».

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «السخي قريب من الله [تعالى]، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيدٌ من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار».

وعنه أيضًا، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، وإنّ البخيل بعيدٌ من الله، بعيد من النّاس، بعيد من الجنة، قريب من النار؛ وجاهل سخيٌّ أحب إلى الله من عابد بخيل، وأدوى الداء البخل».

وعن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «السخي قريب من الله، بعيد من النار، قريبٌ من الجنة، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار؛ والجاهل السخيُّ أحب إلى الله من العابد البخيل».

وعنها أيضًا، قالت: قال رسول الله ﷺ: «السخي قريب من الله، قريب من الخير، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الخير، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار؛ وجاهل سخيٌّ أحبّ إلى الله من عابد بخيل».

وعن علقمة بن وقاص، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «السَّخيُّ قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار. والجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل».

وعن محمد بن إبراهيم التيمي، عن عائشة، أنَّ النبيّ ﷺ قال: «السخيُّ قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، والجاهل السخيُّ أحبُّ إلى الله من العابد البخيل».

وعن أبي بكر الصديق، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة خب، ولا بخيل، ولا لئيم، ولا منّانٌ، ولا سيء الملكة».

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة دار الأسخياء، والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة بخيل، ولا عاق والديه، ولا منّان بما أعطى».

وعن أبي الزاهرية، عن أبي شجرة، أن النبيّ ﷺ قال: «يقولون، أو يقول قائلكم: الشحيح أعذر من الظالم، وأي ظلم أظلم عند الله من الشح؟ حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله ألّا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل».

وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ غرس جنة عدن بيده، وزخرفها، وأمر الملائكة فشقت فيها الأنهار، فتدلت فيها الثمار، فلما نظر إلى زهرتها وحسنها، قال: وعزّتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي ما جاورني فيك بخيل».

المأثور عن المتقدمين في ذمّ البخل والبخلاء(١)

عن ابن عباس قال: «لما خلق الله تعالى جنّة عدن، قال لها: تزيني. فتزينت، ثم قال لها: أظهري أنهارك. فأظهرت عين السلسبيل، وعين الكافور،

(١) كتاب البخلاء للخطيب البغدادي.

وعين التسنيم. ففجر منها الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن. ثم قال لها: أظهري سررك وحجالك وكراسيّك وحليّك وحللك وحور عينك. [فأظهرت] فنظر إليها، فقال: تكلمي، قالت: طوبى لمن دخلني! فقال الله تعالى: وعزّتي لا أسكنتك بخيلًا».

وعن سلمان الفارسي، قال: إذا مات السّخيُّ المعسر، قالت الأرض والحفظة: ربّ تجاوز عن عبدك لسخائه في الدنيا واستخفافه بها، وإذا مات البخيل، قالت: اللهم احجب هذا العبد عن الجنة الدائمة، كما حجب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا.

وعن الشعبي، قال: ما أدري أيهما أبعد غورًا في النار، الكذب أو البخل.

وعن أبي حمزة الثمالي، قال: سمعت شيخًا أدرك الناس وهو يقول: ثلاثٌ هن أحسن شيء فيمن كنّ فيه: نصبٌ لغير دنيا، وجود لغير ثواب، وتواضع في غير ذل. وخمس هن أقبح شيء فيمن كن فيه: الحرص في العالم، والفسق في الشيخ، والبخل في الغني، والكذب في ذي الحسب، والحدةُ في السلطان.

قال في المستطرف[1]: قالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: إن البخل لو كان قميصًا ما لبسته أو كان طريقًا ما سلكته.

بخلاء العرب

قيل: بخلاء العرب أربعة: الحطيئة وحميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان. فأما الحطيئة فمر به إنسان وهو على باب داره وبيده عصا، فقال: أنا ضيف فأشار إلى العصا وقال: لكعاب الضيفان أعددتها.

وأما حميد الأرقط، فكان هجاء للضيفان فحّاشًا عليهم، نزل به مرة أضياف، فأطعمهم تمرًا، وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه.

وأما أبو الأسود، فتصدق على سائل بتمرة، فقال له: جعل الله نصيبك من الجنّة مثلها. وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالًا منهم.

(١) المستطرف: ص ١٨٣ ـ ١٨٨.

وأما خالد بن صفوان، فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيار كم تعير وكم تطرف وتطير، لأطيلن حبسك. ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه. وقيل له: لِمَ لا تنفق، ومالك عريض؟ فقال: الدهر أعرض منه، وأنشد بعضهم:

وهِبْني جمعت المالَ ثم خزنته ... وحانت وفاتي هل أُزادُ به عمرا
إذا خَزّنَ المالَ البخيلُ فإنّه ... سيورثه غمًّا ويعقبه وزرا[١]

واستأذن حنظلة على صديق له بخيل، فقيل: هو محموم، فقال: كلوا بين يديه حتى يعرق. وكتب سهل بن هارون كتابًا في مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره، «قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه». وقال ابن أبي فنن:

ذريني وإتلافي لمالي فإنّني ... أُحبّ من الأخلاق ما هو أجملُ
وإنَّ أحقّ الناس باللوم شاعرٌ ... يلوم على البخل الرجال ويبخل

بخل عمر بن يزيد الأسدي

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلًا جدًا، أصابه القولنج[٢] في بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما في بطنه في الطست، فقال لغلامه: اجمع الدهن الذي نزل من الحقنة وأسرج به.

بخل المنصور

وكان المنصور شديد البخل جدًا، مرّ به مسلم الحادي في طريقه إلى الحج، فحدا له يومًا بقول الشاعر:

أغرّ بين الحاجبين نورُهُ ... يزينه حياؤه وخيرُهُ[٣]
ومسكنه يشوبه كافوره ... إذا تغدّى رُفعت ستورُهُ[٤]

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال: يا ربيع أعطه نصف درهم، فقال مسلم: نصف درهم! يا أمير المؤمنين، والله لقد حدوت لهشام، فأمر لي بثلاثين

---

(١) الوزر: الإثم والذنب.
(٢) القولنج: مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج التفل والريح.
(٣) أغر: أبيض منير. (٤) يشوبه: يخالطه.

ألف درهم. فقال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم، يا ربيع: وكل به من يستخلص منه هذا المال. قال الربيع: فما زلت أمشي بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

بخل أبي العتاهية ومروان بن أبي حفصة

كان أبو العتاهية، ومروان بن أبي حفصة بخيلين يضرب ببخلهما المثل، قال مروان: ما فرحت بشيء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لي المهدي، فوزنتها فرجحت درهمًا، فاشتريت به لحمًا.

واشترى يومًا لحمًا بدرهم، فلما وضعه في القدر دعاه صديقه، فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين، فجعل القصاب ينادي على اللحم ويقول: هذا لحم مروان، واجتاز يومًا بأعرابية، فأضافته، فقال: إن وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهمًا، فوهبه سبعين ألف درهم، فوهبها أربعة دوانق.

بخل أهل مرو

من الموصوفين بالبخل أهل مرو، يقال: إن عادتهم إذا ترافقوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط ويجمعون اللحم كله في قدر، ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسما المرق. وقيل لبخيل: مَن أشجع الناس؟ قال: مَن سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته. وقيل لبعضهم: أما يكسوك محمد بن يحيىٰ؟ فقال: والله لو كان له بيت مملوء إبرًا، وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمناء يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر، ما أعاره إياها، فكيف يكسوني؟ وقد نظم ذلك من قال:

لو أن داركَ أنبتتْ لك واحتشتْ إبرًا يضيق بها فناءُ المنزلِ
وأتاك يوسُف يستعيرك إبرةً ليخيطَ قدّ قميصهِ لم تفعلِ[1]

---

(١) قد قميصه: شقه.

بخل المتنبي

كان المتنبي بخيلًا جدًا مدحه إنسان بقصيدة، فقال له: كم أملت منا على مدحك؟ قال: عشرة دنانير. قال له: والله لو ندفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك دانقًا.

بخل سهل بن هارون

قال دعبل: كنا عند سهل بن هارون، فلن نبرح حتى كاد يموت من الجوع، فقال: ويلك يا غلام آتنا غداءنا، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل، فتأمل الديك فرآه بغير رأس، فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال: رميته، فقال: والله إني لأكره مَن يرمي برجله، فكيف برأسه؟ ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه يصيح الديك ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقه الذي يتبرك به وعينه التي يضرب بها المثل، فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم نر عظمًا أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، وهبك ظننت أني لا آكله، أما قلت عنده مَن يأكله. انظر في أي مكان رميته فأتني به. فقال: والله لا أدري أين رميته، فقال: ولكني أنا أعرف أين رميته. رميته في بطنك، الله حسبك.

بخل أبي دلف

قيل من الناس مَن يبخل بالطعام ويجود بالمال وبالعكس. قال بعضهم في أبي دلف:

أبو دلفٍ يُضيِّع ألفَ ألفٍ ويضربُ بالحسام على الرغيفِ
أبو دلفٍ لمطبخه قتارٌ ولكن دونه سلّ السيوف(١)

دواء وغذاء

اشتكى رجل مروزي صدره من سعال، فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة، ورأى الصبر على الوجه أخف عليه من الدواء، فبينما هو يماطل الأيام ويدافع الآلام إذ أتاه بعض أصدقائه، فوصف له ماء النخالة، وقال: إنه يجلو

---

(١) قتار: دخان ذو رائحة ينبعث من القدر والشواء وغير ذلك.

الصدر، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها، فجلا صدره ووجده يعصم، فلما حضر غداؤه أمر به، فرفع إلى العشاء، وقال لامرأته: اطبخي لأهل بيتنا النخالة فإني وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدور. فقالت: لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء، فالحمد لله على هذه النعمة.

إســراف

عن خاقان بن صبح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلًا فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة، وقد علق فيها عودًا بخيط، فقلت له: ما بال هذا العود مربوطًا؟ قال: قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره، فلا نجد إلا عودًا عطشانًا، ونخشى أن يشرب الدهن. قال: فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود، فقال الرجل: يا فلان لقد فررت من شيء ووقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء وينشفان هذا العود، لِمَ لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد، فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف، والعود أيضًا ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها. فقال له الرجل الخراساني: أرشدك الله، ونفع بك، فلقد كنت في ذلك من المسرفين.

كن ضيفًا على الضيف

قال الهيثم ابن عدي: نزل على أبي حفصة الشاعر رجل من اليمامة، فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه، ثم رجع وكتب إليه:

يا أيها الخارجُ من بيته ... وهاربًا من شدة الخوفِ
ضيفك قد جاء بزادٍ له ... فارجع وكن ضيفًا على الضيف

ما أكثر السؤال في هذا المكان!

اشترى رجل من البخلاء دارًا وانتقل إليها، فوقف ببابه سائل فقال له: فتح الله عليك. ثم وقف ثانٍ، فقال له مثل ذلك، ثم وقف ثالث، فقال له مثل ذلك، ثم التفت إلى ابنته، فقال لها: ما أكثر السؤال في هذا المكان. قالت: يا أبت ما دمت مستمسكًا لهم بهذه الكلمة فما تبال كثروا أم قلوا.

بخل حميد الأرقط

ألأم اللئام وأبخلهم حميد الأرقط الذي يقال له هجاء الأضياف، وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له:

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت ... وبين أخرى تليها قيد أظفور

وقال فيه أيضًا:

تُجهز كفّاهُ ويحدر حلقُه ... إلى الزور ما ضمّت عليه الأنامل(١)

بخل أبي الأسود

أكل أعرابي مع أبي الأسود رطبًا فأكثر، ومد أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها فسقطت منه في التراب، فأخذها أبو الأسود وقال: لا أدعها للشيطان يأكلها، فقال الأعرابي: والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزل من السماء ما تركها.

أقوال وأشعار في البخل

وقال أعرابي: لنزيل نزل به: نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور، فأقم بعدم أو ارحل بندم وللحمدوني:

رأيتُ أبا زرارة يومًا ... لحاجبه وفي يده الحسامُ
لئن وُضِع الخوان ولاح شخصٌ ... لاختطفن رأسك والسلام(٢)
فقال سوى أبيك فذاك شيخ ... بغيضٌ ليس يردعه الكلام
فقام وقال من حنق إليه ... ببيت لم يُرد فيه القيام
أبي وَابْنَا أبي والكلبُ عندي ... بمنزلةٍ إذا حضر الطعام
وقال له ابن لي يا ابن كلب ... على خبزي أصادر أو أضام(٣)
إذا حضر الطعام فلا حقوقٌ ... علي لوالديَّ ولا ذمام
فما في الأرض أقبحُ من خوان ... عليه الخبز يحضره الزحام

(١) يحدر حلقه: يهبط. والزور: الصدر.
(٢) الخوان: الطعام وآنيته.
(٣) أضام: أظلم وأذل.

فأين هذا من القائل:

بخيل يرى في الجود عارًا وإنما يرى المرء عارًا أن يضنّ ويبخلا
إذ المرء أثرى ثم لم يُرج نفعه صديقٌ فلاقته المنية أوّلًا

وقال آخر:

وآمرةٌ بالبخل قلت لها اقصري فليس إليه ما حييت سبيلُ
أرى الناس إخوان الكريم وما أرى بخيلًا له في العالمين خليل

وقالوا إذا سألت لئيمًا شيئًا فعاجله ولا تدعه يفكر، فإنه كلما فكر ازداد بعدًا
وقال ربعي الهمداني:

جمعت صنوف المال من كلِّ وجهةٍ وما نلتها إلّا بكفّ كريم
وإني لأرجو أن أموت وتنقضي حياتي وما عندي يدٌ للئيم

وأنشد الجاحظ لأبي الشمقمق:

ممن تعلمت هذا أن لا تجود بشيء أما مررت بعبده، لعبد حاتم طي

ومما قالته الشعراء في البخلاء وطعامهم فمن أهجى ما قيل فيهم بيت جرير في بني تغلب:

والتغلبي إذا تنحنح للقرى حكَّ إسته وتمثّل الأمثالا[1]

وله أيضًا فيهم:

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم واستوثقوا من رتاج الباب والدار
قوم إذا استنبح الضيفان كلبَهُمُ قالوا لأمّهم بولي على النار
فتمنع البولَ شحًا أن تجود به وما تبول لهم إلّا بمقدار
والخبز كالعنبر الهندي عندهم والقمح خمسون إردبًا بدينار

فأين هؤلاء من الذي قال فيه الشاعر:

أبلجُ بين حاجبيه نوره إذا تغدى رفعت ستوره

---

(١) للقرى: للضيافة، وإسته: عجزه.

وقال بعضهم في بخيل:

أتـانـا بـخـيـلٌ بـخـبـزٍ لـه ... كـمـثـل الـدراهـم فـي رقـتـه
إذا مـا تـنـفـس حـول الـخـوان ... تطاير في البيت من حقته[1]

وقال آخر:

تراهم خشية الأضياف خرسًا ... يـقـيـمـون الـصـلاة بـلا أذان

وقال آخر وقد بات عند بخيل:

فبتنا كأنا بينهمُ أهلُ مأتمٍ ... على ميّتٍ مستودعٍ بطن ملحد
يحدّث بعضًا بعضنا بمصابه ... ويأمر بعضًا بعضنا بالتجلد

وقال آخر:

وجيرة لا ترى في الناس مثلَهُمُ ... إذا يكون لهم عيدٌ وإفطارُ
أن يوقدوا يوسعونا من دخانهم ... وليس يبلغنا ما تطبخ النارُ

وقال آخر وأجاد:

فصدق أيمانه إن قال مجتهدًا ... لا والرغيف فذاك البرّ من قسمه
فإن هممت به فاعبث بخبزته ... فإنّ موقعها من لحمه ودمه
قد كان يعجبني لو أنّ غيرته ... على جرادقةٍ كانت على حرمه[2]

وقال آخر:

ذهـب الـكـرام فـلا كـرام ... وبقي العضاريط اللئام[3]
مـن لا يُـقـيـل ولا يـنـيـ ... ـل ولا يُـشَـمّ لـه طـعـام

وقال آخر:

خليلي من كعبٍ أعينا أخاكما ... على دهره إنَّ الكريم معين
ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه ... مخافة أن يرجى نداء حزين
إذا جئته في حاجة سدَّ بابه ... فلم تلقهُ إلّا وأنت كمين

(١) حقته: أي الغضب.
(٢) الجرادق: الرغيان بالفارسية.
(٣) العضاريط: الخدم.

وقال آخر:

لـه يـومـان يـوم نـدى ويـومٌ ... يسل السيفَ فيه من القراب[١]
فـأمـا جـنـوده فـعـلى قـحـابٍ ... وأمـا سـيـفـه فـعـلى الـكـلاب

وقال آخر:

زففت إلى نبهانٍ من صفو فكرتي ... عروسًا غدا بطنُ الكتاب لها صدرا
فـقـبّـلها عـشـرًا وهـام بـحـبـهـا ... فلما ذكرت المهر طلّقها عشرا[٢]

وقال آخر:

لـو عـبَـرَ الـبـحـر بـأمـواجـه ... فـي لـيـلةٍ مـظـلـمـة بـاردة
وكـفّـه مـمـلـوءة خـردلًا ... ما سقطتْ من كفه واحدة[٣]

وقال آخر:

يـا قـائـمًـا فـي داره قـاعـدًا ... مـن غـيـر مـعـنًـى لا ولا فـائـدة
قد مات أضيافك من جوعهم ... فـاقـرأ عـلـيـهـم سـورة الـمـائـدة

وقال آخر:

نـوالـك دونـه شـوك الـقـتـاد ... وخـبـز كـالـثـريـا فـي الـبـعـاد[٤]
فـلو أبـصـرت ضـيـفًـا فـي منـام ... لـحـرمـت الرّقـاد إلـى الـعـبـاد[٥]

وقال آخر:

لا تـعـجـبـنّ لـخـبـز زلّ مـن يـده
فالكوكب النحس يسقي الأرض أحيانا

وقال ابن أبي حازم[٦]:

وقـالـوا قـد مـدحـت فـتًـى كـريـمًـا ... فـقـلـتُ وكـيـفَ لـي بـفـتًـى كـريـمِ

(١) القراب: أي الغمد. (٢) المهر: ما يدفع للعروس من مال وغيره.
(٣) الخردل: نبات له حب صغير يستعمل في الطب وفي التوابل.
(٤) القتاد: نبات شوكه شديد الوخز. (٥) المعاد: القيامة.
(٦) ابن أبي حازم هو عبد العزيز بن سلمة بن دينار المدني، أبو تمام فقيه محدث. قال ابن حنبل: لم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه من أبي حازم.

بلوتُ ومرّ بي خمسون حولًا وحسبك بالمجرب من عليمِ[١]
فلا أحدٌ يعدّ ليوم خيرٍ ولا أحدٌ يجود على عديم

بخل محمد بن الجهم

من رؤساء أهل البخل: محمد بن الجهم، وهو الذي قال: وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء وعشرة من الشعراء وعشرة من الأدباء تواطؤا على ذمي واستسهلوا شتمي حتى ينتشر ذلك في الآفاق، فلا يمتد إلى أمل آمل ولا يبسط نحوي رجاء راجٍ.

وقال له أصحابه يومًا: إنا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة تعرفنا بها وقت استثقالك لمجالستنا، فقال: علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء.

خصــام

قال عمر بن ميمون: مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جارًا له، فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقًا لي زارني فاشتهى رأسًا فاشتريته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمل بها فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذي اشترى الرأس.

أنت صاحبها

قال رجل من البخلاء لأولاده: اشتروا لي لحمًا فاشتروه، فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده إلا عظمة، وعيون أولاده ترمقه. فقال: ما أعطي أحدًا منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها. فقال ولده الأكبر: أشمشمها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر[٢] فيها مقيلًا[٣] قال: لست بصاحبها. فقال الأوسط: ألوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدري أحد لعام هي أم لعامين. قال: لست بصاحبها، فقال الأصغر: يا أبت أمصها ثم أدقها وأسفها سفًا. قال: أنت صاحبها، وهي لك زادك الله معرفة وحزمًا.

---

(١) الحول: العام.
(٢) الذر: صغير النمل.
(٣) القيل: مكان الاستراحة.

بخل أبي الأسود

وقف أعرابي على باب أبي الأسود وهو يتغدى، فسلم فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه، فقال له الأعرابي: أما إني قد مررت بأهلك، قال: كذلك كان طريقك. قال: وامرأتك حبلى. قال: كذلك كان عهدي بها. قال: قد ولدت. قال: كان لا بد لها أن تلد. قال: ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين. قال: ثم مات الآخر. قال: ما كان ليبقى بعد موت أخيه. وقال: ماتت الأم. قال: حزنًا على ولديها. قال: ما أطيب طعامك. قال: لأجل ذلك أكلته وحدي ووالله لا ذقته يا أعرابي.

بخل أعرابي

قيل: خرج أعرابي قد ولاه الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه أعرابي من حيه فقدم إليه الطعام وكان إذ ذاك جائعًا، فسأله عن أهله وقال: ما حال ابني عمير؟ قال: على ما تحب قد ملأ الأرض والحي رجالًا ونساءً. قال: فما فعلت أم عمير؟ قال: صالحة أيضًا. قال: فما حال الدار؟ قال: عامرة بأهلها. قال: وكلبنا إيقاع؟ قال: قد ملأ الحي نبحًا، قال: فما حال جملي زريق؟ قال: على ما يسرك. قال: فالتفت إلى خادمه وقال: ارفع الطعام فرفعه ولم يشبع الأعرابي ثم أقبل عليه يسأله وقال: يا مبارك الناصية أعد علي ما ذكرت، قال: سل عما بدا لك، قال: فما حال كلبي إيقاع؟ قال: مات. قال: وما الذي أماته؟ قال: اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات. قال: أوَمات جملي زريق؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته؟ قال: كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير. قال: أوَماتت أم عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماتها؟ قال: كثرة بكائها على عمير. قال: أومات عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته؟ قال: سقطت عليه الدار. قال: أوسقطت الار؟ قال: نعم. قال: فقام له بالعصا ضاربًا فولّى من بين يديه هاربًا.

غلب على كل طبع أهله

حكى بعضهم قال: كنت في سفر فضللت عن الطريق فرأيت بيتًا في الفلاة فأتيته، فإذا به أعرابية فلما رأتني قالت: مَن تكون؟ قلت: ضيف. قالت: أهلًا

ومرحبًا بالضيف انزل على الرحب والسعة، قال: فنزلت فقدمت لي طعامًا فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت فقال: مَن هذا؟ فقالت: ضيف. فقال: لا أهلًا ولا مرحبًا ما لنا وللضيف، فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتي وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتًا في الفلاة فقصدته، فإذا فيه أعرابية فلما رأتني قالت: مَن تكون؟ قلت: ضيف، قالت: لا أهلًا ولا مرحبًا بالضيف ما لنا وللضيف؟ فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت فلما رآني قال: مَن هذا؟ قالت: ضيف. قال: مرحبًا وأهلًا بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مرّ بي بالأمس فتبسمت، فقال: مِمَ تبسمك؟ فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلها وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا تعجب إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي وإن بعلها أخو امرأتي هذه، فغلب على كلّ طبعُ أهله.

بُخل المنصور العباسي

كان المنصور بخيلًا ممسك اليد. حدّث الوضيء بن عطاء قال: استزارني أبو جعفر المنصور، وكانت بيني وبينه خلالة وصداقة قبل الخلافة. فصرت إلى مدينة السلام، فخلونا يومًا، فقال: يا أبا عبد الله: ما مالك؟ قلت: الخبر الذي يعرفه أمير المؤمنين. قال: وما عيالك؟ قلت: ثلاث بنات والمرأة وخادم لهنّ. فقال لي: أربع نساء في بيتك؟ قلت: نعم.

وردّد المنصور عليَّ ثلاثًا حتى ظننت أنه سيموّلني. ثم رفع رأسه إليَّ وقال: أنت أيسر العرب والله! أربعة مغازل في بيتك؟!

ويُروى أن أبا دلامة دخل على المنصور فأنشده:

رأيتك في المنام كسوت جلدي ثيابًا جمّة وقضيت ديني
فصدِّق يا فدتك الناس رؤيا رأتها في المنام كذاك عيني

فأمر له بذلك وقال: لا تتحلّم عليَّ ثانية، فأجعل حلمك أضغاثًا ولا أُحققه.

روى الأصفهاني أن المؤمل الشاعر قدم على المهدي بالري، وهو إذا ذاك ولي عهد، فامتدحه بأبيات، فمنحه المهدي عشرين ألف درهم. فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور. فكتب المنصور إلى المهدي يعذُلُهُ ويلومه.

وطلب الشاعر حتى أتيَ به. فقال المنصور له: أتيت غلامًا غرًّا كريمًا فخدعته فانخدع. أنشدني ما قلت فيه. فأنشده قصيدته التي منها:

هو المهديُّ إلا أن فيه ... مشابه صورة القمر المنير

لقد سبق الملوك أبوه حتى ... بقوا ما بين كابٍ أو حسير

فإن بلغ الصغيرُ مدى كبيرٍ ... فقد خُلق الصغيرُ من الكبير

فقال المنصور: أحسنت، ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم. يا ربيع أعطه أربعة آلاف، وخذ الباقي. ولما آلت الخلافة إلى المهدي حضر الشاعر ورفع له ظلامة بين رقاع المظالم فلما قرأها المهدي ضحك. وأعاد له ما أخذ منه وزاده أربعة آلاف[١].

كان مسلم الحادي ممن يجيدون الحداء، وقد حدا يومًا للمنصور حداء أطرب المنصور وأعجبه حتى ضرب برجله المحمل. ثم قال للربيع: يا ربيع أعطه عشرين درهمًا. فقال مسلم: يا أمير المؤمنين. والله لقد حدوت لهشام، فأمر لي بثلاثين ألف درهم. فقال المنصور: تأخذ المال من مال المسلمين ثلاثين ألف درهم من أجل حداء؟

يا ربيع، وكِّلْ مَن يستخلص منه هذا المال، قال الربيع: فما زلت أمشي بينهما وأروض المنصور فما سكت حتى قبِل مسلم على نفسه أن يحدو للمنصور في ذهابه وإيابه بغير مؤونة.

بخل أهل خراسان

قال الجاحظ: زعم أصحابنا أن خراسانية ترافقوا في منزل، وصبروا على الارتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر.

ثم إنهم تناهدوا وتخارجوا، وأبى واحد منهم أن يعينهم وأن يدخل معهم في الدفع. فكانوا إذا جاء المصباح، شدُّوا عينيه بمنديل، ولا يزال، ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح. فإذا أطفأوه أطلقوا عينيه.

(١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

أبو جعفر الطرسوسي

زار أبو جعفر الطرسوسي قومًا فأكرموه وطيبوه، وجعلوا في شاربه وسبلته طيبًا.

فحكته شفته العليا، فأدخل إصبعه فحكها من باطن الشفة حتى لا تأخذ إصبعه من الغالية شيئًا إذا حكها من فوق.

إمام البخلاء

زعموا أن رجلًا قد بلغ في البخل غاية، وصار إمامًا، وأنه كان إذا صار في يده الدرهم. خاطبه وناجاه، وفدّاه. وكان مما يقوله له: «كم من أرضٍ قد قطعت؟، وكم من كيس قد فارقت؟ وكم من خامل قد رفعت؟ ومن رفيع قد أخملت، لك عندي أن لا تعرى ولا تضحى» ثم يلقيه في الكيس، ويقول له: اسكن على اسم الله، في مكان لا تهان، ولا تزلّ ولا تزعج منه. وقيل: إنه لم يُدخل في كيسه درهمًا قط ثم أخرجه. وخرج مرة ومعه درهم ليشتري به، فرأى حوّاءً يحمل حية على كتفه لدرهم واحد فقط يأخذه، فقال صاحبنا لنفسه: أأتلف شيئًا تبذل فيه النفس بأكلة أو شربة؟ والله ما هذا إلا موعظة لي من الله، فرجع إلى أهله وردّ الدرهم إلى كيسه، فكان أهله منه في بلاء، وكانوا يتمنون الخلاص منه بالموت والحياة بدونه، ولما مات وظن أهله أنهم استراحوا منه ومن بخله، قدم ابنه فاستولى على ماله وداره، ثم قال: ما كان إدام أبي؟ فإن أكثر الفساد إنما بالإدام، قالوا: كان يتأدم بجبنة عنده. قال: أرونيها. فإذا فيها حزٌ كالجدول من مسح اللقمة. قال: ما هذه الحفرة؟ قالوا: كان لا يقطع الجبن بل يمسحها بالخبز مسحًا.

قال: فبهذا أهلكني، وبهذا أقعدني هذا المقعد. ولو علمت ذلك ما صلّيت عليه. قالوا له: فأنت كيف تريد أن تضع؟ قال: أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة.

ديكة مرو

قال الجاحظ: لم أرَ الديك في بلدة إلَّا وهو لاقطٌ يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها قدَّام الدجاجة إلا ديكة مَرْوَ. فإني رأيت الديكة تسلب الدجاج ما في

مناقيرها من الحب. قال: فعلمت أنَّ بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء، فمن ثم عمَّ جميع حياتهم.

صبية مرو

حدّث أحمد بن رشيد قال: كنت عند شيخ من أهل مرو وصبيٌّ له صغير يلعب بين يديه. فقلت له إمَّا عابثًا أو ممتحنًا: أطعمني من خبزكم. قال: لا تريده فهو مُرّ. قلت: فاسقني ماءكم. قال: لا تريده هو مالح.

فصرت كل ما قلت له: هات من كذا. قال: هو كذا، إلى أن عددت له أصنافًا كثيرة وكل ذلك يمنعنيه.

فضحك أبوه وقال: ما ذنبنا هذا مَن علَّمَهُ ما تسمع؟ يعني أن البخل طبعٌ فيهم وفي أعراقهم وطينتهم.

بخيلة فصيحة

قالت: أعرابية لابنها حين خاصمته إلى عامل الماء: أما كان لك بطني وعاء؟ أما كان لك حجري فناء؟ أما كان لك ثدي سقاء؟ فقال ابنها: أصبحت خطيبة، رضي الله تعالى عنك!

أقوال وأشعار في البخل

عبد الرحمٰن، يعني: ابن أخي الأصمعي، عن عمه، قال: سمعت أعرابيًا يقول: الحسدُ ما حقٌ للحسنات، والزهو جالبُ لمقت الله عزّ وجلّ ومقت الصَّالحين، والعجب صارفٌ عن الازدياد من العلم، داع إلى التخمُّط والجهل؛ والبخل أسوأ الأخلاق وأجلبها لسوء الأُحدُوثة.

قال عبد الله بن عمر بن لقيط:

مَا أَحْسَنَ الجُودَ مَعَ العُسْرِ وَأَقْبَحَ البخلَ مَعَ اليُسْرِ
لَيسَ يُواسِي النَّاسَ مِنْ مَالِهِ مَنْ حَدَّثَتْهُ النَّفسُ بالفَقْرِ

وعن إسحٰق بن إبراهيم الموصلي مختلط قال: دخلت على هارون الرشيد، فقال لي: يا أبا إسحٰق! أنشدني شيئًا من شعرك، فأنشدته:

وَآمرَة بالبُخل قُلْتُ لَهَا: اقْصري فَذَلكَ شَيْءٌ مَا إلَيْه سَبيلُ

أَرَى النَّاسَ خلَّانَ الْجَوَاد وَلَا أرَى بَخيلًا لَهُ في الْعَالَمينَ خَليلُ
وَإنِّي رَأَيْتُ الْبُخْلَ يُزْري بأَهْله فَأَكْرَمْتُ نَفْسي أَنْ يُقَالَ: بَخيلُ
وَمَنْ خَيْرِ حَالات الْفَتَى ـ لَوْ عَلمْته ـ إذَا نَالَ شَيْئًا أَنْ يَكُونَ يُنيلُ
عَطَائي عَطَاءُ الْمُكْثرينَ تَكَرُّمًا وَمَالي ـ كَمَا قَدْ تَعْلَمينَ ـ قَليلُ
وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ أَوْ أُحْرَمُ الغنَى وَرَأْيُ أَمير الْمُؤْمنينَ جَميلُ؟!

فقال الرشيد: لا، كَيْفَ إنْ شاء الله تعالى، يا فضل! أعْطهِ مائةَ ألف درهم. ثم قال: لله درُّ أبيات تأتينا بها يا إسحٰق! ما أجود أصولهَا! وأحسن فصولها! فقلت: يا أمير المؤمنين، كلامُكَ أحسن من شعري، فقال: يا فضل! أعطه مائة ألف أخرى؛ فكان ذلك أول مال اعتقدته.

وعن أبي الحسن القرشي، قال: قال رجلٌ من العباد: صغر فلانٌ في عيني لعظم الدنيا في عينه، كان يرد السائل ويبخل النّائل.

وعن الأصمعي، قال: سمعت أعرابيًا وقد وصف رجُلًا، فقال: لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه، وكأنما يرى بالسائل إذا رآه ملك الموت إذا أتاه.

وعن أبي بكر محمد بن القاسم الأنباريّ، قال: أنشدني أبي

لَمَّا رَأَيْتُ السُّوَّالَ قَدَ كَثُرُوا وَالمَالُ قُوتُ يُمْسِكُ الرَّمَقَا
خَيَّرْتُ نَفْسِي بَيْنَ الخَصَاصَةِ وَالـ ـبُخْلِ، فَقَالَتْ نَصِيحَةً شفقَا
البُخْلُ عَارٌ يَبْقَى وَلا عَارَ لِلـ ـفَقْرِ، وَشَرُّ العُيُوبِ مَا لَصِقَا
فَاخْتَارَتِ الفَقْرَ مِنْ تَكَرُّمِهَا وَقَالَتْ: البُخْلُ شَرُّ مَا خُلِقَا

وعن محمد بن سماعة قال: سمعت أبا يوسف يقول: سمعت أبا حنيفة يقول: لا أرى أن أعدل بخيلًا. فقيل له: وكيف؟ قال: يحمله البخل على التقصي، فيأخذ فوق حقه مخافة أن يغبن، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة.

وعن مليح بن وكيع، قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبا حنيفة يقول وقد ذكر عنده ذم البخيل وإسقاط شهادته: من أين قلت؟ فقال: سمعت عطاء بن رباح يقول: قال عليّ بن أبي طالب: والله ما استقصى كريم قط. قال الله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ [التحريم: الآية ٣].

عن أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، قال: أنشدنا أحمد بن يحيىٰ، وأبي، واللّفظُ في الروايتين مختلط، وأحدهما يزيد وينقص:

وَعاذلَة هَبَّتْ عَليَّ تَلُومُني ... وَلَمْ يَغْتَمِزْنِي قَبْلُ ذَاكَ عَذُولُ
تَقُولُ اتَّئِدْ لَا يَدْعُكَ النَّاسُ مُمْلِقًا ... وَتَزْرِ بِمَنْ - يَا ابْنَ الكِرَام! - تَعُولُ
فَقُلْتُ: أَبتْ نَفْسي عَلَيَّ كَريمَةً ... وَطَارقُ لَيْلٍ غَيْرَ ذَاكَ يَقُولُ
أَلَمْ تَعْلَمِي - يَا عَمْرَكِ الله أَنَّني ... كَرِيمٌ عَلَى حِيْنَ الكِرَامُ قَلِيلُ؟
وَإِنِّي لَا أَخْزَى إِذَا قِيلَ: مُمْلِقٌ ... سَخِيٌّ وَأَخزَى أَنْ يُقَالَ: بَخيلُ

قال أبو العيناء: حضرت بعض إخواني من الأدباء وهو يجود بنفسه يردد شعرًا حتى مات:

يَرَى الحُرُّ أَحْيَانًا إِذَا قَلَّ مَالُهُ ... مِنَ الجُود سَاعَاتٍ فَلا يَسْتَطِيعُهَا
وَمَا ذَاكَ عَنْ بُخْلٍ وَلَكنَّ وُجْدَهُ ... يُقَصِّرُ عَنْهَا وَالْبَخِيلُ يُضِيعُهَا

أبو العتاهية:

مَنْ عَفَّ خَفَّ عَلَى الصَّديق لقَاؤُهُ ... وَأَخُو الحَوَائجِ وَجْهُهُ مَمْلُولُ
وَأَخُوكَ مَنْ وَفَّرْتَ مَا في كيسه ... فَإِذَ عَبَثْتَ به فَأَنْتَ ثقيلُ
يَلْقَاكَ بالتَّعْظِيم مَا لَمْ تَرزَهُ ... فَإِذَا رَزَأْتَ أخًا فَأَنْتَ ذَليلُ
وَالْمَوْتُ أَرْوَحُ منْ سُؤالك باخلًا ... فَتَوَقَّ لَا يَمْنُنْ عَلَيْكَ بَخيلُ
هَبَةُ البَخيل شَبيهَةٌ بطبَاعه ... فَهُوَ الْقَليلُ وَمَا يُنيلُ قَليلُ
وَالْعزُّ في حَسْم المَطَامع كُلِّهَا ... فَإن اسْتَطَعْتُ فَمُتْ وَأَنْتَ نَبيلُ

وقال:

مَنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مُنْصفًا ... في الوُدِّ فَابْغِ به بَديلًا
وَعَلَيْكَ نَفْسَكَ فَارْعَهَا ... وَاكْسَبْ لَهَا حَمْلًا ثَقيلًا
وَمَنْ اسْتَخَفَّ بنَفْسه ... كَسَبَتْ لَهُ قَالًا وَقيلا
اصْرفْ بطَرْفكَ حَيْثُ شئْـ ... ـتَ، فَلَا تَرَى إلَّا بَخيلًا
وَلَرُبَّمَا سُئلَ البَخيـ ... ـلُ الشَّيْءَ لَا يَسْوَى فَتيلًا
فَيَقُولُ: لَا أَجدُ السَّبيـ ... ـلَ إلَيْه، أَكْرَهُ أَنْ أُنيلا

عن أبي بكر، قال: سمعت خالي أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، يقول: ما بقي من اللذات إلا ثلاث: ذمُّ البخلاء، وأكلُ القديد، وحك الجرب.

وقال بشر بن الحارث: البخيل لا غيبة له. قال النبيّ ﷺ: «إنك لبخيل» ومدحت امرأة عند النبيّ ﷺ فقالوا: صوامةٌ، قوامةٌ، إلا أن فيها بخلًا، قال: «فما خيرها إذًا؟».

وعن الحسين ابن الحسن المروزي، قال: أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا سفيان بن عيينة، حدّثني صدقة بن يسار، أخبرني أبو جعفر أنه ذكر لرسول الله ﷺ امرأة صوَّامة قوامة مصلية، امرأة صدق، غير أنها بخيلة، فقال: «فما خيرها إذًا».

وعن صدقة بن يسار، عن أبي جعفر محمد بن علي، قال: ذكر للنبيّ ﷺ امرأ متعبدة، فقيل: إنها بخيلة، قال: «فما خيرها إذًا».

وعن الجسن بن عمرو الشيعي السبيعي قال: سمعت بشر بن الحارث، يقول: صاحبُ زيغ سخيٌ، أخفُّ على قلبي من عابد بخيل. زاد ابن بشران: والنظر إلى البخيل يقسي القلب.

وعن حسين الأنماطي، قال: سمعت بشر بن الحارث، يقول: بقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين.

وعن إسماعيل بن الحسين المذكر القزويني، قال: سمعت يحيىٰ بن معاذ يقول: يأبى القلب للأسخياء إلّا حبًا ولو كانوا فجارًا، وللبخلاء إلّا بغضًا ولو كانوا أبرارًا.

وعن محمد بن موسى السمري، قال: أنشدنا حماد بن إسحٰق الموصلي، للخليل بن أحمد:

مَا أَقْبَحَ النُّسْكَ بِسَئَّالِ! وَأَقْبَحَ البُخْلَ بِذِي المَالِ!
وَالْحِرْصُ مِنْ شَرِّ أَدَاةِ الفَتَى لَا خَيرَ في الحِرْصِ عَلَى حَالِ
وَأَقْبَحَ الثَّرْوَةَ إنْ لَمْ تَكُنْ عِنْدَ أَخِي جُود وَإِفْضَالِ!
مَنْ بَاتَ مُحْتَاجًا إِلَى أَهْلِهِ هَانَ عَلَى ابنِ العَمِّ وَالْخَالِ
مَا وَقَعَ الْوَاقِعُ فِي وَرْطَةٍ أَزْرَتْ بِهِ مِنْ رِقَّةِ الْحَالِ

وقال عبد الله بن المعتز: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه.

وعن ثعلب، عن ابن الأعرابي يعني أنه أنشد:

تَكَامَلَ فِيهِ الجُودُ والْبُخْلُ فَاعْتَلَى   بفَضْلَيْهِمَا وَالْبُخْلُ بِالْمَرْءِ قَدْ يُزْرِي

أراد الجودَ بماله، والبخل بعرضه، والبخل الثاني ضد السخاء.

وعن أبي عبيد الله المرزباني، قال: أنشدنا أبو الحسن عليّ بن سليمان الأخفش، قال: أنشدنا أبو العباس محمد بن يزيد، عن أبي محلم، لعباس المشوق، هكذا في أصل المرزباني مضبوط:

قَالَ الْبَخِيلُ: أَنَا أَسُودُ عَشِيرَتِي   بِدَرَاهِمِي وَبِكِسْوَتِي وَمَوَاكِبِي
فَأَجَابَهُ أَدْنَى الْعَشِيرَةِ كُلِّهَا   نَسَبًا إِلَيْهِ فِي الحَرَامِ الْكَاذِبِ

وعن العباس ابن العباس الجوهري، قال: أنشدنا أبو عبد الله الصوفي لنفسه:

الْبُخْلُ شُؤْمٌ وَلَهُ قَسْوَةٌ   وَكُلُّ مَا ضَرَّ فَمَذْمُومُ
قَدْ فَازَ مَنْ كَانَتْ لَهُ نِعْمَةٌ   تَظْهَرُ وَالْمَعْرُوفُ مَكْتُومُ
أَمْوَالُهُ يُنْفِقُهَا رَاضِيًا   وَهُوَ بِشُكْرِ الله مَوْسُومُ
وَآخَرُ يَحْرُسُ أَمْوَالَهُ   مُوَكَّلٌ بِالْجَمْعِ مَهْمُومُ
قَدْ عَدِمَ اللَّذَّاتِ فِي ذَوْقِهِ   كَأَنَّهُ الكَشْحَانَ مَحْمُومُ

وعن عبد الله بن خبيق، قال: لقي يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام إبليس في صورته، فقال: يا إبليس! أخبرني بأحبّ الناس إليك، وأبغض الناس إليك. قال: أحب الناس إليّ المؤمن البخيل، وأبغضهم إليّ الفاسق السمحُ. قال يحيىٰ: وكيف ذلك؟ قال: لأن البخيل قد كفاني بخله، والفاسق السخيّ أتخوف أن يطّلع الله عليه في سخائه فيقبله. ثم ولّى وهو يقول: لولا أنك يحيىٰ لم أخبرك.

وعن أحمد بن محمد بن عيسى المكي، قال: أنشدنا أبو العيناء:

لَحَجْلٌ هَكَذَا مَيْلًا   عَلَى رِجْلَيْنِ أَوْ رِجْلِ
وَوَطْءُ الحَسَكِ المُلْقَى   بِلَا خُفٍّ وَلَا نَعْلِ
وَمَشْيٌ فِي اللَّيَالِي القُرْ   رِ فِي المَاءِ وَفِي الوَحْلِ
وَشُرْبُ المُسْكِرِ المُرِّ الْـ   ـلَذِي يَذْهَبُ بِالْعَقْلِ

وَإِقْـدَامٌ عَـلَى الـلَّيْـث ... مَـعَ الـلَّبْـوَة وَالـشُّبْـل
لَنَـا أَصْـلَحُ مِـنْ أَنْ نُـنْـ ... ـزِلَ الـحَـاجَـةَ بِـالـنَّـذْل

وعن طاهر بن عبد الله قال: كان ببغداد أخوان يقال لأحدهما: عقبة، وكان من أجود الناس. ويقال للآخر: عيسى، وكان من أبخل الناس. فقال فيهما ابن بسّام الشاعر:

لَمْ يَدْرِ مَا كَرَمٌ عِيسَى فَلِيمَ كَمَا ... لَمْ يَدْرِ عُقْبَةُ مَا لُؤمٌ فَلَمْ يُلَمِ
فَزْهْدُ عُقْبَة فِي «لا» حِينَ نَسْأَلُهُ ... كَزُهْدِ عيسَى إذا ما سِيلَ فِي «نَعَمِ»

وعن أبي القاسم عبيد الله بن علي بن عبيد الله الرقي، قال: قرأت بخط أبي عليّ الفارسي مكتوبًا:

وَقَـائِـلٌ: «لا» أَبَـدًا ... إنْ جَـدَّ أَوْ إنْ هَـزَلا
حَـتَّـى إذَا اضْـطُـرَّ إلـى ... قَـوْلِ: «نَـعَـم» قَـالَ: «بَـلَى»
تَـأَنُّـسًـا مِـنْـهُ بِـمَـا ... تَـضَـمَّـنَـتْ مِـن ذِكْـرِ: «لَا»

وعن أبي علي الحسين بن القاسم الكوكبي، قال: قال لي أبو العباس المبرد: قيل لأبي الحارث جمين: لو لقيت فلانًا لَحبَاكَ ونالَك ببرٍّ، واستظرفَكَ. قال: قد أتيته فوجدته ألفًا. قال: وما ألفٌ؟ قال: ألفٌ نصف «لا» وهو ثلث «لاش».

قال: وقيل له مرة: بلغنا أنك صرت إلى نصر بن رستم، فكيف وجدته؟ قال: مشجب. قيل: وما معنى مشجب؟ قال: من أين أتيته رأيت (لا).

وعن عليّ بن سلام أبو الحسن القطان الهروي، قال: حدَّثني روح بن عمر العامري، قال: كنت مع أبي وهب، فسأل رجلًا من أهله حاجة، فبخل بها عنه فأنشد أبو وهب يقول:

إذَا أَنَـا لَمْ أُثْـنِ بِـخَـيْـرِ عَـلِمْـتُـهُ ... وَلَمْ أذمُمِ الرِّجْسَ الْبَخِيلَ الْمُذَمَّما
فَفِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ باسْمِهِ ... وَشَقَّ لِيَ الله الـمَسَامِعَ وَالفَمَا؟

قال محمد بن المنكدر: كان يقال: إذا أراد الله تعالى بقوم شرًا أمر عليهم شرارهم؛ وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم.

وعن إبراهيم بن أبي عبلة، قال: سمعت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز تقول: أف للبخل، لو كان البخل قميصًا ما لبسته، ولو كان طريقًا ما سلكته.

وقال الواعظ: والله لو كان البخل طريقًا ما سلكته، ولو كان ثوبًا ما لبسته.

قال أبو عمير: هذا يسوي خمسين حديثًا. هذا مما سألني عنه يحيىٰ بن معين.

وعن عبيد الله بن محمد التميمي، قال: أنشدني بعض الكرام بيتًا فقلت: ما هو يا أبا عبد الرحمٰن؟! قال:

لَهُ دَيـنٌ وَلَيْـسَ عَـلَيْـهِ دَيْـنٌ وَذَاكَ عَـلامَـةُ الـرَّجُـلِ الْبَـخِـيـلِ

لا أتقيأ طباهجة ببيض أبدًا

قال عمر: حدّثنا ناجية بن عبد الله البصري، قال: كان عندنا بالبصرة رجل ميسر، وكان بخيلًا على نفسه وعلى عياله، فدعاه بعض جيرانه، فوضع بين يديه طباهجة[١] ببيض، فأكل، فأكثر، وجعل يشرب الماء، فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت فجعل يتلوى، فلما أجهده الأمر، وخاف الموت على نفسه، بعث إلى جار له متطبب، فدخل عليه، فقال: ما حالك؟ قال: أكلت طباهجة ببيض، وشربت ماءً كثيرًا، وقد نزل بي الموت. فقال: لا بأس عليك، قم فتقيأ ما أكلت وقد برئت. فقال: ها! أتقيأ طباهجة ببيض؟ أموت ولا أتقيأ طباهجة ببيضٍ أبدًا.

وقال حماد عجرد:

زرْتُ امْـرَأً فـي بَـيْـتِـهِ مَـرَّةً لَهُ حَـيَـاءٌ وَلَهُ خَـيْـرُ
يَـكْـرَهُ أَنْ يُـتْـخَـمَ زُوَّارُهُ إِنّ أذَى الـتُّـخْـمَـةِ مَـحْـذُورُ
وَيَـشْـتَـهِـي أَنْ يُـؤْجَـرُوا عِـنْـدَهُ بـالـصَّـوْمِ والـصَّـائِمُ مَـأجُـورُ

---

(١) ذكر أدي شير في كتابه «الكلمات الفارسية المعربة» أن فارسيته «تباهه» وأنه طعام من بيض وبصل ولحم، وقال الخفاجي في «شفاء الغليل» (١٢٩): أنه الكباب، ثم قال: والعرب تسميه الصفيف. وقيل: هو اللحم المقلي بالدهن.

ولدعبل الخزاعي:

أَضْيَافُ عُثْمَانَ فِي خَفْضٍ وَفي دَعَةٍ وَفِي عَطَاء لَعَمْري، غَيْرَ مَمْنُوعِ
وَضَيْفُ عَمْرٍو وَعَمْرٌو يَسْهَرَانِ مَعًا عَمْرٌو لِتُخْمَتِهِ، والضَّيْفُ للْجُوعِ

وعن أبي الحسين محمد بن الحسن بن أحمد الأهوازي، قال: أنشدنا وليد بن معن الموصلي:

يَقُولُ إِذَا جَاءَهُ زَائِرٌ فَدَيْتُكَ! إن الْعَشَا مَتْخَمَهْ
وَإِنْ زارَ هُوَ قَالَ: نَفْسِي الْفِدَا تَعَشَّ؛ فَتَرْكُ الْعَشَا مَهرَمَهْ

ولبعضهم:

مَا يُبالي أَعَيْنُهُ فَارَقَتْهُ أَمْ كَسَرْنَا رَغِيفَهُ فَأَكَلْنَا
قَدْ نَزَلْنَا بِهِ نُرِيدُ قِرَاهُ فَابْتَدَا يَمْدَحُ الصِّيَامَ، فصُمْنَا

أخبرنا أبو الحسن العتيقي وأبو محمد الجوهري؛ قالا: أنشدنا محمد بن العباس، قال: أنشدنا علّان بن أحمد الرَّزاز، قال: أنشدنا قاسم وأنشد أبو عكرمة:

أَتَيْتُ عَمْرًا سَحَرًا فَقَالَ: إِنِّي صَائِمُ
فَقُلْتُ: إِنِّي قَاعِدٌ فَقَالَ: إِنِّي قَائِمُ
فَقُلْتُ: آتِيكَ غَدًا فقالَ: صَوْمِي دَائِمُ

وعن أبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الله الصوري، قال: أنشدني أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب الصوري لنفسه:

وَأَخٍ مَسَّهُ نُزُولِي بِقَرْحٍ
مِثْلَمَا مَسَّنِي مِنَ الْجُوعِ قَرْحُ
بِتُّ ضَيْفًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الدَّهْـ
ـرُ وَفِي حُكْمِه عَلَى الحُرِّ قُبْحُ
فَابْتَدَأَني يَقُولُ وَهُوَ مِنَ السَّكْـ
ـرَة بِالْهَمِّ طَافِحٌ لَيْسَ يَصْحُو
لِمْ تَغَرَّبْتَ؟ قُلْتُ: قَالَ رَسُولُ الـ
ـلَّه، والْقَوْلَ مِنْهُ نُصْحٌ وَنُجْحُ:

«سَافِرُوا تَغْنَمُوا» فَقَالَ: وَقَدْ قَا
لَ تَمَامَ الْحَدِيثِ: «صُومُوا تَصِحُّوا»

أخبرنا أبو نعيم عبد الرحمٰن بن علي بن القاسم المعدل بصور، ولعبد المحسن بن محمد في رجل بخيل:

إذَا عَزَمْتُمْ عَلَى زِيَارَتِهِ فَوَدِّعُوا الْخُبْزَ حَيْثُمَا كُنْتُمْ
فَلَيْسَ يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ لَكُمْ صُومُوا؛ أَضِيفُوا بِهِ وَقَدْ صُمْتُمْ

بخل جعفر بن عبد الواحد

عن أحمد بن إسماعيل الكاتب، قال: كان جعفر بن عبد الواحد الهاشمي بخيلًا، وكان بسر مَن رأى يستهدي رطبًا، وكان له صديق يوجه كل يوم بسلّة رطب مع غلام له، فقال له: إن الغلام يشعث السَّلَّة فاختمها؛ ففعل، فوجدها قد تشعثت، فقال له: إن أردت أن تبرني بها فاختمها بعد أن تودعها زنبورين يكونان فيها. فكانت تجيء بهيئتها، فإذا فتحها طار الزنبوران وعلم أن اليد لم تدخل فيها.

وقال ابن مناذر:

رَأَيْتُ أَبا القَعْقَاعِ إنْ ذُكِرَ الْقِرَى تَرَعَّدَ خَوْفًا وَاقْشَعَرَّتْ ذَوَائِبُهُ
رَأَى الصَّيْفَ مَكْتُوبًا فَظَنَّ بِأَنَّهُ لِتَصْحِيفِهِ ضَيْفٌ، فَقَامَ يوائِبُهْ

ولبعضهم:

رَأَى الصَّيْفَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِ دَارِهِ فَصَحَّفَهُ ضَيْفًا، فَقَامَ إلى السَّيْفِ
فَقُلْتُ لَهُ: خَيْرًا رَأَيْتَ، فَظَنَّنِي أَقُولُ لَهُ: خُبْزًا، فَمَاتَ مِنَ الْخَوْفِ

وعن الأصمعي، قال: أولُ ما تكلم به النابغة من الشعر أنه حضر مع عمّه عند رجل، وكان عمه يشاهد به الناس، ويخاف أن يكون عيبًا، فوضع الرجل كأسًا في يده وقال:

تَطِيبُ كُؤُوسُنَا لَوْلَا قَذَاهَا وَنَحْتَمِلُ الْجَلِيسَ عَلَى أَذَاهَا

فقال له النابغة:

قَـذَاهَـا أنَّ صَـاحِـبَـهَـا بَـخِـيـلٌ　　يُـحَاسِـبُ نَـفْـسَـهُ بِـكَـمِ اشْـتَـرَاهَـا

وحمي لذلـــك.

أين التين؟

وعن مهدي بن سابق، قال: أقبل أعرابي يريد رجلًا، وبين يدي الرجل طبق تين، فلما أبصر الأعرابي غطى التين بكساء كان عليه، والأعرابي يلاحظه، فجلس بين يديه، فقال له الرجل: هل تحسن من القرآن شيئًا؟ قال: نعم. قال: فاقرأ. قال: فقرأ الأعرابي: ﴿وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التِّين: الآيتان ١، ٢] قال الرجل: فأين التين؟ قال: التين تحت كسائك.

صوت المقلى

وعن محمد بن عبد الرحمٰن، قال: دعا مديني أخًا له، فأقعده إلى العصر، فلم يطعمه شيئًا فاشتد جوعه وأخذه مثل الجنون، فأخذ صاحب البيت العود، وقال له: بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك؟ قال: صوت المقلى.

أَطْـعَـمَـنـي بَـيْـضَـةً وَنَـاوَلَـنـي　　مِنْ بَعْدها ـ ذُقْتُ فَقْدَهُ ـ قَدَحا

وَقَالَ: أيَّ الأصْوات يَا ابْنَ أخي　　تُـريـدُ؟ إنِّـي أَرَاكَ مُـقْـتَـرِحـا

فَـقُـلْـتُ: مـقْـلَـىً وَصَـوْتَ جَـرْدَقَـة　　إنْ جَـازَ ذا الاقْـتَـراحُ أَوْ صَـلَحـا

فَـاشْـتَـطَّ مـنْ ذَاكَ وَامْـتَـلا غَـضَـبًـا　　وَكَـانَ سَـكْـرَانَ طَـافـحًـا، فَـصَـحـا

فَقُلْتُ: إنِّي مَزَحْتُ، قَالَ: كَذَا!　　رَأَيْـتَ حُـرًّا بـمـثْـلِ ذَا مَـزَحـا؟

بخل محمد بن يحيىٰ بن خالد بن برمك

وقيل: إن محمد بن يحيىٰ بن خالد بن برمك كان بخيلًا قبيح البخل، فسُئل نسيب له كان يألفه عنه، وقال له قائل: صف مائدته فقال: هي فتر في فتر، وصحافة منقورة من حب الخشخاش، وبين نديمه والرغيب نقدة جوزة. قال: فمن يحضره؟ قال: الكرام الكاتبون. قال: أفما يأكل معه أحدٌ؟ قال: بلى! الذباب. فقال: سوأة له أنت خاصٌ به، وثوبك مخرق. فقال: إني، والله! ما أقدر على إبرة أخيطُه بها، ولو ملك محمد بيتًا من بغداد إلى النوبة مملوءَ إبرًا، ثم جاء جبريل وميكائيل، ومعهما يعقوب النبيّ ﷺ يضمنون عنه إبرة، ويسألون إعارته إياها، ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر، ما فعل.

وأنشد هلال بن العلاء:

لَوْ أَنَّ دَارَكَ أَنْبَتَتْ فَاحْتَشَّتْ إِبَرًا يَضِيقُ بِهَا فِنَاءُ الْمَنْزِلِ
وَأَتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْرَةً لِيَخِيطَ قَدَّ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ

وقال أبو عثمان الأشنداني: كان أبو عبيدة يقول: كان الأصمعي بخيلًا، فكان يجمع أحاديث البخلاء، ويتحدث بها، ويوصي بها ولده، وكان أبو عبيدة إذا ذكر الأصمعي أنشد:

عَظُمَ الطَّعَامُ بعَيْنِهِ، فَكَأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ لِلآكِلِينَ طَعامُ

وعن محمد بن سلام، قال: كنا مع أبي عبيدة في جنازة ننتظر إخراج الميت، ونحن بقرب دار الأصمعي، فارتفعت ضجة من دار الأصمعي، فبادَرَ الناس ليعرفوا ذلك، فقال أبو عبيدة: إنما يفعلون هذا عند الخبز، كذا يفعلون إذا فقدوا رغيفًا.

جعفر بن يحيىٰ والأصمعي

قال أحمد بن عبيد: كان جعفر بن يحيىٰ يعيب الأصمعي برثاثة الهيئة، وذلك بعد أن أوصل إليه خمسمائة ألف درهم، وقد كان جعفر في يوم من الأيام ركب ليقصد الأصمعي في منزله، وأمر خادمًا له بحمل ألف دينار، ليصله بها عند انصرافه. فلما دخل منزله ورأى رثاثة حاله ووسخ منزله، ورأى في دهليزه حبًا مكسورًا، أمر الخادم برد ألف دينار، فقيل دينار فقيل لجعفر في ذلك فقال: إن لسان النعمة انطق من لسانه، وإن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مديحه وهجائه، فعلام نعطيه الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده وتنطق النعمة بالشكر عنه، ويتزيا بزي أهل المروءات، ويتغذى غذاء أهل الجدات.

وعن محمد بن مظفر بن محمد بن غالب الدينوري، قال: أنشدني منصور بن ربيعة الزهري لنفسه:

قَوْمٌ غَدَا لِلطَّعَامِ عِنْدَهُمُ وَزْنُ لُجَيْنٍ وَوَزْنُ يَاقُوتِ
إِنْ كَانَ قُوتِي إِلَيْهِمُ وَبِهِمْ بَرِئْتُ مِنْهُمْ وَمِنكَ يَاقُوتِي!

وقال بعض الشعراء:

واصِفُ دَاودَ بِالنَّدَى، غَلِطٌ كَرَاقِعِ الْوَشْيِ بِالْكَرَابِيسِ

ثِـيـابُ طَـبَّـاخِـهِ إذا اتَّـسَـخَـتْ أَنْـقَـى بَـيـاضًـا مِـنْ الْقَـراطِـيـسِ
مَـطْـبَـخُ دَاودَ فـي نَـظَـافَـتِـهِ أشْـبَـهُ شَـيءٍ بـصَـرحِ بـلْقِـيـسِ
لَوْ طُرحَ الْخُبْزُ وَسْطَ مَطْبَخِهِ مَا طَمِعَتْ فيه جَوْقَةُ السُّوسِ

ولأبي الفرج علي بن الحسين بن هندو:

لَوْ مَـاتَ لَمْ يَـأْكُـلِ الـطَّـعـامَ إذَا مَا كـانَ ذَاكَ الطَّـعـامُ مِنْ كِيسِهْ
إنْ لَمْ نُـشـاهِـدْ دُخَـانَ مَـطْـبَـخِـهِ فَـقَـدْ شَـهِـدْنَـا دُخَـانَ تَـغْـبِـيـسِهْ

ولأبي العنبر من البسيط:

يَهْوَى النَّبِيذَ وَلَكِنْ لَيْسَ يَنْبذُهُ وَمَـا بِـهِ وَلَهُ فَـقْـدٌ ولا عَـدَمُ
قَدْ كَلَّفَ النَّفْسَ مِنْهُ فَوْقَ طَاقَتِهَا مَا يَأْكُلُ اللَّحْمَ إلَّا يَوْمَ يَحْتَجِمُ

من أخبار مروان بن أبي حفصة

وعن عليّ بن محمد النوفلي، قال: قال سمعت أبي يقول: كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلًا، حتى يقرم إليه، فإذا قرم أرسل غلامه، فاشترى له رأسًا فأكل، فقيل له: نراك لا تأكل إلّا الرؤوس في الصيف والشتاء، فلم تختار ذلك؟ فقال: نعم، الرأس أعرف سعره، فآمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبنني فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه. إن مسَّ عينًا أو أذنًا أو خدًّا وقفت على ذلك؛ وآكل منه ألوانًا، آكل عينه لونًا، وأذنيه لونًا، وغلصمته لونًا، ودماغه لونًا، وأكفى مؤونة طبخه؛ فقد اجتمعت لي فيه مرافق.

وعن جهم بن خلف، قال: أتينا اليمامة، فنزلنا على مروان بن أبي حفصة، فأطعمنا تمرًا، وأرسل غلامه بفلس وسُكُرُّجَة[1] ليشتري له زيتًا، فلما جاء بالزيت، قال: خنتني. قال: من فلس؟ كيف أخونك؟ قال: أخذت الفلس لنفسك واستوهبت زيتًا.

وعن أبي العيناء محمد بن القاسم اليمامي، قال: كان مروان ابن أبي حفصة من أبخل الناس، خرج يريد الخليفة المهدي، فقالت له امرأة من أهله: ما لي عليك إن رجعت بالجائزة؟ قال: إن أعطيت مائة ألف درهم أعطيتك درهمًا؛ فأعطي ستين ألفًا، فدفع إليها أربعة دوانيق! وكان قد اشترى يومًا لحمًا

(١) السُّكُرُّجة: الإناء والصحفة.

بدرهم، فدعاه صديق له، فرد اللحم على القصّاب بنقصان دانق، وقال: أكره الإسراف.

وهجاه بعض الشعراء، فقال:

وَلَيْسَ لِمَرْوَانٍ عَلَى الْعِرْسِ غَيْرَةٌ وَلَكِنَّ مَرْوَانًا يغارُ عَلَى الْقِدْرِ

وقال مخلد الموصلي:

فَتَى لا يَغَارُ عَلَى عِرْسِهِ وَلَكِنْ يَغَارُ عَلَى خُبْزِهِ
يَدُ الْبُخْلِ قَدْ شَبَّكَتْ كَفَّهُ وَكَفُّ السَّمَاحَةِ فِي عَجْزِهِ

وقال آخر:

أَلَمْ تَعْجَبْ لعَلْقَمَةَ بنِ سَيْفٍ لَهُ غَنَمٌ وَلَيْسَ لَهُ كِلابُ
مَخَافَةَ أنْ تَدُلَّ عَلَيْهِ ضَيْفًا فَأَنْزَلَ أهْلَهُ بَيْنَ الضِّرَابَ

وقال دعبل علي الخزاعي:

رَأيْتُ أبا عمران يَبْذُلُ عِرْضَهُ وَخُبْزُ أبي عمْرَانَ فِي أحْرَزِ الْحِرْز
يَحِنُّ إلَى جاراتِهِ بَعْدَ شِبْعِهِ وَجاراتُهُ غَرثَى تَحِنُّ إلَى الْخُبْزِ

ولدعبل بن عليّ:

قَوْمٌ إذَا أكَلُوا أخْفَوا كَلامَهُمْ وَاسْتَوْثَقُوا مِنْ لِزَامِ الْبَابِ وَالدَّارِ
لَا يَقْبِسُ الْجَارَ مَنْهُمْ فَضْلَ نَارِهِمُ وَلا تَكُفُّ يَدٌ عَنْ حُرْمَةِ الْجَارِ

من أخبار المنصور

عن الأصمعي، عن يونس، قال: كتب زياد بن عبيد الله الحارثي إلى المنصور يسأله الزيادة في عطائه وأرزاقه، وأبلغ في كتابه، فوقع المنصور في القصة: إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في رجل أبطراه، وأمير المؤمنين يشفق عليك من ذلك؛ فاكتف بالبلاغة. ولم يذكر الأهوازي في إسناده الأصمعي.

وكتب زياد ـ يعني ابن عبيد الله ـ إلى المنصور أمير المؤمنين في حوائج ذكرها، وأبلغ في كتابه، فوقع أمير المؤمنين المنصور في كتابه: إنّ البلاغة والغنى إذا اجتمعا في رجل أبطراه؛ فاكتف بالبلاغة.

زياد الحارثي وأشعب

كان زياد بن عبيد الله الحارثي خال أبي العباس أمير المؤمنين، واليًا لأبي العبّاس على مكة، فحضر أشعب مائدته في أناس من أهل مكة، وكان لزياد بن عبيد الله صحفة يخص بها، فيها مضيرة من لحم جدي، فأتى بها، فأمر الغلام أن يضعها بين يدي أشعب، وهو لا يعلم أنها المضيرة، فأكلها أشعب حتى أتى على ما فيها، واستبطأ زياد بن عبيد الله المضيرة، فقال: يا غلام! الصحفة التي كنت تأتيني بها، قال: قد أتيتك بها أصلحك الله! فأمرتني أن أضعها بين يدي أبي العلاء قال: هنأ الله أبا العلاء وبارك له! فلما رفعت المائدة قال: يا أبا العلاء! ـ وذاك في استقبال شهر رمضان ـ قد حضر هذا الشهر المبارك، وقد رققت لأهل السجن لما هم فيه من الضيق ثم لانهجام الصوم عليهم؛ وقد رأيت أن أصيرك إليهم، فتلهيهم بالنّهار، وتصلّي بهم بالليل؛ وكان أشعب حافظًا، فقال: أو غير ذلك، أصلح الله الأمير!؟ قال: وما هو؟ قال: أعطى الله عهدًا ألّا آكل مضيرة جدي أبدًا.

وأورد الجاحظ في كتابه «البخلاء» (ص: ١٤٩) قوله: «قالوا: وكان لزياد الحارثي جدي لا يمسه، ولا يمسه أحد، فعشى في شهر رمضان قومًا فيهم أشعب، فعرض أشعب للجدي من بينهم، فقال: زياد ـ الحارثي ـ : أما لأهل السجن إمام يصلي بهم؟ قالوا: لا، قال: فليصل بهم أشعب، قال أشعب: أو غير هذا أصلح الله الأمير، قال: وما هو؟ قال: احلف بالمحرجات أن لا آكل لحم جدي أبدًا؟».

بخيل صادق المواعيد

كان للأعمش جارٌ كان لا يزال يعرض عليه المنزل، يقول: لو دخلت فأكلت كسرة وملحًا؛ فيأبى عليه الأعمش، فعرض عليه ذات يوم، فوافق جوع الأعمش، فقال: مر بنا؛ فدخل عليه فقرب إليه كسرة وملحًا إذ سأل سائل، فقال له رب المنزل: بورك فيك! فأعاد إليه المسألة، فقال له: بورك فيك!. فلما سأل الثالثة قال له: اذهب، وإلا خرجت إليك بالعصا. قال: فناداه الأعمش، فقال: اذهب ويحك! فلا والله! ما رأيت أحدًا أصدق مواعيد منه، هو منذ سنة يعدني على كسرة وملح، فلا والله! ما زادني عليهما.

أشعار في البخل

قال جحظة:

قُلْ لقَوْم مَا فيهمُ منْ رَشيد ... لا، وَلا فَوْقَ بُخْلهم منْ مَزيد
لَنْ تنالوا الْعُلَى بصَحْن قَديد ... وَبِنَاء بَنَيْتُمُوهُ مَشيد
وَسُتُور قَدْ عُلِّقَتْ، وَدَهَاليـ ... ـزَ طوال، منْ خَلْف بَاب حَديد
إنَّمَا تُدْرَكُ الْمَكَارِمُ بالصَّبْـ ... ـر لهَدْم الْحَلْوَى، وَأَكْل الثَّريد
لَيْسَ صَدِّي عَنْكُمْ صُدُودَ تَجَاف ... هُوَ ذَمٌّ يُشيبُ رَأسَ الوليد
بهجاء، في كُل يوم، عَتيد ... وَبِذَمٍّ، في كُلِّ يَوْم، جَديد
هَاكَ، خُذْهَا من ذي بَيَان فَمَا قَصْـ ... ـرَ عَنْ شعْر جَرْوَل وَلَبيد

ولبعضهم:

قَدْ رَأَيْنَا حُسْنَ سَابَا ... طِكَ وَالدَّارَ الْجَميلَهْ
وَعَلِمْنَا أنَّ فِي بَيْـ ... ـتِكَ مَا يَكْفِي قَبيلَهْ
غَيْرَ أنَّ الْجِنَّ لا تُحـ ... ـسِنُ فِي خُبْزِكَ حِيلَهْ

ولبعضهم:

لأَضْرِبَنَّ رَجَائِي أَلْفَ مِقْرَعَةٍ ... حَدًّا، وَأَصْلُبُ آمالي عَلَى خَشَبَه
إذْ مَنَّياني مَوَاتًا لا حَرَاكَ بهمْ ... وَإنْ سَمِعْتُ لَهُمْ فِي دُورِهم جَلَبَهْ
سِتْرٌ رَقِيقٌ وَأبْوابٌ مُفَتَّحَةٌ ... وَفِي الْقُصُورِ الأعالي أنْفُسٌ خَرِبَهْ

وقال بعض الشعراء:

دَارُ أبي الْعَبَّاسِ مَحْشُوَّةٌ ... مَا شِئْتُ مِنْ بُسْطٍ وَأَنْمَاط
وَمُنْتَهَى بُغْدكَ مِنْ خُبْزِهِ ... كَبُغْدِ بَلْخٍ مِنْ سُمَيْسَاطِ
عَاتَبَهُ الدِّرْهَمُ فِي لَحْمِهِ ... فِي يَوْمِ إسْرَافٍ وَإفْرَاطِ
مَطْبَخُهُ قَفْرٌ، وَخَبَّازُهُ ... أَفْرَغُ مِنْ حَجَّام سَابَاط
وَخُبْزُهُ عِدَّةُ إخْوانِهِ ... كَأنَّهَا أفلاقُ خُرَّاطِ
يَكْرَهُ أَنْ يُتْخَمَ إخْوَانُهُ ... إذَا أَتَوهُ فِعْلُ مُحْتَاطِ

حمال بأكلة جزر

يوسف بن تميم، قال: حدَّثنا بعض شباب أهل البصرة أنَّ رجلًا كان مُوسرًا كثير المال، وكان ينظر في دقيق الأشياء، فاشترى حوائج له، فدعا بحمّال، فقال: بكم تحميل هذه الحوائج؟ قال: بحبة. قال: أحسن. قال: أقلّ من حبة؟ لا أدري كيف أقول. قال: نشتري بالحبَّة جزرًا، فنجلس جميعًا فنأكله.

دقة في الحساب

أبو جعفر محمد بن الأصبغ الحارثي، قال: سمعت عمّي، قال: كان زبيدة بن حميد الصيرفي استلف من بقال كان على بابه درهمين ونصف دانق، فقضاه بعد ستة أشهر درهمين وثلاث حبات شعير؛ فاغتاظ، البَقَّال، فقال: سبحان الله! أنت رب مال، وأنا بقال أملك مائة فلس، وإنما أعيش باستفضال الحبة والحبتين، وإنما صاح على باب جمّال وحمّال فلم يحضرني شيء وغاب وكيلك، فنقدت عنك درهمين وأربع شعيرات، فتقضيني بعد ستة أشهر درهمين وثلاثة شعيرات!؟ فقال له زبيدة: يا مجنون! أسلفتني في الصيف وقضيتك في الشتاء وثلاث شعيرات شتوية أوزن من أربع شعيرات صيفية، وما أشك أنّ معك فضلًا كثيرًا.

وقال بعضهم:

قدْرُ الرَّقَاشيِّ مَضْرُوبٌ بهَا الْمَثَلُ ... لكُلِّ شَيْءِ سوَى النِّيران تُبْتَذَلُ
تَشْكُو إلَى قدْر جَارَتها إذا الْتَقَتا ... الْيَوْمَ لي سَنَةٌ مَا مَسَّني بَلَلُ
لَكنَّني بيَ يُرْقَى ماءُ بئْرهم ... وَبي تُرَابُهُم إنْ جَمَّ يُنْتَقلُ
فَإنَّمَا بَعْدَ نَقْل الْمَاء أخْلَقَني ... نَقْلُ التُّرَاب إذا مَا عَزَّت الزُّبَلُ

ولأبي نواس:

قدْرُ الرَّقَاشِيِّ مَضروبٌ بِهَا المَثَلُ ... لكُلِّ شَيْءٍ سِوَى النِّيرَانِ تُبْتَذَلُ
تَشْكُو إلَى قدْرِ جَاراتٍ إذَا التَقَيَا ... الْيَوْمَ لِي سَنَةٌ مَا مَسَّنِي بَلَلُ

ولغيره:

أَقولُ: مَتَى بِاللَّحْمِ عَهْدُ قُدورِكُمْ؟ ... فَقَالَتْ: إذَا مَا كُنَّ يَوْمًا عَوَارِيا
مَنْ أضْحَى إلى أَضْحَى وَإلّا فَإنَّهَا ... تَكُونُ بِنَسْجِ الْعَنكَبُوتِ كَمَا هِيَا

بخل عقبة بن جبار

أبو الحسن الدارقطني، قال: كان عقبة بن جبار المنقري بخيلًا، وفيه يقول الشاعر من البسيط:

لَوْ أنَّ قَدْرًا بَكَتْ مِنْ طُولِ مَحْبَسِها ... عَلَى القُفورِ بَكَتْ قِدْرُ ابْنُ جَبَّارِ
مَا مَسَّها دَسَمٌ مُذْ فُضَّ مَعْدَنُهَا ... وَلا رَأَتْ بَعْدَ نَار القَيْنِ مِنْ نَارِ

ولبعضهم في ذمّ البخيل:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي يَالَ خَاقان هَلْ لَكُمْ ... إذَا مَا سَلَبْتُمْ نِعْمَةَ الله شَاكِرُ
فَأمَّا وَأَنْتُمْ لابِسُونَ ثِيابَهَا ... فَمَا لَكُمُ والْحَمْدُ لله ذَاكِرُ

ولبعضهم:

خَنَازِيرُ نَامُوا عَنِ الْمَكْرُماتِ ... فَأَيْقَظَهُمْ قِدْرٌ لَمْ يَنَمْ
فَيَا قُبْحَهُمْ فِي الَّذِي خُوِّلُوا! ... وَيَا حُسْنَهُم في زَوَال النِّعَمْ!

عندما يتغدى يرمون الطير في الهواء

قيل لأبي الحارث جمين: تغديت عند فلان؟ قال: لا، ولكنني مررت ببابه وهو يتغدى. قيل: وكيف علمت ذلك؟ قال: رأيت غلمانه بأيديهم قسي البنادق يرمون الطيرَ في الهواء.

ولأبي الحارث بن التمار الواسطي:

جِئْتُهُ زَائِرًا فَقَالَ لِيَ الْبَوابُ: صَبْرًا؛ فَإِنَّهُ يَتَغَدَّى
قُلْتُ: سَمْعًا؛ فَقَدْ سَمِعْتُ قَدِيمًا ... خُبْزُهُ لازِمٌ، وَلا يَتَعَدَّى

ولجحظة:

تَفَزَّعَ إذْ جِئْتُهُ لِلسَّلام ... وَمَاتَ مِنَ الْخَوْفِ لَمَّا دَخَلْتُ
فَقُلْتُ لَهُ: لا يَرُعْكَ الدُّخولُ ... فَوَالله مَا جِئْتُ حَتَّى أَكَلْتُ

مبادىء البخيل

كتب بعض الأدباء إلى بعض إخوانه يشاوره في قصد بعض الرؤساء، تأميلًا له واستدعاء لنائله، وكان معروفًا بالبخل، فكتب إليه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. كتبت إليَّ تسألني عن فلان، وذكرت أنك هممت بزيارته، وحدثتك نفسك بالقدوم

عليه؛ فلا تفعل ـ أمتع الله بك! ـ فإنَّ حسن الظن به لا يقع إلّا بخذلان من الله وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلوب إلا من سوء التوكل علَى الله، والرَّجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من روح الله؛ لأنه رجل يرى التقتير الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، وأنَّ الاقتصاد الذي أمر الله به هو الإسراف الذي يعذب عليه، وإنَّ بني إسرائيل لم يستبدلوا العدس بالمن، والبصل بالسلوى، إلا لفضل أحلامهم وقديم علم توارثوه عن آبائهم، وأن الضيافة مدفوعة، والهبة مكروهة، وأن الصدقة منسوخة، وأن التوسع ضلالة، والجود فسق، والسخاء من همزات الشياطين، كأنَّه لم يسمع بالمعروف إلَّا في الجاهلية الأولى التي قطع الله أخبارها ونهى عن اتباع آثارها، وكأنَّ الرجفة لم تأخذ أهل مدين إلا لسخاء كان فيهم، ولا أهلكت الريح العقيم عادًا إلا بجود أفضال كان معهم، وهل يخشى العقاب إلا على الإنفاق ويرجوا العفو إلا على الإمساك، ويعد نفسه بالفقر ويأمرها بالبخل خيفة أن تنزل به قوارع الظالمين ويصيبه ما أصاب الأولين؛ فأقم ـ رحمك الله ـ بمكانك، واصبر على عض زمانك، وامض على عسرتك عسى الله أن يبدل لك خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا».

من خاطر الجن

علي بن العباس ـ يعني النوبختي ـ قال: كان البحتري معي جالسًا، فسلّم علينا ابن لعيسى بن المنصور، فقال لي: مَن هذا؟ فقلت: هذا ابن عيسى بن منصور الذي يقول ابن الرومي في أبيه:

يَقَتِّرُ عِيسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلا خَالِدِ
وَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتيرِه تَنَفَّسَ مِنْ منْخَرٍ وَاحِدِ

فقال لي: أفّ وتفّ، هذا من خاطر الجن لا من خاطر الأنس، ووثب فمضى.

وقال أبو الحسين علي بن جعفر الحمداني: أنشدنا ابن الرومي في عيسى بن موسى بن المتوكل ـ كما روى لنا الخالع:

يُقْتِّرُ عِيسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بباقٍ ولا خَالِدِ
وَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تَنَفَّسَ مِنْ منْخَرٍ وَاحِدِ

وقال محمد بن موسى القرشي: سمعت الأصمعي يقول: ثلاثة لا يسألون الحوائج: رجلٌ استغنى بعد الفقر؛ فإنّه يرى إن قضاها عاد إلى فقره؛ وعبد، فإنه يقول: ليس الأمر إليّ، إنّما الأمر إلى موالي؛ وصيرفي، فإنّ مروءته أن يستربح علَى إخوانه في مائة دينار حبّة ذهب.

ولجحظـة:

قَوْمٌ إذا اسْتَنْجَدْتُهُـمْ فَكَأَنَّنِي حَاوَلْتُ نَتْفَ الشَّعْرِ فِي آنافِهِمْ
قُمْ فَأسْقِنِيها بالْكَبِيرِ، وَغَنِّنِي «ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ في أكْنَافِهِمْ»

فما أنشدتها أحدًا إلا قال: صدقت، هم أهل هذا الزمان.

وعن عائشة زوج النبيّ ﷺ أنها كانت تقول: قاتل الله لبيدًا حيث يقول:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِي نَسْلٍ كَجِلْدِ الأجْرَبِ
يَتَحَدَّثُونَ مَلاذَةً وَمَهَانَةً وَيُعَابُ قَائِلُهُم وإنْ لَمْ يَشْغَبِ

قال مالك: قال هشام: قال عروة: ثم تقول عائشة: فكيف لو أدرك هذا الزمان؟! قال مالك: قال هشام: أما أنا فلا أقول شيئًا.

وعن محمد بن يونس الكديمي، قال: سمعت أبا نعيم الفضل بن دكين يقول: ما أكثر تعجبي من تمثل عائشة ببيت لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ في خَلَف كَجِلْدِ الأجْرَبِ!

ولكـن:

ذَهَبَ النَّاسُ فَاسْتَقَلُّوا، وَصِرْنا خَلَفًا فـي أَرَاذَل النَّسْنَاس
فـي أُنَاس نَعُدُّهُمْ منْ عَديد فَإذَا فُتِّشُوا فَلَيْسُوا بِنَاس
كُلَّمَا جئْتُ أَبْتَغي النَّيْلَ منْهُم بَدَرُوني قَبْلَ السُّؤَال بِيَاس
وَبَكَوْا لي حَتَّى تَمَنَّيْتُ أنّي مُفْلتٌ منْهُمُ فِرَارًا بِرَاس

وكتب أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح إلى سعيد بن سلم: لولا أنّ الله ختم نبوته بمحمد ﷺ وكتبه بالقرآن لا نبعث فيكم نبيّ نقمة، وأنزل فيكم قرآن غدر، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوىء السفلة، ومساوئهم فضائح الأمم، وألسنتهم معقولة بالعيّ، وأيديهم معقودة بالبخل، وأعراضهم

أغراض للذم، فهم كما قال الشاعر:

لا يكثُرُونَ وَإِنْ طَالَتْ حَيَاتُهُمُ ... وَلَا تبيدُ مَخَازِيهِمْ وَإِنْ بَادُوا

وأنشد أبو العالية:

تَرَحَّلْ؛ فَمَا بَغْدَادُ دَارُ إقَامَة ... وَلا عنْدَ مَنْ أضْحَى ببَغْدَادَ طَائلُ
مَحَلُّ مُلُوك سَمْتُهُمْ في أديمهمْ ... فَكُلُّهُمُ منْ حلْيَة الْمَجْد عَاطلُ
سوَى مَعْشَر قَلُّوا، وَجُلُّ قليلهم ... مُضَافٌ إلى بَذْل النَّدَى وَهُوَ بَاخلُ
ولا غَرْوَ أنْ شَلَّتْ يَدُ الْمَجْد وَالْعُلَى ... وَقَلَّ سَمَاحٌ منْ رجال وَنَائلُ
إِذَا غَضْغَضَ الْبَحْرُ الغُطَامطُ مَاءَهُ ... فَلَيْسَ عَجيبًا أنْ تغيضَ الْجَدَاول

وقال الأصمعي: ست يضنين بل يقتلن: انتظار المائدة ودمدمة الخادم، والسراج المظلم، والوكف من أول الليل إلى آخره، وخلاف مَن تحبه والنظر إلى بخيل.

ولبعضهم:

مَا بالبَخيل انتِفَاعُ ... وَالكَلْبُ يَنْفعُ أهْلَهْ
فَنَزِّهِ الْكَلْبَ عَنْ أَنْ ... تَرَى أخَا الْبُخْلِ مثْلَهْ

ولأبي هفَّان:

مَا لِي أَرَاكَ بَخِيلًا؟ ... أَمَا تَجُودُ بِشيّ؟
أَمَا مَرَرت بِسَلْح ... لِكَلْبِ حَاتِم طَيّ؟

ولأبي الشمقمق:

مَا لي أَرَاكَ بَخِيلًا؟ ... أَمَا تَجُودُ بشَيّ

فالوذجة أثرية

أهدى رجل إلى إسماعيل الأعرج الطالبي فالوذجة(١) عتيقة العمل قد سنخت، وكتب: إني اخترت لعملها جيد السكر السوسي، والعسل الماذي، والزعفران الأصبهاني، فكتب إليه: برئت من الله، لقد عملت هذه الفالوذجة قبل أن تمصر أصبهان، وقبل إن تدحى السوس، وقبل يوحي الله إلى النحل.

(١) الفالوذجة: نوع من الحلوى.

أشعار في البخل

عن أحمد بن منصور المروذي، قال: قال لي الجاحظ وأنا أقرأ عليه كتابه في «البخلاء» وتذاكرنا ما دقّق الشعراء فيه من ذمّ البخل: لا أعرف شيئًا أبلغ في الهجاء بالبخل من قول أبي الشمقمق:

وَمَا رَوَّحتَنَا لِتَذُبَّ عَنَّا … وَلَكِنْ خِفْتَ مَرْزِئَةَ الذُّبَابِ

وقوله:

الْحَابِسِ الرَّوْثَ فِي أَعْفَاجِ بَغْلَتِهِ … خَوْفًا عَلَى الْحَبِّ مِنْ لَقْطِ الْعَصَافِيرِ

قلت: أما البيت الأول فلم يسم لنا المهجو به، وقبله بيت هو:

شَرَابُكَ فِي السَّحَابِ إذَا عَطِشْنَا … وَخُبْزُكَ عِنْدَ مُقْتَطَعِ التُّرابِ

وبعده: «وما روحتنا...» وأما البيت الثاني فالمهجو به أوفى بن نوفل، وقبله بيت هو:

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْخُبْزَ فَاكِهَةٌ … حَتَّى نَزَلْتُ عَلَى أَوْفَى بنِ خِنْزِير

وقد رُوِيَ هذا الشعر لغير أبي الشمقمق.

وأمر المأمون لحفصويه الكاتب من مال زيد بن زبر بمائة ألف درهم، فسأل زيد حفصويه أن يتجافى له عن بعض ما أمر له به، فأبى وهجاه فقال:

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الخُبْزَ فاكهَةٌ … حَتَّى رَأَيْتُكَ يَا زَيْدُ بْنُ خنْزِيرِ

يَا حَابِسَ الرَّوْثِ فِي أَعْفاجِ بَغْلَتِهِ … بُخْلًا عَلَى الْحَبِّ مِنْ لَقْطِ الْعَصَافِير

وقال: لم أسمع في الهجاء أبلغ من هذين البيتين:

مُجْتَمِعٌ بِالْكَلْبِ لَكِنَّهُ … يَفْزَعُ أَنْ يُسْمَعَ مِنْ نَبْحِهِ

لَوْ سَقَطَتْ مِنْ فَمِهِ لُقْمَةٌ … فِي سَلْحَةٍ عَضَّ عَلَى سَلْحِهِ

ولأبي الشمقمق:

يَا مَنْ يُؤَمِّلُ مُبْعَدًا … مِنْ بَيْنِ أَهْلِ زَمَانِهِ

لَوْ كَانَ فِي اسْتِكَ دِرْهَمٌ … لَاسْتَلَّهُ بِلِسَانِهِ

ولـــــه:

الخبزُ يُبْطِي حِينَ يُدْعَى بِهِ كَـأَنَّـمَـا يَـقْـدُمُ مِـنْ قَـافِ
وَيَـمْـدَحُ الـمِـلْحَ لإخْـوَانِـهِ يَـقُـولُ: هَـذَا مِلْحُ سِيـرَافِ

ولـــــه:

أَنَـــا مِـــنْ زُوَّارِ بَـيْـتِـــي وَأَنَـا ضَـيْـفٌ لِنَـفْـسِـي
أَشْـتَـرِي فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ حُـزْمَـةَ الْبَـقْـلِ بِـفَـلْسِ
وَإِذَا مَـــا ذُقْـــتُ خَـــلًّا كَـانَ مِـنْ أَيَّـامِ عُـرْسِـي

بخل أبي العتاهية

عن الجاحظ، قال: دعا أبو العتاهية عياش بن القاسم إلى بعض المتنزعات، فاتخذ له ضروبًا من الأطعمة، وكان في أبي العتاهية شح شديد، فدخلت إليهم، فإذا أبو العتاهية يأكل من صحفة بين يديه، فيها ثريد بخل وبزر، فشممته، فقلت: أتدري ما تأكل؟ قال: نعم، غلط الغلام بين دبة الزيت والبزر، فصب بزرًا، فكرهت أن يرفع من بين يدي فيبطل ولا يأكله أحد، وهما عندي قريب من قريب، فرأيت أن آكله ولا يضيع بعدي.

وقال بعضهـــم:

وَإِذَا سُـــئِلْتَ تَـــقُـــولُ: لا وَإِذَا طَـلَبْـتَ تَـقُـولُ: هَـاتِ
أَفَــلا سَـبِـيـــلَ إِلَى (نَــعَــمِ) أَوْ تَـرْكِ (لا) حَـتَّـى الْمَـمَـاتِ؟!

وقال أبو الحسن علي بن أحمد النعيمي:

خَلِّي الَّتِي «لا» تُنافِيها وَتَنْقُضُها فَلَيْتَـهُ بَـدلًا من ذَاكَ خَـلى (لا)
وَجْهُ تَلُوحُ عَلَيْهِ مِن حُمُوضَتِهِ شَـهَـادَةٌ أَنَّـهُ مَـا زَال خَـلَّالا

وأتى أبو الشمقمق باب رجل يمدحه، فأقام ببابه أربعًا، فخرجت في اليوم الرابع جارية تستقي ماء في جرة، فكتب على جرتها:

آوَيْـتُ دِهْـلِيـزَكَ مُـذْ أَرْبَـعٍ وَلَمْ أَكُـنْ آوِي الـدَّهَـالِيـزا
خُبْزِي مِنَ السُّوقِ، وَمَدْحِي لَكُمْ تِـلْكَ لَعَـمْري قِسْـمَـةٌ ضِـيـزَى

قال ابن درستويه: أنشدنا المبرد:

أَصْبَحْتَ لا تَعْرِفُ الْجَمِيلَ وَلا تَفْضُلُ بَيْنَ الْقَبِيحِ وَالْحَسَنِ
إِنَّ الَّذِي ظَلَّ يَرْتَجِيكَ كَمَنْ يَحْلُبُ تَيْسًا مِنْ شَهْوَةِ اللَّبَنِ

ولبعض أهل دمشق:

وَدَعَوْتَنِي فَأَكَلْتُ عِنْدَكَ لُقْمَةً وَشَرِبْتُ شُرْبَ مَنِ اسْتَتَمَّ خَرُوفَا
وَسَأَلْتَنِي فِي إِثْرِ ذَلِكَ حَاجَةً ذَهَبَتْ بِمَالِي تَالِدًا وَطَرِيفَا
فَجَعَلْتُ أُفَكِرُ فِيكَ بَاقِي لَيْلَتِي مَا كُنْتَ تَفْعَلُ لَوْ أَكَلْتُ رَغِيفَا؟!

نار الحباحب

أبو بكر ابن الأنباري قال: قولهم: «نارُ الْحَباحب». قال الكلبي: عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان الحباحب رجلًا من أحياء العرب، وكان رجلًا بخيلًا، فكان لا يوقد ناره بليل كراهية أن يراها راء فينتفع بضوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها، فأوقدها، ثم بصر بمستضيء بها أطفأها، فضربت العرب بناره المثل، وذكروها عند كل نار لا ينتفع بها.

وأنشد المبرد:

فَتًى يَجْعَلُ الزَّادَ الْمُحَبَّ لِبَطْنِهِ شِعَارًا وَيَقْرِي الضَّيْفَ عَضْبًا مُهَنَّدَا
وَإِنْ خَافَ أَنْ يَسْتَوْضِحَ الْكَلْبُ زَادَهُ بِهَا، كَعَم الْكَلْبِ الْعَقُورَ وَأَخْمَدَا

دجاجة من آل فرعون

عن ابن عائشة، قال: صحب الغاضري رجلًا من قريش من المدينة إلى مكة، فلما نزل المنزل، دعا القرشي بالطعام، فأتوه في طعامه بدجاجة باردة مشوية، فقال: يا غلام! أسخنها. فلما يردها الخباز حتى رفع الخوان. فلما نزلوا المنزل الثاني دعا القرشي بالطعام، فأتوه بالدجاجة، فأمر بها أن تسخن، فرفع الطعام قبل أن يأتوا بها، ففعل ذلك ثلاث مرات، فلما طال ذلك على الغاضري، قال: ويحكم! أخبروني عن دجاجتكم هذه أمن آل فرعون هي؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: لأنها تعرض على النار غدوًا وعشيًا. قال له القرشي: اكتم عليّ، ولك مائة دينار. قال: ما كنت لأبيع هذا بشيء.

وعن الأصمعي قال: سمعت أعرابية تهجو رجلًا وهي تقول:

رَأَيْتُكَ فِي الْغِنَى تَزْدَادُ بُخْلًا ... وَتُزْهَى مِثْلَمَا يُزْهَى الْغُرَابُ
وَلا تُعْطِي عَلَى حَمْدٍ وَأَجْرٍ ... وَتُعْطِي مَنْ تُصَانِعُ أَوْ تَهابُ
كَأَنَّكَ تَحْسَبُ الأَمْوَالَ تَبْقَى ... عَلَيْكَ إِذَا تَضَمَّنَكَ التُّرابُ

وقال مدرك الشيباني يهجو أبا الفرج ابن الحصين الكاتب:

أَبَا الْفَرَجِ اسْمَعْ قَوْلَ مَنْ لَيْسَ ظَالمًا ... وَلَا عَنْ سَبيل العَدْل مُذْ كانَ يَعْدلُ
جَزاكَ إِلَهُ الْخَلْق مَا تَسْتَحِقُّهُ ... وَلا زلْتَ في الْحَاجَات مثْلَكَ تَسْأَلُ
بَخلْتَ بمَا لَوْ يُسْأَلُ الْكَلْبُ ضعْفَهُ ... لَجَادَ به عَفْوًا وَمَا كَانَ يَبْخَلُ
فَأُمُّ الَّذي وَلَّاكَ مَا أَنَا مُضْمرٌ ... أَمَا كَانَ ذَا عَقْل بأَنْ لَيْسَ تَعْقلُ

فقيل له: ما أضرمت؟ قال: زانية.

وقلال أبو تمام محمد بن عبد العزيز بن أحمد الهاشمي:

أَخْذُ مَالِ الْبَخيلِ يَا أَيُّهَا النَّا ... سُ! عَلَيْهِ أَشَدُّ مِنْ جَذْعِ أَنْفِهْ
فَخُذُوهُ وَأَرْغِمُوا الأَنْفَ مِنْهُ ... وَاصْفَعُوهُ بِنَعْلِهِ وَبِخُفِّهْ

وقال أبو نواس في عثمان بن نهيك:

اغْسِلْ يَدَيْكَ بِأُشْنَان فَأَنْقِهِمَا ... غُسْلَ الْجَنَابَة ممَّا عنْدَ عُثْمَان
وَاسْلَخْ عَلَى كُلِّ عُثْمَان مَرَرْتَ به ... سوَى الْخَليفَة عُثْمَانَ بْن عَفَّان
عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو ثَمَنٍ ... لَكنَّهُ يَشْتَري حَمْدًا بمَجَّان
وَالنَّاسُ أَبْعَدُ منْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلًا ... حَتَّى يَرَوْا عنْدَهُ آثَارَ إحْسَان
قَدْ سَمَّجَ اللهُ في عَيْني وَبغَّضَهُمْ ... كُلَّ الْعثَامين منْ بُغْضي لعُثْمَان
يَا أُخْتَ كنْدَةَ لَيْسَ الرِّزْقُ في يَده ... الرِّزْقُ في كَفِّ مَنْ لَوْ شَاءَ أَغْنَاني

وقال مخلد بن عليّ السلامي، يهجو نوح بن عمرو بن حويّ:

أَشْكُو وَيَشْكُو سُوءَ حَالاتِهِ ... فَلَسْتُ أَدْرِي أَيُّنَا السَّائِلُ
لَوْ كَانَ لِي شَيْءٌ لَوَاسَيْتُهُ ... لأَنَّهُ الْمِسْكِينُ يَسْتَاهِلُ

وقال جحظـــة:

لِي صَدِيقٌ يَقُولُ لِلسَّائِلِ الْمُعـ ـتَـرِّ لا دَرَّ دُرُّ مَـنْ أَعْـطَـاكَـا
زَمِّلُوا مَـاءَهُ، فَـقَـالَتْ لَهُ: الْجَـا رَةُ: هَاتِ، اسْقِنِي، جُعِلْتُ فِدَاكَا!
قَالَ: صُبِّي فِي الْحُبِّ كُوزًا بكُو زٍ وَأَزِيـحِـي الـبـردين هَـذَا وَذَاكَـا

وقال بشـــار:

خَلِيلَيَّ مِنْ كَعبٍ! أَعِينَا أَخَاكُمَا عَـلَى دَهْـرِهِ؛ إِنَّ الْكَـرِيـمَ مُعِـينُ
وَلَا تَبْخَـلا بُخْلَ ابنِ قَرْعَةَ إِنَّهُ مَـخَـافَـةَ أَنْ يُـرْجَـى نَـدَاهُ حَـزِيـنُ

كيلجة بدرهم

قال الأصمعي: قالت امرأة مدنية لزوجها: اشترِ لي رطبًا. قال لها: وكيف يباع الرطب؟ قالت: كَيْلَجَةٌ[1] بدرهم. فقال لها: والله لو خرج الدجال وأنت تمخضين بعيسى ما ينتظر إلّا أن تلديه فيقتل الدجال، ثم لم تلديه حتى تأكلي رطبًا ما اشتريته لك، كيلجة بدرهم؟

بأي شيء نبل الطين

أحمد بن الحارث، قال: حفر لعكابة النميري في داره ركية، فخرج ماؤها عذبًا، فقال: إنا لله! بأي شيء نبل الطين؟

قال أحمد بن أبي طاهر: دعوت أبا عفان فأبطأ عليه الغداء، فقال: [من مجزوء الرمل]

أَنَـا فـي بَـيْـتِ صَـديـقٍ وَاصِـلٍ بَـرٍّ شَـفِـيـقِ
رَجُـلٍ أَعْـمَـرُ مِـنْ مِـنْـ ـزِلِه ظَـهْـرُ الـطَّـرِيـق
لَيْـسَ لِي أَكْـلٌ سِـوَى لَحْـ ـمِس، وَشُرْبٌ غَيْرَ رِيقِي

وقال جحظة:

لِي صَـديـقٌ عَـدِمْـتُـهُ مِـنْ صَـدِيـقْ أَبَـدًا يَـلْـقَـنِـي بِـوَجْـهٍ صَـفِـيـقْ
قَوْلُهُ إِنْ شَدَوْتُ: أَحْسَنْتَ، عِنْدِي، وَبِـأَحْـسَـنْـتَ لَا يُـبَـاعُ الـدَّقِـيـقْ

---

(١) كيلجة: أي الكيلة والمكيال [اللسان].

قال الأصمعي عن أبيه: كان السيد ابن محمد بن يزيد الحميري عند عقبة بن مسلم، فغداه، ثم سقاه نبيذًا، فاستزاده السيد، فجعل يقول لخادمته: هاتي نبيذًا ويشير عقبة إليها ألا تفعلي، فلم تزده الخادم على ما كان يسقي، فأنشأ السيد يقول:

بَخِيلٌ بالنَّبيذِ أبُو مَلِيكٍ جَوَادٌ بالدَّنَانِيرِ الْجِيَادِ
أقُولُ لَهُ: اسْقِنِي، فَيَقُولُ: هَاتِي وَدُونَ نَبِيذِهِ خَرْطُ الْقَتَادِ(١)

قال أبو بكر ابن العلاف المعروف بالمخرف: وجهت إلى حنانان النصراني بقنينة، وسألته أن يوجه لي فيها نبيذًا، فاحتبس الرسول، ثم جاءني ومعه قنينة ناقصة، وإذا قد مزجها بالماء، فقلت له:

نبيذُ حَنَانَانٍ في بَيْتِهِ أعَزُّ مِنَ الْمَاءِ فِي وَاقِصَهْ(٢)
بَعَثْنَا إلَيْهِ بِقَنِّينَةٍ وَأَبْصَارُنَا نَحْوَهَا شَاخِصَهْ
فَأَمْزَجَهَا الْمَاءَ مِنْ بِئْرِهِ وَجَاءَ بِهَا بَعْدَ ذَا نَاقِصَهْ

وقال جحظة:

دَخَلْتُ عَلَى بَاخِلٍ مَرَّةً وَجَنَّاتُ بُسْتَانِهِ زَاهِرَهْ
وَقَدْ قَابَلَ النَّوْرُ نَقْشَ السُّتُورِ فَأَعْيُنُ زُوَّارِهِ حَائِرَهْ
جِنَانٌ تُعَجَّلُ لِلْبَاخِلِينَ وَنَحْنُ نُؤَجَّلُ لِلآخِرَهْ

وأنشد الأصمعي لمجنون من أهل البصرة:

رَفَضْتُ بِالْبَصْرَةِ أَهْلَ الْغِنَى إنّي لأَمْثَالِهِمْ رَافِضُ
فِيهِمْ أُنَاسٌ لَا أُسَمِّيهِمُ طَعْمُ النَّدَى عِنْدَهُمْ حَامِضُ

ووجدت في غير هذه الرواية في هذا الشعر بيتًا ثالثًا، وهو:

قَدْ جَلَّلُوا بالقُطْفِ أعْذَاقَهُمْ كَأَنَّ حُمَّى بُسْرِهِم نَافِضُ

---

(١) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر.
(٢) واقصة: اسم لعدة مواضع بطريق الكوفة دون ذي مرخ، وبين الفرعاء وعقبة الشيطان، وفي اليمامة (معجم البلدان)، (اللسان).

وأنشد أبو القاسم عبد الواحد بن محمد بن المطرز لنفسه، يصف بستان أبي الخطاب ابن عون الحريري:

بُسْتَانُ عَبْدِ السَّلامِ مَقْبَرَةٌ ... لَا تَنْظُرُ الْعَيْنُ فيه عُمْرَانَا
فيه نَخيلٌ أعْذَاقُهَا حَمَلَتْ ... مِنْ شَهَوَاتِ النُّفُوس حِرْمَانَا
لَهُ خَفيرٌ مُقَطِّبٌ أبدا ... مِن غَيْرِ جُرْمٍ تَرَاهُ غَضْبَانَا
حَمَاهُ؛ فالرِّيحُ لَا تَمُرُّ به ... إلا إذَا صَادَفَتْهُ وَسْنَانَا
لَوْ عَبَرَ الطَّائِرُ الْغَرِيبُ به ... لَسَبَّ مِنْ أجله سُلَيْمَانَا
وإنْ رَأى نَمْلَةً تَطُوفُ به ... مَثَّلَهَا في الْمَكَان ثُعْبَانَا
قَدْ كَتَبَ اللُّؤْمَ فَوْقَ جَبْهَته ... لِلشَّرِّ قَبْلَ اللِّقَاءِ عُنْوَانَا
دَعَا إلَيْهِ يَوْمًا، فَقُلْتُ لَهُ: ... لَا كُنْتَ من بَاخِلٍ وَلا كَانَا!
لَا جُزْتُ يوْمًا به وَلَوْ فُتحَتْ ... جَنَّةُ عَدْنٍ وَكَانَ رِضْوَانَا

وأنشد المطرز لنفسه في مثله:

لَمَا دَعَانَا الْغَوِيُّ مُعْتَرِضًا ... بِقَوْلِ سَاهٍ لَا قَوْلِ مُعْتَمِدِ
إلَى قَرَاحٍ كَالنَّجْمِ مَوْقِعُهُ ... أَعَزُّ بَابًا مِنْ جَبْهَةِ الأَسَدِ
عَلَيْهِ سُورٌ، وَحَارِسٌ لَحِزٌ[(١)] ... وأَعْيُنٌ لَا تَنَامُ لِلرَّصَدِ
قَالَ: ادْخُلُوا، قَدْ أَبَحْتُ لَحْظَكُمْ ... وَلا تَمَسُّوا أَثْمَارَهُ بِيَدِ
قُلْنَا لَهُ: فَالثِّمَارُ مُطْلَقَةٌ ... قَالَ: بِوَزْنِ الأَثْمَانِ في الْبَلَدِ
فَإِنْ قَنِعْتُمْ فُزْتُم بِلَحْظِكُمْ ... أَوْ لا، فَيَا بَرْدَهَا عَلَى كَبِدي!
لَا تَأْكُلُوا، وَانظُرُوا عَلَى وَجَلٍ ... فَهُوَ لِغَيْرِ الأفْوَاهِ وَالْمَعِدِ
أمَا سَمِعْتُمْ مَا سَارَ مِنْ مَثَلٍ ... لَمْ يَشْتَبِهْ قَوْلُهُ عَلَى أحَدِ:
كَمْ أكْلَةٍ دَاخَلَتْ حَشَا شَرِهٍ ... فَأَخْرَجَتْ رُوحَهُ مِنَ الْجَسَدِ

ولمدنية الشاعر:

إذَا جُمِعَ الآفَاتُ فَالْبُخْلُ شَرُّهَا ... وَشَرٌّ مِنَ الْبُخْلِ الْمَوَاعِيدُ وَالْمَطْلُ
فَإنْ كُنْتَ ذَا مَالٍ وَلَمْ تَكُ عَاقِلًا ... فَأَنْتَ كَذِي نَعْلٍ وَلَيْسَ لَهَا رِجْلُ

---

(١) اللحز: الشحيح الشديد البخل.

وَإِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وَلَمْ تَكُ ذَا غِنَى ... فَأَنْتَ كَذِي رِجْلٍ وَلَيْسَ لَهَا نَعْلُ
أَلا إِنَّمَا الإِنْسَانُ غِمْدٌ لِنَفْسِهِ ... وَلا خَيْرَ فِي غِمْدٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَصْلُ
فَإِنْ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَقْلٌ، فَعَقْلُهُ ... هُوَ الْفَضْلُ، والإِنْسَانُ مِنْ بَعْدِهِ فَضْلُ

أقوال وأشعار في مواعيد البخلاء

وأنشد أبو بكر بن دريد، لنفسه:

إِنَّ مَنْ يَرْتَجِي نَدَاكَ مَعَنَّى ... خَالَفَ الحَزْمَ مُحْسِنٌ بِكَ ظَنَّا
وَعَدَتْنِي أُمْنِيَّتِي عَنْكَ خَيْرًا ... فَأَبَى الْخُلْفُ دُونَ مَا أَتَمَنَّى

ولبعضهم:

أَبَا حَسَنٍ! إِنَّ الثَّرَاءَ، وَإِنْ صَفَا، ... يَبِيدُ وَيَفْنَى، وَالثَّنَاءُ جَدِيدُ
إِلَى كَمْ تُمَنِّينِي بِعَوْدٍ، وَإِنَّمَا ... خَرَابُ بُيُوتِ المُمْلِقِينَ تَعُودُ
عدمت بِعَوْدٍ مِنْ كَلامٍ؛ فَإِنَّهُ ... مِنَ الْخَيْرِ قِدْمًا، وَالنَّجَاحُ بَعِيدُ

قال محمد بن يزيد النحوي: كان لمحمود الورّاق صديق، وكان يغشاه كثيرًا، فرَبَّى عندَه دجاجًا سمانًا، فيعدُهُ بذبحها له ويخلفه، فلما طال هذا على محمود كتب إليه:

دَجَاجُ أَبِي عُثْمَانَ أَبْعَدُ مَنْظَرًا ... وَأَطْوَلُ أَعْمَارًا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرْ
فَإِنْ لَمْ نَمُتْ حَتَّى نَفُوزَ بِأَكْلِهَا ... حَيِيتُ بِإِذْنِ اللهِ مَا أَوْرَقَ الشَّجَرْ

وعن ابن الأعرابي: [من البسيط]

اللهُ يَعْلَمُ لَوْلَا أَنَّنِي فَرِقٌ ... مِنْ الأَمِيرِ لَعَاتَبْتُ ابْنَ نِبْرَاسِ
فِي مَوْعِدٍ قَالَهُ لِي ثُمَّ أَخْلَفَنِي ... غَدًا غَدًا، ضَرْبُ أَخْمَاسٍ لأَسْدَاسِ
حَتَّى إِذَا نَحْنُ أَلْجَأْنَا مَوَاعِدَهُ ... إِلَى الطَّبِيعَةِ فِي نَقْرٍ وَإِبْسَاسِ
أَجْلَتْ مَخِيلَتُهُ عَنْ «لا» فَقُلْتُ لَهُ: ... لَوْ مَا بَدَأْتَ بِـ«لا» مَا كَانَ مِنْ بَاسِ
وَلَيْسَ يَرْجِعُ فِي «لا» بَعْدَ مَا سَلَفَتْ ... مِنْهُ «نَعَمْ» طَائِعًا حُرٌّ مِنَ النَّاسِ

وأنشد محمد بن أشكاب العجمي:

وَإِذَا جُدْتَ لِلصَّدِيقِ بِوَعْدٍ ... فَصِلِ الْوَعْدَ بِالْفِعَالِ الْجَمِيلِ
لَيْسَ فِي وَعْدِ ذِي السَّمَاحَةِ ... إِنَّمَا الْمَطْلُ فِي عِدَاتِ الْبَخِيلِ

ولأبي عثمان الناجم:

جَوْدُ أَبِي الصَّقْرِ كُلُّهُ عِدَةٌ وَكُلُّ مَا قَالَهُ فَمَمْسُوخُ
لَيْسَ يَرَى أَنْ يَفِي بِمَوْعِدِهِ كَلَامُهُ نَاسِخٌ وَمَنْسُوخُ

ولأبي العتاهية [من مجزوء الكامل]:

لأبِي الْعَلاء مَخَائِلٌ وَبَوَارِقٌ وَرَوَاعِدُ
وَلَهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَاءٌ عَتِيدٌ بَارِدُ
وَمَقَالُهُ مُتَيَقِّظٌ وَالْفِعْلُ مِنْهُ رَاقِدُ
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّهُ عِلْقٌ نَفِيسٌ مَاجِدُ
حَتَّى بَدَا لِي مَطْلُهُ وبَدَتْ لِذَاكَ شَوَاهِدُ
فَاذْهَبْ إِلَيْكَ أَبَا الْعَلا ء فَإِنَّ جُودَكَ جَامِدُ

مواعيد عرقوب

والعرب تضرب المثل في إخْلاف المواعيد بعرقوب. عن العباس بن هشام الكلبي، عن أبيه، قال: عرقوب بن صخر أو ابن معبد بن أسد رجل من العماليق، بالمدينة. سأله رجل من العرب عذقًا، فقال: نعم. فلما صار بلحًا، قال: دعها حتى تكون زهوًا. فلما بلغت، قال: دعها حتى تشقح، فلما أشقحت، قال: دعها حتَّى تحلقم، فلما حلقمت، قال: دعها حتى ترطب، فلما أرطبت، قال: دعها حتى تكون تمرًا، فلما صارت تمرًا جدَّها بالليل وهرب، فصار مثلًا. وهو الذي ذكره كعب بن زهير في شعره، فقال:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَواعِيدُهَا إلّا الأباطِيلُ

وقال هشام بن سليمان المخزومي: كان عرقوب رجلًا من الأوس، فجاءه أخ له، فقال: إذا أطلعت هذه النخلة فهي لك؛ فلما أطلعت، قال: دعها حتى تصير بلحًا؛ فلما صارت بلحًا، قال: دعها حتى تشقح؛ فلما اشقحت، قال: دعها حتى تصير رُطبًا؛ فلما صارت رطبًا، قال: دعها حتى تصير تمرًا؛ فلما صارت تمرًا، جاء ليلًا فجدَّها، ولذلك قال جبيهاء الأشجعي:

وَعَدْتَ وَكَانَ الْخُلْفُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ مَوَاعِيدَ عُرْقُوبٍ أَخَاهُ بِيَثْرِبِ

فضربته العرب مثلًا في إخلاف العدات. وقد ذكره كعب بن زهير في كلمته التي قالها في النبيّ ﷺ ومدحه فيها، واعتذر إليه، وأظهر توبته من سالف كفره، ورغب في عفوه عنه وإعفائه إياه مما توعده به، فقال في ذلك:

نُـبِّـئْتُ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ أَوْعَـدَنِـي ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

وبيته الذي ذكر فيه عرقوبًا في هذه الكلمة قوله:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا ... وَمَـا مَـوَاعِـيـدُهَـا إِلَّا الأَبَـاطِـيـل

وقال أحمد بن سعيد الطّائي: مرض البحتري، فوصف له الطبيب مزوَّرة، فقال له بعض إخوانه: عندي جارية أحذق خلق الله بها؛ فمضى ليوجه إليه بها، فلم يفعل، فكتب إليه البحتري:

وَجَدْتُ وَعْدَكَ زُورًا فِي مُزَوَّرَةٍ[1] ... ذَكَرْتَ مُبْتَدِئًا أَحْكَامَ طَاهِيهَا

فَلَا شَفى اللهُ مَنْ يَرْجُو الشّفَاءَ بِهَا! ... وَلا عَلَتْ كَفُّ مُلْقِي كَفِّه فيها!

فَاحْبِسْ رَسُولَكَ عَنِّي أَنْ يَجِيءَ بِهَا ... فَقَدْ حَبَسْتُ رَسُولِي عَنْ تَقَاضِيهَا

ولبعضهم:

خُـلِقْـتُ عَـلَى بَـابِ الـلِّئَامِ كَـأَنَّـنِي ... (قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ)

إِذَا جِئْتُ أَبْغِي السُّؤْلَ وَالْجُودَ وَالنَّدَى ... (يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ)

فَفَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِمْ ... (عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِيَ مَحْمَلِي)

فَـقَـدْ طَـالَ تَـرْدَادِي وَعَـوْدِي إِلَيْـهِـمُ ... (فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ)

أبو العتاهية والعباس بن محمد

لقي أبو العتاهية العباس بن محمد، فقال: جعلني الله فداك! تسمع مني؟ قال: هات، فأنشده:

إِنَّ الْمَـكَـارِمَ لَمْ تَـزَلْ مَـعْـقُـولَةً ... حَتَّى حَلَلْتَ بِرَاحَتَيْكَ عِقَالَهَا

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ! ... قُلْ: (لا)، وَأَنْتَ مُخَلَّدٌ، مَا قَالَهَا

(١) المزورة: نوع من الحلوى الفالوذجة، وشبهه بالشيء الحلو الطيب المحبوب.

فدخل ووجه إليه بدينارين، فقال أبو العتاهية للخادم: انتظر حتَّى أكتب جواب ما جئتَ به، فأخذ رُقْعةً وَكتب فيها:

مَدَحْتُكَ مِدْحَةَ السَّيْفِ المُحَلَّى لِتَجْرِيَ فِي الْكِرَامِ كَمَا جَرِيْتُ
فَهَبْهَا مِدْحَةً ذَهَبَتْ ضَياعًا كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيهَا واعْتَدَيْتُ

ورد الدينارين، فغضب العباس بن محمد من ذلك، وطلبه ليقتله، فلم يقدر عليه.

قافية ضاعت

قال الأصمعي، عن المعتمر: مدح أعرابي رجلًا، فلم يعطه شيئًا، فقال: إن فلانًا يكاد يعدي بلؤمه مَن يسمى باسمه، ولرب قافية قد ضاعت في طلب رجل كريم.

أشعر من بشار

قال عمرو بن بحر الجاحظ: أخبرني سعيد بن سلم الباهلي، قال: دخل على بشار بن برد يومًا، فقال: إني قد امتدحتك أعزّك الله! بقصيدة لم يقل مثلها عربي ولا أعجمي، وإني فيها لأشعر الناس. قال: قلت: هاتها! قال: فأنشدني:

حَيِّيَا صَاحِبَيَّ! أُمَّ الْعَلاء وَاحْذَرَا طَرْفَ عَيْنِهَا الْحَوْرَاء
عَذَّبَتْنِي بالْحُبِّ عَذَّبَهَا اللّـ ـهُ بِمَا تَشْتَهِي مِنَ الأَهْوَاء
إنَّمَا هِمَّةُ الْجَوَادِ ابْنِ سَلْم فِي عَطَاء وَمَرْكَب لِلْقَاء
لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرِّيَاء وَلِلْخَوْ فِ وَلَكِنْ يَلَذُّ طَعْمَ الْعَطَاء
يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ الْحَـ ـبُ وَتُغْشَى مَنَازِلُ الْكُرَمَاء

قال: فقلت: يا بشار! أراك تبجح في شعرك، وقد جاءني أعرابي منذ مدة، فمدحني ببيتين لم أسمع أجود منهما، فأغفلت ثوابه فهجاني ببيتين لم أسمع أوجه منهما. قال: فقلت: فما البيتان اللذان امتدحك بهما؟ قال: قوله:

فَيَا سَائِرًا في اللَّيْلِ لَا تَخْشَ ضَلَّةً سَعِيدُ بنُ سَلْم ظِلُّ كُلِّ بِلادِ
لَنَا سَيِّدٌ أَرْبَى عَلَى كُلِّ سَيِّدٍ جَوَادٌ حَثَا فِي وَجْهِ كُلِّ جَوَادِ

قال: قلت: فما البيتان اللذان هجاك بهما؟ قال: قوله:

لِكُلِّ أَخِي مَدْحٍ ثَوَابٌ يُعِدُّهُ   وَلَيْسَ لِمَدْحِ الْبَاهِلِي ثَوَابُ
مَدَحْتُ سَعِيدًا وَالْمَدِيحُ مَهزَّةٌ   فَكَانَ كَصَفْوانٍ عَلَيْه تُرَابُ

قال: فقال بشار: وهذا أشعر مني ومن أبي وأمي(١).

وقال عبد الله بن جعفر الرازي الكوفي: سمعت أبي يقول: رأيت رجلًا يكتب على حائط بيتين فقرأتهما بعد أن كتبهما:

يَا ذَا الذي أحْسَنْتُ ظَنِّي بِهِ   وَلَمْ يَنَلْنِي مِنْهُ إحْسَانُ
أَقَلُّ حَقِّي ضَرْبُ حَلْقِي عَلَى   تَوَهُّمِي أَنَّكَ إنْسَانُ

ولابن الرومي:

إذَا مَا مَدَحْتَ الْبَاخِلِينَ فَإِنَّمَا   تَذْكُرُهُمْ مَا فِي سِوَاهُم مِنَ الْفَضْلِ
فَتُهْدِي لَهُمْ غَمًّا طَوِيلًا وَحَسْرَةً   فَإِنْ مَنَعُوا مِنكَ النَّوَالَ فَبالْعَذْلِ

قال محمد بن الحسن المخزومي: كان رجل يوصف باللؤم، فأتاه رجل من الشعراء، فامتدحه، فوعده عدة لم يف بها فقال [من السريع]:

قَدْ صِرْتُ فِي مَدْحِكُمْ شُهْرَةً   يُقَالُ لِي أَطْمَعُ مِنْ أشْعَب
هٰذا الَّذي جَاءَ إلَى صَخْرَة   يَنْزِعُ مَا فِيهَا بلا مخْلَب
يَا سَوْءَتي منْ طَلَبي سَيْبَكُمْ   أَطْلُبُ شَيْئًا قَطُّ لَمْ يُطْلَب
قَدْ كَانَ لي في مَا مَضَى عِبرَةٌ   لَوْ أَنَّ عَقْلًا لي لَمْ يَعْزُب

كذب بكذب

عن محمد بن بشير، قال: كان والٍ بفارس قد احتجب بجهده إذ نجم شاعر بين يديه، فأنشده شعرًا مدحه فيه، فلما فرغ، قال: قد أحسنت، ثم أقبل على كاتبه، فقال: أعطه عشرة آلاف درهم. قال: ففرح الشاعر فرحًا كاد أن يستطير به، فلما رأى حاله، قال: وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع، [يا فلان!] اجعلها عشرين ألف درهم. قال: فكاد الشاعر أن يخرج من جلده، قال: فلما رأى فرحه قد أضعف، قال: وإن فرحك ليتضاعف على تضاعف القول، يا

(١) انظر: الأغاني للأصبهاني (٣/١٨٩، ١٩٤).

فلان أعطه أربعين ألف درهم. قال: فكاد الفرح يقتله. قال: فلما رجعت نفسه إليه، قال: جعلت فداك كلما رأيتني قد ازددت فرحًا تزيدني في الجائزة؟ قال: ثم دعا وخرج. قال: فأقبل عليه كاتبه، فقال: سبحان الله هذا يرضى منك بأربعين درهمًا، تأمر له بأربعين ألف درهم؟ قال: وتريد أن تعطيه شيئًا؟ إنما هذا رجل سرنا بكلام، وسررناه بمثله، فهو حين يزعم أني أحسن من القمر، وأشد من الأسد، وأن لساني أقطع من السيف، جعل في يدي من هذا شيئًا أرجع به؟ أليس يعلم أنه قد كذب، ولكن قد سرنا حين كذب علينا، فنحن أيضًا نسره بالقول، وإن كان كذبًا، فيكون كذبًا بكذب.

أهاجي فيمن يسيء الضيافة

عن خالد بن سعيد قال: نزل جرير بعميرة حي من بني عامر بن كلب، فلم يقروه، ولم يرفعوا به رأسًا حتى رحل عنه، فأنشأ يقول:

وَمَـا لُمْـنَـا عُـمَـيْـرَةَ غَـيْـرَ أَنَّـا ... نَـزَلْنَـا بـالْعُـذَيـب فَـمَـا قُـرِينَـا
فَبِـتْـنَـا مُـوحَـشِـيـنَ بِـلَيْـل سُـوءٍ ... وَقَـدْ لَقِـيَ الْمَـطِـيُّ كَـمَـا لَقِـينَـا

ونزل أبو مالك الخصاصي، وهو حي من أسد بخالد بن قطن الحارثي، بقرية على نهر صرصر، فأساء قراه، فأنشأ يقول:

تَـضَـيَّـفَـت ابْـنَ مَـلْكَـةَ فـي قِـرَاهُ ... فَـكَـانَ قِـرَاهُ لَمَّـا [أَنْ] أَتَـانـي
رَغـيـفًـا خَـفَّ مُـنْـقَـشَـر الأعَـالـي ... شَـديـدَ الْيُـبْـس لَيْـسَ لِـذَاكَ ثَـانـي
أَكُـلُّ الْمَـهْـرَجَـان كَـمَـا رَأَيْـنَـا ... بِـقَـرْيَـة خَـالـد فـي الْمَـهْـرَجَـان؟
فَـلَمَّـا أنْ مَـدَدْتُ يَـدي إلَيْـه ... تَـقَـشَّـرَ مـنْ خُـشُـونَـتـه بـنَـانـي

ونزل بلال بن جرير برجل يقال له: مسعود بن طعمة، أحد بني بيدعة من بني عدي، فلم يحسن قراه، وقد كان قال له: انزل عليّ إذا مررت، فقال بلالُ:

أَمَسْعُـودُ! أَنْـتَ الـدَّنِـيءُ الـلَّئِـيـمُ ... كَـأَنَّـكَ قُـنْـقُـذَةٌ فِـي ضَـعَـهْ
سَـمِـعْـنَـا لَهُ إذْ نَـزَلْنَـا بـه ... كَـلامًـا كَـمَـا تَـنْـطَـق الـضَّـفْـدعَـه
فَـأَيَّ الـلَّئِـيـمَـيْـن أَشْـبَـهْـتَـهُ ... أَطَـعْـمَـةُ أَمْ أُمُّـكَ الْكَـوْتَـعَـهْ[1]

---

(١) الكوتعة: كمرة الحمار (القاموس).

عَـدَدْنَـا عَـدِيًّـا وآبَـاءَهُـمْ فَـشَـرُّ عَـدِيٍّ بَـنُـو بَـيْـدعَـهْ
فَمَـا أَعْـطَشَ الضَّـيْفَ لَمَّا غَدا مِـنَ الْبَـيْـدَعَـاتِ وَمَـا أجْـوَعَـهْ!

ومرّ بلال بن جرير بنفر من بني ناشرة، فجفوه، ولم يقروه فقال:

عَـدَدْنَـا فُـقَـيـمًـا وَآبَـاءَهـم فَـشَـرُّ فَـقَـيـم بَـنُـو نَـاشِـرَهْ
قِـصَـارُ الـفِـعَـال طِـوَالُ الْخُصَـي مَـنَـاتِـيـنُ لَيْـسَـتْ لَهُـمْ بَـادِرَهْ
يَـعُـدُّونَ غُـرْمًـا قِـرَى ضَـيْـفِـهِـمْ فَـلا عَـدِمُـوا صَـفْـقَـةً خـاسِـرَهْ
إِذَا ضِـفْـتَـهُـمْ وَتَـخَـيَّـلْتَـهُـمْ وَجَـدْتَ لَهُـمْ عِـلَّة حَـاضِـرَهْ
وَلَيْـسُـوا إِذَا قُـلْتَ: مَـاذَا هُـمُ بِـأَصْـحَـاب دُنْـيَـا، ولا آخِـرَهْ

ونزل حمزة بن بيض بقوم، فأساؤوا ضيافته، وطرحوا لبغلته تبنًا رديئًا، فعافله، فأشرف عليها فشحجت حين رأته فقال:

احْـسَـبِـيـهَـا لَيْـلَةً أدْلَجْـتِـهَـا فَكُلِي إنْ شِئْتَ تِبْنًا أوْ ذَرِي
قَـدْ أَتَى مَـوْلاكَ خُبْزٌ يَابِسٌ فَتَغَدَّى؛ فَتَغَدَّي وَاصْبِرِي

وقَدِمَ ابن حمدون النديم مدينة السلام منصرفًا من الحج، وقد كان قطع عليه في الطريق، فعرض عليه محمد بن عبد الله بن طاهر، وسأله أن ينزل عنده، فلم يفعل، فصرت إليه، فأنشدته:

لِيَـهْـنِـكَ أَجْـرًا حـجَّـةٌ وَرَزِيَّـةٌ وَأَنَّكَ لَمْ تَحْلُلْ بِدَارِ ابْنِ طَاهِرِ
بِدَارٍ كَأَنَّ الضَّيْفَ فِي جَنَبَاتِها إذَا مَا غَدَا، ضَيْفٌ لأَهْل المَقَابِرِ

وقال بعضهم:

عَـوَّذَ لَمَّـا بِـتُّ ضَـيْـفًـا لَهُ أَقْـرَاصَـهُ بُـخْـلًا بِـيَـاسِـيـنِ
فَـبِـتُّ وَالأَرْضُ فِـرَاشِـي وَقَـدْ غَـنَّـتْ «قِـفَـا نَبْـكِ» مَـصَـارِيـنِـي

وأنشد أبو محمد عبدالله بن محمد المديني لنفسه بمصر:

فَـتًـى لِرَغِـيـفِـهِ صَـوْتٌ فَـصِـيـحٌ يُـنَـادِي بِـالـضُّـيُـوف: ألا حَـذَارِ
يَـفِـرُّ مِـنَ الـضُّـيُـوفِ إذَا رَآهُـمْ فِـرَارَ الـصَّـقْـرِ من ذَرْقِ الحُبَارِي

وقال أبو نصر منصور بن مشكان الخراساني الكاتب:

ظَلَمْنَاكَ لَمَّا طَلَيْنَا قِرَاكَ وَمَا لِلْقِرَى وَالفَتَى البَاخِلِ؟
وَسُمْنَاكَ مَا لَمْ تَكَدْ تَسْتَطِيعُ وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

وأنشد أبو هلال العسكري لنفسه:

تَنَانِيرُكُمْ لِلنَّمْلِ فِيهَا مَدَارِجُ وَفِي قِدْرِكُمْ لِلْعَنْكَبُوتِ مَناسِجُ
وَعِنْدَكُمُ لِلضَّيْفِ حِينَ يَنُوبُكُمْ حَوَالاتُ سُوءٍ بالْقُرَى وسَفَاتِجُ
وَأَنْتُمْ عَلَى مَا تَزْعُمُونَ أكارِمٌ فَأَيرِيَ فِي اسْتِ أُمِّ المَكارِمِ وَالِجُ

وقال ابن حجاج:

يَا ذَاهِبًا فِي دَارِهِ جَائِيًا بِغَيْرِ مَعْنًى وَبِلا فَائِدَهْ
قَدْ جُنَّ أضْيَافُكَ مِنْ جُوعِهِمْ فَاقْرَأْ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الْمَائِدَهْ

وقال دعبل الخزاعي:

يَا تَارِكَ الْبَيْتِ عَلَى ضَيْفِهِ وَهَارِبًا مِنْهُ مِنَ الْخَوْفِ
ضَيْفُكَ قَدْ جَاءَ بِخُبْزٍ لَهُ فَارْجِعْ وَكُنْ ضَيْفًا عَلَى الضَّيْفِ

وقال أبو العباس القرشي [من البسيط]:

قَوْمٌ يَغَارُونَ أَنْ تُغْشَى مَوائِدُهُم وَلا يَغَارُونَ في الْعِصْيَان لِلْحُرُم
إنْ جَاءَ ضَيْفٌ تَوَارَوْا في بُيُوتِهِم كَأَنَّهُ جَاءَهُمْ يَبْغِيهِمُ بِدَم
لَهُمْ وَقَارٌ، وَحِلْمٌ مِنْ عَدُوِّهِمُ، وَفي الْبُيُوت لَهُم جَهْلٌ عَلَى الْخَدَم

بخل ابن ماذويه الأهوازي

قال العسكري: كنت أكتب لأبي أحمد ابن ماذويه الأهوازي، وهو يومئذ عامل خوي أرذك والأنهار، وكان من أبخل مَن رأيت على شيء من المأكولات، وكان يحتبسني للأكل، فأجلس معه على الطعام، ولا آكل كثير شيءٍ، فاحتبسني يومًا وعنده جماعة، فأكلوا وأكل، وجريت على عادتي في التنقير، وكان الطعام أرزة جدي مشوي ولونين، من أطرافه وسقطه؛ فلما فرغنا من ذلك أقبل غلامه وعلى يده طيفورية فيها الجدي. فأقبل هو علينا، فقال: أما أنا فقد شبعت فلم يبق فيّ فضل فما تقولون أنتم؟ فقلت: أما أنا فقد شبعت، فقالت الجماعة كقولي.

قال: فنجعل الجدي لغد ونأكله مبردًا. فقلت: هذا هو الصواب. فقال: ما أظنكم إلا وفيكم فضلة للأكل، وإنما قلتم قد شبعتم مساعدة لي. فقلت: لا والله يا سيدي! ما في فضل؛ فقال للذي يليني: ما تقول؟ فقال: ما في فضل، فقال: لو كنت شبعان لحلفت كما حلف أبو عبد الله؛ فحلف الرجل أنه شبعان؛ فقال للآخر الذي إلى جانبه، فحلف، فلم يزل يستقري واحدًا واحدًا، ويحلف أنه شبعان، ومَن لم يحلف قال له: لو كنت شبعان لحلفت. فيحلف الرجل، فلما استوثق من جماعتنا بالأيمان، وثلج صدره أنه لا حيلة لأحد منّا في الأكل، قال: أما أنا فقد تتبعت نفسي أكل شحم كلاه حارًا. فقلنا له: كل هنّأك الله. فقال: يا غلام! ضع الطيفورية؛ فتركت بين يديه، فأكل أكثر الجدي وحده، وأمر برفع باقيه وحفظه.

بخل أسد بن جهور

قال التنوخي، حدّثنا أبي، قال: أخبرني غير واحد أن أسد بن جهور العامل كان بخيلًا سواديًا، وكان مكاشفًا بالبخل على الطعام جدًا، فكان ندماؤه يلقون لذلك جهدًا، وكان يحضرهم ويطالبهم بالجلوس، ويحضر كل لذيذ شهيّ من الطعام، فإن ذاقه منهم ذائق استحل دمه وعجّل عقوبته، وكانت علامته معهم إذا شيلت المائدة أن يمسحوا أيديهم بلحاهم، ليعلم أنهم ما شعثوا شيئًا يزهمها، وكان له ابن أخت يتجرى عليه ولا يفكر فيه، ويهتك ستره إذا واكله. فقدمت يومًا إليه دجاجة هندية فائقة سرية، فحين أهوى ابن أخته إليها بيده قبض أسدٌ عليها، وقال: يا غث يا بارد! يا سيءَ العشرة! يا قبيح الأدب! أفي الدنيا أحد استحسن إفساد هذه؟ فقال له ابن أخته: يا بخيل! يا لئيم! يا سيء الاختيار! فلأيّ تصلح؟ عقدة على وجه الدهر، كنزًا للأعقاب، صنمًا للعبادة، أوسطه للمخانق، سرية يتمتع بالنظر إليها؟! شهد الله أنني ما أدعها؛ فتصابرا عليها إلى أن قال له الفتى: فافتدها مني. قال: بماذا تحب حتى أفعل؟ قال: ببغلتك الفلانية. قال: قد فعلت قال: بسرجها ولجامها المحلى الفلاني؛ قال: قد فعلت. قال: ما أرفع يدي عنها أو تحضر ذلك. قال: يا غلمان! أحضروه؛ فأحضرت البغلة والمركب، فسلمها الفتى إلى غلامه، وأخرجها، ورفع يده عن الدجاجة، وانقضى الطعام، وشيلت المائدة، وقام أسد لينام، فخرج ابن أخته، وقال للطباخ: عليّ بالفائقة الساعة وبجميع ما شلتموه من المائدة؛ فأحضر إليه، وردّ الندماء وقعدوا، فأكلوا ذلك، وانصرفوا وقد

أكل الدجاجة والطعام أجمع، وحصلت له البغلة والمركب. قال: وإنما كان أسد لا يطيق أن يرى ذلك يؤكل، فأما إذا نحي من بين يديه لم يسأل عنه ولم يطالب برده.

البلع أشد من المضغ

قيل: إن بعض الأكابر كان يشتهي أن يحضر الناس مائدته ويأكلوا طعامه، غير أنه كان لا يستطيع أن يرى فمًا يمضغ شيئًا، فشكا ذلك إلى صديق له يأنس به، فقال له صديقه: لو اتخذت لهم طعامًا يتناولونه من غير أن يمضغوه، فقال: وهل يمكن ذلك؟ قال: نعم، أصنع لهم سرطراطة، وهي فالوذجة لم تنضجها النار، فتنعقد، فإنهم يبلعونها ولا يحتاجون إلى أن يمضغوها. فقال: الرجل لصديقه: فرجت عني، وهذا أسهل الأشياء عندي، وليس يصعب عليّ إلا دوية المضغ حسب. فأمر بالفلوذجة، فصنعت، وجعلت في صحن واسع، وأحضر مَن يريد أن يدعوه. فجلس الناسُ في صحن الدّار، وجلس الرجل في غرفة مشرفة عليهم لينظر كيف يأكلون. فلما كان بعد زمان صعد صديقه الذي كان يأنس به إليه، فوجده مغشيًا عليه، فانتظره حتى أفاق، ثم قال له: أيش حالك يا سيدي؟ وما الذي أصابك؟ فقال: يا حبيبي! البلع ـ والله ـ أشد عليّ من المضغ.

اللئيم سباب

مرّ أعرابي برجل قد وضع بين يديه غداءه، وهو يأكل، فقال: لو تعرضت له لعله يدعوني إلى الغداء. فقال: السلام عليكم! فقال: كلمة مقولة. ثم طأطأ رأسه يأكل فقال له الأعرابي: أما أني مررت بأهلك. قال: عليهم كان طريقك؟ قال: وهم صالحون. قال: كذلك خلفتهم. قال: إن امرأتك حبلى. قال: كذلك عهدتها. قال: إنها ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت لتقوى على رضاع اثنين. قال: ثم مات الآخر. قال: ما كان ليبقى بعد أخيه. قال: ثم ماتت الأم. قال: ما كانت لتبقى بعد ولديها. قال: ما أطيب طعامك! قال: نفعه لغيرك. قال: أف لك. قال: اللئيم سبَّابٌ[1].

(١) تقدمت هذه القصة عن أبي الأسود الدؤلي.

دقة ناصر الدولة

قال أبو عبد الله بن أبي موسى الهاشمي: كنت بحضرة ناصر الدولة ببغداد، فاستدعى شيئًا يأكله، فجاؤوه بدجاجة مشوية ورغيف واحد وسكرجتين وخل وملح وقليل بقل، فجعل يأكل وأنا أحادثه، إذ دخل الحاجب، فأخبره بحضور قوم لا بد من وصولهم بحشمهم، فأمر برفع الدجاجة، فرفعت بسرعة، ومسح يده، ودخل القوم، فخاطبهم بما أراد وانصرفوا، فقال: ردوا الطبق، فأحضر، فتأمل الدجاجة ساعة، ثم جرد وقال: فأين تلك الدجاجة؟ فقالوا: هي هذه، فقال: لا وحق أبي عليّ بالطباخ. فحضر، فقال: هذه هي تلك الدجاجة؟ فسكت، فقال: اصدقني، ويلك!. قال: فما فعلت بتلك؟ قال: لما شيلت لم نعلم أنك تردها، فأخذها بعض الغلمان الصغار، فأكلها، فلما طلبتها أخذنا هذه فكسرنا منها وشعثنا مثل ما كنت كسرت من تلك وشعثت، طمعًا في أنك لا تعلم بذلك، وقدمناها. فقال: يا حمار! تلك كنت كسرت منها الفخذ اليمنى، وأكلت جانب الصدر الأيسر، وهذه مأكولة جانب الصدر الأيمن مكسورةُ الفخذ اليسرى، لا تعاود بعد هذا لمثل هذا. فقال: السمع والطاعة. وانصرف الطباخ، فجعلت أعجب من تفقده وهو ملك لمثل هذا، ونظره فيه.

جحظة والبخيل

قال جحظة: حضرت يومًا عند بعض الرؤساء البخلاء، وكنت عقيب تشك، وقد أحضرت مائدته مضيرة حسنة، فأمعنت فيها إمعانًا استنفد صبره، وهتك تجمله وستره، فقال لي: يا أبا الحسن! أعزك الله! أنت عليل، وجسمك نحيل، واللبن يستحيل. فقلت له: والعظيم الجليل، لا تركت فيها من كثير ولا قليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل! قال: فصبر إلى أن أخذ النبيذ منه، ثم عربد علي، فانصرفت من عنده وقلت، وصنعت فيه لحنًا:

وَلِي صَاحِبٌ لَا قَدَّسَ الله رُوحَهُ   بَطِيءٌ عَنِ الْخَيْرَاتِ غَيْرُ قَرِيبِ
أَكَلْتُ عَصِيبًا عِنْدَهُ فِي مَضِيرَةٍ   فَيَا لَكَ مِنْ يومٍ عَلَيَّ عَصِيبِ

جحظة وابن بشار

قال علي بن الحسين أبو الفرج الأصبهاني، أخبرني أبو بكر الربيعي الشاعر، وكان كالمنقطع إليّ قال: دعانا أبو محمد بن بشار يومًا، وكان فيه بخل

على الطعام، ودعا جحظة فطال حبسه للطعام جدًّا، فأخذ دواة ورقعة، وكتب إليّ:

مَـــا لِي وَلِلشَّـــارِ وَأَوْلادِهِ لا قُـــدِّسَ الْوَالِدُ وَالْوَالِده
قَدْ حَفِظُوا القُرْآنَ وَاسْتَعْمَلُوا مَـا فِيــهِ إِلَّا سُـورَةَ الْمَـائِدَهْ

ورمى بها إلي، فقرأتها، وكان ابن بشار يقرأ، فأومأت بها إليه، فقرأها، ووثب خجلًا، فقدم الطعام، وكان بعد ذلك يجهد جهده في أن يجيئه جحظة، فلا يفعل، ويقول لي: حتى يحفظ تلك السورة، ثم أجيئه.

قال أبو الفرج: حدَّثني جحظة، قال: دخلت على أبي محمد بن بشار أهنئه بدخول شهر رمضان، فسألني عن حالي ومَن ألقى من إخواني، فأنشأت أقول:

رَكِبْتُ أُطَوِّفُ فـي الْجَـانِبَيْـن وَأَقْـطَـعُ عُـمْـرَ زَمَـان الـصِّـيَـام
فَـلَمْ أَلْقَ إِلَّا صَـديـقًـا يَـجُـودُ بطيب الْكَلام وَحُسْن السَّلام
وَلَوْ أَنَّـنـي كُـنْـتُ فـي بَـيْـتـه سَقَاني بكَفَّيْه كَأْسَ الْحمَام
فَـكَـيْـفَ أَكُونُ إِذَا مَـا قَـصَـدْتُ لأَكْـل الـطَّـعَـام وَشُـرْب الْمُـدَام

من أخبار أبي الأسود الدؤلي

قال أبو العيناء: سلم أعرابي على أبي الأسود، قال: كلمة مقولة، قال: أتأذن في الدخول؟ قال: وراءك أوسع عليك. قال: هل عندك شيء يؤكل؟ قال: نعم قال: أطعمني. قال: عيالي أحق به. قال: ما رأيت ألأم منك. قال: نسيت نفسك؟!.

قال: أبو الأسود لرجل معه ثوب: بكم هو؟ قال: خذه حتى أقاربك. قال: إن لم تقاربني ما عدتك، فبكم هو؟ قال: أعطيت به كذا. قال: أنت تخبر عما فاتك.

وباع أبو الأسود بعيرًا من رجل، فقال له: أتقضيني حتى أكفائك؟ قال: أهنأ الخير أعجله.

جحظة والحسن بن مخلد

قال جحظة: ربحت بأكلة افتديتها مع الحسن بن مخلد خمسمائة دينار وخمسمائة درهم، وخمسة أثواب فاخرة وعتيدة طيب سرية، فقلت: كيف كان

ذلك؟ فقال: كان الحسن بخيلًا على الطعام، سمحًا بالمال، وكان يأخذ ندماءه بغتة، فيسقيهم النبيذ ويؤاكلهم، فمن أكل قتله مثلًا، ومَن شرب معه على الخسف حظي به. قال: فكنت عنده يومًا، فقال لي: يا أبا الحسن قد عملت غداء على صبوح الجاشري - قال على ابن أبي علي: يعني الشرب قبل طلوع الفجر - فبت عندي. فقلت: لا يمكنني، ولكن أباكرك قبل الوقت. فعلى أي شيء عملْت أن نصطبح؟ فقال: قد أعد لنا كذا وكذا. ووصف ما تقدم إلى الطباخ بعمله، فعقدنا الرّأي على أن أباكره، وقمت فجئت إلى بيتي، ودعوت طباخي، فتقدمت إليه أن يصلح لي مثل ذلك بعينه، ويفرغ منه وقت العتمة، ففعل، ونمت وقمت وقد مضى نصف من الليل، فأكلت ما أصلح لي، وغسلت يدي، وأسرج لي، وأنا عاملٌ على المضي إليه، إذ طرقتني رسله فجئته، فقال: بحياتي أكلت؟ قلت: أعيذك بالله! انصرفت من عندك قبيل المغرب، وهذا نصف الليل، فأيَّ وقت أصلح لي شيء، أو أي وقت أكلت؟ سلْ غلمانك على أيِّ حال وجدوني؟ قالوا: وجدناه والله! يا سيدي! قد لبس ثيابه، وهو ذا ينتظر أن يفرغ من إسراج بغلة ليركبها. فسر بذلك سرورًا شديدًا، وقدم الطعام، فما كان في فضل لشمه، فأمسكت عن تشعيثه ضرورة وهو يستدعي أكلي، ولو أكلت أحلّ دمي. قال: وكذا كانت عادته، فأقول له: هو ذا أكل يا سيدي! وفي الدنيا أحد يأكل أكثر من هذا؟ قال: وانقضى الأكل، وجلسنا على الشرب، فجعلت أشرب بالأرطال وهو يفرح، وعنده أني أشرب على الريق أو ذلك الأكل الذي أكلت معه. ثم أمرني بالغناء، فغنيت، فاستطاب ذلك، الأكل الذي أكلت معه. ثم أمرني بالغناء، فغنيت، فاستطاب ذلك، وطرب، وشرب أرطالًا، فلما رأيت النبيذ قد عمل فيه، قلت: يا سيدي! تطرب أنت على غنائي، فأنا على أي شيء أطرب؟ فقال: يا غلام! هات دواة. فأحضرت، فكتب لي رقعة، ورمى بها إليّ، فإذا هي إلى صيرفي يعامله بخمسمائة دينار، فأخذتها وشكرته، ثم غنيت، فطرب، وقد زاد سكره، فطلبت منه ثيابًا، فخلع على خمسة أثواب من أنواع الثياب، ثم أمر أن يبخر مَن كان بين يديه، فأحضرت عتيدة حسنة سرية، فيها طيب كثير، وأخذ الغلمان يبخرون بها الناس، فلما انتهوا إليّ قلت: يا سيدي! وأنا أرضى بأن أتبخر حسب؟ فقال: ما تريد؟ قلت: أريد نصيبي من العتيدة. قال: قد وهبتها لك؛ فأخذتها. وشرب بعد ذلك رطْلًا آخر، واتكأ على

مسورته[١]، وكذا كانت عادته إذا سكر فقام الناس من مجلسه، وقمت وقد طلع الفجر وأضاء، وهو وقت يبكر الناس في حوائجهم، فخرجت كأنب لصٍّ قد خرج من بيت قوم، على قفا غلامي الثياب والعتيدة كارة[٢]، فصرت إلى منزلي، ونمت نومة، ثم ركبت إلى درب عون أريد الصيرفي حتى لقيته في دكانه، فأوصلت الرقعة إليه، فقال: يا سيدي! أنت الرجل المسمى في التوقيع؟ قلت: نعم. قال: أنت تعلم أن أمثالنا يعاملون للفائدة. قلت: أجل. قال: ورسمنا أن نعطي في مثل هذا ما يخسر فيه، في كل دينار درهم، فقلت له: لست أضايقك في هذا. فقال: ما قلت هذا لأربح عليك، ولكن أيما أحب إليك تأخذ مثلما يأخذ الناس وهو ما عرفتك، أو تجلس مكانك إلى الظهر حتى أفرغ من شغلي، ثم تركب معي إلى داري، تقيم عندي اليوم والليلة نشرب؟ فقد والله! سمعت بك، وكنت أتمنى أن أسمعك، ووقعت الآن إليّ رخيصًا، فإذا فعلت هذا دفعت إليك الدنانير بما تساوي من غير خسران؟

فقلت: بل أقيم عندك. فجعل الرقعة في كمه، وأقبل على شغله، وقوضه، فلما أذنت الظهر، جاء غلامه ببغل فاره، فركبه وركبت معه، فصرنا إلى دار سرية حسنة بفاخر الفرش والآلات، ليس فيها إلا جوارٍ رومٌ للخدمة من غير فحل، فتركني في مجلسي، ودخل، ثم خرج إلي بثياب أولاد الخلفاء من حمّام داره، وتبخر، وبخرني بند عتيق حدة، وأكلنا أطيب طعام وأنظفه، ونمنا وقمنا إلى مجلس سري للشرب، فيه فواكه وآلات بمال، فشربنا ليلتنا، فكنت ليلتي عنده أطيب من أختها عند الحسن بن مخلد، فلما أصبحنا أخرج كيسين، فإذا أحدهما دنانير، فوزن لي من أجودها خمسمائة، ثم فتح الآخر، فإذا هو دراهم طرية، فوزن لي منها خمسمائة، فقال: يا سيدي! تلك ما أمرت به، وهذه ـ يعني: الدراهم ـ هدية مني، فأخذتهما وانصرفت، وصار الصيرفي لي صديقًا، ودَاره لي معقلًا.

---

(١) المسورة: متكأ من الجلد.

(٢) الكارة من الثياب: ما يكوره القصار منها، ويحمله فيكون بعضه فوق بعض [القاموس: كور].

ما لك إلا النفخ في البوق

قال أحمد بن محمد البغدادي: كنا في بيت أبي إسحٰق نلعب بالشطرنج، إذ تعالى النهار وجعنا. قال: فتركنا اللعب، وجعلنا ننظر إلى جدار البيت، فإذا في ناحية الجدار مكتوب:

نِعْمَ الصَّدِيقُ صَدِيقٌ لا يُكَلِّفُنا ... ذَبْحَ الْفِرَاخِ وَلا ذَبْحَ الْفَرارِيجِ
يَرْضَى بِلَوْنَيْنِ مِنْ كَشْكٍ وَمِنْ عَدَسٍ ... وَإنْ تَشَهَّى فَبَاقِلَّيَ بِطَسُّوجِ

قال: فقلنا: ما كان ولو بقلي، فإنا قد رضينا؛ فإنّا جياع. قال: فعدنا في اللعب حتّى ضجرنا. قال: فرفعنا رؤوسنا، وتركنا اللعب فإذا في ناحية أخرى مكتوب:

اشْرَبْ عَلَى الْخِيْرِ وَالرِّيقِ ... فَنَحْنُ فِي بُعْدٍ مِنَ السُّوقِ
لا تَرْجُوَنَّ الْخُبْزَ فِي بَيْتِنَا ... مَا لَكَ إلّا النَّفْخَ فِي الْبُوقِ

قال: فقمنا وتركناه[١].

أهاجي في البخلاء على الطعام

قال الحجاج بن يوسف: البخل في الطعام أقبح من الوضح في جلد الإنسان.

وقال الشاعر:

رغيفُ سعيد عنده عدل نفسه ... يُقَلِّبُهُ طَوْرًا، وَطَوْرًا يُلاعِبُهْ
وَيَحْمِلُهُ في كُمّه وَيَشُمُّهُ ... وَيَلْثِمُهُ حينًا، وَحينًا يُخاطِبُهْ
وَإنْ قَامَ مِسْكينٌ عَلَى بَابَ دَاره ... إذَا ثَكَلَتْهُ أُمُّهُ وَأَقَارِبُهُ
يُصَبُّ عَلَيْه الْبَوْلُ مِنْ كُلِّ جَانب ... وَتُخْضَبُ سَاقاهُ وَيُنْتَفُ شَارِبُهْ

وقال اليزيدي للأصمعي:

وَمَا أَنْتَ؟ هَلْ أَنْتَ امْرُؤٌ ... إذَا صَحَّ أَصْلُكَ مِنْ بَاهِلَهْ
وَلِلْبَاهِلِيِّ عَلَى خُبْزِهِ ... كِتَابٌ لآكِلِهِ الآكِلَهْ[٢]

---

(١) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ٢٣٣). (٢) ذكره المبرد في «الكامل» (٢/ ٧١٦).

وكتب رجل إلى محمد بن خازم الباهلي:

أَلا أَيُّـهَـا الـمُـدَّعِـي بَـاهِـلَهْ وَهَـبْـكَ كَـمَـا قُـلْتَ مِـنْ بَـاهِـلَهْ
فَـلَوْ هُـجِـيَـتْ بَـاهِـلٌ كُـلُّهَـا لَكَـانَـتْ لأَجْـلِكَ مُـسْـتَـاهِـلَهْ
أَرَى الْبَـاهِـلِي عَـلَى خُـبْـزِهِ يَـمُـوتُ وَتَـأْكُـلُهُ الآكِـلَهْ

وقال الشاعر:

رَأَيْـتُ عُـثْـمَـانَ أَبَـا حِـلْس يَـنُـوحُ حُـقْـبَـيْـن عَـلَى فَـلْسِ
يَبْكِي عَلَى الْكِسْرَة مِنْ لُؤْمِه بُـكَـاءَ شَـمَّـاس عَـلَى قَـسِّ
يَمْحُو كِتَابَ الْفَلْس فِي كَفِّه مِنْ شِدّة الضَّبْط عَلَى الْفَلْس
يَكْتُبُ تَعْوِيذًا عَلَى خُبْزِه أَعَـاذَكَ الله مِـنَ الـضِّـرْس

وقال أبو نواس في إسماعيل بن نوبخت:

عَلَيَّ خُبْز إِسْمَاعِيلَ وَاقِيَةُ الْبُخل فَقَد حَلَّ فِي دَار الأَمَان مِنَ الأَكل
وَمَا خُبْزُهُ إِلَّا كَآوَى يُرَى ابْنُهُ وَلَمْ يُرَ آوِي فِي الْحزون وَلا السَّهْل
وَمَا خُبْزُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءَ مُغْرب تُصَوَّرُ فِي بُسُط المُلُوك وَفِي الْمَثْل
يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ مِنْ غَيْر رُؤْيَة سِوَى صُورَةَ مَا إِنْ تُمرُّ وَلا تُحْلي
وَمَا خُبْزُهُ إلا كُلَيْبُ بْنُ وَائل لَيَالي يَحْمِي عزَّه مَنْبتُ الْبَقْل
وإِذْ هُوَ لا يَسْتَبُّ خَصْمَان عِنْدَهُ وَلا الصَّوْتُ مَرْفُوعٌ بجدٍّ وَلا هَزْل
فَإِنْ خُبْزُ إِسْمَاعِيلَ حَلَّ به الَّذي أَصَابَ كُلَيْبًا لَمْ يَكُنْ ذَاكَ عَنْ ذُلِّ
وَلَكِنْ قَضَاءٌ لَيْسَ يَسْطِيعُ رَدَّهُ بحيلَة ذي دَهْي وَلا مَكْر ذي عَقْل

وقـــال:

خُـبْـزُ إِسْـمَـاعِـيـلَ كَـالوَشْـ ـشـي، إِذَا مَـا انـشَـقَّ يُـرْفَـا
عَـجَـبًـا مِـنْ أَثَـر الـصَّـنْـ ـعَـة فِـيـه كَـيْـفَ يَـخْـفَـى؟
إِنَّ رقَـــاءَكَ هَـــذَا أَلْطَـفُ الأُمَّـة كَـفَّـا
فَـإِذَا قَـابَـلَ بِـالـنِّـصْـ ـف مِـنَ الْخُـبْـزَة نِـصْـفَـا
أَلْحَـمَ الـصَّـنْـعَـة حَـتَّـى لا تَـرَى مَـوْضِـعَ أَشْـفَـى
مِـثْـلَمَـا جَـاءَ مِـنَ الـتَّـ ـنُّـور، مَـا غَـادَرَ حَـرْفَـا

وَلَهُ مِـــنْ بَـــعْــــدِ هَـــذَا خَــصْــلَةٌ أَحْـكَــمُ ظَــرْفَــا
يَــمْــزُجُ الْعَــذْبَ بِــمَــاءِ الْـ ـبِــئْرِ كَــيْ يَــزْدَادَ ضِــعْــفَــا
فَـهْـوَ لا يُـسْـقِـيـكَ مِـنْـهُ مِـثْـلَمَـا يَـشْـرَبُ صِـرْفَـا

وقال أعرابي:

وَإِنَّ نَــصْــرًا لَهُ دَارٌ مُــشَــيَّـــدَةٌ وَمِــثْـــلُهُ لِجِـيَـادِ الـــدُّورِ بَــنَّـــاءُ
الْحُسْنُ ظَاهِرُهَا وَالْجُوعُ دَاخِلُهَا وَفِـي جَـوَانِـبِـهَـا بُـؤْسٌ وَضَـرَّاءُ
مَا يَنْفَعُ الْمَرْءَ مِنْ تَزْوِيقِ مَنْزِلِهِ وَلَيْسَ فِي جَوْفِهِ خُبْزٌ وَلا مَاءُ؟
أَسْتَغْفِرُ الله رَبِّيَ! رُبَّمَا خَبَزُوا فِي الدَّهْرِ كَعْكًا عَلَيْهِ السُّقْمُ وَالدَّاءُ؟

وقال أبو نواس في البخل:

أَتَـانَـا بِـخَـبْـزٍ لَهُ يَـابِـس شَبِيهِ الدَّراهِم فِي خِلْقَتِهْ
إِذَا مَا تَنَفَّسْتَ عِنْدَ الْخِوَانِ تَطَايَرَ فِي الْبَيْتِ مِنْ خِفَّتِهْ
فَنَحْنُ جُلُوسٌ جَمِيعًا مَعًا نُدَارِي التَّنَفس مِنْ خَشْيَتِهْ

وللحمدوني:

أَتَـانَـا بِـخُـبْـزٍ لَهُ حَـامِـض شَـبِـيـهِ الـدَّرَاهِـم فـي حِـلْيَـتِـهْ
يُـضْـرِسُ آكِـلَه طَـعْـمُـهُ وَيَنْشبُ في الْحَلْقِ منْ خَشْنَتِهْ
إِذَا مَـا تَـنَـفَّـسْـتَ عِـنْـدَ الْخِـوَان تَـطَـايَـرَ فـي الْبَـيْـت مِـنْ خِـفَّـتِـهْ
فَـنَـحْـنُ جُـلُوسٌ مَـعًـا كُـلُّنَـا نُـدَارِي الـتَّـنَـفُّـسَ مِـنْ خُـشْـيَـتِـهْ

قال الحمدُوني، ويقال للمصيصي:

لأَبِـــي نُـــوح رَغِـــيـــفٌ أَبَـــدًا فِـــي حِـــجْــرِ دَايَـــهْ
بَــرَّة تَــمْــسَــحُــهُ الـدَّهْـ ـرَ بِـــكُــــمٍّ وَوِقَـــايَـــهْ
وَتَــعَــاوِيـــذُ عَـــلَيْـــه خُــطَّ فــيــهَــا بِــعِــنَــايَــهْ
«فَـسَـيَـكْـفِـيـكَـهُـم الـلَّـ ـهُ» إِلَـــى آخِـــرِ الآيَـــهْ

ولبعضهــم:

يَــجُــوعُ ضَــيْــفُ أَبِــي نُــو حٍ بَــــكْــــرَةً وَعَــــشِـــيَّـــهْ
أَجَـــاعَ بَـــطْـــنِـــيَ حَـــتَّـــى وَجَــدْتُ طَــعْــمَ الْمَــنِــيَّــهْ

وَجَاءَنِي بِرَغِيف ... قَدْ أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَهْ
فَقُمْتُ بِالْفَأسِ كَيْمَا ... أَدُقُّ مِنْهُ شَظِيَّهْ
فَثَلَّمَ الْفَأْسَ وَانْصَا ... عَ مِثْلَ سَهْمِ الرَّمِيَّهْ
فَشَجَّ رَأْسِي ثَلاثًا ... وَدَقَّ مِنِّي ثَنِيَّهْ

وقال أحد الشعراء:

لأَبِي نُوحٍ رَغِيفٌ ... كَانَ فِي تَنُّورِ نُوحِ
ثُمَّ إِذْ ذَلِكَ فِي سُلْـ ... ـلَةِ إِسْحَاقَ الذَّبِيحِ
فَجَرَى مِنْ ذَلِكَ الدَّهْـ ... ـرِ إِلَى عَهْدِ الْمَسِيحِ
وَلَقَدْ بَارَزَ عَمْرًا ... قَبْلَ أَيَّامِ الْفُتُوحِ
فَنَبَا مِنْ تَحْتِ صَمْصَا ... مَتِهِ نَبْوَةَ رِيحِ
تَرَكَتْ عَمْرًا بِلا سِـ ... ـنٍّ ولا ضِرْسٍ صَحِيحِ

ولبعضهم:

أَكْرَمُوا الْخُبزَ بِالصِّيَانَةِ حَتَّى ... جَعَلُوا الْكَعْكَ لِلْبَنَاتِ شُنُوفا

ولبعضهم:

لَكَ نَفْسٌ إِذَا أَضَرَّ بِهَا الْجُو ... عُ تَلَافَيْتَهَا بِشَمِّ الرَّغِيفِ
مَنْ يَكُن عَيْشُهُ كَعَيْشِكَ هَذَا ... فَلْتَكُنْ دَارُهُ بِغَيرِ رَغِيفِ

وقال دعبل:

أَتَحْجُبُ مَطْبَخًا لا شَيْءَ فِيهِ ... مِنَ الدُّنْيَا يُخَافُ عَلَيْهِ أَكْلُ
فَهَبْكَ الْمَطبَخَ اسْتَوْثَقْتَ مِنْهُ ... فَمَا بَالُ الْكَنِيفِ عَلَيْهِ قفْلُ
وَلَكِنْ قَدْ بَخِلْتَ بِكُلِّ شَيْءٍ ... فَحَتَّى السَّلْحُ مِنْكَ عَلَيْكَ بُخْلُ

وله أيضًا:

يَفْرَحُ بِالْقُولَنْجِ فِي بَطْنِهِ ... بُخْلًا عَلَى مَا حَازَ فِي الْجُوفِ
لَا يَذْكُرُ الله بِشَيْءٍ سِوَى ... أَعُوذُ بِالله مِنَ الضَّيْفِ

وله:

إِنَا سَوْطُ الْعَذَابِ أرْسَلَنِي اللّـ ... ـهُ عَلَى السَّاقطِ السَّمِينِ الْبَخِيل

غَـيْـرَ أنَّ الْفَـتَـى يَـصُـونُ رَغـيـفًـا مَـا إلَيْـه لـنَـاظـر مـنْ سَـبـيـل
هُـوَ فـي رَقْـعَـتَـيْـن مـنْ أَدَم الـطَّـا ئـف فـي سَـلَّتَـيْـن، فـي مـنـديـل
في جرَاب، في مَخْدَع، جُوف صُنْدُو ق إلَى جَـنْـب خَـادم مَـغْـلُول
وَعَـلَى الـسَّـلَّتَـيْـنِ قُـفْـلان مفْـتَـا حـهُـمَـا فـي جَـنَـاح ميـكـائـيـل
خُـتـمَـتْ كُـلُّ سَـلَّة بـرَصَـاص وَسُـيُـور قُـدذْنَ مـنْ جـلْد فـيـل
بـخـتَّـام مـنَ الـنُّـحَـاس عَـظـيـم صيـغَ بَـعْـدَ الإزهَـاق وَالـتَّـوْكـيـل
نَقْشُـهُ يَا سُمَيَّ! مَا أَحْسَنَ الصَّبْـ ـرَ عَـن الْخُـبْـز بَـعْـدَ جُـوع طَـويـل

وأنشد أبو عكرمة:

فَـتًـى لِرَغِـيـفِـه قُـرْطٌ وَشَـنْـفٌ وَخِـلْـخَـالانِ مِـنْ دُرٍّ وشَـذْرِ
وَيَبْكِـي إنْ شَقَقْتَ لَهُ رَغِيفًا بُكا الْخنْسَاءِ إذْ فُجِعَتْ بِصَخْرِ
وَتَـلْقَـى دُونَ نَـائِلِهِ نِـطَـاحًـا وَضَـرْبًـا مِـثْـلَ وَقْـعَـةِ يَـوْمِ بَـدْرِ

وقال عباس الخياط:

لأَبِـي عِـيـسَـى رَغِـيـفٌ فِـيـه خَـمْـسُـونَ عَـلامَـهْ
فَـعَـلَى جَـانِـبِـه الْوَا حِـد، لُقِّـيـتَ الْكَـرَامَـهْ
ثُـمَّ لا ذَاقَـكَ لِـي ضَـيْـ ـفٌ، إلَى يَـوْمِ الْقِـيَـامَـهْ
وَعَـلَى الآخَـر سَـطْـرٌ نَـسْـأَلُ الله الـسَّـلامَـهْ

ولعلي بن العباس ابن الرومي:

فَـتًـى عَـلَى خُـبْـزِهِ وَنَـائـلـه أَشْـفَـقُ مـنْ وَالِدٍ عَـلَى وَلَده
رَغِـيـفُـهُ مِـنْـهُ حِـيـنَ يُـسْـأَلُهُ مَكَانَ رُوحِ الْجبانِ مِنْ جَسَده

وأنشد أحمد بن يحيىٰ:

قـد نَـزَلْنَـا بِـمَـالـكَ فَـوَجَـدْنَـا ه سَخيًّا، إلَى المَكَارم يَنْمي
فـانْـتَـقَـلْنَـا إلَى سَعيـد بْـن سَلْم فَإذَا ضَـيْـفُـهُ منَ الْجُـوع يَـرْمـي
وَإذَا خُـبْـزُهُ عَـلَيْـه: «سَـيَـكْـفيـ ـكَـهُـمُ الله» مَـا بَـدَا ضَـوْءُ نَـجْـم
وَإذَا خَـاتَـمُ الـنَّـبـيِّ سُـلَيْـمَـا نَ بْـن دَاوُدَ قَـدْ عَـلاهُ بَـخَـتْـم
فَـارْتَـحَلْنَـا منْ عنْدَ هَـذَا بِحَمْد وَارْتَـحَـلْنَـا مـنْ هَـذَا بِـذَمّ

وقال آخر:

أَرَى ضَيْفَكَ فِي الْبَيْتِ وَكَرْبُ الْمَوْتِ يَغْشَاهُ
عَلَى خُبْزِكَ مَكْتُوبٌ «سَيَكْفِيكَهُمُ الله»

ولبعضهم:

أمَّا رَغِيفُكَ فِي البَعَا دِ فخَلَف مَا خَلَفَ الصَّنَمْ
فَإِذَا عَلا فَوْقَ الْخِوَا نِ فمن حَمَامَاتِ الْحَرَمْ
مَا إِنْ يُذَاقُ وَلا يُمَسْ سُ وَلا يُنَالُ وَلا يُشَمْ
فَتَرَاهُ أَصْفَرَ ذَاوِيًا بَالِي النُّفُوسِ مِنَ الْهَرَمْ

وأنشد أبو عكرمة:

بَكَى امرؤٌ لَمَّا شَقَقْتُ رَغيفَهُ وَأَطْرَقَ طَوْرًا مَا يُمرُّ وَمَا يُحْلي
وَحَشْرَجَ لَمَّا أَنْ عَسَفْتُ ثَريدَهُ وَشَقّ بعَيْنَيْه وَقَالَ: اجْمَعُوا أهْلي
فَقَدْ حَلَّ بي ضَيْفٌ أظن مَنيَّتي بكَفَّيْه إنْ لَمْ يَدْفَع الله أو قَتْلي
فَلَمَّا رَأَيْتُ الأَمْرَ قَدْ حَلَّ بالْفَتَى وَقَامَ منَ الْهَوْل الْجَسيم عَلَى رجْل
دَعَوْتُ بمنْديل لتَرْجعَ نَفْسُهُ إلَيْه وَأُشْنَان وَقُمْتُ إلَى نَعْلي

ولبعضهم:

وَيَحْبُسُ جَعْسَهُ فِي الْبَطْنِ شَهْرًا مَخَافَةَ أَنْ يَجُوعَ إِذَا خَرِيهِ
وَقَدْ يَبْكِي عَلَيْهِ إِذَا خرِيهِ كَمَا يَبْكِي الْيَتِيمُ عَلَى أَبِيهِ

ولآخر:

رَغِيفُكَ فِي الْحِجَالِ عَلَيْهِ قُفْلٌ وَأَجْرَاسٌ وَأَبْوابٌ مَنِيعَهْ
رَأَى فِي بَيْتِهِ يَوْمًا رَغِيفًا فَقَالَ لِضَيْفِهِ: هَذَا وَدِيعَهْ

وأنشد أبو محمد الأنباري:

فَدَيْتُكَ! لَيْسَ لِي ذَنْبٌ إِلَيْه سِوَى جَهْلي بِمَنْزِلَةِ الرَّغِيفِ
يَقُولُ وَقَدْ كَسرتُ الْحَرْفَ مِنْهُ تَعِسْتَ أَخَذتَ تَعْبَثُ بالْحُرُوفِ

وأنشد أيضًا:

وإذَا مَــرَرْتَ بِـبَــابِــهِ فَاسْتُرْ رَغيفَكَ عَنْ غُلامِهْ
سِـيَّـانِ كَـسْـرُ رَغـيـفِـهِ أَوْ كَسْرُ عَظْمٍ مِن عِظَامِهْ

ولأبي الشمقمق:

يَـا كَـاسِرًا حَرْفَ الـرَّغِيـفِ عَـرَّضْـتَ نَفْسَكَ لِلْحُتُـوفِ
أَوَ مَـا عَـلِـمْـتَ بِـأَنَّ هُـو ذَةَ غَـيْـرُ نَـوَّامٍ ضَـعِـيـفِ؟
وَتَـرَاهُ خَـوْفَ مُـطْـفِّـلٍ لِـلْبُخْلِ يَأْكُلُ فِي الْكَنِيفِ

ولجحظة:

وَخِـلٍ وَدُودٍ دَعَـانِـي وَقَـدْ تَـوَهَّـمَ أَنِّـيَ خِـلٌ وَدُودُ
أَبَـحْـتُ حَـرِيـمَ فَـراريـجِـه وَكَانَتْ حمَى أَنْ تُمَسَّ الْجُلُودُ
وَدُونَ الـرِّقَـابِ تُـدَقُّ الـرِّقَـابُ وَدُونَ الْكُـبُـودِ تُـرَضُّ الْكُـبُـودُ
فَـقَـالَ وَصَـعَّـدَ أنْـفَـاسَـهُ: نَـعَـمْ! هَـكَذَا تُسْتَـثَارُ الْحُقُـودُ
فَقُلْتُ ـ وَقَدْ كَانَ مَا كَانَ ـ: لا أَعُـودُ؛ فَـقَـالَ: أَنَـا لَا أعُـودُ

وله أيـضًا:

وَصَـاحِـبٌ زُرْتُـهُ فَـقَـدَّمَ لِـي كِـسْـرَةَ خُبْزٍ وَعَـيْـنُـهُ عَـبْـرَى
وَقَالَ: مَا تَشْتَهِي؟ فَقُلْتُ لَهُ: قَـطْـرَةَ مَـلْحٍ وَكِـسْـرَةً أُخْـرَى
فَـمَـزَّقَ الْجَـيْـبَ ثُـمَّ لاكَـمَـنِـي وَقَالَ: هَـذَا الْمُصِيبَةُ الْكَبْرَى

ولبعضهـم:

لَمَّـا حُـجِـبْـتُ بِـبَـابِ دَا رِكَ، والأُمُـورَ لَهَـا تَـشَـاكُـلُ
أَسْـرَعْـتُ سَـيْـرَ حُـمَـيِّـري وَعَـلِمْـتُ أَنَّكَ كُـنْـتَ تَـأكُـلْ

ولجحظـة:

وَصَاحِبٌ إِنْ جِئْتُهُ قَاصِدًا أَفَـدْتُ مِنْهُ الْعِلْمَ وَالظَّـرْفَـا
حَـتَّـى إذَا مـا جِـئْتُـهُ زَائِرًا لَمْ أَلْقَ، لَا نَـانَـا، وَلا أُفَّـا

وله أيـضًا:

يَـا سَـائـلي بِـأَمِـيـرِنَـا اسْـمَـعْ إِلَى الْخَبَـرِ الـمُـخَـبَّـرْ

إنّــي رَكــبْــتُ ـ وَمَــا أَكَــلْـتُ ـ إِلَى الأمير، كَمَا تَقَدَّرْ
قَــالَ: الـطَّـعَـامُ، فَـجَـاءَ خـادمُــهُ بـفَـرْخ قَــدْ تَــغَــيَّــرْ
قَــدْ كَــانَ فَـقِّـيـعًـا فَـأَصْـبَحَ عِنْدَ طُول المُكْث أَخْضَرْ
وَتَـنَـاعَـرَتْ دَايَـاتُـهُ هَاتوا لَهُ الجَنْبَ المُبَرَّرْ[1]
فَـأَتَـوْا بـه فـي صَـحْـفَـة نُحرَتْ لِكسْرَى أَوْ لِقَيْصَرْ
كَـرفَـادَاة الـفَـصْـد الـصَّـغيـرَة بَلْ أَظُنُّ الْجَنْب أصغَرْ[2]
الـحَـمْـدُ لله الَّذي جَعَلَ السَّمَاحَةَ خَيْرَ مَتْجَرْ

وله أيضًا:

رُبَّ خِلٍّ طَرَقْتُهُ لِلسَّلام ظَنَّ أَنِّي أَتَيْتُهُ لِلطَّعَام
فَتَمَطَّى سَوَيْعَةً ثُمَّ نَادَى: يَا غُلامي! وَأَيْنَ لي بغُلامي!؟
هَات لي حُقَّةَ الْجُوَارِش إني بَشِمٌ مِنْ هَرِيسَة وَهُلام
قُلْتُ: قَدْ قُمْتُ عَنْكَ، قَالَ: وَمَنْ لي منْكَ يَا مَن فَقَدْتُهُ بالْقيَام
أحْمَدُ الله، أقْسَمَ الله أنْ لا يَتَوَخّى الرِّزْق غَيْرَ اللِّئام

وله أيضًا:

لِي صَديقٌ طَرَقْتُهُ يَوْمَ جَمْع وَاحْتفَال، وَمنْ دُعَاهُ حُصُولُ
يَتَشَكُّونَ شدَّةَ الْجُوع وَالدَّاعي لَهُم عَنْ مَقَالهِمْ مَشْغُولُ
ثُمَّ نَادَيْتَ بالطَّعَام وَقَدْ كَادَتْ نُفُوسُ الحُضَّار جُوعًا تسيلُ
هَلْ إلى نَظْرَة إلَيْكَ سَبيلٌ يَرْوَ منْهَا الصَّدَى وَيَشْفَ الْغَليلُ
قَالَ: هَيْهَاتَ! دُونَ ذَلكَ قُفْلٌ ضَاعَ مفْتَاحُهُ، وَمَنْعٌ طَويلُ

وله أيضًا:

وَقَائِلَةٌ: مَا دَهَى نَاظِرَيْكَ؟ فَقُلْتُ: رُوَيْدَكَ! إنِّي دُهِيتُ
قَرَضْتُ دَجَاجَةَ بَعْضَ المُلُوكِ فَمَا زِلْتُ أُصْفَعُ حَتَّى عَمِيتُ

---

(١) النعر: الصياح، والداية: المرضعة، أو المربية، وقيل: المولّدة للوالدة، كما اشتهر بمصر وغيرها. والمبرر أي: الذي نثر عليه البرر أي: التابل.

(٢) الرفادة: الخرقة التي يربط بها الجرح، ويضمد.

وله أيـضًا:

وَشَقَقْتُ عَنْ جَدْيِ الْبَخيلِ إهَابَهُ وَأَكَلْتُ شَحْمَ الْكُلْيَتَيْنِ بِسُكَّر
فَهُنَاكَ مَا دَنَتِ الأَكُفُّ لِهَامَتِي لَطْمًا فَأَخْرَجَتِ الدَّمَا مِنْ مَنْخِرِي

وأنشد كشاجم لأبيه [من الطويل]:

صَديقٌ لَنَا منْ أبْرَعِ النَّاس في الْبُخلِ وَأَفْضَلهِمْ فيه وَلَيْسَ بذي فَضْلِ
دَعَاني كَمَا يَدْعُو الصَّديقُ صَديقَهُ فَجئْتُ، كَمَا يَأْتي إلَي مثْله مثْلي
فَلَمَّا دَنَوْنَا لِلطَّعَام رَأَيْتُهُ يَرَى أَنَّهُ منْ بَعْض أعْضَائه أكْلي
وَيَغْتَاظُ أحْيَانًا وَيَشْتُمُ عَبْدَهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْغَيْظَ وَالشَّتْمَ منْ أجْلي
أَمُدُّ يَدي سرًّا لآخُذَ لُقْمَةً فَيَلْحَظُني شَزْرًا فَأَعْبَثُ بالْبَقْلِ
إلى أنْ جَنَتْ كَفِّي لحَيْني جنَايَةً وَذَلكَ أنَّ الْجُوعَ أَعْدَمني عَقْلي
وَأَهْوَتْ يَميني نَحْوَ رجْل دَجَاجَة فَجُرَّتْ كما جَرَّتْ يَدي رجْلَها رجْلي
وَقُدِّمَ منْ بَعْد الطَّعَام حَلاوَةٌ فَلَم أسْتَطعْ فيهَا أمرُ وَلا أُحَلِّي
فَلَوْ أنَّني قَدْ كُنْتُ بتُّ ببَيْته رَبحْتُ ثَوَابَ الصَّوْم مَعْ عَدَم الأَكْل

ولبعض الكتـاب:

رَأَيْتُكَ عنْدَ حُضُور الْخوَان قَليلَ النَّشَاط، كَثيرَ الصِّيَاح
تُلاحظُ عَيْنُكَ كَفَّ الأَكيل فَتَرْمُقُهُ منْ جَميع النَّواحي
وَتَشْغَلُهُ باسْتمَاع الْحَديث طَوْرًا، وَآونَةً بالْمزَاح
فَعَالُ أمْرىء بَخلَتْ نَفْسُهُ بشَيء يَؤُولُ إلَى الْمُسْتَرَاح

أبخل الناس

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «البخل عشرة أجزاء، فتسعة في فارس وواحد في الناس».

وعن محمد بن مسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: «قسم الحفظ عشرة أجزاء، فتسعة في الترك وجزء في سائر الناس. وقسم البخل عشرة أجزاء، فتسعة في فارس وجزء في سائر الناس. وقسم السخاء عشرة أجزاء، فتسعة في السودان وجزء في سائر الناس. وقسم الحياء عشرة أجزاء، فتسعة في العرب وجزء في

سائر الناس. وقسم الكبر عشرة أجزاء، فتسعة في الروم وواحد في سائر الناس».

وقال الجاحظ: ليس في الدنيا أبخل من ثلاثة: خادم ومخنث وذمي.

وقال الحربي رحمه الله: جاء رجل يسأل يحيىٰ بن أكثم، فقال له: أيش توسمت فيَّ؟ أنا قاضٍ، والقاضي يأخذ ولا يعطي؛ وأنا من مرو، وأنت تعرف ضيق مرو، وأنا من تميم، والمثل إلى بخل تميم.

وقال الأصمعي: أبخل أهل خراسان أهل طوس؛ وكانت قرية من قراها قد شهر أهلها بالبخل، وكانوا لا يقرون ضيفًا، فبلغ ذلك واليًا من ولاتهم، ففرض عليهم قرى الضيف، وأمرهم أن يضرب كل رجل منهم وتدًا في المسجد الذي يصلي فيه، وقال: إذا نزل ضيف فعلى أي وتد علق سوطًا أو ثوبًا فقراه على صاحب الوتد؛ وكان فيهم رجل مفرط البخل، فعمد إلى عود صلب، فملسه وحدده، وصيره في زاوية المسجد، ووتده منصوبًا ليزلَّ عنه ما علق عليه، فدخل المسجد ضيف، فقال في نفسه: ينبغي أن يكون هذا الوتد لأبخل القوم، وإنما فعل هذا هربًا من الضيافة؛ فعمد إلى عمامته، فعقدها على ذلك الوتد عقدًا شديدًا، فثبتت، وصاحب الوتد ينظر إليه قد سقط في يديه، فجاء إلى امرأته مغتمًّا، فقالت: ما شأنك؟ فقال: البلاء الذي كنا نحيدُ عنه، قد جاء الضيف، ففعل كذا وكذا. فقالت: ليس لنا حيلة إلا الصبر، واستعانة الله عليه؛ وجعلت تعزيه. واجتمع بناته وجيرانه متحزنين لما حل به. وكان أمر الضيف عندهم عظيمًا، فعمد إلى شاة، فذبحها، وإلى دجاجة فاشتواها، وإلى جفنة فملأها ثريدًا ولحمًا. فجعلت امرأته وبناته وجاراتُهُ يتطلعن من فروج الأبواب والسطوح إلى الضيف وأكله، وجعلوا يتبادرون: قد جاء الضيف، ويلُكم! قد جاء الضيف. فتناول الضيف عرقًا من ذلك اللّحم ورَغيفًا فأكله ومسح يده، وحمد الله عزّ وجلّ، وقال: ارفعوا، بارك الله عليكم!. فقال صاحب البيت: كل يا عبد الله! واستوف عشاءك، فقد تكلفنا لك. قال: قد اكتفيت. فقال: هكذا أكل الضيف مثل أكل الناس لا غير؟ قال: نعم. قال: ما ظننت إلا أنك تأكل جميع ما عملناه وتدعو بغيره. فكان ذلك الرجل بعد ذلك لا يمر به ضيف إلّا قراه.

وقال أبو الشمقمق [من البسيط]:

مَـا إنْ رَأَيْـتُ خَـنَـازِيـرًا مُـعَـرَّبَـةً   إلّا ذَكَـرْتُ بِـهَـا نَـاسًـا بِـحَـلْوَانِ
قَوْمٌ إذَا حَلَّ ضَيْفٌ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ   لَمْ يُـنْـزِلُوهُ وَدَلُّوهُ عَـلَى الْخَـانِ

ولبعضهم:

إذا صَـادَقْـتَ صَـادِقْ وَاسِـطِـيًّـا   عَـلَى بَـذْلِ الـسَّـلامِ بِـلا طَـعـامِ
يُـرِيـكَ الْفَـضْـلَ فِـي صَـادٍ وَمِـيـمِ   وَيَـمْـنَـعُ ذَاكَ فِـي كَـافٍ وَلامِ

وقال بشّار بن برد الأعمى [من الطويل]:

عَلَى وَاسط منْ رَبِّهَا أَلْفُ لَعْنَة   وَتِـسْـعَـةُ آلاف عَـلَى أَهْـلِ وَاسـط
أَيَلْتَمَسُ الْمَعْرُوفُ منْ أَهْلِ وَاسط   وَوَاسطُ مَأْوَى كُلِّ علْج وَسَاقط؟
نَبِيطٌ وَأَعْلاجٌ وَخُوزٌ تَجَمَّعُوا   شـرارُ عَـبيـد الله منْ كُـلِّ غـائـط
وَإنِّي لأَرْجُو أَنْ أَنَالَ بشَتْمهمْ   منَ الله أَجْرًا مثْلَ أَجْر الْمُرَابط

قال بعض أهل البصرة: كان عندنا جماعة من القسامل يتواصون باللؤم مقحط الأموال. قال: فقال بعضهم: غدوت إلى البازجاه بمَرَّان إلى رَجُلٍ عليه قلسان. قال: فقال لي، يعني صاحبًا له: فرَّطت وضيعت وأسأت. قال: وكيف؟ قال: قال ازددت على قوتك، وأخلقت ثوبك، وأبليت نعلك. فقال: كان ثوبي مطويًا على عنقي، ونعلي معلقة بيدي، ولم أزدد على قوتي شيئًا. فقال: قد حفظت.

أسفل سفل سفل

قال عبد الجبّار بن عبد الله: مات رجل ـ يعني: بالبصرة ـ وأوصى بثلث ماله للسفل، فسأل ـ يعني: وصيه ـ عن السفل. فقيل له: السماكين. فمضى إلى سماكي الحبل، فقال: أنتم السفل؟ قالوا: نحن السفل، ولكن سماكي البازجة أسفل منا. فمضى إلى البازجة، فقال: أنتم السفل؟ فقالوا: نحن السفل، ولكن سماكي الأبلة أسفل منا. فمضى إلى الأبلة، فقال: أنت السفل؟ فقالوا: نحن السفل فماذا تريد؟ قال: مات رجل وأوصى بثلث للسفل فأرشدت إليكم؛ فقام رجل منهم فوثب عليه، وقال: لا نزايلك إلى الحاكم حتى تحلف أنك ما انتفعت منه بشيء، ولا أنفقت. فقال الرجل: أشهد أنكم سفل سفل.

وقال عبد الواحد بن محمد الخصيبي. سمعت أبا علي أحمد بن إسماعيل، يقول: ليس يتهيأ لك الاستقصاء السفلة أو تسفل معهم.

وما يدريك ما الرمان؟

قال صبي من أهل الكوفة لأبيه: يا أبه! أشتهي رمَّانًا. فقال: وما يدريك ما الرمان؟ ثم قال لأمه: ذريه حتى يظنَّ أنّ الذرور هو الرمَّان.

الناطف الناطف

قال عمر: سمعت أبا أيوب الأنطاكي، يقول عن رجل قال: دعاني رجل بالكوفة إلى منزله، فأتيته، فإذا شاة مشدودة في ناحية الدار، فبينا أنا كذلك إذ سمعت: الناطف، الناطف، قال: فصاحت الشاة، واضطربت اضرابًا شديدًا. قال: ففزعت من ذلك. فقال لي الكوفي: يا عبد الله! لا تفزع ولا ترع، إنّ لنا صبيًا إذا سمع صوت «الناطف» جاء إلى هذه الشاة، فنتف صوفها واشترى به ناطفًا، فالشاة لما ينزل بها من الوجع من نتف الصوف تصيح هذا الصياح إذا سمعت صوت «الناطف».

أنا أنتظر السقاء

قال عبد الله بن عقبة الباهلي: دعاني رجل من أهل الكوفة إلى منزله أتغدَّى عنده، فأتيته، فأدخلني إلى دار قوراء كبيرة، فأجلسني في بيت منها، فلم أزل حتَّى انتصف النهار، واشتد جوعي. فقلت: يا هذا! قد حبستني. قال: فنادى بأعلى صوته: يا عاتكة! يا حمامة! يا أم غراب! قال: فأجابته جارية من أقصى الدار: لبيك يا مولاي! قال: ويلك! أبو محمد قد حبسناه منذ غدوة، فهاتي ما عندك. فقالت: يا مولاي! قد نخلتُ دقيقي، وأنا أنتظر السقاء يجيء حتى أعجن. قال: فقمت فخرجت.

كسر الرجل مبولتك

قيل: إن رجلًا عربيًا كان يمشي في بعض دروب الكوفة في يوم قائظ شديد الحر، فلظَّه العطش، فتقدم إلى باب دار، فطرقه، فخرجت إليه جارية، فقال لها: قد لظني العطش، فاسقيني كوزًا من ماء، فقالت له: والله ما عندنا ماءٌ، ولكن عندنا لبن، فهل لك أن تشرب منه، فقال لها الرجل: ومن لي بذلك؟ فأخرجت إليه فخّارة فيها لبن، ودفعتها إليه، فعجب الرجل، وقال في نفسه، أليس يذكر عن

أهل الكوفة البخل؟ وأنا قد طلبت من أهل هذه الدار ماء فسقوني لبنًا، وهذا غاية الكرم. ثم وضع الفخارة عن فمه وقال للجارية: يا هذه إني أرى في الفخارة فأرة ميتة فقالت الجارية: فأرة أخرى؟ فرمى بالفخارة عن يده إلى الأرض فسقطت، فانكسرت، فبادرت الجارية إلى مولاتها صارخة تولول وتقول: يا ستي كسر الرجل مبولتك.

لا يبيع اللحم إلا بالنوى

قيل: إن بغداديًا لحامًا نزل بالكوفة، وفتح فيها حانوتًا ليبيع فيه اللحم، فمكث زمانًا لا يشتري أحد منه شيئًا؛ ثم جاءته امرأة في قناعها نخالة، وقالت له: أعطني بهذه النخالة لحمًا. فصاح عليها وانتهرها، وقال: أيُّ خير يرتجى من قوم يريدون ابتياع اللحم بالنخالة؟ فولّت المرأة وهي تضحك تعجبًا منه، وقالت: هذا البغدادي طريف، لا يبيع اللحم إلا بنوى.

البخلاء وجمع المال

كان أبو العميس رجلًا بخيلًا فكان إذا أخذ الدرهم نقره، وقال: كم من يد وقعت فيها، ومن بلد دخلته، أسكن وقرَّ عينًا؛ فقد استقرّت بك الدار، واطمأنَّ بك المنزل؛ ثم يرفعه.

وعن بعض البخلاء أنه كان إذا وقع الدرهم في يده يخاطبه، ويقول له: أنت عقلي وديني وصلاتي وصيامي وجامعُ شملي وقرّة عيني وأنسي وقوتي وعدتي وعمادي. ثم يقول له:

أهْـلًا وَسَـهْـلًا بِـكَ مِـنْ زَائـرٍ　　　كُـنْـتُ إلـى وَجْـهِـكَ مُـشْـتَـاقَـا

ثم يقول له: يا نور عيني، وحبيب قلبي! قد صرت إلى مَن يصونك، ويعرف قدرك، ويعظم حقك، ويرعى قديمك، ويشفق عليك، وكيف لا تكون كذلك وأنت تعظم الأقدار، وتعمر الديار، وتفتض الأبكار، وتسمو على الأشراف، وترفع الذكر، وتعلي القدر، وتؤنس من الوحشة. ثم يطرحه في كيسه ويقول:

بِنَفْسِيَ مَخْبُوءٌ عَنِ الْعَينِ شَخْصُهُ　　　وَمَنْ لَيسَ يَخْلُو مِنْ لسَانِي وَلا قَلْبِي
وَمَنْ ذِكْرُهُ حَظِّي مِنَ النَّاسِ كُلِّهِم　　　وَأَوَّلُ حَظِّي مِنْهُ فِي الْبُعْدِ وَالقُرْبِ

وكان خالد بن صفوان إذا أخذ جائزته قال للدراهم: أما والله! لطالما غرّبت في البلاد، فوالله! لأطيلن ضجعتك، ولأديمنّ صرعتك.

وأتى خالد بن صفوان رجلٌ يسأله، فأعطاه درهمًا، فقال له: سبحان الله! يا صفوان! أسألك فتعطيني درهمًا! فقال له خالد: يا أحمق! أما تعلم أن الدرهم عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف عشر عشرة الآلاف، ألا ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية المسلم؟! والله! ما تطيب نفسي بدرهم أنفقه إلّا درهمًا قرعت به باب الجنة، أو درهمًا اشتري به موزًا فآكله.

وقال يزيد بن عمير لبنيه: يا بني! اعلموا أنّه يكون عند أحدكم مائة ألف أعظم له من صدور بني تميم، وأعظم شرفًا من أن يقسمها فيهم، ولأن يقال لأحدكم شحيح. وهو غني، خيرٌ من أن يقال: سَخيٌّ وهو قد افتقر، ولأن يقال لأحدكم: جبان وهو حيٌّ، خيرٌ من أن يقال: شجاع وقد قتل، وتعلّموا الرَّدَّ، فوالله! لهو أشدُّ من الإعطاء.

وقال الفضل بن سهل: رأيت جملة البخل سوء الظن بالله عزّ وجلّ! وجملة السخاء حسن الظن بالله عزّ وجلّ! وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبَإ: الآية ٣٩].

وأنشد المرتضى:

وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِمَعْشَرٍ صَانُوا الْغِنَى ... وَأَذَالَ مِنْهُمْ مَا سِوَاهُ مَذِيلَهْ
ظِلُّ الْغِنَى مِنْ سَاكِنِي ظِلِّ الْغِنى ... يُخْشَى عَلَيْهِ زَوَالُهُ وَحُؤُولُهْ
لَمْ يُثْرِ مَنْ لَمْ يُغْنِ مُفْتَقِرًا وَلَمْ ... يَنَلِ الْغِنَى مَنْ لا تَرَاهُ يُنِيلُهْ
وَالْجُودُ لا يَبْقِي التِّلادَ عَلَى الْفَتَى ... وَالْبُخْلُ عِنْوَانُ الْغِنَى وَدَلِيلُهْ

ولبعضهم:

أَنْفِقْ وَلا تَخْشَ إقلالًا فَقَدْ قُسِمَتْ ... بَيْنَ الْعِبَادِ مِنَ الآجَالِ أَرْزَاقُ
لَا يَنْفَعُ الْبُخْلُ مَعْ دُنْيَا مُوَلِّيَةٍ ... وَلَا يَضُرُّ مِن الإِقْبَالِ إِنْفَاقُ

في ذكر الغِنى
وحبّ المال والافتخار بجمعه

قال في المستطرف(1): قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: الآية ٤٦]. وقيل: الفقر رأس كل بلاء وداعية إلى مقت الناس، وهو مع ذلك مسلبة للمروءة مذهبة للحياء. فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدًّا من ترك الحياء ومن فَقَد حياءه فَقَد مروءته، ومن فَقَدَ مروءته مقت، ومن مقت ازدري به، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له.

وقال رسول الله : «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس».

وفي الحديث: «لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه، ويؤدي به أمانته، ويستغني به عن خلق ربه».

وقال عليّ كرّم الله تعالى وجهه: الفقر الموت الأكبر، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الكفر والفقر وعذاب القبر، وقيل: مَن حفظ دنياه حفظ الأكرمين دينه وعرضه. قال الشاعر:

لا تلمني إذا وقيت الأواقي ... بالأواقي لماء وجهي واقي(2)

وقال لقمان لابنه: يا بني أكلت الحنظل وذقت الصبر، فلم أر شيئًا أمر من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدث به الناس كيلا ينتقصوك، ولكن اسأل الله تعالى من فضله، فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه أو تضرع إليه فلم يكشف ما به.

---

(١) المستطرف: ص ٣١٠ ـ ٣١٥.

(٢) وقيت الأواقي: تجنبت المكاره. بالأواقي: بالتذليل، والمنع. واقي: ساتر ومانع.

وكان العباس رضي الله تعالى عنه يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أعذب من الماء وأرفع من السماء وأحلى من الشهد وأزكى من الورد، خطؤه صواب وسيئاته حسنات وقوله مقبول، يرفع مجلسه ولا يملّ حديثه، والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم ولا يُسْأَلْ عنه إن غاب، إن حضر أردوه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة.

وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسي فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعنيها، وتوحشت في البرية فلم أر وحشة أقرّ من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أر قرينًا أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلى كل ما يذل القوي ويكسره فلم أر شيئًا أذل له ولا أكبر من الفاقة.

وكل مقل حين يغدو لحاجة ... إلى كلّ ما يلقى من الناس مذنبُ
وكانت بنو عمّي يقولون مرحبًا ... فلما رأوني معدمًا مات مرحبُ

وقال آخر:

المال يرفع سقفًا لا عمادَ له ... والفقر يهدم بيت العزِّ والشرف

وقال آخر:

جروح الليالي ما لهنّ طبيبُ ... وعيش الفتى بالفقر ليس يطيبُ
وحسبك أنَّ المرء في حال فقره ... تحمّقه الأقوامُ وهو لبيبُ
ومن يغترر بالحادثات وصرفها ... يبتْ وهو مغلوب الفؤاد سليبُ
وما ضرّني إن قال أخطأت جاهلٌ ... إذا قال كلّ الناس أنت مصيبُ

وقال آخر:

الفقر يزري بأقوامِ ذوي حسبِ ... وقد يسود بغير السيد المال

وقال آخر:

لعمرك إنَّ المال قد يجعل الفتى ... سنيًا وأنَّ الفقر بالمرء قد يزري(١)
وما رفع النفس الدنيّة كالغنى ... ولا وضع النفس النفيسة كالفقر

(١) سنيًا: لامعًا معروفًا بين الناس. ويزري: يهين ويذل.

وقال آخر:

إذا قلّ مال المرء لانت قناته ... وهان على الأدنى فكيف الأباعد[١]

وقال ابن الأحنف:

يمشي الفقير وكل شيءٍ ضده ... والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه مبغوضًا وليس بمذنبٍ ... ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروةٍ ... خضعت لديه وحرّكت أذنابها
وإذا رأت يومًا فقيرًا عابرًا ... نبحت عليه وكشّرت أنيابها

وقال آخر:

فقر الفتى يذهب أنواره ... مثل اصفرار الشمس عند المغيب
والله ما الإنسان في قومه ... إذا بلي بالفقر إلّا غريب

وقال آخر:

إن الدراهم في المواطن كلّها ... تكسو الرجال مهابةً وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحةً ... وهي السّلاح لمن أراد قتالا

وقال آخر:

ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبها ... فكلّما انقلبت يومًا به انقلبوا
يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبتْ ... يومًا عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال بعض الفرس: مَن زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كذاب.

وقال الكناني:

أصبحت الدنيا لنا عبرة ... فالحمد لله على ذلكا
قد أجمع الناس على ذمّها ... وما أرى منهم لها تاركا

وقال الزمخشري:

وإذا رأيت صعوبةً في مطلب ... فاحملْ صعوبته على الدينار
وابعثه فيما تشتهيه فإنه ... حجرٌ يليّن قرّة الأحجار

---

(١) لانت قناته: أي ضعف عوده وقوته.

قال الثوري رحمه الله تعالى: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب أليَّ من أن أحتاج إلى لئيم، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

احفظ عُرى مالك تحظى به ... ولا تفرّط فيه تبقى ذليل[١]
وإن يقولوا باخلٌ بالعطا ... فالبخل خيرٌ من سؤال البخيل
واحفظ على نفسك من زلةٍ ... يرى عزيز القوم فيها ذليل

وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال: فقد قالوا: ينبغي لصاحب المال أن يحترز ويحتفظ عليه من المطمعين والمبرطحين والمحترفين والموهمين والمتنسمين.

فأما المطمعون: فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشر والإكرام والتحية والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدة، وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة، ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال في معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته، ثم يمشي معه في الحديث إلى أن يقول: إني فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب، وغرضي التقرب إليك ونصحك وخدمتك، وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدي لك على مال بل يكون تحت يدك أو تحت يد أحد من جهتك. ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين، فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين: إن ائتمنه، وجعل المال بيده أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح، وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدة الطويلة الشيء اليسير من ماله، ثم يحتج عليه ببعض الآفات ويدعي الخسارة، فإن لزمه صاحب المال قابحه، وبرطل من جملة المال صاحب جاه، فيدفعه ويقول هذا راباني، فإن روعي صاحب المال وفق بينهما على أن يكتب عليه ببقية المال وثيقة، فلا يستوفي ما فيها إلا في الآخرة، وإن هو لم يأتمنه وعوّل أن يكون القبض بيده، والمتاع مخزونًا لديه، واطأ عليه البائعين والمشترين وحصل لنفسه وعمل ما يقول به، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أَوْهَمَهُ أن مفاتيح الأرزاق بيده، وأن كسد المشترى أو رخص أحال الأمر على الأقدار وقال: ليس لي علم بالغيب.

---

(١) عرى مالك: أي عقدها ورباط الكيس الذي وضعتها فيه.

ومن أشد المطمعين المتعرضون لصنعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون في عمل الذهب والفضة من غير معدنها، فيجب أن يحذر التقرب منهم والاستماع لهم في شيء من حديثهم، فإن كذبهم ظاهر، وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم ينيلونهم خيرًا ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا لحاجة، وهذا يستحيل. ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك إلا عدم الإمكان وتعذر المكان، فمنهم مَن يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنده عدة لها قيمة، فيأخذها وينسحب، ومنهم مَن يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة فيقنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية وسبيله بعد ذلك إن كان معروفًا قال: فسد عليّ العمل من جهة كيت وكيت، ويقول للذي ينفق عليه: هل لك في المعاودة؟ فإن حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتم غرض، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأي سبب كان. وإن كان منكورًا غافل صاحب المكان وخرج هاربًا.

ومن المطمعين قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون: إنا نعرف علم كنز فيه من الأمارات كيت وكيت ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ويقولون: نريد أن تأخذ لنا عدة تنفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك، ويوطن نفسه على أن المدة تكون قريبة، فيعملون يومًا أو يومين فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد طمعًا ويعتقد الصحة، ثم يدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما شاء الله تعالى، ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء. وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة في قماشه أو في العدة التي معه؛ فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا، فهذا أمر المطمعين.

وأما المبرطحون: فهم من الخونة والناس بهم أكثر غررًا. وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحد منهم لشراء حاجة سارع فيها واحتاط في جودتها وتوفير كيلها أو وزنها أو درعها ووضع من أصل ثمنها شيئًا وزنه من عنده حتى يبيض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه، وكذلك إن ندبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقى مقاليد أموره إليه فيستعطفه، ويفوز به، ثم يغيّر الحال الأول في الباطن. فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه.

وأما المحترفون الموهمون: فهم الذين يتعرضون لذوي الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس

ويستعملون كثيرًا من الطيب، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة. فيما يعانيه ويذكر ذلك مع الغير، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الجمل الكثيرة من المال، وأنه لا يبالي إذا أنفق أو أكل أو شرب، فتشره نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة يا فلان: تريد الدنيا كلها لنفسك، لِمَ لا تشركنا في متاجرك هذه وأرباحك؟ فيقول له: أنت جبان يعزّ عليك إخراج الدينار، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك، ولا تدري أنه مثل البازي إن أرسلته أكل وأطعمك، وإن أمسكته لم يصد شيئًا واحتجت إلى أن تطعمه، وإلا مات، وأنا والله لو كان عندي علم أنك تنبسط لهذا كنت فعلت معك خيرًا كثيراً ولكن ما كان إلا هكذا، وما كان لا كلام فيه والعمل في المستأنف، فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه، فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه. فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده.

وأما المتنسمون: فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك ومجانبة الحرام ومواظبة الصلاة والصيام لكي يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام، ثم يلقون ذوي الأموال بالبشر والإكرام والتلطف في المقال، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهاني بالأعياد. وربما يأتي معه بأحد من الأولاد، ويظهرون النزاهة والغنى، ويجعلون الدين سلمًا إلى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال وتفوّض إليهم الوصايا، ويجلهم العوام، وتقبل شهادتهم الحكام وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال، وهؤلاء أشر من اللصوص والقطاع، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم، وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم. قال الشاعر:

صلى وصام لأمر كان أمّله حتى حواه فما صلّى ولا صاما

وقيل: لا فقير أفقر من غني يأمن الفقر. قال الشاعر:

ألم تر أن الفقر يُرجى له الغنى وأن الغني يخشى عليه من الفقر

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: يا بني عليك بطلب العلم، وجمع المال، فإن الناس طائفتان خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم والعامة تكرمك للمال.

وقال بعض الحكماء: إذا افتقر الرجل اتهمه مَن كان به موثقًا، وأساء به الظن مَن كان ظنه حسنًا، ومَن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدًا من ترك الحياء، ومَن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه، وما من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان شجاعًا سمي أهوج، وإن كان مؤثرًا سمي مفسدًا، وإن كان حليمًا سمي ضعيفًا، وإن كان وقورًا سمي بليدًا، وإن كان لَسنًا سمي مهذارًا، وإن كان صموتًا سمي عييًا، قال ابن كثير:

الناس أتباع مَن دامت له نعم ... والويل للمرء إن زلَّت به القدمُ
المال زينٌ ومَن قلّت دراهمه ... حي كمن مات إلَّا أنَّه صنم
لما رأيت أخلَّائي وخالصتي ... والكل مستترٌ عنِّي ومحتشمُ
أبدوا جفاءً وإعراضًا فقلت لهم ... أذنبت ذنبًا فقالوا ذنبك العدم(١)

ابن مقلة واليهودي

وكان ابن مقلة وزيرًا لبعض الخلفاء، فزوّر عنه يهودي كتابًا إلى بلاد الكفار وضمنه أمورًا من أسرار الدولة، ثم تحيل اليهودي إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودي، فأعطته درجًا بخطه، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الخط الذي كان في الدرج، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة، وكان ذلك يوم عرفة، وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفي موكبه كل مَن في الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له، ثم اتضحت القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية فقتلهما أشر قتلة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالًا كثيرة وخلعًا سنيّة وندم من فعله واعتذر إليه، فكتب ابن مقلة على باب داره يقول:

تحالف الناس والزمانُ ... فحيث كان الزمان كانوا
عاداني الدهر نصف يومٍ ... فانكشف الناس لي وبانوا
يا أيُّها المعرضون عني ... عودوا فقد عاد لي الزمان

---

(١) العدم: الفقر.

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى، قال بعضهم:

إنما قوة الظهور النقود وبها يكمل الفتى ويسود
كم كريم أزرى به الدهر يومًا ولئيم تسعى إليه الوفود

والأطباء يعلمون أمراضًا من علاجها اللعب بالدينار وشرب الأدوية والمساليق التي يغلي فيها الذهب.

قال الشاعر:

احرصْ على الدرهم والعين تسلم من العيلة والدين(١)
فقوة العين بإنسانها وقوة الإنسان بالعين(٢)

واعلم أن القلب عمود البدن، فإذا قوي القلب قوي سائر البدن، وليس له قوة أشد من المال. وبالضد إذا ضعف الفقر ضعف له البدن.

حُكِيَ أن ملكًا رأى شيخًا قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه، والشاب يعجز عن ذلك، فعجب منه، فاستحضره، فحادثه في ذلك، فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه.

وقال لقمان لابنه: يا بني شيئان إذ أنت حفظتهما لا تبالي بما صنعت بعدهما، دينك لمعادك ودرهمك لمعاشك. والكلام في هذا المعنى كثير. وقد اقتصرت منه على النزر اليسير. وقد كان في الناس مَن يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخرًا.

فمن ذلك: ما حكي عن أحمد بن طولون أنه دخل يومًا بعض بساتينه فرأى النرجس وقد تفتح زهره فاستحسنه، فدعا بغدائه فتغدّى، ثم دعا بشرابه فشرب، فلما انتشى قال: عليّ بألف مثقال من المسك، فنثره على أوراق النرجس.

حكى الرشيد بن الزبير في كتابه الملقب بالعجائب والطرف: أن أبا الوليد ذكر في كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة عام الفتح في سنة ثمان من الهجرة، وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان يُهدى للبيت، قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار.

---

(١) العين: الأملاك وما شابهها. (٢) إنسان العين: بؤبؤها.

وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطقة كان قد قُتل صاحبها بثمانين ألف دينار، ولبس سلبه وقيمته خمسمائة ألف وخمسون ألفًا، وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوّض عنها ثلاثين ألف دينار، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتي ألف.

ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريقًا مرصعًا بالجوهر، فلم يدر أحد ما قيمته، فقال رجل من الفرس: أنا آخذه بعشرة آلاف دينار، ولم يعرف قيمته، فذهب إلى سعد بن أبي وقاص، فأعطاه إياه وقال: لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار، فباعه سعد بمائة ألف دينار.

ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى في سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون، فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فردتيه ونسيت الأخرى، فأصابها المسلمون، فقومت بمائتي ألف دينار.

ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى في سنة تسع وثمانين وجد فيها قدر ذهب ينزل إليها بسلالم.

ودفع مصعب بن الزبير حين أحس بالقتل إلى زياد مولاه فصًا من ياقوت أحمر، وقال له: انج به، وكان قد قوم ذلك الفص بألف ألف درهم، فأخذه زياد ورضه بين حجرين وقال: والله لا ينتفع به أحد بعد مصعب، وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان في ولايته ظهر على كنز، فوجد فيه حلّة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب مرصعة بالدر والجواهر والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد، فحملها إلى مصعب بن الزبير، فخرج من قومها فبلغت قيمتها ألفي ألف دينار، فقال: إلى مَن أدفعها؟ فقيل: إلى نسائك وأهلك. فقال: لا، بل إلى رجل قدم عندنا يدًا، وأولانا جميلًا. ادع لي عبد الله بن أبي دريد، فدفعها إليه.

ولما صار موجود عماد الدولة في قبضة أمير الجيوش وجد في جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشر مثقالًا، فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر، فقومت بتسعين ألف دينار.

ووجد في بستان العباس بن الحسن الوزير مما أُعد له من آلة الشرب يوم قُتل، سبعمائة صينية من ذهب وفضة. ووجد له مائة ألف مثقال عنبر.

وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشي، وعشرة آلاف تكة حرير، وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار، ولم تأت دولة بني العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم، وبين الدولة العباسية ووفاة هشام سبع سنين.

ولما قتل الأفضل ابن أمير الجيوش في شهر رمضان سنة خمس عشر وخمسمائة، خلّف بعده مائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين إردبًا وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج ودواة من الذهب قوم ما عليها من الجواهر واليواقيت بمائتي ألف دينار، وعشرة بيوت في كل بيت منها مسمار ذهب قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لونًا، وخلف كعبة عنبر يجعل عليه ثيابه إذا نزعها، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذي لا يوجد مثله، وخلّف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه وخلف من الزبادي الصيني والبلور المحكم وسق مائة جمل، وخلّف عشرة آلاف ملعقة فضة وثلاثة آلاف ملعقة ذهب، وعشرة آلاف زبابة فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهبًا كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام ذهبًا بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجًا عن الأرادب في كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلّف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلي النساء ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وخلّف ألف حسكة ذهبًا وألفي حسكة فضة، وثلاثة آلاف نرجسة ذهبًا، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهبًا وألف صورة فضة منقوشة عمل المغرب، وثلاثمائة تور ذهبًا، وأربعة آلاف تور فضة، وخلّف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد، وخلّف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لبنه في كل سنة بثلاثين ألف دينار، وخلّف من الحواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى.

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبلًا كان بالقرب من موضع العاضد محتفظًا به، فلما رأوه سخروا منه، فضرب عليه إنسان فضرط، فضحكوا منه، ثم أمسكه آخر وضربه، فضرط، فضحكوا عليه، فكسروه استهزاء وسخرية، ولم يدروا خاصيته، وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره. وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزًا لا تحصى، وبعد ذلك ماتوا ونفدت ذخائرهم، وفنيت أموالهم، فسبحان مَن

يدوم ملكه وبقاؤه. قال بعضهم:

هب الدنيا تقاد إليك عفوًا ... أليس مصيرُ ذلك للزوال

وقال الأبشيهي:

أيا مَن عاش في الدنيا طويلًا ... وأفنى العمر في قيلٍ وقالِ
وأتعب نفسه فيما سيفني ... وجمّع من حرامٍ أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفوًا ... أليس مصير ذلك للزوال

في ذكر الفقر

قال في المستطرف(١): قد دلّ قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العَلق: الآيتان ٦، ٧] على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان. وسُئل أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن الغنى والفقر فقال: وهل طغى مَن طغى من خلق الله عزّ وجلّ إلا بالغنى وتلا هذه الآية المتقدمة.

والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا في المال. وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يرون الفقر فضيلة.

وحدّث الحسن رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء أُمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين عامًا»، فقال جليس للحسن: أمن الأغنياء أنا أو من الفقراء؟ فقال: هل تغديت اليوم؟ قال: نعم، قال: فهل عندك ما تتعشى به؟ قال: نعم، قال: فإذًا أنت من الأغنياء.

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان النبي ﷺ يبيت طاويًا ليالي ما له ولا لأهله عشاء، وكان عامة طعامه الشعير، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وكان ﷺ يأكل خبز الشعير غير منخول. هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه، وكان يقول: «اللهم توفني فقيرًا ولا تتوفني غنيًا واحشرني في زمرة المساكين».

وقال جابر رضي الله تعالى عنه: دخل النبيّ ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها، وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: «تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة».

---

(١) المستطرف: ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضّحى: الآية ٥].

وقال ﷺ: «الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره، ولا يختار إلا أولياء الله تعالى». وفي الخبر إذا كان يوم القيامة يقول الله عزّ وجلّ لملائكته: أدنوا إلي أحبائي، فتقول الملائكة: ومَن أحباؤك يا إلٰه العالمين؟ فيقول: فقراء المؤمنين أحبائي، فيدنونهم منه، فيقول: يا عبادي الصالحين إني ما زويت الدنيا عنكم لهوانكم عليَّ ولكن لكرامتكم تمتعوا بالنظر إليَّ وتمتعوا ما شئتم. فيقولون: وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنا منها، ولقد أحسنت بما صرفت عنا، فيأمر بهم، فيكرمون ويحبرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان.

وقال ﷺ: «هل تنصرون إلا بفقرائكم وضعفائكم، والذي نفسي بيده ليدخلن فقراء أُمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام، والأغنياء يحاسبون على زكاتهم».

وقال عليه الصلاة والسلام: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله تعالى لأبره ـ أي لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ـ ولم يعطه من الدنيا شيئًا».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به، الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم، وإن خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لَم ينصت لهم. حوائج أحدهم تتلجلج في صدره لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم».

ورُوِيَ عن خالد بن عبد العزيز أنه قال: كان حيوة بن شريح من البكائين، وكان ضيق الحال جدًا، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو، فقلت له: يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك في معيشتك، قال: فالتفت يمينًا وشمالًا فلم ير أحدًا، فأخذ حصاة من الأرض وقال: اللهم اجعلها ذهبًا، فإذا هي تبرة في كفه ما رأيت أحسن منها، قال: فرمى بها إليّ وقال: هو أعلم بما يصلح عباده، فقلت: ما أصنع بهذه؟ قال: أنفقها على عيالك، فهبته والله أن أردها عليه، وقال عون بن عبد الله: صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحدًا أكثر مني همًّا لأني كنت أرى ثيابًا أحسن من ثيابي ودابة أحسن من دابتي، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك، فاسترحت. قال بعضهم:

وقد يهلك الإنسان كثرة ماله كما يُذبح الطاووس من أجل ريشِهِ

وقال عبد الله بن طاهر:

ألـم تَـر أن الـدهـر يـهـدم مـا بـنـى ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى(١)
فـمـن سـرّه أن لا يـرى مـا يـسـوءه فـلا يـتـخـذْ شـيـئًا يـنـال بـه فـقـدا

وكان من دعاء السلف رضي الله تعالى عنهم: «اللهم إني أعوذ بك من ذل الفقر وبطر الغنى». وقيل: مكتوب على باب مدينة الرقة: ويلٌ لمن جمع المال من غير حقه، وويلان لمن ورثه لمن لا يحمده وقدم على مَن لا يعذره.

ولما فتحت بلخ في زمن عمر رضي الله تعالى عنه وجد على بابها صخرة مكتوب فيها: إنما يتبين الفقير من الغني بعد الانصراف من بين يدي الله تعالى أي: بعد العرض، قال الشاعر:

ومَن يطلب الأعلى من العيش لم يزل حزينًا على الدنيا رهين غبونها(٢)
إذا شئت أن تحيا سعيدًا فلا تكنْ عـلى حـالـةٍ إلا رضـيـت بـدونـهـا

وقال آخر:

ولا ترهبن الفقر ما عشت في غدٍ لـكـلِّ غـدٍ رزقٌ مـن الله واردُ

وقال هارون بن جعفر الطالبي:

بـوعـدت هـمّـتي وقُـورِبَ مـالـي فـفـعـالـي مـقـصّـرٌ عـن مـقـالـي
ما اكتسى الناس مثل ثوب اقتناعٍ وهو من بين ما اكتسوا سربالي
ولـقـد تـعـلـم الـحـوادث أنّـي ذو اصطبارٍ على صروف الليالي

وقال أعرابي: مَن ولد في الفقر أبطره الغنى، ومَن ولد في الغنى لم يزده إلا تواضعًا، فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه، وأعظم أجر مَن رضي به، وصبر عليه.

الفَقر خَصم لجُوج(٣)

ركب خالد(٤) في يوم شديدِ البردِ كثير الغَيْم، فتعرَّض له رجلٌ في الطريق؛ فقال له: ناشدتُكَ الله إلا ضَربتَ عنقي! فقال له: أكُفْرٌ بعد إيمان؟ قال: لا؛ قال:

(١) أسدى: قدم وأحسن.
(٢) غبونها: نقصها وعدم إقبال. يقال غبنه حقه: أي انتقصه.
(٣) المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط.
(٤) هو خالد بن عبد الله القسري.

أَفَتَرْغَبُ عن طاعة الرحمٰن؟ قال: لا؛ قال: أفقتلتَ نفسًا! قال: لا. قال: فما سببُ ذلك؟ قال: لي خصمٌ لَجُوج قد عَلقَ بي، ولزِمَني وقهرَني. قال: مَن هو؟ قال: الفقر! قال: فكم يكفيكَ لِدَفْعَه؟ قال: أربعة آلاف درهم، قال: إني مُمِدُّكَ بأربعة آلاف درهم.

ثم قال خالد: يا غلام، ادفَعْ له أربعة آلاف درهم، والتَفَتَ وقال: هل رَبِحَ أحدٌ من التجار كربْحِي اليوم؟ قالوا: وكيف ذلك؟ قال: عزمتُ على أن أعطي هذا الرجلَ ثلاثين ألف درهم، فلما طلب أربعة آلاف درهم وَفَّر عليّ ستة وعشرين ألف درهم.

فلما سمع الرجلُ ذلك منه قال: حاشاك وأعيذك بالله أن تربحَ على مُؤَمِّلِكَ. فقال: يا غلام؛ أَعْطِهِ ثلاثين ألفًا، ثم قال للرجل: اقْبِض المال؛ واذهبْ آمنًا إلى خَصْمِك، ومتى رجع يُعَارِضُك فاستَنْجِدْ بنا عليه!

يشتكِي الفَقر(١)

أتى رجلٌ إلى عليّ بن سليمان، فقال له: بالذي أسبغَ عليك هذه النعم - من غير شفيع كانَ لك إليه تفضُّلًا منه عليك - إلَّا أنْصَفْتَنِي من خَصْمي، وأخذتَ الحقَّ منه، فإنه ظَلُومٌ غَشُوم، لا يستَحْيِي من كبير، ولا يلتفتُ إلى صغير! فقال له: أعْلِمني مَنْ هو؟ فإن ينصفْك، وإلا أخذتُ الذي فيه عيناه! مَنْ هو؟

فقال: الفقر، فأَطْرَق إلى الأرض مَلِيًّا، يَنْكُتُ(٢) الأرض بإصبعه، ثم رفع رأسه، فأمر له بعشرة آلاف دينار، فأخذها ومضى، فلما سار خارجًا قال: رُدُّوه.

فلما مَثل بين يديه قال: ياذا الرجل، سألتُك بالله - متى أتاك خصمُك متعسِّفًا - آلاّ أتيتَ إلينا متَظَلِّمًا.

---

(١) عين الأدب والسياسة: ١٨٦.

(٢) النكت: أن تضرب الأرض بقضيب فيؤثر فيها.

في الطعام وآدابه
والضيافة وآداب المضيف وأخبار الأكلة
وما جاء عنهم وغير ذلك

قال في المستطرف[1]: أما إباحة الطيب من المطاعم: فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٢] وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٤] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «محرم الحلال كمحلل الحرام». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه».

وكان الحسن رضي الله تعالى عنه يقول: ليس في اتخاذ الطعام سرف.

أشهر المأكولات

سئل الفضيل عمن يترك الطيِّبات من اللحم والخبيص[2] للزهد، فقال: ما للزهد وأكل الخبيص؟ ليتك تأكل وتتقي الله إن الله لا يكره أن تأكل الحلال إذا اتقيت الحرام، انظر كيف برك بوالديك وصلتك للرحم وكيف عطفك على الجار وكيف رحمتك للمسلمين وكيف كظمك للغيظ وكيف عفوك عمن ظلمك وكيف إحسانك إلى مَن أساء إليك وكيف صبرك واحتمالك للأذى، أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص.

(١) المستطرف: ص ١٨٩ ـ ١٩٨.

(٢) الخبيص: حلواء تتخذ من تمر وسمن يخلطان ويخبصان.

نقل عن الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب، فقال: يا أمير المؤمنين لا أقضي على غائب. فأحضرهما إليه، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ثم قال: يا أمير المؤمنين كلّما أردت أن أقضي لأحدهما أتى الآخر بحجته.

اختلف الرشيد وأم جعفر في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى، فقال له الرشيد: احكم. قال: قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين. فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار، فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا دينارًا.

سمع الحسن البصري رجلًا يعيب الفالوذج فقال: لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ما أظن عاقلًا يعيبه.

وقال الأصمعي: أو لمَن صنع الفالوذج عبد الله بن جدعان.

وأتى أعرابي بفالوذج فأكل منه لقمة فقيل له: هل تعرف هذا؟ فقال: هذا وحياتك الصراط المستقيم.

كان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم. وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم». وكان ﷺ يقول: «هو سيد الطعام في الدنيا والآخرة وهو يزيد في السمع ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل».

كان ﷺ يحب الدباء ويقول: «يا عائشة إذا طبختي قدرًا فأكثروا فيها من الدباء فإنها تشد القلب الحزين وهي شجرة أخي يونس». وعنه ﷺ أنه قال: «عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ويزيد في الدماغ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ويغزر الدمعة».

وعن أبي رافع قال: كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول: أكل التمر أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج، وأكل السفرجل يحسن الولد وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب بالنصب والوصب[١]

(١) النصب: التعب، والوصب: المرض.

والكرفس يقوي المعدة ويطيب النكهة، وأطيب اللحم الكنف. وكان يديم أكل الهريسة وكان يأكل على سماط[١] معاوية ويصلي خلف علي ويجلس وحده. فسئل عن ذلك فقال: طعام معاوية أدسم، والصلاة خلف علي أفضل، وهو أعلم والجلوس وحدي لي أسلم.

وسمِّيت المتوكلية بالمتوكل والمأمونية بالمأمون، وقال الحسن بن سهل يومًا على مائدة المأمون: الأرز يزيد في العمر فسأله المأمون عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين إن طب الهند صحيح وهم يقولون: إن الأرز يرى منامات حسنة، ومَن رأى منامًا حسنًا كان في نهارين. فاستحسن قوله ووصله.

وقال أبو صفوان: الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا. وقيل لأبي الحرث: ما تقول في الفالوذجة؟ قال: وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا في صدري والله لو أن موسى لقي فرعون بالفالوذجة لآمن ولكنه لقيه بعصا.

وكانت العرب لا تعرف الألوان إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح، حتى كان زمن معاوية رضي الله تعالى عنه فاتخذ الألوان. ويقال للمرقة المسخنة: بنت نارين وكان بعض المترفهين يقول: جنبوا مائدتي بنت نارين. وقالوا: كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد. وقيل: إذا ألقي اللحم في العسل ثم أخرج بعد شهر طريًا فإنه لا يتغير. ويقال للسكباج: سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد. ويقال: إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة، ويقال للخبز: ابن حبة. قال بعضهم:

فـي حبَّـةِ الـقـلب مـنـي   زرعـت حُـبَّ ابـن حـبـه

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه: أكرموا الخبز قالوا: وما كرامته يا رسول الله؟ قال: «لا ينتظر به الأدام[٢] إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره».

وفي الحديث: «مَن داوم على اللحم أربعين يومًا قسا قلبه ومَن تركه أربعين يومًا ساء خلقه».

---

(١) السماط: ما يبسط ليوضع عليه الطعام.   (٢) الأدام: الطعام.

وقيل: المائدة التي أُنزلت على بني إسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكراث، وسمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان.

ودخل ابن قزعة يومًا على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه، فقال: ما بال مولانا ليس يدعوني إلى الفوز بأكل الموز؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه فقال: ما الذي أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنها حشيت زبدًا وعسلًا، أطيب الثمر كأنه مخ الشحم، سهل المقشر لين المكسر عذب المطعم بين الطعوم سلس في الحلقوم، ثم مد يده وأكل. وسمع رجلًا يذم الزبد فقال له: ما الذي ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أم خشونة ملمسه؟ وقيل له: ما تقول في الباذنجان، فقال: أذناب المخاجم وبطون العقارب وبزور الزقوم. قيل له: إنه يحشى باللحم فيكون طيِّبًا، فقال: لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح.

وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزاذان: هل عمل كسرى مثلها؟ فاستعفاه، فأقسم عليه فقال: أولم عبدٌ عند كسرى فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة، في يد كل واحد إبريق من ذهب. فقال الحجاج: أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفًا.

وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة زنخة وكتب إليه: إني اخترت لعملها السكر السوسي والعسل المارداني والزعفراني والأصبهاني، فأجابه والله العظيم ما عملت إلا قبل أن توجد أصبهان وقبل أن تفتح السوس وقبل أن يوحي ربك إلى النحل. وقيل: إن أبا جهم بن عطية كان عينًا[1] لأبي مسلم الخولاني على المنصور، فأحس المنصور بذلك فطاوله الحديث يومًا حتى عطش، فاستسقى فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم فناوله إياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل في ذلك:

تـجـنّـبْ سـويـقَ الـلوز لا تـقـربـنّـهُ   فشُربُ سويق اللوز أردى أبا جهم[2]

وقال أبو طالب المأموني:

فما حملت كفّ امرىء متطعمًا   ألـذّ وأشـهـى مـن أصـابـع زيـنـبِ

---

(١) عينًا: جاسوسًا.
(٢) أردى: قتل وأهلك.

وأصابع زينب ضرب من الحلوى يعمل ببغداد، يشبه أصابع النساء المنقوشة. ودخل السائب على عليّ رضي الله تعالى عنه في يوم شات، فناوله قدحًا فيه عسل وسمن ولبن، فأباه فقال: أما إنك لو شربته لم تزل دفئًا شبعان سائر يومك. وعن نافع بن أبي نعيم قال: كان أبو طالب يعطي عليًا قدحًا من اللبن يصبه على اللات، فكان عليّ يشرب اللبن ويبول على اللات.

الزهد في المآكل

فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه، ومنهم مَن لا يقدر عليه. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها، والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق ما كان لنا منخل ولا أكل رسول الله ﷺ خبزًا منخولًا منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض، قيل: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أف أف.

وعن جابر رضي الله تعالى عنه رفعه: نعم الأدم الخل وكفى بالمرء سرفًا أن يتسخط ما قرب إليه.

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: ما اجتمع عند رسول الله ﷺ أدمان إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر. وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما كان يجتمع لونان في لقمة في فم رسول الله ﷺ، إن كان لحمًا لم يكن خبزًا وإن كان خبزًا لم يكن لحمًا.

وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «يا علي ابدأ بالملح واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء». ورُوِيَ أن نبيًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكا إلى الله الضعف فأمره أن يطبخ اللحم باللبن فإن القوة فيهما.

آداب الأكل

قال رسول الله ﷺ: «مَن قال عند مطعمه ومشربه بسم الله خير الأسماء بسم الله رب الأرض والسماء لم يضره ما أكل وما شرب». وكان ﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال: «بسم الله اللهمّ بارك لنا فيما رزقنا وعليك حلفه».

وقال ﷺ: «مَن أكل طعامًا فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومَن لبس ثوبًا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسي في أوله فليقل بسم الله أوله وآخره».

وفي حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب».

وقال ﷺ: «الأكل في السوق دناءة». وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ زجر عن الشرب قائمًا قال: فسألناه عن الأكل قائمًا فقال: «هو شر من الشرب».

وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال: إذا أكلت فضم شفتيك، ولا تلتفتن يمينًا ولا شمالاً ولا تلقمن بسكين ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة، ولا تبصق في الأماكن النظيفة.

ومن هذا ما رواه الزهري أن النبيّ ﷺ نهى عن النفخ في الطعام والشراب، وقال عليّ رضي الله تعالى عنه: نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حارًا. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما عاب النبيّ ﷺ طعامًا قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه. وقال عمر بن هبيرة: عليكم بمباكرة الغداء فإن مباكرته تطيب النكهة وتعين على المروءة، قيل: وما إعانته على المروءة؟ قال: أن لا تتوق نفسك إلى طعام غيرك.

وعن النبيّ ﷺ قال: «من أكل من سقط المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده وولد ولده من الحمق»، وعنه ﷺ: «مَن سقط شيئًا من الطعام فأكله حرّم الله جلده على النار».

وكان الحارث بن كلدة يقول: إذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه، وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة. وقيل: خير الغداء بواكره وخير العشاء سوافره.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه.

وقال الحجاج لأعرابي يومًا على سماطه: ارفق بنفسك فقال: وأنت يا حجاج اغضض من بصرك. وقال معاوية لرجل على مائدته: خذ الشعرة من

لقمتك فقال: وإنك تراعيني مراعاة مَن يرى الشعرة في لقمتي، لا أكلت لك طعامًا أبدًا.

ووضع معاوية بين يدي الحسن بن عليّ رضي الله تعالى عنهما دجاجة، ففكها فقال معاوية: هل بينك وبين أمها عداوة؟ فقال الحسن: فهل بينك وبين أمها قرابة؟ أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك، والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة رضي الله تعالى عنهما.

وأحضر أعرابي على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدي مشوي فجعل الأعرابي يسرع في أكله منه، فقال له الخليفة: أراك تأكله بحرد كأن أمه نطحتك، فقال: أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك.

ما جاء في كثرة الأكل

رُوِيَ عن حُذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ: «مَن قلّ طعامه صحّ بطنه وصفا قلبه، ومَن كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه».

وعن ﷺ: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات».

وقال ﷺ: «ما زيّن الله رجلًا بزينة أفضل من عفاف بطنه».

وقال عمرو بن عبيد: ما رأيت الحسن ضاحكًا إلا مرة واحدة، قال رجل من جلسائه: ما آذاني طعام قط فقال له آخر: أنت لو كانت في معدتك الحجارة لطحنتها.

وقال عليّ كرّم الله وجهه: البطنة[1] تذهب الفطنة. وقال ابن المقفع: كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نهمًا شرهًا[2] أخرجوه من طبقة الجد إلى باب الهزل، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار. وتقول العرب: أقلل طعامًا تحمد منامًا، وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا:

لست بأكّالٍ كأكل العبدِ ... ولا بنوامٍ كنوم الفهد

(١) البطنة: كثرة الأكل وامتلاء المعدة منه. (٢) الشره: النهم الذي يحب الأكل ويكثر منه.

وأنشد الأصمعي لرجل من بني فهد:

إذا لم أزرْ إلا لآكلَ أكلةً   فلا رفعت كفي إلى طعامي

فما أكلةٌ إن نلتها بغنيمةٍ   ولا جوعةٌ إن جعتها بغرام

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلامًا فألقى بين يديه تمرًا فأكل فأكثر فقال ﷺ: «إن كثرة الأكل شؤم».

وقالوا: الوحدة خير من الجليس السوء، والجليس السوء خير من الأكيل السوء.

وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال، فقال: اشكر، فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية، قال: أجل، ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد، ودعت أبا الحرث حبيبة له، فحادثته ساعة، فجاع فطلب الأكل فقالت له: أما في وجهي ما يشغلك عن الأكل، قال: جعلت فداءك لو أن جميلًا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا.

من أخبار الأكلة

قيل: إن وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل، فقال: أكلت مائة رغيف بمكوك بلح.

ومرّ ميسرة المذكور يومًا بقوم وهو راكب حمارًا، فدعوه للضيافة، فذبحوا له حماره وطبخوه، وقدموه له، فأكله كله، فلما أصبح طلب حماره ليركبه، فقيل له: هو في بطنك.

وقال المعتمر بن سليمان: قلت لهلال المازني ما أكلة بلغتني عنك. قال: جعت مرة ومعي بعير لي، فنحرته وشويته وأكلته، ولم أبق منه إلا شيئًا يسيرًا حملته على ظهري، فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لي، فلم أقدر أن أصل إليها، فقالت: كيف تصل إليّ وبيننا جمل، فقلت له: كم تكفيك هذه الأكلة، فقال: أربعة أيام.

وقال الأصمعي: إن سليمان بن عبد الملك كان شرهًا نهمًا وكان من شرهه أنه إذا أتي بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر إلى أن يبرد، ولا أن يؤتى بمنديل، فيأخذ بكمه، فيأكل واحدة واحدة حتى يأتي عليها، فقال الرشيد:

ويحك يا أصمعي ما أعلمك بأخبار الناس أني عرضت على جباب سليمان، فرأيت فيها آثار الدهن، فظننته طيبًا حتى حدثتني، ثم أمر لي بجبة منها، فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك.

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إليَّ، وقال: يا شمردل: ما عندك ما تطعمني؟ قلت: عندي جدي كأعظم ما يكون سمنًا، قال: عجل به فأتيته كأنه عكة[١] سمن، فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذًا قال: هلم يا أبا جعفر، فقال: إني صائم فأكله، ثم قال: يا شمردل ويلك أما عندك شيء؟ قلت: ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام، فأتيته بهن فأتى عليهن، ثم قال: يا شمردل أما عندك شيء؟ قلت: سويق كأنه قراضة الذهب، فأتيته به، فعبه حتى أتى عليه، ثم قال يا غلام: أفرغت من غذائنا؟ قال: نعم. قال: ما هو؟ قال: نيف وثلاثون قدرًا، قال: ائتني بقدر قدر، فأتاه بها ومعه الرقاق، فأكل من كل قدر ثلثه، ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا، وصف الخوان، فقعد وأكل مع الناس.

وكان هلال بن الأسعر يضع القمع على فيهِ ويصب اللبن أو النبيذ، وكان غليظًا عتلًا[٢].

وقال أعرابي لرجل رآه سمينًا: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك. وقال المحمر الأعرابي: كانت لي بنت تجلس على المائدة فتبرز كفًا كأنها صلفة[٣] في ذراع كأنه جمارة[٤]، فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتني بها، فكبرت وزوجتها، وصرت أجلس على المائدة مع ابن لي فيبرز كفًا كأنها كرنافة[٥]، فوالله لن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها. وقال مسلم بن قتيبة: عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفًا مع كل رغيف سمكة. ويقال: فلان يحاكي حوت يونس في جودة الالتقام، وعصا موسى في سرعة الالتهام.

---

(١) عكة سمن: إناء صغير يوضع فيه السمن. (٢) عتلاً: غليظًا جافيًا.
(٣) الصلفة: خوافي قلب النخلة. (٤) الجمارة: شحم النخلة.
(٥) الكرنافة: أصول قضبان النخل التي تبقى في الجذع بعد قطع القضبان.

وقيل لأبي مرة: أي الطعام أحب إليك؟ قال: لحم سمين وخبز سميد[١] أضرب فيه ضرب ولي السوء في مال اليتيم. وقال صدقة بن عبيد المازني: أولم لي أبي لما تزوجت، فعمل عشر جفان[٢] ثريد من جزور، فكان أول مَن جاءنا هلال المازني، فقدمنا له جفنة مترعة، فأكلها، ثم أخرى، فأكلها، حتى أتى على الجميع، ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ، فوضع طرفها في شدقه وفرغها في جوفه، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام.

وكان عبيد الله بن زياد يأكل في كل يوم خمس أكلات، فخرج يومًا يريد الكوفة، فقال له رجل من بني شيبان: الغداء أصلح الله الأمير، فنزل، فذبح له عشرين طائرًا من الأوز، فأكلها، ثم قدم الطعام، فأكل، ثم أتى بزنبيلين في أحدهما تين، وفي الآخر بيض، فجعل يأكل من هذا تينة، ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه، ثم رجع وهو جائع.

وكان ميسرة البرائش يأكل الكبش العظيم ومائة رغيف، فذكر ذلك للمهدي، فقال: دعوت يومًا بالفيل وأمرت، فألقي إليه رغيف رغيف، فأكل تسعة وتسعين، وألقي إليه تمام المائة، فلم يأكله.

وحدّث الشيخ نبيه الدين الجوهري أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول: إن معاوية بن أبي سفيان كان يأكل في كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولا يشبع.

ونزل رجل بصومعة راهب، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة، وذهب ليحضر إليه العدس، فحمله وجاء، فوجده قد أكل الخبز، فذهب، فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس، ففعل معه ذلك عشر مرات، فسأله الراهب: أين مقصدك؟ قال: إلى الأردن. قال: لماذا؟ قال: بلغني أن بها طبيبًا حاذقًا أسأله عما يصلح معدتي، فإني قليل الشهوة للطعام، فقال له الراهب: إن لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: إذا ذهبت وأصلحت معدتك، فلا تجعل رجوعك عليَّ.

المهازلة على الطعام

رُوِيَ عن يحيىٰ بن عبد الرحمـٰن رضي الله تعالى عنه قال: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان عندي رسول الله ﷺ، وسودة فصنعت حريرة، فجئت

(١) السميد: الطحين الأبيض. (٢) جفان: قصع وآنية للطعام.

به، فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلين أو لألطخن وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته، فأخذت من الصحفة شيئًا، فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فتناولت من الصحفة شيئًا، فلطخت به وجهي، وجعل رسول الله ﷺ يضحك.

واشترى غندر يومًا سمكًا وقال لأهله: أصلحوه، ونام، فأكل عياله السمك ولطخوا يده، فلما انتبه قال: قدموا إليَّ السمك، قالوا: قد أكلت. قال: لا، قالوا: شم يدك، ففعل، فقال: صدقتم، ولكن ما شبعت.

ودخل الحمدوني على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولا يمدون أيديهم، فقال: لقد ذكرتموني ضيف إبراهيم وقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: الآية ٧٠] ثم قال: كلوا رحمكم الله فضحكوا، وأكلوا.

الضيافة وإطعام الطعام

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: الآية ٢٤] وقال رسول الله ﷺ: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ولا يؤذ جاره». وقال ﷺ: «مَن أكل وذو عينين ينظر إليه ولم يواسه ابتلي بداء لا دواء له».

وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة إطعام الأخ المسلم الجائع. وقيل لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: بم اتخذك الله خليلًا؟ قال بثلاث: ما خيرت بين شيئين إلا اخترت الذي لله على غيره، ولا اهتممت بما تكفل لي به، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف.

ويقولون: ما خلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحد من ضيف.

وكان الزهري إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام. وقالوا: المائدة مرزوقة. أي مَن كان مضيافًا وسع الله عليه.

وقالوا: أول مَن سنّ القِرى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وأول مَن ثرد الثريد وهشمه هاشم، وأول مَن أفطر جيرانه على طعامه في الإسلام عند الله

ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وهو أول مَن وضع موائده على الطريق، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء، فإن لم يجد مَن يأكله تركه على الطريق. وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدب مع الأضياف؟ فقال: كانت الأسفار تحوجني إلى أن أفد على الناس، فما استحسنته من أخلاقهم ابتعته وما استقبحته اجتنبته.

وآداب المضيف

فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه، فقد قيل: البشاشة في الوجه خير من القرى، قالوا: فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك؟ وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوي رحمه الله هذا الكلام بأبيات، فقال:

إذا المرء وافى منزلًا منك قاصدًا ... قراك وأرْمته لديك المسالكُ
فكن باسمًا في وجهه متهلّلًا ... وقلْ مرحبًا أهلًا ويومٌ مباركُ
وقدِّمْ له ما تستطيع من القرى ... عجولًا ولا تبخل بما هو هالكُ
فقد قيل بيتٌ سالفٌ متقدِّمٌ ... تداوله زيدٌ وعمرٌو ومالكُ
بشاشة وجهِ المرءِ خيرٌ من القرى ... فكيف بمن يأتي به وهو ضاحكُ

وقالت العرب: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المؤاكلة، وقال حاتم الطائي:

سلي الطارقَ المعترّ يا أمَّ مالكِ ... إذا ما أتاني بين ناري ومجزري(١)
أأبسط وجهي إنه أول القرى ... وأبذل معروفي له دون منكري

وقال آخر في عبد الله بن جعفر:

إنك يا ابن جعفر خير فتًى ... وخيرهم لطارقٍ إذا أتى(٢)

ولله در القائل:

الله يعلم أنّه ما سرّني ... شيءٌ كطارقة الضيوف النزّلِ
ما زلت بالترحيب حتى خلتني ... ضيفًا له والضيف ربُّ المنزلِ

---

(١) المعتر: الرجل الغليظ، الكثير اللحم. (٢) الطارق: الآتي ليلاً.

أخذه من قول الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت ربّ المنزل

وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان:

منزلنا رحبٌ لمن زاره نحن سواءٌ فيه والطارقُ
وكلّ ما فيه حلالٌ له إلّا الذي حرّمه الخالقُ

وقال الأصمعي: سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال: أوَما سمعت قول عاصم بن وائل:

وإنّا لنقري الضيفَ قبل نزوله ونشبعه بالبِشرِ من وجه ضاحك

وقال بعض الكرام:

أضاحك ضيفي قبل أن أنزل رحله ويخصب عندي والمحلّ جديبُ
وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ولكنّما وجه الكريم خصيبُ

وقال آخر:

عودت نفسي إذا ما الضيف نبّهني عقرَ العشارِ على عسرٍ وإيسار[(١)]

ومن آداب الضيف أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل إكرام الضيف قال الشاعر:

مطية الضيف عندي تلو صاحبها لن يأمن الضيف حتى تكرم الفرسا

وقال علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله. أما سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ [هُود: الآية ٧١].

ومن آداب المضيف أن يحدّث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم، ولا ينام قبلهم، ولا يشكو الزمان بحضورهم، ويبش عند قدومهم، ويتألم عند وداعهم، وأن لا يحدّث بما يروعهم به.

كما حكى بعضهم قال: استدعاني إسحٰق بن إبراهيم الظاهري إلى أكل هريسة في بكرة نهار فدخلت، فأحضرت لنا الهريسة فأكلنا، فإذا شعرة قد جاءت

---

(١) عقر العشار: ذبح النوق.

على لقمة غفل عنها طباخه، فاستدعى خادمه، فأسر إليه شيئًا لم نعلمه، فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة، فكشف عن الصينية، فإذا يد الطباخ مقطوعة تختلج، فتكدر علينا عيشنا وقمنا من عنده ونحن لا نعقل. فيجب على المضيف أن يراعي خواطر أضيافه كيفما أمكن ولا يغضب على أحد بحضورهم، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه، ولا يعبس بوجهه ولا يظهر نكدًا، ولا ينهر أحدًا ولا يشتمه بحضرتهم، بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن.

كما حُكِيَ عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه وعمل لهم سماطًا وكان له ولد جميل الطلعة، فكان الولد في أول النهار يخدم القوم ويأنسون به، ففي آخر النهار صعد إلى السطح، فسقط فمات لوقته، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ولا تبكي إلى أن تصبح، فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده، فقال: هو نائم، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم: إن رأيتم أن نصلي على ولدي، فإنه بالأمس سقط من على السطح، فمات لساعته، فقالوا له: لمَ لا أخبرتنا حين سألناك؟ فقال: ما ينبغي لعاقل أن ينغص على أضيافه في التذاذهم ولا يكدر عليهم في عيشهم، فتعجبوا من صبره وتجلده، ومكارم أخلاقه، ثم صلّوا على الغلام وحضروا دفنه وبكوا عليه وانصرفوا.

وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقد غلمانهم بما يكفيهم، ويسهل حجابه وقت الطعام ولا يمنع واردًا. وقيل لبعض الأمراء الكرام: لا بأس بالحجاب لئلا يدخل مَن لا يعرفه الأمير ويحترز عن العدو، فقال: إن عدوًّا يأكل طعامنا ولا ينخدع ولا يمكنه الله منا، الأليق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام، فإن ذلك أول الشناعة عليه، وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وغريب الحكايات، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الظرف إن كان من أهل ذلك، وأن يري أضيافه مكان الخلاء، فقد قيل عن ملك الهند أنه قال: إذا ضافك أحد فأره الكنيف[1] فإني ابتليت به مرة، فوضعته في قلنسوتي. وقالوا: لا بأس أن يدخل دار أخيه يستطعم للصداقة الوكيدة.

(١) الكنيف: المرحاض.

وقد قصد النبيّ ﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري، وكذلك كانت عادة السلف رضي الله تعالى عنهم.

وكان لعون بن عبد الله المسعودي ثلاثمائة وستون صديقًا، فكان يدور عليهم في السنة، ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه، فيأكل وهو غائب، فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة رضي الله عنها، فأكل طعامها وهي غائبة، وكان الحسن رضي الله عنه يومًا عند بقال، فجعل يأخذ من هذه الجونة[١] تينة ومن هذه فستقة فيأكلها، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع؟ فقال له: يا لكع[٢] اتل عليّ آية الأكل، فتلا: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [النُّور: الآية ٦١] إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النُّور: الآية ٦١] فقال الصديق: مَن استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب.

وعلى المضيف الكريم أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما فيه يده بل يحضر إليهم ما وجد. فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة وحشف التمر. ويقولون: ما ندري أيهما أعظم وزرًا الذي يحتقر ما قدم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه. وعن أنس رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «من ألقم أخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف».

حُكِيَ عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان نازلًا عند الزعفراني ببغداد، فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية، فأخذها الشافعي منها يومًا وألحق فيها لونًا آخر، فعرف الزعفراني ذلك، فأعتق الجارية سرورًا بذلك، وكانت سنّة السلف رضي الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهي. ومن السنّة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر مَن يحضر من عشيرته، فقد قيل: ثلاثة تضني سراج لا يضيء ورسول بطيء ومائدة ينتظر لها مَن يجيء، ونزل الإمام الشافعي رضي الله عنه بالإمام مالك رضي الله عنه، فصب بنفسه الماء على يديه وقال له: لا يرعك ما رأيت

(١) الجونة: سلة صغيرة مغطاة بالجلد تكون مع العطارين ويوضع فيها الطيب.
(٢) اللكع: اللئيم.

مني، فخذ ماء الضيف على المضيف فرض:

أعرض طعامك وابذله لمن أكلا   واحلف على مَن أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابري العرضِ محتشمًا   من القليل فلست الدهر محتفلًا[1]

ومن البلاء مَن يعزم على الضيف، فيعتذر له، فيمسك عنه بمجرد الاعتذار، كأنه تخلص من ورطة، وقيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ قال: أن يعتذر الضيف بالصوم. ومن البخلاء مَن يعجبه طعامه ويصف زباديه ويشتهي أن تبقى على حالها، ومنهم مَن يحضر فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها إلى النفوس، ويعتذر أن في أصحابه مَن يحضر بالغداة عنده.

وحُكِيَ عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه، فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز، فقال له: ترى أن تأكل عسلًا بلا خبز، قال: نعم، وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة، فقال له البخيل: مهلًا يا أخي والله إنه يحرق القلب، قال: نعم صدقت، ولكنه قلبك.

وحُكِيَ عن بعضهم أنه قال: غلب عليَّ الجوع مرةً، فقلت: أمضي إلى دار فلان لأتغدى عنده، فجئت إلى باب بيته، فوجدت غلامه، فقلت له: أين سيدك؟ فقال: والله لا قلت لك عليه إلا إن أعطيتني كسرة، قال: فرجعت هاربًا. ومن البخل تقديم الشيء اليسير وتفخيمه.

وحُكِيَ عن بعض البخلاء أنه حلف يومًا على صديقه، وأحضر له خبزًا وجبنًا وقال له: لا تستقل الجبن، فإن الرطل منه بثلاثة دراهم، فقال له ضيفه: أنا أجعله بدرهم ونصف، قال: وكيف ذلك؟ قال: آكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن، فأين هؤلاء من الذي يقول:

قالت أما ترحلُ تبغي الغنى   قلت فمن الطارق المعتمِ
قالت فهل عندك شيءٌ له   قلت نعمْ جهد الفتى المعدمِ
فكم وحق الله من ليلةٍ   قد أطعمُ الضيفَ ولم أطعم
إنّ الغنى بالنفس يا هذهِ   ليس الغنى بالمال والدرهمِ

(١) السابري: ثوب رقيق جيد، منه عرض سابري، لأنه يرغب فيه بأدنى عرض.

وقال بعض البخلاء:

سرى نحونا يبغي القرى طاوي الحشى
لقد علمت فيه الظنون الكواذب[١]
فبات له منّا إلى الصّبح شاتمٌ
يعدد تطفيل الضيوف وضارب[٢]

فشتان ما بين القائلين.

وأما آداب الضيف: فهو أن يبادر إلى موافقة المضيف في أمور منها: أكل الطعام، ولا يعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن. فقد حُكِيَ أنه ورد على بعض الأعراب ضيف، فدخل به إلى بيته وقدم له الطعام، فقال الضيف: لست بجائع، وإنما أحتاج إلى مكان أبيت فيه، فقال الأعرابي: إذا كان هذا، فكن ضيف غيري، فإني لا أرى أن تمدحني في البلاد وتهجوني فيما بيني وبينك.

وحُكِيَ عن بعض التجار قال: استدعاني أبو حفص محمد بن القاسم الكرخي لأعرض عليه قماشًا من تجارتي، فبينما أنا بين يديه، وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت فقمت من مجلسه، فقال: يا فلان. ما هذا الخلق العامي؟ اجلس، فجلست وتحققت كرمه وجعلت آكل الكمثراة في لقمة والتفاحة في لقمة، ثم قدم الطعام وكنت جائعًا فأكلت جيدًا ثم انصرفت، فلم أشعر في اليوم الثاني إلا وقد جاءني غلامه ببغلته، فاستدعاني إليه، فقال: يا فلان إني قليل الأكل بطيء الهضم، ولقد طابت لي مؤاكلتك بالأمس، فأريد أن لا تنقطع بعدها عني، قال: فكنت متى انقطعت حضر غلامه في طلبي، فحصل له بقربي منه مال كثير وجاه عريض.

ومن آداب الضيف أيضًا أن لا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القبلة، وموضع قضاء الحاجة، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحريم وأن لا يخالفه إذا أجلسه في مكان وأكرمه به، وأن لا يمتنع من غسل يديه. وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها.

---

(١) سرى: اتجه وسار ليلًا، وطاوي الحشا: أي جائعًا.
(٢) التطفيل: من التطفل، أي الحشرية والثقل.

فقد نقل في بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عربيدًا على أضيافه سيء الخلق بهم، فبلغ ذلك بعض الأذكياء، فقال: الذي يظهر لي من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف، ولا بد أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره، قال: فقصدته وسلّمت عليه، فقال: هل لك أن تكون ضيفي. قلت: نعم، فسار بين يدي إلى أن جاء إلى باب داره، فأذن لي، فدخلت، فأجلسني في صدر مجلسه، فجلست حيث أجلسني، وأعطاني مسندًا، فاستندت إليه، فأخرج لي شطرنجًا، وقال: أتتقن شيئًا؟ قلت: نعم. فلعبت معه، فلما حضر الطعام جعل يقدم لي ما استطابه، وأنا آكل، فلما فرغنا قدم طستًا وإبريقًا وأراد أن يسكب الماء على يدي، فلم أمنعه من ذلك، وأراد الخروج من بين يدي بعد أن قدم نعلي، فلم أرده عن ذلك، فلما أراد الرجوع. قلت: يا سيدي أنشدك الله إلا فرجت عني كربة؟ قال: وما هي؟ فأخبرته الخبر، فقال: والله ما يحوجني لذلك إلا سوء أدبهم، يصل الضيف إلى داري، فأجلسه في الصدر، فيأبى ذلك، ثم أقدم إليه الطعام، فلا أتحفه بشيء مستظرف إلا رده عليَّ، ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل، فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل، ثم أريد أن أشيعه، فلا يمكنني من ذلك، فأقول في نفسي لا يحكم الإنسان على نفسه حتى في بيته، فعند ذلك أشتمه وألعنه وأضربه، وفي معنى ذلك يقول بعضهم:

لا ينبغي للضيف أن يعترضْ ... إن كان ذا حزمٍ وطبعٍ لطيف
فالأمر للإنسان في بيته ... إن شاء أن ينصفَ أو أن يَحيف(١)

ومما يعاب على الضيف أمور منها كثرة الأكل المفرط، إلا أن يكون بدويًا، فإنها عادته. ومنها أن يتتبع طريق الشرهين كمن يتخذ معه خريطة مشمعة يقلب فيها الزبادي والأمراق والحلوى وغير ذلك، ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يبكي وقت الانصراف من الطعام ليعطى على اسم ولده الصغير، ومنها قبح المؤاكلة، وقد عد فيها عيوب كثيرة، فمنها: المتشاوف والعداد والجراف والرشاف والنفاض والقراض والبهات واللتات والعوام والقسام والمخلل والمزبد والمرنخ والمرشش والمفتش والمنشف والملبب والصباغ والنفاخ والحامي والمجنح والشطرنجي والمهندس والمتمني والفضولي.

(١) يحيف: ينقص ويظلم.

فأما المتشاوف: فهو الذي يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام، فلا تراه إلا متطلعًا لناحية الباب يظن أن ما دخل هو الطعام. وأما العداد، فهو الذي يستغرق في عد الزبادي ويعد على أصابعه، ويشير إليها، وينسى نفسه. والجراف: هو الذي يجعل اللقم في جانب الزبدية ويجرف بها إلى الجانب الآخر. والرشاف: هو الذي يجعل اللقمة في فيّه ويرتشفها، فيسمع لها حين البلع حس لا يخفى على جلسائه، وهو يلتذ بذلك. والنفاض: هو الذي يجعل اللقمة في فيّه وينفض أصابعه في الزبدية. والقراض: هو الذي يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذبها ويضعها في الطعام بعد ذلك. والبهات: هو الذي يبهت في وجوه الآكلين حتى يبهتهم، ويأخذ اللحم من بين أيديهم. واللتات: هو الذي يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها في الطعام. والعوام: هو الذي يميل ذراعيه يمنة ويسرة لأخذ الزبادي. والقسام: هو الذي يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها في الطعام من فيّه. والمخلل: هو الذي يخلل أسنانه بأظفاره، والمزبد: هو الذي يحمل معه الطعام. والمرنخ: هو الذي يرنخ اللقمة في الأمراق، فلا يبلع الأولى حتى تلين الثانية. والمرشش: هو الذي يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكليه. والمفتش: هو الذي يفتش على اللحم بأصابعه. والمنشف: هو الذي ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها. والملبب: هو الذي يملأ الطعام لبابًا. والصباغ: هو الذي ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده. والنفاخ: هو الذي ينفخ في الطعام. والحامي: هو الذي يجعل اللحم بين يديه فيحميه من مؤاكليه. والمجنح: هو الذي يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له في المجلس، فلا يشق عليه الأكل. والشطرنجي: هو الذي يرفع زبدية ويضع زبدية أخرى مكانها. والمهندس: هو الذي يقول لمن يضع الزبادي ضع هذه هنا وهذه هٰهنا، حتى يأتي قدامه ما يحب. والمتمني: هو الذي يقول: ليتني لم يكن معي مَن يأكل. والفضولي: هو الذي يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام، إن كان قد بقي عندك في القدور شيء، فأطعم الناس، فإن فيهم مَن لم يأكل.

ومن الأضياف مَن لا يلذ له حديث إلا وقت غسل يديه، فيبقى الغلام واقفًا والإبريق في يده والناس ينتظرونه. ومنهم مَن يغسل يديه بالأشنان مرة واحدة، فإذا اجتمع الوسخ والزفر تسوك بهما. ومنهم مَن يدخل الدار فيبتدىء بالهندسة أولًا، فيقول: كان ينبغي أن يكون باب المجلس من هٰهنا، والإيوان كان ينبغي أن يكون

من هٰهنا، وينتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس، فينقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر، وإن كان قد استحكم جوعه استعفى من الطعام، وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم. ومنهم مَن يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة، فيتألم عن انقطاعهم ويستوحش من غيبتهم ويسلطهم على عرض صاحبهم.

ولقد حُكِيَ عن مغن غير مجيد أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة، وما ذاك إلا أنه كان إذا سئل أين كنت؟ قال: كنت عند الناس، وإذا قيل له: أين أكلت؟ قال: أكلت في بطني، وإذا قيل له: أين شربت؟ قال: شربت في فمي. ومنهم مَن يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه: اشتر كذا، فيقول: والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشتري شيئًا فأذوقه، فيعجز صاحب المنزل ويخلجه إذا لم يكن في بيته شيء موجود، وليت شعري إذا كان لا يأكل فلأي شيء حضر. ومنهم مَن يرى صاحب البيت قد أسرّ إلى صديقه شيئًا، فيقول: ما الذي قال المولى لصاحبنا، وهو لا يريد أن يعلمه، ومنهم مَن يستعجل صاحب المنزل بالأكل ويشكو الجوع ويظن أن ذلك بسط مكارم أخلاق، وإنما ذلك يكون في بيته لا في بيوت الناس. ومنهم مَن يقول لصاحب الدعوة: مَن يغني لنا، فيقول: فلان، فيقول له: غلطت لمَ لا دعوت فلانًا، ومنهم مَن يسأل صاحب البيت، كيف قوته في النكاح، فيقول له: أنا رجل كبير قد ضعفت قوتي وشهوتي، أو يقول؛ ما لي قوة طائلة في ذلك، فيقول: أنا والله كلما مرّ عليَّ عام تزايدت شهوتي وكثر لهذا الفن تشوفي[1]، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت. ومنهم مَن يشكو حاله مع أهل بيته ويذكر نفقته عليهن وكسوته لهن وكثرة إنعامه وإحسانه إليهن، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق وكبر النفس، لتستقل زوجة صاحب البيت ما هي فيه مع زوجها، وربما كان ذلك سببًا لفراقها منه، ومنهم مَن تعجبه نفسه ويستحسن لباسه، ويستطيب رائحته، وإذا سمع الغناء تواجد، وأظهر الطرب، وحرك رأسه، ويقوم قائمًا يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل بديع الحركات، ويظن في نفسه أنه يعشق وأن رسول صاحبة البيت لا يبطىء عنه، ومنهم مَن يقال له: العب الشطرنج، فيأباه ويشتغل بالدندنة[2]، فيقع في الفضول. ومنهم مَن يتأمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده، ويظن أنه يدل عليهم، ومنهم مَن يقول

(١) التشوف: التزين والتحبب.
(٢) الدندنة: الطنين والنغم والكلام الذي لا يفهم.

له صاحب البيت: كلْ، فيقول: ما آكل إلا أنا ورفيقي. ومنهم مَن يسمع السائل على الباب، فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه أو يقول للسائل: فتح الله عليك، ومنهم مَن يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه ويقلده بذلك المنن وأكثر الناس واقع في ذلك.

في الطفيليين وما قيل فيهم من الشعر

الطفيلي هو الذي يأتي إلى وليمة لم يدع إليها. والذي يدخل على القوم في شرابهم ولم يدع إليه يسمى الواغل. والطفيلي قيل: مأخوذ من الطفل وهو إقبال الليل على النهار بظلمته وقيل: منسوب إلى (طفيل) رجل من أهل الكوفة من غطفان كان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها فقيل له: طفيل الأعراس والعرائس. وقيل: منسوب إلى طفيل ابن زلال رجل من بني هلال كان ينزل حفر أبي موسى وهو منزل من منازل العرب حفر فيه أبو موسى الأشعري ركايا على جادة البصرة إلى مكة فكان إذا سمع بقوم عندهم دعوة أتاهم. وهو أول مَن طفل، وأبوه أول مَن زلّ، أي حمل الطعام من الولائم ونحوها فسمي التطفيل به والزل بأبيه. والذي يجيء مع الضيف ولم يدع يسمى الضيفن.

ما قيل في الطفيليين من الشعر

لبعضهم:

يحب الراح من مال الندامى ... ويأكل أكل شداد بن عاد
ولا يروي من الأشعار شيئًا ... سوى بيت لأبرهة العبادي
قليل المال تصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثير على الفساد

لآخـــر:

طفيلي يرى التطفل دينًا ... وقرة عينه غشيان عرس
إذا قبضت يداه على رغيف ... يقسم نهبه بيد وضرس

كان لأبي الأسود الدؤلي دكان لا يسع إلّا مقعده وطبقًا يوضع بين يديه وجعله مرتفعًا وليس له درج كي لا يرتقي إليه أحد. فكان أعرابي يتحيّن وقته ويأتيه على فرس فيصير كأنه معه على الدكان. فأخذ دبة وجعل فيها حصى واتكأ عليها، فإذا رأى الأعرابي قد أقبل أراه كأنه يحول متكأه، فإذا قعقعت الدبة

بالحصى نفر الفرس. فلم يزل الأعرابي يدينه ويقعقع هو به حتى نفر به الفرس فصرعه فلم يعد بعد ذلك.

كان رجل فقير وله أخ مفرط في الغنى شديد البُخل فقال الفقير لأخيه: ويحك! أنا فقير معيل وأنت غني لا تعينني على الزمان؟ والله ما رأيت أبخل منك! فقال أخوه: ليس الأمر كما تظن، ولا أنا كما تقول في اليسر والبخل. والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك منها ألف درهم. يا هؤلاء! فرجل يهب ضربة واحدة ألف درهم يقال له بخيل؟!

وفي ذلك يقول الشاعر:

طفيلي على فرس يدورُ يقدّر عند مَن غلت القدورُ
بأوقات الموائد حين يؤتى بها للأكل علام خبيرُ
له في الغيب إسطرلابُ وحي بمائدة إذا وضعت نذيرُ
فبطليموس في تحديد وقت إليه بغير ما غلط يشيرُ
ولو قالوا (تباهَرْتِ) طعام لمرَّ إليه تطفيلًا يشيرُ

ولعلي بن العباس الرومي في طفيلي:

يخالف إخوانه في الطريق إلى أن تضمهم المائدة
فبينا كذاك إذا هم به مع القوم كالحية الراصدة
يلين الطعام على ضرسه ولو كان من صخرة جامدة
ويأكل زاد الورى كله ولكنها أكلةٌ واحدة
فلو عاينته جحيم الإلٰه لخرَّتْ لمعدته ساجدة

وقال بعض أهل العصر:

إن المشائخ لا تحصى مناقبهم ولو نظمنا بها كل الأراجيز
قوم إذا سمعوا بالرز في جبل دكوا النعال ودقوا بالعكاكيز

ومن أشعار الطفيليين

قال طفيلي:

لذة التطفل دومي وأقيمي لا تريمي
أنت تشفين غليلي وتسلين همومي

وقال طفيلي آخر:

نحن قوم إن جفا النا ... سُ وصلنا من جفانا
ما نبالي صاحب الدا ... ر نسينا أو دعانا

وقال آخر:

نحن قوم إذا دعينا أجبنا ... ثم إن ننسى يدعنا الطفيل
ونقل علنا دعينا فعبنا ... فأتانا فلم يجد الرسول
نصرف القول نحو أجمل فعل ... مثلما يفعل الودود الوصول

وقال آخر:

ولما أن كتبت فلم تجبني ... ولم تنظر إليّ بعين أنس
رأيت الحزم أن أمضي ركابي ... إليك وأن أكون رسول نفسي

وقال آخر:

أتأذن لي حين لا دعوة ... وتحجبني حين ذبح الجمل
جعلت فداك فماذا الجفا ... ألستُ طفيليكم لم أزل

وقال آخر:

نحن قوم نحسن الإقـ ... ـدام في وقت الزحام
هكذا فليكن التطـ ... ـفيل تطفيل الكرام

ما نقشه الطفيليون على خواتيمهم

كان نقش خاتم بنان: (وما لكم لا تأكلون) ونقش بعضهم على خاتمه: (أكلها دائم) ونقش آخر: (آتنا غداءنا). ونقش آخر: (لا تبقي ولا تذر).

وصايا الطفيليين نظمًا

أنشد بنان، وكان طفيليًا مشهورًا:

يا صفي النفس يا خيـ ... ـر جليس ونديم
قل إذا ما جئت قومًا ... زائرًا قول حكيم
قد أتيناكم بحسن الظـ ... ـن والود القديم
ما نخاف البرد والحِرْ ... مان إلا من لئيم

نــحــن قــوم وهــب الــلــ ـه لــنــا فــضــل الــحــلوم
قــد بــلونــا الــنــاس مــا جــا هـــل أمـــر كـــعـــليـــم
لــست مــن لام عــلى الــتطــ ـفــيــل فــي نــار الــجــحــيــم

وكان طفيل العرائس الذي ينسب إليه الطفيليون يوصي ابنه عبد الحميد في علّته فيقول: إذا دخلت عرسًا فلا تتلفت تلفت المريب، وتخبّر المجالس. فإن كان العرس كثير الزحام فأْمُرْ وانْهَ، ولا تنظر في عيون أهل المرأة ولا في عيون أهل الرجل، ليظن هؤلاء أنك من هؤلاء ويظن هؤلاء أنك من هؤلاء. فإن كان البواب غليظًا وقاحًا فابدأ به ومره وانهه من غير أن تعنّفه. وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال ثم قال:

لا تــجــزعــن مــن الــقــريــ ـب ولا من الرجل البعيد
وادخــل كــأنــك طــابــخ بــيــديــك مــغــرفــة الــثــريــد
مــتــدلــيًّــا فــوق الــطــعــا م تــدلــي الــبــازي الــصــيــود
لــتــلف مــا فــوق الــمــوا ئــد كــلــهــا لــف الــفــهــود
مــا طــرح حــيــاءك إنّــمــا وجــه الــمــطــفــل مــن حــديــد
حــتــى إذا جــاء الــطــعــا م ضــربــت فــيــه بــالــشــديــد
وعــلــيــك بــالــفــالــوذجــا ت فــإنــهــا بــيــت الــقــصــيــد
والــعــرس لا يــخــلو مــن الــ ـلوزيــنــج الــرطــب الــعــتــيــد
فــإذا أتــيــت بــه مــحــو ت محاسن الجام الجديد

ثم أُغمي عليه ساعة عند ذكر اللوزينج. فلما أفاق رفع رأسه وقال:

وتــنــقــلــنَّ عــلى الــمــوا ئــد فــعــل شــيــطــان مــريــد
وإذا انــتــقــلت عــبــثــت بــالــ ـكــعــك الــمــجــفــف والــقــديــد
يــا رب أنــت رزقــتــنــي هــذا عــلى رغــم الــحــســود
واعــلــم بــأنــك إن قــتــلــ ـت نعمت يا عبد الحميد

وصايا الطفيليين نثرًا

مرض طفيلي فقال له غلامه: أوصني. قال: منَّ الله عليك بصحة الجسم وكثرة الأكل ودوام الشهوة، ومتّعك بضرس طحون ومعدة هضوم. إذا قعدت على

مائدة ولم تجد ماء فغصصت فضع يدك اليمنى فوق رأسك وحركها كأنك تسدي كمك فإنها تنزل بإذن الله. وإذا كان موضعك ضيقًا فقل للذي إلى جانبك: لعلي ضيقت عليك، فإنه يتأخر إلى خلف ويقول: لا والله موضعي واسع فيتسع عليك موضع رجل. ولا تصادفن من الطعام شيئًا فترفع يدك عنه وتقول لعلّي أصادف أطيب منه. وقال: زدني. قال: إذا وجدت خبزًا فيه قلّة فكل الحروف، فإذا كان كثيرًا فكل الأوساط، ولا تكثر شرب الماء وأنت تأكل فإنه يمنعك الأكل وهذا عين الحماقة.

وأوصى بنان رجلًا كان معه على المائدة فقال له: لا تخالفني على كل ما أقول لك. قال: فأُتينا بالهريسة فقال لي: كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثًا. ثم أُتينا بالقلايا اليابسة فقال لي: لا تأكل إلا لقمة أو لقمتين ولا تكثر. ثم أُتينا بالبقلية فقال لي: كل لقمة أو لقمتين. ثم أُتينا بالشواء فقال لي: لا تأكل منه وبَقِّ نفسك فإنا في كل يوم نصيب الشواء بدانق يقوم مقام هذا. ثم أُتينا بالفالوذج وكان كثيرًا شبيهًا بالصومعة فقال لي: ائت من تحت حتى ينهار، ففعلت. فقال: كُل وأكثر فإنك لا ترى هذا في كل يوم. ثم أُتينا باللوزينج فقال لي: أَزْوِخْ وثلّث فإن مُتَّ في ذا مُتَّ شهيدًا. ثم أُتينا بطبق عليه دجاج مسمن مشوي فأكل أكل اثنين أو ثلاثة وقال لي: كل ولا تقصّر فإن قيمة هذه ثلاثة دنانير ولا تأكل إلا ما له قيمة.

هذا يدل على أنهم كانوا يستعملون في المائدة مثل ما يستعمله الأتراك والإفرنج اليوم من المجيء بالألوان واحدًا بعد واحد.

قال بعض الطفيليين: إذا كنت على مائدة فلا تتكلمن في حال أكلك، وإن اضطررت إلى الجواب فلا تجب إلا بنعم فإنها مضغة.

أوصى بنان رجلًا فقال: إذا دعيت إلى مائدة انشاء الله فإياك أن تتأخر إلى آخر الوقت وتقول: الساعة أذهب، وإلى ساعة وايش فاتني؟ وبعد ما جاء أحد، ولِمَ أكون أنا أول الناس؟ فهذا فعال الحمقى القليلي الحزم. فإذا دعيت فاستخر الله وكن من السبق. واعلم أنه ليس يجيء في أول الأوقات إلا جلّة الناس وسراتهم، فقعودك مع هؤلاء فائدة تسمع كل حديث حسن وخبر ظريف وأنت واسع الموضع قاعد على أول مائدة، واعلم يا أخي أن آخر مائدة يضيق عليهم الطعام ويقل، ولا يقدر الرجل أن يأكل من اللون أكثر من لقمة لقلّته وكثرة الأيدي

عليه. فموضعك أضيف من جوفك. فإذا قال لهم صاحب الوليمة قوموا، سارعوا إلى الخوان فانبسطوا في ميدان المضغ وألزقوا الأكتاف بالأكتاف كأنهم بنيان مرصوص، يأكلون ميمنة وميسرة وقلبًا، وتسمع لهم في حلوقهم معمعة. وإنه لا يقعد على آخر مائدة إلا ضعفاء الجيران ومساكين المحلة والخدام. يقدِّم الجدي أضلاعًا بلا لحم، وحوله خس وهندبًا كأنه كوخ ناطور وقد وقع خشبه وبقي القصب قائمًا. وإنما شرحت لك لتفهم ونصحتك غاية النصيحة وبيّنت لك ما بيَّن سفيان الثوري في جامعة، متعك الله بسعة الصدر، وطيب الأكل، والصبر على المضغ، إنها دعوة مغفول عنها.

ما جاء في الضيف الذي يطيل المقام

فإنه في معنى الطفيلي.

قال المبرد: ضاف رجل قومًا، فطال مقامه، فكرهوه، فقال الرجل لامرأته: كيف لنا بعلم مقدار مقامه؟ قالت: أَلْقِ بيننا شرًّا حتى نتحاكم إليه. ففعلا. فقالت للضيف: بالذي يبارك لك في غدوك غدًا أَيُّنا الظالم؟ فقال: والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهرًا ما أعلم.

نزل بعض أهل البصرة على مديني، فأطال المقام، فقال المديني لامرأته: إذا كان غدًا فإني أقول لضيفنا: كم ذراعًا تقفز؟ فأقفز أنا من العتبة إلى الباب. فإذا قفز الضيف أغلقي الباب خلفه. فلما كان من الغد قال له المديني: كيف قفزك يا أبا فلان؟ قال: جيد فوثب المديني من العتبة إلى خارج الدار أذرعًا وقال له: ثِبْ. فوثب إلى داخل الدار ذراعين. فقال: أنا وثبت إلى خارج الدار أذرعًا وأنت تثب إلى داخل الدار ذراعين؟ قال: ذراعين إلى داخل خير من أربعة إلى برّا.

ضاف رجل قومًا في الشتاء فأطال المقام. وكان إذا أرادوا كنس البيت يجلس على الخشب الذي يداس به البيدر. فبينا هو جالس عليه يومًا إذ جعل يبكي فسألوه عن سبب بكائه فقال: تذكرت أنه إذا جاء الصيف وأخرجتم هذا الخشب لدياس البيدر فعلى أي شيء أجلس.

ضاف رجل قومًا فأطال المقام فتبرموا به فقال الرجل لامرأته: إذا وضعت له الطعام، فكلما أكل رغيفًا قولي: قتل فارس في المعركة. ففعلت ذلك. وفطن لها

الضيف فجعل يأخذ عدة أرغفة ويأكل منها جميعًا فقالت المرأة: قد حصلت معركة عنيفة لم يعرف فيها القاتل من المقتول.

ومن أخبار الطفيليين ونوادرهم

قيل لطفيلي: ويلك! أتأكل حرامًا؟ قال: ما أكلت قط إلا حلالًا، لأني إذا دخلت أقصد باب النساء فيقولون: هٰهنا هٰهنا، فهذه دعوة.

رأى طفيلي جماعة ذاهبين، فظن أنهم يذهبون إلى وليمة، فدخل معهم، إذا هم قد طلبهم السلطان في جناية. فلما دخلوا عليه أمر بضربهم فضربوا، فلما وصلت النوبة إلى الطفيلي قال للجلاد: اضربني على بطني فلولاها لم أصل إلى هذه الحال. فسُئل عن قصته فأخبرهم أنه ليس من هؤلاء الجانين وإنما رآهم مجتمعين فظن أنهم ذاهبون إلى دعوة فدخل معهم. فبحثوا عن أمره فوجدوه صادقًا فأطلقوه.

اجتمع قوم من الطفيليين فأرادوا وليمة فقال رئيسهم: اللهم لا تجعل البواب لكّازًا في الصدور دفّاعًا في الظهور طرّاحًا للغلانس، هَبْ لنا رأفته وبشره، وسهل لنا إذنه. فلما دخلوا تلقاهم الخباز فقال رئيسهم: غرة مباركة موصول بها الخصب معدوم معها الجدب. فلما جلسوا على الخوان قال لأصحابه: افتحوا أفواهكم، وأقيموا أعناقكم، وأجيدوا اللف، وأشرعوا الأكف، ولا تمضعوا مضغ المتعللين، الشباع المتخمين، واذكروا سوء المنقلب، وخيبة المضطرب.

قال بعض الطفيليين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٦٨] هو الأكل من الحاصل. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٣] هم الذين يردون ولا يأكلون وغيرهم يأكل. وقال آخر: هم الذين لا سكاكين معهم في أيام البطيخ. وقال بعضهم في وصية الخضر لموسى: «ولا تكن مشّاء في غير حاجة» قال: لا تمش إلى موضع لا تمضغ فيه شيئًا.

صحب طفيلي رجلًا في سفر فقال له الرجل: امضِ فاشتر لنا لحمًا. قال: لا والله ما أقدر. فمضى هو فاشترى، ثم قال: قم فاطبخ. قال: لا أحسن. فطبخ هو ثم قال: ثم فاثرد. قال: أنا والله كسلان، فثرد الرجل ثم قال: ثم فاغرف. قال: أخشى أن ينقلب القدر على ثيابي، فغرف هو ثم قال: قم الآن فكُلْ. قال الطفيلي: قد والله استحييت من كثرة خلافي عليك، وجعل يأكل.

دخل طفيلي منزلًا فقال له صاحب المنزل: مَن أنت؟ قال: أنا الذي لم أُحوجك إلى رسول، وأنشد:

سواء عليهم قدموا أو تأخروا   أجيء مع الطبَّاخ ساعة يغرف

دخل طفيلي على قوم يأكلون فقال: ما تأكلون؟ فقالوا من بغضه: سُمًّا، فمدَّ يده وقال: لا خير في العيش بعدكم.

دخل طفيلي في دعوة قبطي فقال له: مَن أرسل إليك؟ فأنشأ يقول:

أزوركم لا أكافيكم بجفونكم   إن المحب إذا لم يُزَرْ زارا

فقال له القبطي: زُرْ زار، لا ندري مَن هو. اخرج من بيتي.

من أخبار ابن دراج الطفيلي

كان ابن دراج الطفيلي من أهل حران، قدم بغداد، فمرّ بباب قوم عندهم وليمة فدخل فإذا صاحب الدار قد وضع سلّمًا، فكلما رأى إنسانًا لا يعرفه قال: اصعد يا أبي. قال ابن دراج: فصعدت إلى غرفة مفروشة حتى وافينا فيها ثلاثة عشر طفيليًا. ثم رفع السلّم، ووضعت الموائد، فبقي أصحابي متحيرين وقالوا: ما مرّ بنا مثل هذا قط. فقلت: أيش صناعتكم؟ فقالوا: التطفيل. قلت: أنا أحتال لكم حتى تنزلوا وتأكلوا. فأشرفت على صاحب الدار والناس يأكلون فقلت: أيما أحب إليك تصعد إلينا بخوان كبير نأكل وننزل أو أرمي بنفسي على رأسي فيخرج من دارك قتيل ويصير عرسك مأتمًا؟ وجعلتأجر سراويلي كأني أريد أن أعدو وأرمي بنفسي فقال: اصبر ويلك لا تفعل. وقال: هذا مجنون. فأصعدوا إلينا خوانًا فأكلنا ونزلنا.

ومن أخبار بنان الطفيلي مضافًا لما مرّ

قيل لبنان الطفيلي: ما تحفظ من القرآن؟ قال: آية واحدة ﴿قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: الآية ٦٢] قيل: فمن الشعر؟ قال بيتًا واحدًا:

نزوركم لا نكافيكم بجفوتكم   إن المحب إذا لم يستزر زارا

وسمع بنان رجلًا يقول: إن الدجال يخرج في سنة قحط، معه أنواع المأكولات. فقال: هذا عافاك الله رجل يستحق أن يُسمع له ويُطاع.

ومن أخبار أشعب

قال أشعب يومًا للصبيان: إن في بيت فلان وليمة فاذهبوا إليه. فلما ذهبوا قال في نفسه: لعله يكون هناك وليمة، فذهب خلفهم.

كان قوم في دعوة يأكلون سمكًا فاستأذن عليهم أشعب فوضعوا الحيتان الكبيرة في قصعة في ناحية البيت وأبقوا الصغار وأذنوا له. فقالوا: كيف رأيك في الحيتان؟ قال: إني عليها لحنق لأن أبي مات في البحر وأكلته الحيتان. قالوا: فدونك، خذ بثأر أبيك. فأخذ سمكة صغيرة ووضعها عند أذنه، وقد رأى القصعة دمًا فيها، فقال: أتدرون ما تقول هذه السمكة؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول إنها لم تحضر موت أبي لأن سنها صغير، ولكن قالت لي عليك بالكبار التي في زاوية البيت فهي أدركت أباك وأكلته.

ومن نوادر بخلاء الجاحظ وأخبارهم المستطرفة:

في معاهد التنصيص، قال دعبل: كنا يومًا عند سهل بن هارون الكاتب البليغ، وكان شديد البخل، فأطلنا الحديث، واضطره الجوع إلى أن دعا بغداء له. فأُتي بقصعة فيها ديك هرم لا تخرقه سكين ولا يؤثر فيه ضرس. فأخذ كسرة خبز فخاض بها مرقته وقلب جميع ما في القصعة ففقد الرأس، فبقي مطرقًا ساعة ثم رفع رأسه وقال للطباخ: أين الرأس؟ فقال: رميت به. فقال: ولِمَ؟ قال: ظننتك لا تأكله. قال: بئس ما ظننت؛ والله إني لأمقت مَن يرمي برجليه فكيف مَن يرمي برأسه. والرأس رئيس، وفيه الحواس الأربع، ومنه يصيح، ولولا صوته لما فضل، وفيه عرفه الذي يتبرك به، وفيه عيناه اللتان يضرب بهما المثل فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكليتين، ولم ير عظم قط أهش من عظم رأسه. أما علمت أنه خيرٌ من طرف الجناح ومن الساق ومن العنق؟ فإن كان قد بلغ من نبلك أنك لا تأكله فانظر أين هو. قال: لا أدري والله أين هو، رميت به. قال: لكني أدري أين هو، رميت به في بطنك، فالله حسيبك!

قال رجل يومًا لسهل بن هارون: هبني ما لا مرزأة عليك فيه، قال: وما ذاك يا ابن أخي؟ قال: درهم واحد. قال: لقد هوَّنت الدرهم وهو طابع الله في أرضه الذي لا يعصى. والدرهم ويحك عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف ديّة المسلم. ألا ترى يا ابن أخي إلى أين انتهاء الدرهم الذي هوَّنته؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم؟

زعموا أن أهل مرو إذا ترافقوا واشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ، وشك كل إنسان نصيبه في خيط أو خوصة وعلمه بعلاقة، ثم وضعوه في القدر، ثم قسموا المرق. فإن أعادوا المشاركة أعادوا تلك الخيوط لأنها تشربت الدسم.

رُؤِيَ رجلان من أهل تستر يأكلان، بيد كل منهما رغيف، وأمامهما إناء فيه مخيض، فيأخذ أحدهما منه ملعقة ويشربها ويأخذ الآخر ملعقتين. فسُئلا عن ذلك، فقالا: إن هذا دفع فلسين من ثمن المخيض فهو يأخذ منه ملعقتين وهذا دفع فلسًا واحدًا من ثمنه فهو يأخذ منه ملعقة واحدة.

يقال إن ناسًا من المراوزة إذا لبسوا الخفاف في الستة الأشهر التي لا ينزعون فيها خفافهم يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكونوا كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة أشهر.

دخل رجل على آخر وإذا المائدة موضوعة والقوم قد فرغوا من الأكل، فمد يده ليأكل فقال له صاحب المنزل: أجهز على الجرحى ولا تتعرّض للأصحّاء، وكل مما أكل منه ولا تتعرض لما لم يؤكل منه من دجاجة أو رغيف أو إناء.

طفيلي فقيه

وحكى المبرد قال: كان بالبصرة طفيلي مشهور، وكان ذا أدب، فمرّ على قوم عندهم وليمة، فاقتحم عليهم، وأخذ مجلسه مع مَن دعي، فأنكره صاحب المنزل، فقالوا له: لو تأنيت أو صبرت يا هذا حتى يؤذن لك، لكان أحسن لأدبك وأجل لمروءتك! فقال: إنما اتخذت البيوت ليدخل فيها، ووضعت الموائد ليؤكل عليها، والحشمة قطيعة واطّراحها صِلَة، وقد جاء في بعض الآثار: صِلْ مَن قطعك وأحسنْ إلى مَن أساء إليك!

شحّ ابن الزبير

أظهر عبد الله بن الزبير الزهد في الدنيا مع الحرص على الخلافة، وقال: إنما أنا بطني شبر، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا؟ وأنا العائذ بالكعبة والمستجير بالرد ـ وكثر أذيته لبني هاشم مع شحه بالدنيا على سائر الناس. ففي ذلك يقول أبو وجزة مولى الزبير:

إن الموالي أمست وهي عاتبة على الحليفة تشكو الجوع والحَرَبا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا أي الملوك على ما حولنا غلبا

وفيه يقول بعد مفارقته إياه:

ما زال في سورة الأعراف يقرؤها حتى فؤاديَ مثل الخزّ في اللّين
لو كان بطنك سبرًا قد شبعت وقد أفضلت فضلًا كثيرًا للمساكين
أن إمرءًا كنتُ مولاه فضيّعني يرجو الفلاح لعمري حقّ مغبون

وفيه يقول أيضًا:

فيا راكبًا إمّا عرضت فبلّغنْ كبر بني العوام إن قيل مَن تعني
تخبّرُ مَن لاقيت أنك عائذٌ وتكثر قتلًا بين زمزم والركن

ويقول الضحاك بن فيروز الديلمي:

تخبّرنا أن سوف تكفيك قبضة كما قضمت نار العض حطب السور
فلو كنت تجزي إذ تبيت بنعمة قريبًا لردتك العطوف على العمر

وكان يزيد سرح جيشًا إلى المدينة لحرب ابن الزبير، عليه عمر بن الزبير أخوه، فلما تصادم الجمعان انهزم عمر ورجاله، فظفر به أخوه عبد الله بن الزبير، فأقامه للناس بباب المسجد الحرام مجردًا، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [النساء: الآية ٣٧]. وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والشحّ، فإن الشحَّ أهلك من كان قبلكم» وقال ﷺ: «البخل جامع لمساوىء القلوب، وهو زمام يقاد به إلى كلّ سوء».

كان خالد بن صفوان يقول للدرهم إذا دخل عليه: «يا عيار، كم تعير، وكم تطوف وتطير، لأطيلنّ حبسك» ثم يطرحه في الصندوق ويُقفل عليه. قيل له: لم لا تنفق ومالك عريض؟ قال: الدهر أعرض منه.

وأنشد بعضهم:

وهبني جمعت المال ثم خزنتهُ وحانت وفاتي هل أُزاد به عمرا
إذا خزن المال البخيل فإنه سيورثه غمًّا ويعقبه وزرا

واستأذن حنظلة على صديق بخيل فقيل: هو محموم، فقال: كلوا بين يديه حتى يعرق.

قيل لبخيل: مَن أشجع الناس؟ قال: مَن سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشقّ مرارته.

وقال الحمدوني:

رأيت أبا زرارة قال يومًا ... لحاجبه وفي يده الحسامُ
لئن وُضِعَ الخوان ولاح شخص ... لأختطفنَّ رأسك والسلامُ
فقال سوى أبيك فذاك شيخٌ ... بغيضٌ ليس يردعه كلامُ
فقام وقال من حنقٍ إليه ... ببيتٍ لم يرد فيه القيامُ
أبي وابنا أبي والكلب عندي ... بمنزلةٍ إذا حضر الطعامُ
إذا حضر الطعام فلا حقوقٌ ... عليَّ لوالديَّ ولا ذمامُ
فما في الأرض أقبح من خوانٍ ... عليه الخبز يحضره الزحامُ

وأنشد الجاحظ لأبي الشمقمق:

ممَّن تعلَّمتَ هذا ... أن لا تجود بشيء
أما مررت بعبدٍ ... لعبد حاتم طيء

ومما قالته الشعراء في البخلاء وطعامهم ومن أهجي ما قيل فيهم قول جرير في بني تغلب:

والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِرى ... حكَّ اَسْتَهُ وتمثَّلَ الأمثالا

وأبلغ ما قيل في البخل قول ابن الرومي:

يُقتِّر عيسى على نفسهِ ... وليس بباقٍ ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفَّسَ من منخرٍ واحد

وكان أبو هريرة يديم أكل الهريسة، وكان يأكل على سماط معاوية، ويصلّي وراء علي، ويجلس وحده. فسُئل عن ذلك فقال:

طعام معاوية أدسم، والصلاة خلف عليّ أفضل وأعلم، والجلوس وحدي أسلم.

قال دعبل:

استبقْ وُدَّ أبي المقا ... تل حين تأكل من طعامه

سيَّان كسرُ رغيفه أو كسر عظم من عظامه
وتراه من خوف النز يل به يروَّع في منامه

دخل ابن قرعة يومًا على عزِّ الدولة، وبين يديه طبق فيه موز، فتأخر في دعوته، فقال: ما بال مولانا ليس يدعوني إلى الفوز؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه. فقال: ما أحسن لونه، فيه سبائك ذهبية، كأنها غشيت زبدًا وعسلًا، أطيب من التمر كأنه مخُّ الشحم، سهل المقشر، ليّن المكسر، عذب المطعم الطعوم، سلس في الحلقوم، ثم مدَّ يده فأكل.

قال أبو الهلال العسكري:

خُبز الأمير عشيقُهُ يغدو عليه يلاعبُهْ
وإذا بدا لجليسهِ أفضى إليه يعاتبُه
وتحوطَهُ حراسُهُ وتذُبُّ عنه كتائبُه
فالزور يصفعُ عنده والضيِّفُ ينتفُ شاربه

قال أبو نواس في إسماعيل بن نوبخت بعد أن نصب إسماعيل في صحن داره طارمة وأقام فيها أربعين يومًا ومعه جماعة ـ منهم أبو نواس ـ فبلغت نفقته أربعين ألف درهم.

ثم قال بعد ذلك:

خبز إسماعيل كالوشي إذا ما شُقَّ يُرفا
عجبًا من أثر الضعة فيه كيف تخفى

وقال ابن الرومي:

بخيلٌ يصوِّمُ أضيافهُ ويبخل عنهم بأجر الصيام
يدسُّ الغلام فيوليهُمُ هوانا فيشتم مولى الغلام
فهم مفطرون وهم صائمون وما يطعمون وهم في أثام
فيحتال لأن يفطرون على رفث القول دون الكلام

ولجرير أيضًا في بني تغلب وهو وصف دقيق:

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم وأستوثقوا من رتاج الباب والدار

قومٌ إذا استنبح الضيفان كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار
فتمنع البول شحًا أن تجود به وما تبول لهم إلّا بمقدار
والخبز كالعنبر المفقود عندهم والقمح خمسون أردبًا بدينار

وقال بعضهم:

أتانا بَخِيلٌ بخبزٍ له كمثل الدراهم في رقته
إذا ما تنفّس حول الخوان تطاير في البيت من خفّته

وقال أبو تمام وأجاد:

فصدق إيمانه إن قال مجتهدًا لا والرغيف فذاك البرُّ من قسمه
فإن هممت به فاعبث بخبزته فإن موقعها من لحمه ودمه
قد كان يعجبني لو أن غيرته على جرادقه كانت على حرمه

وقال آخر:

خليليَّ من كعب أعينا أخاكما على دهره إن الكريم معينُ
ولا تبخلا بخل ابن قرعة إنه مخافة أن يرجى نداء حزين
إذا جئته في حاجته سدَّ بابه فلم تلقهُ إلّا وأنت كمينُ

وقال آخر:

يا قائمًا في داره قاعدًا من غير معنى لا ولا فائدة
قد مات أضيافك من جوعهم فاقرأ عليهم سورة المائدة

وقال ابن أبي حازم:

وقالوا قد مدحت فتى كريمًا فقلت وكيف لي بفتًى كريم
بلوت ومرَّ بي خمسون عامًا وحسبك بالمجرب من عليم
فلا أحدٌ يُعدُّ ليوم خيرٍ ولا أحدٌ يجود على عديم

ومن أجود ما قيل في البخل في معرض الاعتبار:

أرى قبر نحّام بخيل بماله كقبر غوِّي في البطالةِ مُفْسِدِ
أرى الموتُ يعتام الكريم ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدِّدِ
لعمرك إنَّ الموت ما أخطأ الفتى لكالطِّوَلِ المرخيِّ وثنياه باليدِ

قيل لبعض الحكماء: مَن أجودُ الناس؟ قال: مَن جاد من قلَّة ـ وصان وجه السائل عن المذلَّة.

وقال حماد عجرد:

أوْرقْ بخيرٍ تؤَمَّل للجزيل فما ... تُرْجى الثمارُ إذا لم يورِقِ العودُ
إن الكريم ليُخفي عنك عسرتهُ ... حتى تراه غنيًا وهو مجهودُ
بُثَّ النَّوال ولا تمنعك قلَّتُهُ ... فكُلُّ ما سدَّ فقرًا فهو محمودُ
وللبخيل على أمواله عِلَلٌ ... رزقُ العيون عليها أوجهٌ سودُ

قال شبيب بن شبَّة: إني لأعرف أمرًا لا يتلاقى به اثنان إلا وجب النَّجح بينهما. قيل له: وما ذاك؟ قال: العقل؛ فإن العاقل لا يسأل ما لا يُمكن، ولا يُردُّ عمَّا يمكن.

ودخل محمد بن واسع على بعض الأمراء فقال: أتيتك في حاجة، فإن شئت قضيتَها وكنا كريمين، وإن شئت لم تقضها وكنا لئيمين. أراد: إن قضيتها كنتَ أنت كريمًا بقضائها وكنت أنا كريمًا بسؤالك إياها، لأني وضعت الطلبة في موضعها. فإن لم تقضها كنت أنت لئيمًا بمنعك وكنت أنا لئيمًا بسوء اختياري لك.

ودخل أبو حازم الأعرج على بعض أهل السلطان فقال: أتيتكَ في حاجة رفعتها قبلك إلى الله، فإن يأذن الله في قضائها قضيتها وحمدناك، وإن لم يأذن في قضائها لم تقضها وعذرناك.

دخل سوار القاضي على عبد الله بن طاهر صاحب خرسان فقال: أصلح الله الأمير:

لنا حاجةٌ والعذرُ فيها مقدَّمٌ ... خفيفٌ معنَّاها مضاعفة الأجر
فإن تقضها فالحمد لله وحده ... وإن عاق مقدور ففي أوسع العُذْرِ

قال له: ما حاجتك أبا عبد الله؟ قال: كتابٌ لي: إن رأى الأمير أكرمه الله أن يُنفذه في خاصته، كتب إلى موسى بن عبد الملك في تعجيل أرزاقي. قال: أوَغير ذلك أبا عَبد الله؟ نعجلها لك من مالك، وإذا وددت كنت مخيَّرًا بين أن تأخذ أو ترد. فأنشد سوار يقول:

فبابُك أيمنُ أبوابهم ... ودارك مأخولةٌ عامرة
وكفك حين ترى المجتد ... ين أندى من الليلة الماطرة

قال أبو العتاهيــة:

تـعـال الله يــا سـلـم بـن عـمـرو أذلّ الـحـرصُ أعـنـاق الـرجـال
هـب الـدنـيـا تـقـاد إلـيـك عـفـوًا ألـيـس مـصـيـر ذلـك لـلـزوالِ؟

وقد ضمن البيت الأخير شهاب الدين الأبشيهي فقال:

أيا مَن عاش في الدنيا طويلًا وأفنى العمر في قيلٍ وقالِ
وأتعب نفسه فيما سيفنى وجمَّعَ من حرامٍ وحلالِ
هب الدنيا تقاد إليك عفوًا أليس مصير ذلك للزوال؟

ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن مَن ألهاه أمله أخزاه عمله. وقال عبد الصمد بن المعدل:

ولي أمل قطعت به الليالي أراني قد فنيت به وداما

وقال قس بن ساعدة:

وما قد تولى فهو لا شكَّ فائتٌ فهل ينفعني ليتني ولعلّني

وقال آخر:

الله أصدق والآمال كاذبةٌ وجُلُّ هذي المنى في الصدر وسواسُ

اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسُمعَ رسول الله يقول: «ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر. إن أسامة لطويل الأمل».

وقال أحدهم:

شطَّ المزار بسَعدى وانتهى الأملُ فلا خيالٌ، ولا رسم، ولا طلل
إلَّا رجاءٌ فما ندري أندركه أم يستمرُّ فيأتي دونه الأجل

قيل: مَن جرى في عنان أمله كان عاثرًا في أجله. ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان في قوله:

وذي حرص تراه يلمُّ وفرًا لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ فريسته ليأكلها سواه

ولقد أحسن مَن قال في الجناس الحقيقي:

إذا ما نازعتك النفس حرصًا   فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه   وعدّ فرزقُ يومك رزق أمسك

قيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلام، فقال له كعب: يا ابن سلام مَن أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به ـ قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه؟ قال: الطمع، وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس.

وقيل: إذا سألت كريمًا حاجة فدعه يفكر فإنه لا يفكر إلّا في خير. وإذا سألت لئيمًا حاجة فعاجله فإنه إن فكر عاد إلى طبعه.

قال أمية بن أبي الصلت:

عطاؤك زين لأمرىء إن حَبَوْتَهُ   بخيرٍ، وما كلُّ العطاء يزينُ
وليس بشينٍ لامرىء بذل وجهه   إليك كما بعض السؤال يشين

قال حاتم الطائي يخاطب زوجته:

أمَاوِيَّ إني لا أقول لسائل   إذا جاء يومًا حلَّ في مالي النَّذْرُ
أماويُّ ما يغني الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر
أماويُّ إن المال مالٌ بذلته   فأوَّلُه شكرٌ وآخره ذكرُ

وقال حاتم الطائي:

يرى البخيل سبيل المال واحدةً   إن الجواد يرى في ماله سُبُلا

قال شاعر يمدح الحكم بن حنطب ـ وكان من أجود الناس:

وكأن آدم حين حان وفاته   أوصاك وهو يجود بالحَوْباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم   فكفيت آدم غيلة الأبناءِ

حديث شريف: «السخي قريبٌ من الله، قريبٌ من الجنة، قريبٌ من الناس، بعيد عن النار».

دخل عتبة بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام على خالد بن عبد الله القسري بعد حجاب شديد، وكان عتبة رجلًا سخيًا، فقال له خالد يُعرِّض به: إن هٰهنا رجالًا يداينون في أموالهم، فإن فَنِيَتْ يداينون في أعراضهم! فعلم القرشي أنه يعرِّض به. فقال:

أصلح الله الأمير، إن رجالًا تكون أموالهم أكثر من مروءاتهم، فأولئك تبقى أموالهم؛ ورجالًا مروءاتهم أكثر من أموالهم، فإن نفدت أدانوا على سعة ما عند الله! فخجل خالد وقال: أما إنك منهم ما علمت.

كتب أحد الشعراء للحسن بن سهل (ذي الرياستين) يقول:

رأيتُ في النوم أني راكبٌ فرسًا ... ولي وصيفٌ وفي كفِّي دنانيرُ
فقال قومٌ لهم فهمٌ ومعرفةٌ ... رأيتُ خيرًا وللأحلام تعبيرُ
رؤياك فسِّرْ غدًا عند الأمير تجدْ ... تعبير ذاك وفي النوم التباشيرُ

فوقع في أسفل كتابه: «أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» وأطلق له ما التمسه.

وقال تعالى في ذَمّ الطمع: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: الآيتان ١، ٢]. ورُوِيَ أن النبيّ ﷺ حين قرأ ذلك قال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدّقت فأمضيت» ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخيل والأمل».

ومما جاء في الطمع وذمه: قال الإمام عليّ (ع): أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع. وقال أيضًا: ما الخمر صرفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

قال أحد الفلاسفة: العبيد ثلاث: عبد رقّ، وعبد شهوة، وعبد طمع. فمن أراد أن يعيش حرًّا مدى حياته فلا يُسكن قلبه الطمع.

وقيل: لما خلق الله آدم عليه السلام، عجن بطينته ثلاثة أشياء: الحرص، والطمع والحسد. فهي تجري في أولاده إلى يوم القيامة. فالعاقل يخفيها والجاهل يبديها. ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه.

وقال إسماعيل بن قطري القراطيسي:

حسبي بعلمي إن نفع ... ما الذُّلُّ إلَّا في الطمع
مَن راقب الله نزع ... عن سوءِ ما كان صنع
ما طار طيرٌ وارتفعْ ... إلَّا كما طار وقع

ومن البخلاء أربعة: الحطيئة، وحميد بن قرط، وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان.

حُكِيَ أن الحطيئة مرَّ به - ابن حمامة - وهو جالس بفناء بيته - فقال: السلام عليكم - قال: قلت: ما لا يُنكر - فقال: إني خرجت من أهلي بغير زاد - قال: ما ضمنت لأهلك قراك - قال: أفتأذن لي أن آتي بظلِّ بيتك أتفيأ به؟ قال: دونك الجبل؟ يفي عليك - قال: أنا ابن حمامة - قال: انصرف وكن ابن أي طائر شِئتَ.

وقيل: اعترضه رجل وهو يرعى الغنم، وكان بيد الحطيئة عصا فرفعها، وقال: عجراء من سلم، قال الرجل: إنما أنا ضيف. قال: للأضياف أعددتها.

من فلسفة حاتم الطائي في مَن يجمع المال ولا يتمتع به ويأتي الوارث فيأخذه:

ولا تستحين فيه فيسعد وارثٌ به حين تغشى أغبر الجوف مظلما
يُقسِّمهُ غنمًا ويشري كرامةً وقد صرتِ في خطٍّ من الأرض أعظُما
قليلًا به يحمدنَّك وارثٌ إذا نال مما كنت تجمع مغنما

أعرَابي في عُرْس(١)

قال الفضل بن العباس الهاشمي: كان ناهض بن ثُومة الكِلابي يفد على جَدِّي قُثَم، فيمدحه ويَصِلُه جدي وغيرُه، وكان بدوِيًا جافيًا كأنه من الحوش؛ إلا أنه طيّب الحديث.

حدّثه يومًا: أنهم انتجعوا ناحيةَ الشام فقصد صديقًا له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية؛ كان ينزل حلب وكان برًّا به.

قال: فمررت بقرية يقال لها قرية بكرِ بن عاصم الهلالي، فرأيت دُورًا مُتَباينة وخِصاصًا(٢) قد ضُمَّ بعضها إلى بعض، وإذا بها ناسٌ كثيرون مقبِلون ومدْبِرون، عليهم ثياب تَحْكي ألوان الزَّهر، فقلت في نفسي: هذا أَحَدُ العيدين: الأضحى أو الفطر، ثم ثاب إليّ ما عَزَب عن عقلي فقلت: خرجت من أهلي في بادية البَصْرة في صَفَر، وقد مضى العيدان قبل ذلك، فما هذا الذي أرى!

---

(١) الأغاني: ١٢ - ٣٣.
(٢) الخصاص: جمع خص، وهو شيء من القصب.

وبينا أنا واقف متعجب أتاني رجل، فأخذ بيدي فأدخلني دارًا قَوْراء[١]، وأدخلني منها بيتًا قد نُجِّدَتْ فيه فرش ومُهِّدت، وعليها شاب يَنال فرعُ شعره مَنْكِبَيه، والناس حوله سِماطان[٢]، فقلت في نفسي: هذا الأمير الذي حُكِيَ لنا جلوسُه، وجلوسُ الناس بين يديه. فقلت ـ وأنا ماثل بين يديه: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته فجذَبَ رجلٌ يدي وقال: اجلس، فإن هذا ليس بأمير. قلت: فَمَنْ هو؟ قال: عَروس[٣]. فقلت: واثكل أُمّاه! لَرُبَّ عروس رأيته بالبادية أهون على أهله من هَنَة[٤]!

فلم أنْشَبْ[٥] أن دخل رجالٌ يحملون آنات[٦] مُدَوَّرات، أمّا ما خفّ منها فيُحْمَل حَمْلًا، وأما ما كَبَر وثَقُل فيُدحرَج، فوُضع ذلك أمامنا، وتحلّق القوم عليه حَلَقًا، ثم أتينا بخرَق بيضٍ فأُلقِيَتْ بين أيدينا، فظننتها ثيابًا، وهممت أن أسأل القوم منها خِرقًا أُرَقِّعُ بِها قميصي، وذلك أني رأيت نَسْجًا متلاحِمًا، لا يبين له سَدًى ولا لُحْمَة[٧]؛ فلما بسطه القوم بين أيديهم إذا هو يتمزّقُ سريعًا، وإذا هو فيما زعموا صِنْفٌ من الخبز لا أعرفه.

ثم أُتِينا بطعام كثير بين حُلْوٍ وحامض، وحار وبارد، فأكثرتُ منه، وأنا لا أعلم ما في عَقِبه من التُّخَم والبَشَم، ثم أُتينا بشراب أحمر في شَنّ[٨]، فقلت: لا حاجة لي فيه فإني أخافُ أن يقتلني، وكان إلى جنبي رجل ناصح ـ أحسن الله جزاءه، فإنه كان ينصح لي من بين أهل المجلس ـ فقال: يا أعرابي؛ إنك قد أكثرت من الطعام، وإن شربت الماء هَما[٩] بطنُك، فلما ذكرت البطن تذكرت شيئًا أوصاني به أبي، والأشياخُ من أهلي؛ إذ قالوا: لا تزل حيًّا ما دام بطنك شديدًا، فإذا اختلف فأوص. فشربت من ذلك الشراب لأتداوى به، وجعلت أُكثر منه فلا أملّ شربه، فتداخلني من ذلك صلَف لا أعرفه من نفسي، وبكاء لا أعرف سببه، ولا عهد لي بمثله، واقتدار على أمر أظن معه أني لو أردتُ نيلَ السقف لبلغتُه،

---

(١) دار قوراء: واسعة. (٢) السماط: الصف.
(٣) العروس: الرجل والمرأة ما داما في أعراسهما، وهم عرس، وهن عرائس.
(٤) الهنة: كناية عن خسيس الشيء.
(٥) لم أنشب: لم ألبث، قال في اللسان: وحقيقته لم يتعلق بشيء غيره، ولا اشتغل بسواه.
(٦) آنات: جمع غير قياسي لإناء.
(٧) السدى من خيوط الثوب: ما مد منها طولًا، واللُحمة: ما مد منها عرضًا.
(٨) الشن: القربة الخلق الصغيرة. (٩) هما: سال.

ولو شَأوتُ الأسد لقتلته؛ وجعلت ألتفت إلى الرجل الناصح، فتحدثني نفسي بهتْم أسنانه، وهشم أنفه، وأهم أحيانًا أن أشْتِمه.

فبينا نحن كذلك إذ هجم علينا شياطينُ أربعة: أحدهم قد علّق في عنقه جَعْبَةً فارسية، مفتّحة الطرفين، دقيقة الوسط، قد شُبكت بخيوط، وأُلبست قطعة فَرْو، كأنهم يخافون عليها القرّ. ثم بدر الثاني، فاستخرج من كُمه هنَةً سوداءَ فوضعها في فيّه، وأخرج صوتًا لم أسمع ـ وبيتِ الله ـ أعجب منه، فاستتم بها أمرهم، ثم حرّك أصابعه فيها فأخرج منها أصواتًا ليس كما بدأ، ولكنه أتى منها ـ لما حرك أصابعه ـ بصوت عجيب، متلائم متشاكل بعضه لبعض، كأنه ـ علم الله ـ ينطق به. ثم بدا ثالث له وَجهُ كَزّ[1] مقيت! عليه قميص وسخ ومعه مرآتان، فجعل يصفّق بهما بيديه إحداهما على الأخرى، فخالط بصوته ما يفعله الرجلان. ثم بدا رابع عليه قميص، وسراويل قصيرة، وخُفّان أجذمان، لا ساق لواحد منهما، فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب، ثم تلبّط[2] على الأرض، فقلت: معتوه ورب الكعبة! ثم ما برح مكانه حتى كان أغْبَط القوم عندي، ورأيت القوم يحذِفُونه[3] بالدراهم حَذْفًا منكرًا؛ ثم أرسل النساء إلينا: أن أَمتِعونا من لهوكم هذا؛ فبعثوا بهم، وجعلنا نسمع أصواتهم من بعد.

وكان معنا في البيت شاب لا آبه له، فَعَلت الأصواتُ بالثناء عليه والدعاء له، فخرج وجاء بخشبة عيناها في صدرها، فيها خيوط أربعة، فاستخرج من خلالها عودًا، فوضعه خلْف أذنه، ثم عرَك آذانها، وحركها بخشبة في يده، فنطقت ورب الكعبة! وإذا هي أحسنُ قَيْنة[4] رأيتها قطّ! فأطربني حتى استخفّني من مجلسي، فوثبت وجلست بين يديه، وقلت: بأبي أنت وأمي! ما هذه الدّابة؟ فلست أعرفها للأعراب، وما أراها خُلقت إلا قريبًا! فقال: هذا البَرْبط[5]. فقلت: بأبي أنت وأمي! فما هذا الخيط الأسفل؟ قال: الزير[6]. قلت: فالذي يليه؟ قال: المثنى[7]. قلت: فالثالث؟ قال: المُثَلّث[8]. قلت:

---

(١) وجه كز: قبيح.
(٢) تلبط: اضطجع وتمرّغ.
(٣) يحذفونه: يرمونه.
(٤) القينة: الأمة المغنية.
(٥) البربط: العود معرب (بربط) ـ بكسر الراء ـ وهو آلة من المعازف.
(٦) الزير: من أوتاد العود.
(٧) المثني: الذي يلي الزير.
(٨) المثلث: الذي يلي المثنى.

فالأعلى؟ قال: البَمّ[١]. فقلت: آمنت بالله أولًا، وبك ثانيًا، وبالبربط ثالثًا، وبالبَم رابعًا.

قال الفضل: فضحك أبي والله حتى سقط؛ وجعل ناهض يَعْجَبُ من ضحكه! ثم كان بعد ذلك يستعيده هذا الحديث؛ ويُطرِف به إخوانه فيضحكون منه.

أطيَب الطَّعَام[٢]

صنعَ عبدُ الملك بن مَرْوان طعامًا فأكْثَر وأطاب[٣]، ودعا إليه الناسَ فأكلوا. فقال بعضهم: ما أطيبَ هذا الطعام! ما نرى أن أحدًا رأى أكثر منه ولا أكل أطيبَ منه. فقال أعرابي من ناحية القوم: أمّا أكثر فلا، وأما أطيبٌ فقد والله أكلتُ أطيبَ منه. فطفقُوا يضحكون من قوله.

فأشار إليه عبد الملك فأُدْنيَ منه؛ فقال: ما أنتَ بمُحِقٍّ فيما تقول إلا أنْ تُخبرني بما يَبِينُ به صدقُك. فقال: نعم يا أمير المؤمنين؛ بينا أنا بهَجرَ[٤] في بَرْثٍ[٥] أحمر في أقصى حَجْر[٦] إذ تُوُفِّي أبي، وترك كَلًّا[٧] وعيالًا، وكان له نخل، فكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون إلى مثلها، كأن تمرها أخْفافُ الرِّباع[٨]، لم يُرَ تمرٌ قطُّ أغلظ ولا أصلَبُ ولا أصغرُ نَوًى ولا أحلَى حلاوةً منه.

وكانت تَطْرُقُها أتان وحشيّة قد أَلِفَتْها تأوي الليلَ تحتها، فكانت تُثَبِّتُ رجليها في أصلها، وترفعُ يديها، وتَعْطُو[٩] بفيها فلا تَتركُ فيها إلا النبيذ[١٠] والمتفرق؛ فأعْظَمني ذلك ووقع مني كلَّ موقع.

فانطلقتُ بقَوْسِي وأسهمي، وأنا أظنُّ أني أرجع من ساعتي؛ فمكثتُ يومًا وليلةً لا أراها، حتى إذا كان السَّحَر أقْبَلَتْ، فتهيّأتُ لها فرشقْتُها فأصَبْتُها،

---

(١) البم: الذي يلي المثلث، وهو أغلظ الأوتار.
(٢) الأغاني: ٨ ـ ٤٠.
(٣) أطاب الشيء: طيبه.
(٤) هجر: مدينة بالبحرين مشهورة بالتمر.
(٥) البرث: الأرض اللينة السهلة.
(٦) في أقصى حجر: أي في أبعد ناحية.
(٧) الكل: العيال والثقل.
(٨) الرباع: جمع ربع وهو الفصيل ينتج في الربيع.
(٩) تعطو: تتناول.
(١٠) النبيذ: المنبوذ.

وأجْهَزْت عليها، ثم عمَدتُ إلى سُرَّتها فاقْتَدَدْتُها، ثم عمَدتُ إلى حَطَب جَزْل فجمعته إلى رَضْف[١]، وعمَدتُ إلى زَنْدِي فقدحتُ، وأَضرمْتُ النار في ذلك الحطب، وألقيْتُ سُرَّتها فيه، وأدركني نومُ الشباب فلم يُوقطني إلّا حرُّ الشمس في ظهري، فانطلقتُ إليها فكشفتها وألقيتُ ما عليها من قذًى وسواد ورماد، ثم قلبت منها مثل المُلَاءة البيضاء، فألقيتُ عليها من رُطَب تلك النخلة المجزّعة[٢] والمنصفة، فسمعتُ لها أطيطًا[٣] كتداعي عامر وغَطَفَان، ثم أقبلتُ أتناول الشَّحْمَة واللحمة فأضعها بين التمرين وأهوى بها إلى فمي، فما أحلف إني ما أكلتُ طعامًا مثله قط!

فقال له عبد الملك: لقد أكلتَ طعامًا طيبًا فمن أنت؟ قال: أنا رجلٌ جانَبَتْني عَنْعَنَةُ[٤] تميم وأَسَد، وكشكشةُ[٥] ربيعة، وحُوشيُّ[٦] أهل اليمن - وإن كنتُ منهم. فقال: من أيهم أنت؟ قال: من أخوالك من عُذْرَة. قال: أولئك فصحاءُ الناس؛ فهل لك علمٌ بالشعر؟ قال: سَلْني عمّا بدا لك يا أمير المؤمنين. قال: أيّ بيت قالته العرب أمدح؟ قال: قول جرير:

ألستُم خيرَ مَن رَكِبَ المطايَا ... وأندى العالمين بطون راحِ[٧]

وكان جرير في القوم؛ فرفع رأسه وتطاول لها. ثم قال: فأي بيت قالته العرب أفخر؟ قال: قول جرير:

إذا غضبَتْ عليكَ بنو تميم ... حَسِبْتَ الناسَ كلهمُ غضَابَا

فتحرَّك لها جرير. ثم قال له: فأيّ بيت أهجي؟ قال: قول جرير:

فغُضَّ الطرف إنَّكَ من نُمَيْرٍ ... فلا كعبًا بلغْتَ ولا كِلَابَا

فاستشرف لها جرير. ثم قال: فأي بيت أَغْزَل؟ قال: قول جرير:

إن العيونَ التي في طَرْفها مَرَضٌ ... قتَلْنَنَا ثم لم يُحْيينَ قَتْلَانَا

---

(١) الرضف: الحجارة المحماة بالشمس أو النار.
(٢) جزع البسر: إذا بلغ الإرطاب بعضه. ونصف البسر: إذا بلغ الإرطاب نصفه.
(٣) الأطيط: الصوت.
(٤) العنعنة: إبدال العين من الهمزة.
(٥) الكشكشة: اجعل الشين مكان الكاف.
(٦) الحوشى: الغامض.
(٧) راح: جمع راحة، وهي الكف.

فاهتَزّ جرير وطرب. ثم قال له: فأي بيت قالته العرب أحسن تشبيهًا! قال: قول جرير:

سَرَى نحوَهم ليلٌ كأن نجومَه قَنَاديلُ فيهن الذُّبَال[١] المفتَّلُ

فقال جرير: جائزتي للعُذْرى يا أمير المؤمنين. فقال له عبد الملك: له مثلُها من بيت المال، ولك جائزتُك يا جرير لا تُنتَقَصُ منها شيئًا. وكانت جائزةُ جرير أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكُسْوة. فخرج العُذْرِيّ وفي يده اليُمنى ثمانية آلاف درهم، وفي اليد اليسرى رِزْمَةُ ثياب!

طفَيْلي في حَضرةِ المَأمون[٢]

أمر المأمونُ أن يُحمل إليهِ عشرة من الزنادقة سُمُّوا له من أهل البصرة، فجُمعوا فأبصرهم طُفَيْلِيّ، فقال: ما اجتمعوا إلا لِصَنِيع، فدخل في وسطهم، ومضى بهم الموكلون، حتى انتهوا إلى زَوْرقٍ قد أعِدّ لَهم، قال الطُّفيلي: هي نزهةٌ، فدخل معهم الزورق، فلم يكن بأَسْرَع من أن يقيّدوا، وقُيّد معه الطفيلي.

ثم سِيرَ بهم إلى بغداد، فأُدْخلوا على المأمون، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلًا رجلًا؛ ويأمر بضَرْب أعناقهم، حتى وصل إلى الطفيلي، وقد اسْتَوْفى العِدّة، فقال للموكّلين: ما هذا؟ قالوا: والله ما ندري، غير أنّا وجدناه مع القوم، فجئْنَا به فقال له المأمون: ما قِصَّتُك ويلك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا أعرفُ من أقاويلهم شيئًا، وإنما أنا رجلٌ طفيلي، رأيتُهم مجتمعين، فظننتُ صَنِيعًا يُدْعَوْن إليه. فضحك المأمون، وقال: يؤدّب!

وكان إبراهيم بن المهدي قائمًا على رأس المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، هبْ لي أدبَه، وأحدّثك بحديثٍ عجيب عن نفسي، قال: قل يا إبراهيم.

قال: يا أمير المؤمنين، خرجْتُ من عندك يومًا؛ فطُفْتُ في سِكَك بغداد متطرّفًا، حتى انتهيت إلى موضع كذا، فشممت من قُتَارٍ[٣] أبازير قُدورٍ قدْ فاح؛ فتاقَتْ نفسي إليها، وإلى طيب ريحها، فوقَفْتُ إلى خَيّاط، فقلت له: لِمَنْ هذه

---

(١) الذبالة: الفتيلة التي توضع في القنديل، يوضع فيه الزيت ليستضاء به.
(٢) العقد الفريد: ٤ ـ ٢٣٧، نهاية الأرب: ٣ ـ ٣٣٢.
(٣) القتار: ريح القدر والشواء، والأبازير: التوابل.

الدار؟ فقال: لرجل من التجار. قلت: ما اسمه؟ قال: فلان ابن فلان، فرميتُ بطرْفي إلى الدار؛ فإذا شُبّاك به جارية ذات منظر حسن، فبُهِتّ ساعةً ثم أدْركني ذِهْني، فقلت للخياط: أهو ممن يشرب النبيذ؟ قال: نعم، وأحسب أنّ عنده اليوم دعوة، وهو لا يُنادم إلّا تُجّارًا مثلَه مَسْتورين.

فإني لكذلك، إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرْب، فقال لي الخياط: هؤلاء مُنادماه، فقلت: ما اسماهما وما كُناهما؟ فقال: فلان وفلان، فحرَّكتُ دابَّتي وداخلتهما، وقلت: جُعِلْتُ فِداكما، قد استَبْطأكُما أبو فلان، وسايرتُهما حتى بلغنا الباب، فأجلّاني وقدّماني؛ فدخلتُ ودخلا.

فلما رآني صاحب المنزل معهما لم يشكّ أني منهما؛ فَرَحَّبَ بي وأجلسني في أفضلِ المواضع، فجِيء يا أمير المؤمنين بمائدةٍ عليها خبزٌ نظيف، وأُتينا بتلك الألوان، فكان طعمها أطيَبَ من رِيحها، ثم رُفع الطعام، وجِيء بالوَضوء، ثم صِرْنا إلى مجلس المنادمة، وجعل صاحب المنزل يلطفُ بي؛ ويميلُ عليّ بالحديث؛ حتى إذا شَربنا أقْداحًا خرجتْ علينا جاريةٌ، كأنها بَدْر فأقبلتْ؛ وسلّمتْ غير خَجِلة، وثنيت لها وِسادة، فجلستْ عليها؛ وأُتي بالعودِ فَوُضِع في حِجْرِها؛ فجسَّته فاسْتَبَنْتُ حِذْقها في جَسِّها، ثم اندفعت تُغَنّي:

تـوهَّـمَـهَـا طَـرْفِـي فـأصـبـح خَـدُّهـا ... وفيه مكانُ الوَهْم من نظري أثْرُ
تـصَـافِـحُـهـا كَـفِّـي فَـتُـؤلِـمُ كَـفَّـهـا ... فمِنْ مَسِّ كَفِّي في أناملها عَقْرُ[1]

فهيّجتْ يا أمير المؤمنين بَلَابِلي، وطرِبتُ لِحُسْنِ شِعْرها، ثم اندفَعَت تغنّي:

أشرتُ إليـهـا هـل عـرفـتِ مـودَّتـي؟ ... فردّتْ بطَرْفِ العين: إني على العَهْدِ
فَحِدْتُ عن الإظْهَارِ عَمْدًا لسِرِّها ... وحَادَتْ عن الإظهار أيْضًا على عمْدِ

فصحتُ يا أمير المؤمنين، وجاءني من الطرب ما لم أَملِك نَفْسي معه، ثم اندفعت فغنّتْ الصوت الثالث:

أليس عـجـيـبًـا أنَّ بيتًـا يَـضُـمُّـنِـي ... وإيـاكِ لا نـخـلـو ولا نَـتـكَـلَّـمُ!
سِوَى أَعْيُنٍ تشكو الهوى بجفونها ... وتقطِيعِ أكبادٍ على النارِ تضْرَمُ
إشـارة أفـواهٍ وغَـمْـزِ حَـوَاجـبِ ... وتَـكـسـيـر أَجْـفَـانٍ وكـفّ تُـسَـلِّـمُ

---

(١) العقر: الجرح.

فحسدتُها والله يا أمير المؤمنين على حِذْقِها ومعرفتها بالغِناء، وإصابتها لمعنى الشعر، فقلت: بقِّي عليك يا جارية، فضربتْ بالعود على الأرض، وقالت: متى كنتُم تُحْضرون مجالسكم البُغَضاء؟ فندمتُ على ما كان منِّي، ورأيت القوم قد تغيّروا لي، فقلت: أما عندكم عودٌ غير هذا؟ قالوا: بلى، فأتيتُ بعود فأصلحتُ من شأنه ثم غنّيت:

مـا لِلْمَـنَـازِلِ لَا يُـجـبـنَ حَـزيـنَـا ... أصـمـمْـنَ أم قَـدُمَ الـبِـلَـى فَـبـلِـيـنـا؟

راحُـوا الـعَـشِـيَّـةَ رَوْحَـةً مـنـكـورة ... إن مُـتـنَ مُـتْـنـا أو حَـيِـينَ حَـيِـينَـا

فما اسْتَتْمَمْتُه يا أميرَ المؤمنين حتى قامتِ الجارية، فأكبَّت على رِجْلَيَّ تقبِّلُهما، وقالت: مَعْذِرةً يا سيدي، فوالله ما سمعتُ أحدًا يغنِّي هذا الصوت غِنَاءَك، وفعل مولاها وأهل المجلس كفعلها، وطرب القومُ واستحثّوا الشُّرْب فشربوا، ثم اندفعتُ أُغَنِّي:

أفِي الحقِّ أن تَمشي ولا تَذْكُرَنَّني ... وقد هَمَعَتْ عيناي من ذكرها الدَّما

إلى اللهِ أشكو بُخْلَها وسَمَاحَتِي ... لـهـا عَـسَلٌ مـني وتـبـذلُ عَـلْقَـمـا

فَرُدِّي مصَابَ القلبِ أنتِ قتلتِه ... ولا تتركيه ذاهلَ العقلِ مُغْرما

فطَرِب القومُ حتى خَرَجُوا من عقولهم، فأمسكتُ عنهم ساعةً حتى تراجعوا، ثم غنيت الثالث:

هذا مُحِبُّك مطرِيًّا على كَمَدِهْ ... عبري مدامعُه تَجْرِي على جسدهْ

لـه يـدٌ تـسـأل الـرحـمـٰنَ راحـتَـه ... مما به وَيدٌ أُخْرَى على كَبدِهْ

فجعلت الجاريةُ تصيحُ: هذا الغناء والله يا سيدي، لا ما كُنّا فيه منذ اليوم. وقال صاحب المنزل: يا سيدي؛ ذهبَ ما مضى من أيَّامي ضَيَاعًا، إذ كنتُ لا أعرفك، فمَن أنت؟ ولم يزل يُلِحُّ عليَّ حتى أخبرته الخبَرَ، فقام وقبَّل رأسي، وقال: وأنا أعجبُ أن يكون هذا الأدب إلا لملك! وإني جالس مع الخليفة ولا أشعُرُ، ثم سألني عن قِصَّتي، فأخبرته حتى بلغت إلى تلك الجارية التي رأيتها، فقال للجارية: قومي فقولي لفُلانة: تنزل، فلم تَزل تنزل جواريه واحدةً واحدة، فأنظر إلى كفّها ومعصمها، وأقول: ليست هذه! حتى قال: والله ما بقي غير أختي وأمي، والله لأنزلنَّهُما؛ فعجبتُ من سَعَةِ صدره، فقلت: جُعلتُ فداك! ابْدَأْ بالأخت قبل الأم، فعسى أن تكون هي.

فبرزت، فلما رأيت كفَّها ومِعْصَمها، قلت: هذه هي! فأمر غِلمانَه، فساروا إلى عشرة مشايخ من جلَّةِ جيرانه؛ فأقبل بهم، وأمر بِبَدْرتين فيهما عشرون ألف درهم؛ ثم قال للمشايخ: هذه أُخْتي فلانة، أشهدكم أني قد زوجتُها من سيدي إبراهيم بن المهدي؛ وأمْهَرتُها عنه عشرين ألف درهم، فرضيت وقبلت الزواج، فَدَفع إليها بَدْرة، وفرَّق الأخرى على المشايخ وصَرفَهم، ثم قال: يا سيدي، أُمهِّد بعض البيوت! فأحْشَمَني ما رأيت من كرمه، فقلت: أُحْضِرُ عَماريَّة[1] وأحملها إلى منزلي. فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتْبعها من الجهاز ما ضاقَتْ عنه بيوتُنا، فأولَدْتُها هذا القائم على رأس أمير المؤمنين - يشير إلى ولده.

فعجب المأمون من كرم الرجل، وألحقه في خاصة أهله، وأطلق الطفيلي، وأجازه.

رمَيتَ بهِ في بَطنِك[2]

قال دِعْبِل: أقمنا يومًا عند سَهْل بن هارون، فأطلْنَا الحديث حتى اضطرَّه الجوعُ إلى أن دَعا بغَدائه، فأُتِيَ بصَفْحَةٍ عُدْمُلِيَّة[3]، فيها مَرَقُ لحمِ ديك عاسٍ[4] هرم، ليس قبلها ولا بعدها غيرُها، لا تَحُزّ[5] فيه السكين، ولا تُؤَثِّرُ فيه الأضْرَاس.

فاطّلع في القَصعَةِ، وقلب بصره فيها؛ فأخذ قطعة خُبْز يابس؛ فقلَب بها جميعَ ما في الصَّفْحَةِ ففَقَدَ الرأس؛ فبقي مُطرِقًا ساعة، ثم رفع رأسه إلى الغُلام، وقال: أين الرأس؟ قال: رميتُ به، قال: ولِمَ؟ قال: ما ظننتُ أنك تأكلُه، ولا تسألُ عنه! قال: ولأي شيءٍ ظننتَ ذلك؟ فوالله إني لأمقتُ مَن يَرْمي برجْله؛ فكيف مَن يرْمي برأسه!

والرأس رئيس، وفيه الحواسُّ الخمس، ومنه يصيحُ الديك، ولولا صوته ما أُريدَ، وفيه عُرْفُه الذي يُتَبَرَّك به، وفيه عينُه التي يُضْرَبُ بها المثل؛ فيقال: «شرابٌ كَعيْنِ الدِّيك»، ودماغه عجبٌ لوجع الكُلْيَةِ، ولن ترى عظمًا قط أهشَّ من عظم رأسه؛ فإن كان من نُبلِ أنك لا تأكلُه فإن عندنا مَن يأكله! أو ما علمت أنه خيرٌ من طَرَف الجناح ومن الساق والعُنُق!

---

(١) العمارية: هودج يجلس فيه.
(٢) عيون الأخبار: ٣ ـ ٢٥٩.
(٣) عدملية: قديمة.
(٤) العاسي: الذي أسن حتى جف وصلب.
(٥) لا تحز: لا تقطع.

انظر أي هو! قال: والله ما أدري أين هو، رميتُ به؛ قال: لكني أدري أنك رميتَ به في بطنك، والله حسبُك!

لو عَلِمْتُ بحَالِهِ لَوَلَجْتُ عَلَيهِ![1]

قال بشرُ بن سعيد: كان بالبصرة شيخٌ من بني نَهْشل نزل ببني أخت له في سكَّة بني مازن، فخرج رجالُهم إلى ضياعهم، وذلك في شهر رمضان، وبقِيَتِ النساءُ يصلِّين في المسجد، فلم يبقَ في الدار إلا كلب يَعُس[2]، فرأى بيتًا فدخل وانْصَفَق[3] الباب، فسمِع الحركة بَعضُ الإماء، فظنوا أن لصًا دخل الدار.

فذهبتْ إحداهن إلى الشيخ، وليس في الحيِّ رجلٌ غيره فأخْبرته فقال: ما يبتغي اللصُّ منَّا؟ ثم أخذ عصاه وجاء حتَّى وقف على باب البيت فقال: إيْهِ يا مَلأمان[4]! أما والله إنك بي لَعَارِف، وإني بك أيضًا لعارف، فهل أنت إلا من لصوص بني مازن، شربتَ حامضًا خبيثًا، حتى إذا دَارت الأقداحُ في رأسك منَّتْك نفسُك الأماني، وقلت: أطرُقُ بني عمرو، والرجالُ خلوف، والنساء يصلينَ في مسجدهن، فأسرقهم، سوءةً لك! والله ما يفعل هذا الأحرار! ليس والله ما منَّتْك نفسك، فاخْرُجْ وإلا دخلتُ عليك فصدَمَتْك مني العقوبة، وايمُ الله لتخرجَنَّ أو لأهتِفَن هَتْفةً مشؤومة يلتقي فيها الحيَّان: عمرو وحَنْظَلة، ويجيء سعدٌ بِعَدد الحصى، ويسيل عليك الرجال من هٰهنا ومن هٰهنا، ولئن فعلتُ لتكوننَّ أشأمَ مولود.

فلما رأى أنه لا يجيبهُ أخذه باللين، وقال: اخرج بأبي وأمي! إني والله ما أراك تعرفني، ولو عرفْتَني لقنعت بقولي واطمأْنَنْت إليّ! أنا عروة بن مرثد؛ أبو الأعز، وأنا خالُ القومِ، وجِلْدةُ ما بين أعينهم، لا يعصونني في أمر، وأنا لك بالذمّة[5] كفيلٌ خفير، أصَيِّرُك بين شَحْمَةِ أذني وعَاتِقِي، لا تُضارّ؛ فاخرج فأنت في ذمتي، وإلا فإن عندي قَوْصَرَّتين أهداهما إليّ ابن أُختي البارُّ الوصول، فخذ إحداهما فانتبذْها حلالًا من الله تعالى ورسوله!

---

(١) عيون الأخبار: ١ ـ ١٦٧، الحيوان: ٢ ـ ٨٤.

(٢) كلب عسوس: طلوب لما يأكل.

(٣) انصفق: أغلق.

(٤) الملأمان اللئيم.

(٥) الذمة: العهد والأمان.

وكان الكلبُ إذا سمعَ الكلامَ أَطْرَقَ، وإذا سكت وثب يريد المخرج؛ فتضاحك أبو الأعز، ثم قال: يا ألأمَ الناس وأوْضعهم؛ لأرَى إلّا أني الليلة في وَادٍ وأنت في آخر، إذا قلت لك: السوداء والبيضاء تَسْكُت وتُطْرق، فإذا سكتّ عنك تريدُ المَخْرَج، والله لتخرجنَّ بالعفو عنك، أو لألِجَنَّ[1] عليك البيت بالعقوبة؛ فلما طال وقُوفًا جاءت جاريةٌ من إماء الحي، فقالت: أَعْرابي مجنون والله! ما أرى في البيت شيئًا، ودفعت الباب فخرج الكلب شدًّا، وحادَ عنه أبو الأعز، ساقطًا على قفاه! ثم قال: أما والله لو علمت بحاله لَوَلجتُ عليه!

وَعَليّ أيضًا[2]

قال أبو الحسن: كان عندنا بالمدينة رجلٌ قد كَثُر عليه الدَّيْن حتى تَوَارى من غُرَمَائِه، ولزِمَ منزله، فأتاه غريمٌ له عليه شيء يسيرٌ فتَلطَّفَ حتى وصل إليه، فقال له: ما تجعلُ لي إن أَنَا دَلَلْتُك على حيلةٍ تصيرُ بها إلى الظهور والسلامة من غُرمائك! قال: أقضيك حقَّك وأزيدُك مما عندي مما تَقَر به عينك. فتوثَّق منه بالأيمان، فقال له: غدًا قبل الصلاة مُرْ خادمك يكْنُس بابَك وفناءَك، ويرش ويبسط على دكانك حُصرًا، ويضع لك مُتَّكأً، ثم اجلس وكلُّ مَن يمرُّ عليك ويسلم تَنْبَح له في وجهه، ولا تزيدنَّ على النُّباح أحدًا كائنًا مَن كان، ولو كلمك أحد مِنْ أهلك أو خدمك أو من غيرهم أو غريم أو غيره، حتى تصير إلى الوالي، فإذا كلمك فانبح له؛ وإياك أن تزيده أو غيره على النُّباح؛ فإنَّ الوالي إذا أَيْقن أنَّ ذلك منك جدٌّ لم يشك أنه قد عرَض لك عارضٌ من مسٍّ فيُخْلي عنك.

ففعل، فمرَّ به بعضُ جيرانه فسلّم عليه؛ فنَبح في وجهه؛ ثم مر آخر ففعل مثلَ ذلك حتى تسامع غُرَماؤه؛ فأتاه بعضهم فسلّم عليه فلم يزدْه على النّباح، ثم آخر وآخر؛ فتعلَّقُوا به فرفعوه إلى الوالي: فسأله الوالي فلم يزده على النُّباح، فرفعه معهم إلى القاضي فلم يزده على ذلك؛ فأمر بحبْسه أيامًا، وجعل عليه العيون. فملك نفسَه، وجعل لا ينطقُ بحرف سوى النُّباح.

فلما رأى القاضي ذلك أمر بإخْرَاجه، ووضع عليه العيونَ في منزله، وجعل لا يَنْطقُ بحرف إلا النباح، فلما تقرَّر ذلك عند القاضي أمر غرماءَه بالكف عنه، وقال: هذا رجل به لمَم؛ فمكثَ ما شاء الله تعالى.

---

(١) ولج البيت: دخل.

(٢) الحيوان: ٢ ـ ٦٢.

ثم إن غريمَه الذي كان علّمه الحيلةَ أتاه متقاضيًا لعِدَته، فلما كلمه جعل لا يزيدُه على النباح! فقال له: ويلك يا فلان! وعليّ أيضًا. وأنا علمتك هذه الحيلة، فجعل لا يزيده على النباح؛ فلما يئس منه انصرف غير آمل فيما يطالبه به.

كَذبٌ يكَذِب!(١)

قال الجاحظ: حدّثني محمد بن يَسِير عن والٍ كان بفارس قال: بينا هو يومًا في مجلس، وهو مشغولٌ بحسابه وأَمْره، وقد احتجب جَهْده، إذ نجم شاعر من بين يديه، فأنشده شعرًا مَدحه فيه وقَرّظه ومجده. فلما فرغ قال: قد أحسنتَ ثم أقبل على كاتبه فقال: أعْطِه عشرة آلاف درهم؛ ففرح الشاعر فرحًا قد يُسْتَطار له.

فلما رأى حاله قال: وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع. اجعلها عشرين ألف درهم. وكاد الشاعر يخرج من جلْدِه! فلما رأى فرحَه قد تضاعف قال: وإن فرحَك ليَتَضاعَفُ على قَدْر تضاعفِ القول! أعطِه يا فلان أربعين ألفًا. فكاد الفرحُ يقتله. فلما رجعتْ إليه نفسه قال له: أنتَ ـ جعلتُ فِدَاك ـ رجل كريم، وأنا أعلم أنك كلّما رأيتني قد ازددتُ فرحًا زدْتني في الجائزة. وقبولُ هذا منك لا يكون إلّا من قلّة الشكر له! ثم دعا له وخرج.

قال: فأقبل عليه كاتبُه فقال: سبحان الله! هذا كان يَرْضَى منك بأربعين درهمًا، تأمُر له بأربعين ألف درهم! قال: وَيْلكَ! وتريدُ أن تعطيه شيئًا؟ قال: ومِنْ إنفاذ أمرك بدّ؟ قال: يا أحمق؛ إنما هذا رجل سرّنا بكلام وسَررْناه بكلام؛ هو حين زعم أني أحسنُ من القمر، وأشدُّ من الأسد، وأن لساني أقطعُ من السيف، وأنّ أمري أنفذُ من السِّنَان، جعل في يدي من هذا شيئًا أرجع به إلى شيء؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب؟ ولكنه قد سرّنا حين كذب لنا. فنحنُ أيضًا نسرّه بالقول، ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذبًا؛ فيكون كذبٌ بكذب، وقولٌ بقول. فأما أن يكون كذبٌ بصدق، وقولٌ بفعل، فهذا هو الخسران الذي ما سمعت به!

كدّر الله مَن كَدّر العَيش(٢)

قال الحمدوني: بعث إليّ أحمد بن حرب المهلبي في غداةٍ، السماءُ فيها مغيمة، فأتيتُه، والمائدةُ موضوعةٌ مُغَطّاةٌ، وقد وافت «عجاب» المغنّية؛ فأكلنا

---

(١) البخلاء: ١ ـ ٥٩. (٢) زهر الآداب: ٤ ـ ١٧٧.

جميعًا، وجلسنا على شرابنا؛ فما راعنا إلا داقٌّ يدقُّ الباب فأتاه الغلام؛ فقال: بالباب فلان! فقال لي: هو فتًى من آل المهلب، ظريف نظيف! فقلت: ما نريد غيرَ ما نحنُ فيه!

فأذن له؛ فجاء يتبختر، وقُدّامي قَدَحُ شراب فكسره، فإذا رجل آدم[(١)] ضخم! وتكلم؛ فإذا هو أَعْيا الناس.

فجلس بيني وبين «عجاب»؛ فدعوت بدَواة، وكتبت إلى أحمد بن حرب:

كـدّر الله عـيـشَ مـن كـدّر الـعَـيْـ ـشَ؛ فـقـد كـان صافـيًا مُسْـتـطَابَا
جـاءنـا والـسـمـاءُ تـهـطـل بـالـغَـيْـ ـثِ وقـد طـابـق الـسـمـاءُ الـشـرابا
كسر الكأس وهي كالكوكب الدُرْ[(٢)] رِيّ ضمَّت من المُدَام[(٣)] رُضَابا[(٤)]
قـلـت لَمَّـا رُمِـيـتُ مِـنـهُ بـمـا أكـ ـرَهُ، والـدهـرُ مـا أفـاد أصـابـا!
عـجَّـل اللهُ نِـقـمـةً لابـنِ حـربِ تَـدَعُ الـدارَ بـعـد شـهـرٍ خَـرَابَـا!

ودفعتُ الرقعة له؛ فقال: ألا نَفَّسْتَ[(٥)]، فقلتَ: بعد حول[(٦)]؟ فقلت: أردتُ أن أقولَ بعد يوم؛ فخِفْتُ أن يصيبني مضرَّةُ ذلك!

وفطِن الثقيل؛ فنهض، فقال: آذيتَه! فقلت: هو آذاني!

يضيف أهل الصفة ثم يضربهم[(٧)]

كان زيادُ بنُ عبد الله الحارثي واليًا على المدينة، وكان فيه بُخْلٌ وجفاء؛ فأهدى إليه كاتبٌ سِلَالًا فيها أطعمة، وقد تنوّق[(٨)] فيها، فوافقتُه وقد تَغَدّى، فقال: ما هذه؟ قالوا: غَداء بعثه فلان الكاتب! فغضب، وقال: يبعثُ أحدهم الشيءَ في غير وقته! يا خيثم بن مالك ـ يريد صاحبَ شرطته: ادعُ لي أهلَ الصُّفة[(٩)] يأكلون هذا!

---

(١) الآدم: الأسمر.
(٢) الكواكب الدري: الثاقب المضيء، نسب إلى الدار لبياضه.
(٣) المدام: الخمر. (٤) الرضاب: العسل، أو رغوته.
(٥) نفس تنفيسًا: فرج، يريد ألا فرجت عن نفسك وصبرت.
(٦) يريد: بدل شهر التي وردت في البيت. (٧) نهاية الأرب: ٣ ـ ٣٠٥.
(٨) تنوق في الأمر: تأنق فيه.
(٩) أهل الصفة: كانوا أضياف الإسلام، وكانوا يبيتون في مسجده ﷺ.

فبعث خيثم الحرسَ يدعونهم، فقال الرسول الذي جاء بالسلال: أَصْلح الله الأمير! لو أمرتَ بهذه السلال تُفْتح وينظرُ ما فيها!

قال: اكشِفُوها، فإذا طعام حسن من دَجاج وجِدَاءٍ[١] وسمك وأَخْبَصَةٍ[٢] وحَلواء! فقال: ارفَعُوا هذه السّلَال.

وجاء أهل الصُّفّة؛ فأُخْبِر بهم، فأمر بإحْضارهم، وقال: يا خيثم، اضربْهم عشرة أسواط، فإنه بلغني أنهم يحدّثون في مسجد رسول الله ﷺ!

ابن المدَبّر وَطفيلي[٣]

كان ابنُ المدَبّر قليلَ الجلوس للمُنادمة، وكان له سبعة ندماء لا يأْنَسُ بغيرهم ولا ينبسط إلى سواهم، قد اصْطَفاهم لعِشْرَته، واختارهم لمنادمته، كل رجل منهم قد انفرد بنوْع من العلم لا يساويه فيه غيرُه.

وكان طفيليٌّ يُعرَف بابن دُرّاج من أكْمل النَّاس أدبً، وأخفِّهم رُوحًا، وأشدهم في كل مليحة افتنانًا؛ فلم يزل يحتالُ إلى أن عرَف وقت جلوس ابن المدبر للندماءِ، فتزيًّا في زي ندمائه، ودخل في جملتهم، وظنَّ حاجبُه أن ذلك بعلم من صاحبه ومعرفة من أولئك الندماء، ولم ينكر شيئًا من حاله.

وخرج ابنُ المدبر، فنظر إليه بين القوم، فقال لحاجبه: اذهب إلى ذلك الرجل، فقل له: أَلَك حاجة؟ فسُقِط في يد الحاجب، وعلم أن الحيلة قد تمتْ عليه، وأن ابنَ المدبر لا يرضى في عقوبته إلا بقَتْلِه، فذهب إليه، فقال له: الأستاذ يقول لك: ألك حاجة؟ فقال: قل له: لا. فقال له: ارجع إليه فقل له: أيّ شيء أنت؟ فقال: قل له: طُفيليٌّ يرحمك الله!

فقال له ابنُ المدبر: أنت طفيلي؟ قال: نعم! أعزَّك الله! قال إن الطفيلي يُحْتَملُ دخولُه بيوت الناس وإفسادُه عليهم ما يريدونه من الْخَلْوة بندمائهم والخوض في أسرارهم لخصال، منها أن يكون لاعبًا بالشِّطْرَنْجِ، أو بالنَّرْدِ، أو ضاربًا بالعود أو الطُّنْبور!

---

(١) الجداء: جمع الجدي، وهو ولد المعز. (٢) الخبيص: طعام من التمر والسمن.
(٣) المسعودي: ٢ ـ ٤٣٤.

فقال: أيَّدَك الله! أنا أحسنُ هذه الأشياء كلِّها، قال: وفي أي وظيفة أنْتَ منها؟ قال: في العُلْيَا من جميعها!

فقال لبعض ندمائه: لا عبْه بالشِّطْرنج، فقال الطفيلي: أصلح الله الأستاذ! فإن قُمِرْت[١]؟ قال: أخرجناك من ديارنا. قال: فإن قَمرْت؟ قال: أعطيناك ألفَ درهم. قال: فإن رأيت ـ أيدك الله ـ أن تحضر الألف؛ فإن في حضورها قوة للنفس والإيقان بالظَّفر.

فأُحضرت؛ فلعبا فغلب الطفيليُّ، ومدَّ يده ليأخذَ الدراهم، فقال الحاجب لينفي عن نفسه بعضَ ما وقع فيه: أعزَّ الله الأستاذ؛ إنه زعم أنه في الطبقة العُلْيا، وابنُ فلان غلامك يَغْلبه.

فأحضر الغلام، فغلبَ الطفيليَّ، فقال له: انصرفْ، فقال: أحضروا النَّرد، فأُحضرت فلُوعب فغلَب، فقال الحاجب: ولا هذا ـ يا سيدي ـ في الطبقة العليا من النّرد، ولكن بَوَّابُنا فلان يغلبه، فأُحْضِر البواب فغلب الطفيليَّ، فقال له: اخرج، فقال: يا سيدي، فالعود؟

فأُتي بالعود، فضرب فأصاب، وغنَّى فأطرب، فقال الحاجب: يا سيدي؛ في جوارنا شيخ هاشمي يُعلم القِيَان أحذقُ منه، فأُحْضر الشيخ، فكان أطربَ منه، فقال له: اخرج، قال: فالطنْبُور، فأعطى طنبورًا فضرب ضربًا لم يَرَ الناسُ أحسنَ منه، وغنَّى غناء في النهاية، فقال الحاجب: أعزَّ الله الأستاذ؛ فلانٌ في جوارنا أحذقُ منه، فأُحْضِر فكان أحذق منه وأطيب، فقال له ابن المدبر: قد تقصَّيْنا لك بكل جهد، فأبَتْ حِرْفَتُك إلا طردَك عن منزلنا.

فقال: يا سيدي، بقي شيء! قال: ما هو؟ قال: تأمر لي بقوس بُنْدُق[٢] مع خمسين بُنْدُقة رصاص، ويقام هذا الحاجب على أربع وأرميه بها، وإن أخطأتُ بواحدة منها ضربت رقبتي. فضجّ الحاجب من ذلك، ووجد ابنُ المدبر في ذلك شفاءً لنفسه وعقوبة له على ما فرط منه في إدخال الطفيليّ إلى مجلسه. فأمر بإكافين[٣] فأحضرا، وجعل أحدهما فوق الآخر، وشُدّ الحاجب فوقهما، وأمر بالقوس والبندق فدفعا إلى الطفيلي، فرمي به؛ فما أخطأه؛ وخلّى عن الحاجب

(١) قمرت: غلبت في اللعب. (٢) البندق: الذي يرمي به، الواحدة بهاء.
(٣) الإكاف: البرذعة.

وهو يتأوّه لما به، فقال له الطفيلي: أعلى باب الأستاذ مَن يُحسن مثل هذا؟ فقال: ما دام البُرْجاس[١] اسْتِي فلا!

صناعَتهم التّطفيل[٢]

قال درّاج: قدمتُ من بغداد، فمررتُ بباب قومٍ وعندهم وَليمة، وإذا بصاحب الدار يدخلُ ويضع سلّمًا فكلما رأى إنسانًا لا يعرِفُه قال: اصعدْ يا أبي؛ فصعدتُ إلى غرفةٍ مفروشة حتى وافيتُ فيها ثلاثةَ عشر طفيليًّا، ثم رُفع السُّلم، ووُضِعت الموائد، فبقي أصحابي قد تحيّروا وقالوا: ما مَرَّ بنا مثل ذا قط؛ قلت: يا فتيان، ما صناعتكم؟ قالوا: التطفيل، قلت: فما عندكم في هذا الأمر الذي وقعنا فيه؟ قالوا: ما عندنا فيه حيلة، قلت: فإذا احتلتُ لكم حتى تأكلوا وتنزلوا تُقِرُّون أني أعلمكم بالتطفيل؟ قالوا: ومَن تكون بالله؟ قلت: أنا ابن دراج. قالوا: قد أَقررنا لك قبل أن تحتال لنا. قال: فجئتُ إلى صاحب الدار فاطلعتُ عليه والناس يأكلون وقلت: يا صاحبَ الدار؛ قال: مالَك؟ قلت: أيّما أحبُّ إليك: تصعدُ إلينا بخوانٍ كبير، نأكلُ وننزلُ أو أرْمي بنفسي، فيخرج من دارك قَتيل؛ ويصير عُرْسُك مأتمًا؟ وجعلت أُريه كأني أرْمي بنفسي، فصاح وقال: اصْبر ويلك لا تفعل! وجعل يعجِّل ويقول: هذا مجنون. وأصعدوا إلينا خوانًا، فأكلْنا ونزلنا.

اصبرُوا عَلَيَّ إلى غَدٍ[٣]

ادّعى مُدّعٍ النبوة، فطُلب ودُعي له بالسَّيف والنِّطع؛ فقال: ما تَصْنعون؟ قالوا: نقتُلك، قال: ولِم تقتلونَني؟ قالوا: لأنك ادّعيتَ النبوة، قال: فلستُ أدّعيها، قيل له: فأيُّ شيء أنت؟ قال: أنا صِدّيق، فدُعِي له بالسِّياط، فقال: لم تَضْربونني؟ قالوا: لادّعائك أنك صدِّيق، قال: لا أدَّعي ذلك، قالوا: فمن أنْتَ؟ قال: من التابعين لهم بإحْسان، فدعى له بالدِّرَّة[٤]، قال: ولِمَ ذلك؟ قالوا: لادعائك ما ليس فيك، فقال: ويحكم! أدخل إليكم وأنا نبيّ تريدون أن تحطّوني في ساعة واحدة إلى مرتبة العوامّ! اصبروا عليّ إلى غدٍ حتى أصيرَ لكم ماشئتم!

---

(١) البرجاس: غرض في الهواء على رأس رمح أو نحوه.

(٢) التطفيل: ٦٢.

(٣) نهاية الأرب: ٤ ـ ١٦.

(٤) الدرة بالكسر: التي يضرب بها.

هُوَ خَيْرُ الناسِ مَهْمَا يفعَل(١)

حدّث رجلٌ من عامر بن لؤيّ، قال: كان صبيٌّ منا ترك له أبوه غَنمًا وعبيدًا؛ فخرج يومًا، فنظر إلى جاريةٍ في خبائها فهَوِيها، ومال إلى أمها، وسألها أن تزوّجَها منه، فقالت: حتى أسألَ عن أخلاقك.

فسأل عن أقرب الناس إليها، فدُلَّ على شيخٍ كان معروفًا بحُسْن المَحْضَر. فأتاه وسلَّم عليه، وقال: ما جاء بك؟ فأخبره! فقال: لا عليك! فإنَّ العجوز غيرُ خارجةٍ من رأيي، فامْضِ إلى منزلك، وأقِمْ يومًا أو يومَيْنِ، ومُرْ بغنمك أن تُسَاقَ، ونادِ في أهلك: أَمَا مَن أَراد أن يحلُبَ فليَأْتنا! ودَعْني والأمر!

فشاع الخبرُ، فخرجت العجوز مع مَنْ خرج، والشيخُ مع القوم، فنظر إلى الشابّ، وقد كانت العجوز قد أخبرتْه بشأْنِه، فقال: هو هو! فقالت: نعم! قال: لقد حُرِمتِ حظَّكِ! قالت: إني أريد أن أسألَ عن أخلاقه. قال: أنا ربيتُه. قالت: فكيف لسانُه؟ قال: خطيبُ أهله، والمتكلم عنهم. قالت: فكيف سماحتُه؟ قال: ثِمَالٌ(٢) في قومه، وربيعهم! قالت: فكيف شَجَاعته؟ قال: حامي قومه والمدافعُ عنهم!

قال: فطَلَع الفتى، فقال: أما ترين ما أحسن ما أقبل! ما انْحنى ولا انثنى!

فلما قرب سلّم، فقال: ما أحسن ما سلّم! ما حار ولا ثار. ثم استوى جالسًا، فقال: ما أحسن ما جلس! ما ركع ولا عجز. قالت: أجل! فذهب يتحرك فضرط، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما ضرط، ما أَظَنَّها ولا أغنّها ولا نَفَخَها ولا تَوْتَرَها(٣). فنهض الفتى خَجِلًا، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما نهض! قالت العجوز: أَجَلْ والله! فَصِحْ به ورُدَّه، فوالله لنزوِّجْنَاه ولو فعل أكثرَ مما فعل!

طفَيلِي في عرس(٤)

دخل طفيلي عُرسًا فلم يقدر على الدخول، فأخذ قرطاسًا وأَدْرَجَه(٥)، ولم يكتب فيه شيئًا، وسأل عن العروس: هل له قريب غائب؟ فقيل: أخوه.

---

(١) المحاسن والمساوىء: ٦٤٣ (طبع ليبزج). (٢) الثمال: الغياث الذي يقوم بأمر قومه.
(٣) التترتر: التزلزل والتقلقل. (٤) ذيل زهر الآداب: ٢٨٠.
(٥) أدرج الكتاب: طواه.

فكتب عُنوان الكتاب من فلان ابن فلان أخيه. وجاء فدقَّ الباب، وقال: معي كتابٌ من أخي العروس. فخرج العروس مبادرًا فأدْخَلَ وأحْضَرَ له الطعام؛ فلما قرأ العنوان قال: سبحان الله! تراه نَسِيَ اسمي إذ لم يكتبْه على الكتاب! فقال الطفيلي: وأعجبُ من هذا أنه لم يكتب داخلَه شيئًا من العجلة! فعلم مراده وأدخله!

طفَيلي محَدِّث(١)

قال أبو عمرو نصر بن عليّ: كان لي جار طفيليّ، وكان من أحسنِ الناس مَنْظرًا، وأعذبهم منطقًا، وأطيبهم رائحة، وأجملهم لباسًا، وكان من شأنه معي أني إذا دعيتُ إلى مَدْعاة(٢) تبعني، فيكرمه الناس من أجلي، ويظنون أنه صاحبٌ لي؛ فاتفق يومًا أن جَعفر بنَ القاسم الهاشميّ أميرَ البصرة أراد أن يَخْتن بعض أولاده، فقلت في نفسي: كأني برسول الأمير قد جاء، وكأني بهذا الرجل قد تبعني، والله لئن تبعني لأفْضحنَّه!

فأنا على ذلك إذ جاء رسولُه يدعوني، فما زدتُ أن لبستُ ثيابي وخرجت، وإذا أنا بالطفيلي واقفٌ على باب داره، وسبقني بالتأهب فتقدمتُ وتبعني؛ فلما دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة، ودعا بالطعام، وأحضرت الموائد وكان كلُّ جماعة على مائدة لكثرة الناس، فقدِّمت إليَّ مائدة والطُّفيلي معي، فلما مَدَّ يده، وشرع في تناول الطعام قلت: حدَّثنا نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن دخل دار قومٍ بغير إذنهم فأكل طعامهم دخل سارقًا، وخرج مُغِيرًا».

فلما سمع ذلك قال: أنِفتُ لك والله أبا عمرو من هذا الكلام! فإنه ما مِنْ أحدٍ من الجماعة إلا وهو يظنُّ أنك تعرض به دُونَ صاحبه، أو لا نَسْتَحِي أن تتكلم بهذا الكلام على مائدة سيِّد مَنْ أطعم الطعام، وتبخل بطعام غيرك على مَنْ سواك! ثم لا تستحي أن تحدث بهذا الحديث وهو ضعيف، وتحكم برفعه إلى النبيّ ﷺ، والمسلمون على خلافه! لأن حكم السارق القطع، وحكم المغير أن يُعزّر على ما يراه الإمام، وأين أنت عن حديث حدَّثناه أبو عاصم النبيل عن ابن جريج عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «طعامُ الواحد يكفي الاثنين، وطعام

---

(١) التطفيل للبغدادي: ٦٦.

(٢) المدعاة: الدعوة.

الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية». وهو إسنادٌ صحيح ومَتْنٌ صحيح!

قال نصر: فأفحمني فلم يحضرني له جواب، فلما خرجنا من الموضع للانصراف فارقني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي، وسمعته يقول:

ومن ظن مِمَّن يلاقي الحروب بـأَلَّا يـصـاب فـقـد ظـنَّ عَـجْـزَا

فهرس المحتويات

الباب الأول

قصص محاسن الأخلاق

الباب الثاني
قصص مساوىء الأخلاق

الباب الثالث